

شعراء أعلام

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

ابراهيم طوقان

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي



ابراهيم طوقان
حياته وشعره



الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان
وسط البلد - بجانب مطعم القدس
هاتف: ٤٦٣٨٦٨٨، فاكس: ٤٦٥٧٤٤٥
ص.ب: ٧٧٧٢ عمّان/الأردن
e-mail: alahlia@nets.jo

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٨
حقوق الطبع محفوظة

ابراهيم طوقان
حياته وشعره

إعداد
يوسف عطا الطريفي

*All rights reserved, No part of this book may be reproduced
in any form or by any means without the prior permission of
the publisher*

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر.

شعراء أعلام

ابراهيم طوقان

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي



الأممية



بقلم: المهندس جعفر إبراهيم طوقان

والدي بالنسبة لي شخصية تجريدية، أعرفه من صورته التي تحتل زوايا في منزلي. أعرفه من صوته، من خلال تسجيل قديم له في إذاعة فلسطين، وللأسف ضاع هذا التسجيل. أعرفه من أشعاره، وأعرفه من خلال أحاديث أمي وجدتي وأفراد عائلتي الآخرين الذين عاصروه.

فارق عائلته الصغيرة بعد أربع سنوات من تكونها، ولم تكن لي ولشقيقتي عريب ذاكرة تعي صورته أو شخصيته، لهذا هنالك خبرات حياتية معينة افتقدها. فأنا لا أعرف إطلاقاً علاقة الابن بأبيه من زاوية نظر الابن.

من خلال معرفتي التجريدية لإبراهيم، استطعت أن أكوّن صورة فيسفسائية لهذا الرجل، مكونة من حكايات صغيرة، كل واحدة منها جميلة بحد ذاتها، وكل مجموعة منها تحكي قصة متسلسلة. تحكي عن الجمال وتحكي عن الحب، حب الوطن وحب الآخر وحب الخالق وحب الحياة. وبمجمّلها تشكل هذه الفسفساء، صورة إنسان رائع عشقته. لعل معرفة الإنسان بالقلب والعقل تكون دائماً أعمق وأصدق من معرفته بالعين، لكنني لا أخفيكم أنني أيضاً أفتقد معرفته بالعين بالرغم من قصورها.

بعد بضعة سنوات من وفاة إبراهيم، بدأت أعي بعض الجوانب الحسية من حياته، لقد عشت سنوات ما قبل الجامعة في نفس البيت الكبير القديم في قلب نابلس القديمة، ولم يكن قد تغير كثيراً عن وضعه أيام كان إبراهيم يعيش فيه. كتبت فدوى في «أخي إبراهيم»: «كان إبراهيم لعباً إلى حد بعيد، لا يقتصد إذا أخذ بسبب من أسباب العبث واللعب؛ وكأنها كانت نفسه تضيق بإهابه فلا يهدأ، ولا يستقر... ويتسلق إحدى شجرات

النارنج التي تمتلئ بها ساحة الدار؛ وهناك يأخذ مكانه بين الفروع الغليظة الصلبة». عندما قرأت هذه الفقرة، كدت أراه يتسلق شجرة النارنج تلك، طفلاً لعبواً مرحاً ذكياً شديد الملاحظة.

في كل زاوية من زوايا كلية النجاح، حيث درس ودرّس ودرست، كانت هنالك تذكارات حميمة منه، زملاؤه، طلابه، أناشيده وقصائده، «موطني» كانت معنا كل صباح.

وعندما ذهبت إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، عشت في غرفته ونظرت من الشباك الذي كتب منه «بكوري عند شبّاكي - لانشق طيب رياكي».

وأضيت جزءاً كبيراً من حياتي في الجامعة في المكتبة وبين غريراتها المنتقبات بجهالهن حسب رأي إبراهيم.

وعشت بيروت بجهالها وإيقاعها الراقص، وبنبضها الثقافي والفني الحر الدافق، بيروت التي شكلت فصلاً رئيسياً وهاماً من حيات إبراهيم.

إن كل عمل بحثي أدبي كذلك الذي يقوم الأستاذ الكاتب يوسف الطريفي، يكون بالنسبة إلى نفسي قطعة فسيفساء جديدة تضيف وضوحاً إلى صورة إبراهيم في ذهني وفي قلبي.

جعفر إبراهيم طوقان

2007 / 4 / 5

إبراهيم طوقان.. شاعر الجامعة.. شاعر الوطن.. شاعر المدرسة.. شاعر فلسطين. الشاعر القائد، الذي ضاق ذرعاً مما حاكه المستعمر لوطنه، ومما شاهده من عبث العابثين بوطنه، بكى وتألّم ثم جأ بالشكوى، تأجج صدره فثارت شاعريته. ترجم أحاسيسه ومشاعره، فغنى للوطن، وحافظ على القيم. وسجل قضية بلاده، فكان صادقاً مع نفسه.

عرفت إبراهيم طوقان من خلال شعره وأنا طالب في المدرسة، حين ألقيت قصيدته «الشهيد» وحين كنا في الطابور الصباحي ننشد «موطني» حيناً، ونرددّها في الشارع حيناً آخر. وعرفته وأنا معلم حين درست «الثلاثاء الحمراء» و«ملائكة الرحمة»، و«الحبشي الذبيح». وتوطدت علاقتي به دون أن أراه أو أن أعيش معه بالجسد حين قرأت ديوانه، وكأنني كنت معه دائماً، مما دفعني الآن أن أدخل في عالمه، فوجدته يشع بشعره نوراً، ويرتفع علماً، ويبرز شاعراً.

وهذا ما زاد من شغفي بالبحث في حياة عَلم من أعلام الشعر، حيث طرق أغراضاً متعددة، من أهمها كان شعره الوطني، وشعره السياسي، وغزلياته الشعرية وشعره الاجتماعي، وشعره التعليمي. ثم عرجت على جماليات ديوانه ومعارضاته ونقائضه. وأثبت في الكتاب قصائد لم تنشر في ديوانه، وأحاديث إذاعية نمّت روح الوطنية بين طلابه وإخوانه، وكذلك رسائل تعليمية وأدبية ونقدية.

وفي مساء يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر شباط لعام ألفين وسبعة تشرفت بمقابلة ابنه المهندس جعفر في مكتبته، وقدم لي بعض ما يجهله الناس عن حياة والده مما سمعه من أقربائه، كما أهداني صورة لوالده وصورة لعائلته ربما كانت آخر العهد بالشاعر المرحوم إبراهيم طوقان، وإكراماً لشاعرنا فقد صدرت كتابي بالصورتين، وبمقدمة زينت

الصفحات الأولى من هذا الكتاب. هذا وقد أثبت في صدر الكتاب أيضاً مقدمة أخرى بقلم شقيقه أحمد طوقان وهو يتحدث عن كيفية طبع ديوان الشاعر زيادة في الفائدة. وأثبت كذلك «أخي إبراهيم» للشاعرة والأديبة فدوى طوقان، راجياً أن أكون قد قدمت ما أملت من تأليف الكتاب، وتقديمه للدارسين والباحثين إحياءً لشعر شاعر فلسطين إبراهيم طوقان.

والله ولي التوفيق.

يوسف الطريفي

هذا الديوان

بقلم: أحمد طوقان

هذا هو ديوان أخي إبراهيم، أضعه بين يديك أيها القارئ الكريم، بعد أن ساعدت الظروف على نشره، غير مدّع فضلاً في جمعه ولمّ شتاته، فقد كفاني المرحوم إبراهيم مشقة الجمع وعناء البحث بين مفرق الأوراق.

أما السبب في تأخير نشر الديوان حتى هذا العام، فهو أن المرحوم إبراهيم قد اختاره الله إلى جواره في اليوم الثاني من شهر مايس سنة 1941 ميلادية أثناء الحرب العالمية الثانية، أيام كانت الطباعة مراقبة، والأفواه مكبوتة، فأثرت الانتظار، حتى يبذل الله حالاً بحال. ثم وضعت الحرب أوزارها، ودخلنا نحن أهل فلسطين في صراع كانت أيامه أشد هولاً علينا من أيام الحرب. ثم كانت نكبة العرب في فلسطين، وكانت الكارثة التي أذهلت الناس وشغلتهم عن كل شيء سواها.

قلت إن إبراهيم، رحمه الله ونددى ثراه، قد كفاني مؤونة جمع الديوان، ذلك لأنه جمع ديوانه بنفسه قبل أن يفارق دار النكد والفناء إلى دار النعيم والبقاء، وإنك لتجد بين مخلفاته دفاتر متعددة، كتبت في مناسبات متفاوتة في القدم. فهذه قصيدة أثبتت في المجموعة الأولى، فمر عليها قلمه في مناسبة أخرى فحذفها وكتب عليها (قصيدة مفككة الأوصال باردة العاطفة)، وتلك قصيدة أخرى حذفها بدون تعليق، لاعتقاده أن المناسبة التي قيلت فيها لم تكن بالمناسبة التي تستحق الخلود. ثم نقل رحمه الله، تلك المجموعة المنقحة مرة أخرى. ولم تنج هذه المجموعة الثانية أيضاً من قلمه، بل أعمله فيها فحذف ما حذف، وأثبت ما أثبت. أما ما استطالعه في هذا الديوان، فهو بعينه ما كان سيطلع به علينا المرحوم

إبراهيم لو مدّ الله في أجله، وأشرف بنفسه على طبع ديوانه. وأما مجهودي، إن جاز لي أن أسميه مجهوداً لضالته، فهو أني قد وضعت بعض الحركات لتسهيل معها قراءة الشعر، وزدت أسطراً شرحت بها بعض المناسبات لمنفعة أولئك الذين لم يعاصروا القضية الفلسطينية منذ نشأتها. فإن وجدت أيها القارئ نقصاً فإبراهيم بريء منه، فما كان النقص ليبقى لو أشرف، رحمه الله، بنفسه على طبع ديوانه.

وبعد، فهذا هو (ديوان إبراهيم)، يثير نشره اليوم شجناً، ويجدد حزناً، ورحم الله من قال:

وكنّا إذا ينأى به بين ليلة	يظل على الأحشاء من بينه الجمر
وهذا إذا كان الفراق لليلة	فكيف لبين كان موعده الحشر

أخي إبراهيم

بقلم: فدوى طوقان

لا أحبَّ إليَّ من ساعة أخذ فيها مجلسي من أمي، فتحدثني عن طفولة شقيقي إبراهيم رحمه الله؛ ويا له شعوراً حزيناً، يتسرب في شعاب قلبي، حين تفتتح حديثها عن إبراهيم بهذه الديباجة التي تفعم نفسي بالرحمة لها، والحسرة عليه: «لقد بلوت في إبراهيم الحلو والمر، ولقيت فيه من الحزن وطارقات الهموم، أضعاف ما لقيت فيه من السعادة والهناء..» وتترقق في عيني كل منا دمعة؛ وتعتلج في صدر كل منا لوعة؛ ثم تشرع هي، في حديثها عن طفولة إبراهيم، وقد أقبلت عليها بحواسي وقلبي وروحي جميعاً.

كان إبراهيم لعباً إلى حد بعيد، لا يقتصد إذا أخذ بسبب من أسباب العبث واللعب؛ وكأنما كانت نفسه تضيق بإهابه فلا يهدأ، ولا يستقر. وهو في أحيان كثيرة على خلاف مع جدته لأمه، رحمها الله، إذ كان على وفاق مع طبيعته المرححة اللعوب. كان يعرف نزق جدته وضيقتها بالضجة والحركة، فلا يألو جهداً في معابشتها واستفزازها، وذلك لكي تزجره وتستهره برطانيتها التركية التي كانت تخالطها من هنا وهناك كلمات عربية، لا تستقيم لها مخارج بعض حروفها فتأتي ملتوية عوجاء، تبعث إبراهيم على الضحك؛ ولقد تهمَّ الجدَّة باللحاق به، فيفر منها.. ويتسلق إحدى شجرات النارج التي تمتلئ بها ساحة الدار؛ وهناك يأخذ مكانه بين الفروع الغليظة الصلبة، وينتهي الأمر بينهما عند هذا الحد. ثم يشرع، وهو في مقعده ذاك من الشجرة، يترنم بالأهازيج الشعبية التي كانت تروقه وتلذه كثيراً.

وإنني لأمثل في خاطري، ذلك الشيخ الوقور، جدي لأبي، رحمه الله متربعا في كرسيه، مشتملاً بعباءته، وإلى جانبه حفيده الصغير إبراهيم، يتقارضان من الشعر والزجل (والعتابا) ما يعيه قلباهما.

وإنني لأمثل إبراهيم في خاطري كما يصورونه لي، واقفاً أمام جدّه يرتجل ما ينقدح عنه فكرة الصغير يومئذ، من قول يرسله في وصف حادث حدث في البيت، فيه نكتة، أو طرافة... وذلك في عبارات تكاد تكون موزونة مقفاة، يقلد فيها ما كان يستظهره في المدرسة من شعر؛ أو ما يعيه قلبه من قصص «عنترة» و «أبي زيد الهلالي» و «سيف بن ذي يزن»؛ تلك التي كثيراً ما أصغى إلى أمه وهي تقرأها لجدّه لأبيه، في أمسيات الصيف الجميلة، أو في ليالي الشتاء الطويلة.

كان ذلك التقليد من إبراهيم لأسلوب الأشعار التي يحفظها في المدرسة. ولأسلوب القصص التي يسمعاها تقرأ في البيت، يملأ نفس الجد غبطة، ويفعمها بهجة، فيأخذ حفيده إليه، ويحتويه بين ذراعيه، ويقول له بلهجة المعجب المتعجب: «... من أين تأتي بهذا الكلام يا إبراهيم!»، ثم يأخذ كيس نقوده من جيبه، ويتناول منه قطعة، يقبضها إبراهيم، وينطلق بها مرحاً خفيفاً، كأنه طيف من الأطياف.

على مثل تلك المقارضات والمساجلات، وعلى مثل هذه المحاولة الصبائية لقول الشعر، التي كانت تروق الجدّ، بما فيها من تسلية لشيخوخته، والتي كانت تستهوي الحفيد، بما فيها من إشباع لفطرة شعرية كامنة فيه، نشأ إبراهيم أول ما نشأ.

وفي هذه الأثناء أيضاً كان إبراهيم يبعث بالعجب والطرب معاً في نفس معلمه، إذ يقف أمامه وقفته الخاصة كلما قام لينشد الشعر في درس الاستظهار، سواء أكان ذلك الشعر عربياً أم تركياً؛ فيلقيه إلقاءً موسيقياً جميلاً، ينبعث له طرب المعلم، فيشرع، وهو المعلم الوقور، ينقر بأصابعه على المكتب نقرات إيقاعية؛ تسير ذلك الإلقاء الرائع الذي كان يزيد في روعته صوت خلاب أسر، عرف له في مواقفه الخطابية فيما بعد.

كانت (المدرسة الرشادية الغربية) حيث تلقى إبراهيم دروسه الابتدائية تنهج في تعليم اللغة العربية نهجاً حديثاً لم يكن مألوفاً في مدارس نابلس في العهد التركي. وذلك بفضل بعض المدرّسين النابلسيين الذين تخرجوا في الأزهر، وتأثروا في مصر بالحركة الشعرية والأدبية التي كان يرفع لواءها شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر وأدبائها. هؤلاء المدرّسون، أشاعوا في المدرسة روح الشعر والأدب الحديثة، وأسمعوا الطلاب

للمرة الأولى في حياتهم الدراسية قصائد شوقي وحافظ ومطران وغيرهم، وفتحوا أذهانهم على أسلوب إنشائي حديث، فيه رونق، وفيه حياة؛ يختلف اختلافاً كبيراً عن ذلك الأسلوب القديم الذي كان يُنتهج في المدارس في نابلس، والذي لم يكن ليخرج عن كونه أسلوباً تقليدياً عقيماً، لا تأثير له، ولا غناء فيه.

من هؤلاء المدرسين المجددين، المرحوم الشيخ إبراهيم أبو الهدى الخماش؛ وكان جريئاً صريحاً، ذا نزعة عربية صميمة، ومبادئ وطنية قومية، يحجر بها ويبيها في النفوس عن طريق خطبه وتدرسه ومجالسه؛ وذلك في عهد كان الجهر فيه بمثل تلك المبادئ، يوفي بأهله على المهالك. وقد التحق فيما بعد بالثورة العربية، تحت لواء المغفور له الملك فيصل.

ومن هؤلاء المدرسين أيضاً، صاحب الفضيلة، الشيخ فهمي أفندي هاشم قاضي قضاة شرقي الأردن في وقت مضى.

أمضى إبراهيم أربع سنوات في هذه المدرسة، هي سنوات الحرب العظمى؛ وانتقل على أثر الاحتلال الإنكليزي مباشرة، إلى مدرسة المطران في القدس، وله من العمر أربعة عشر عاماً.

وهنا نعرض لشخصية تعرف بها إبراهيم في القدس، فكان لها انطباع في نفسه في ذلك الحين، تلك هي شخصية المرحوم الأستاذ نخلة زريق، وكان هذا متأثراً باليازجيين، واسع الاطلاع على الآداب الإسلامية العربية، شديد التعصب للغة، شديد الوطأة على كل عربي متفرنج يتهاون في لغته أو عربيته؛ وكان ذا شخصية قومية، لا بد من أن تترك في أعماق من تعرف بها، أثراً منها.

كان المرحوم نخلة زريق مدرّساً للغة العربية في (الكلية الإنكليزية) في القدس؛ فتح عيون طلابه على كنوز الشعر العربي، وحبّتها إليهم؛ ولقد كان إبراهيم، وهو في مدرسة (المطران) يأخذ من شقيقه أحمد - وكان طالباً في الكلية الإنكليزية - منتخبات الشعر القديم والحديث، مما يختاره المرحوم نخلة زريق لطلابه، فيستظهرها جميعاً؛ وعن طريق أحمد؛ تعرّف إبراهيم بذلك المدرس الأديب، فكانا يزوران معاً في بيته الذي كان محجة العلماء والأدباء في القدس؛ ويصغي إليه وهو يتدفق في حديثه عن الأدب والشعر، والعرب والعروبة.. مما كان له شأن في إيقاظ وعي إبراهيم على مؤثرات أدبية وقومية أخرى.

وإذ أتم أحمد دراسته في الكلية الإنكليزية، وتوجه إلى الجامعة الأميركية في بيروت، ظلت تلك الأسباب موصولة بين إبراهيم وبين المرحوم نخلة زريق، ولكن لمدة قصيرة، إذ توفي الثاني سنة 1920.

في هذه الفترة من الزمن، كان إبراهيم يحاول أن يقول الشعر الصحيح، فتلتوي عليه مسالكه، ولا يفلح فيه، إذ لم يكن قد درس علم العروض بعد.

وفي العطلة المدرسية، يعود أحمد من بيروت، ويلتقي الشقيقان في نابلس وقد حمل أحمد لإبراهيم، ما حصله هناك من علم العروض، ويشرح له تفاعيل الأبحر الشعرية ويوقفه على أصول القوافي؛ فيستوعب الشاعر المنتظر كل أولئك جميعاً، وكأنها فتح له فتح في دنيا الشعر التي كان يتشوق إليها ويعقد آماله ومطامحه عليها.

وعلى أثر ذلك، يبدأ إبراهيم يقرزم الشعر قرزمة، ويقول في المناسبات التي تعرض له، والأحوال التي تمر عليه في مدرسة المطران مما يوحي به الجو المدرسي، بما فيه من جد وهزل.

وفي مجموعة أشعاره التي نظمها خلال عاميه الأخيرين في مدرسة المطران، نحس بالشاعرية الكامنة التي كانت تأخذ عدتها، لتستعلن بعد حين قصير في شعره القوي، كما نلمس تلك الروح الوطنية المشتعلة التي أشربها منذ الصغر، والتي أذابها فيما بعد، في شعره الوطني.

وفي سنة 1923 نشر إبراهيم لأول مرة إحدى قصائده، ويقول إبراهيم بهذا الشأن:

«... لعلها أول قصيدة نشرت لي في صحيفة. رحم الله عمي الحاج حافظ! قرأها، فأبدى إعجابه بها (على سبيل التشجيع) وطلب إليّ أن أبيضها لينشرها في الجريدة! في الجريدة؟ شيء يطيش له العقل؛ فأسرعت إلى تلبية طلبه، وعينت بكتابتها قيراطاً، وبوضع اسمي تحتها ثلاثة وعشرين قيراطاً... ثم أتيت بها إليه، قال رحمه الله: «أتضع اسمك هكذا: إبراهيم طوقان؟ لا يا بني! يجب أن تضع اسم الوالد أيضاً، إبراهيم عبدالفتاح طوقان، اعترافاً بفضله عليك، وبرّه بك...» أدب أذنبني به عمي رحمه الله، لا أعلم أنني وقّعت اسمي بعد ذلك إلا تذكرت قوله وعملت به في كل أمر ذي بال أردت نشره».

ولقد كان من أكبر الأسباب التي أعانته على أن يقول الشعر فيجيده بالقياس إلى صغر سنّه، هو كثرة حفظه للشعر المنتخب، واحتفاله الكبير بالقرآن الكريم، فقد كان كثير التلاوة له، عميق النظر فيه. وأما ذلك الاحتفال منه بكتاب الله، فإنه يرجع بدواعيه وأسبابه إلى بيئته في البيت، يغني أصحابها بتنشئة أطفالهم على تلاوته والتشبع بروحه. ولم ينفك إبراهيم منذ صغره يقرأ القرآن، ويطيل التأمل فيه، حتى أصبح له ذلك ديدناً، لا يعوقه عنه عائق، ولا يصرفه عنه تقلبه في مختلف معاهد العلم الأجنبية فيما بعد. ولم تكن

تلاوة القرآن الكريم تلاوة سطحية عابرة، بل كان يتجه إليه بقلبه وروحه، ويحس له في نفسه وقعاً عجيباً، وأثراً بعيداً، فيهزه إعجازه هزاً، وتفعل فيه بلاغته فعل السحر، ويستولي عليه خشوع عميق، يصرفه عن كل ما يحيط به.

انتهى إبراهيم من تحصيله في مدرسة المطران، سنة 1922-1923 وانتقل إلى الجامعة الأميركية في بيروت. وهنا تبدأ أخصب مراحل حياته الدراسية، أو أكثرها ألواناً.

فها هو في بيروت، يظله أفق أدبي واسع لا عهد له بمثله في فلسطين. هنالك الأدباء والشعراء، وهنالك الدنيا براقه خلوب.. وهنالك بعد ذلك، السهم الذي كان ينتظره، منجذباً عن وتره إلى آخر منزع؛ يتربص به الفرص، لينغذه في قلبه الذي لم يكن قد مسّه الحب بعد..

في هذه الجامعة، يعرفه شقيقه أحمد بأحد أصدقائه من الطلاب، وهو (سعيد تقي الدين)؛ وسعيد، من أولئك الذين يتذوقون الشعر، ويميزون بين صحيحة وزائفة تمييزاً صائباً؛ فيلمح هذا في شعر إبراهيم بارقات وصوراً شعرية، تلوح من هنا، وتستتر من هناك. وتساند أحمد وصديقه سعيد، وبدءا يوجهان إبراهيم التوجيه الصحيح في عوالم الشعر ودنياواته الرحبية الجميلة.

وفي عامه الدراسي الثاني في الجامعة، وكانت شاعريته قد بدأت تزخر وتمتلئ، لتنبثق عن معينها بعد أن أخذت عدتها من هذه الصناعة الدقيقة، صناعة الشعر، نظم إبراهيم قصيدته في الممرضات، أو (ملائكة الرحمة)، فكانت أول قصيدة لفتت إليه الأنظار في لبنان.

ففي هذا العام (1924) مرض إبراهيم، واضطره ذلك إلى العودة إلى نابلس، قبل انتهاء الفصل الدراسي الأول. وفي أثناء مرضه نظم تلك القصيدة، ونشرها في جريدة (المعرض) التي كانت تصدر يومئذ في بيروت فإذا العيون تتطلع إلى هذا الشاعر الناشئ، الطالب في الجامعة، وإذا بالصحف تنقلها. نقلتها مجلة (سركيس) عن (المعرض) وعلقت عليها بقولها: «ولعله أول من نظم شعراً عربياً في هذا الموضوع». وطلبت القصيدة من قبل مجلة (التمدن) في الأرجنتين، وأهديت إليه المجلة سنة كاملة، وكان مما علقت عليها قولها: «ولو كان كل ما ينظمه شعراؤنا في هذا الباب من هذا النوع، لكان الشعر العربي في درجة عالية من القوة والفتوة» ونقلتها جرائد ومجلات أخرى، وكلها تطري الشاعر، وتشجعه.

أما هذه القصيدة، فهي وإن تكن قد قيلت في موضوع المرضات، غير أن قسماً كبيراً منها، كان في وصف الحمام؛ تلك الطيور الوديدة، التي كان يغرم بها إبراهيم، ويعنى باقتنائها وتربيتها، أيام صباه. وتحذني أمي، كيف كان وهو طفل ينجذب إلى هذا الطائر انجذاباً خاصاً، ويتأمله محوماً رائحاً غادياً؛ وكيف كان إبراهيم إذا وقف كل صباح ليغتسل على حوض الماء الذي يقوم في صحن الدار، أطال هناك الوقوف، مستغرقاً في تأمله لأسراب الحمام، وقد حفت بالماء تغتسل وتعبث بريشها، فلا يزال على وقفته تلك، إلى أن ينبهه والده إلى إبطائه على المدرسة.

وهكذا يمضي إبراهيم في طريق النظم، وكانت نشوة توفيقه في قصيدة (ملائكة الرحمة)، قد أفعمته بالزهو والخيلاء كما يقول، إلى أن تلقاه درساً أليماً، أوحى إليه يومئذ بقصيدة عنوانها: «عارضني نوحى بسجع» وفيها تنعكس حالته النفسية الثائرة، التي ترجع بأسبابها إلى الدرس الأليم الذي تلقاه.

يقول إبراهيم بهذا الصدد: «كنت قد توفقت في قصيدة ملائكة الرحمة، وسمعت كثيراً من كلمات الإعجاب بها؛ فخیل إليّ أن كل قصائدي في المستقبل، ستكون مثلها مدعاة للإعجاب! وأخذت في نظم قصيدة غزلية، وأنا مفعم بزهوي وخيالي؛ وأخذت أغوص على المعاني، وأنفنن بالألفاظ!!.. وكان يشرف على نشأتي الأدبية اثنان من الزبانية هما أخي أحمد، وسعيد تقي الدين، فهرعت إليهما لأسمع إعجابهما وأنتشي به، وتلوت عليهما القصيدة، وظفرت بالإعجاب!.. وتركاني، وعادا إليّ بعد قليل. قال أحمد: «أخي أنا لا أفهم القصيدة جيداً حين تتلى عليّ؛ أريد أن أقرأها بنفسي». فناولته القصيدة، ودنا رأس سعيد من رأس أحمد، وشرعا في قراءة صامتة، ثم كانت نظرات تبادلاها، أحسست منها بمؤامرة.. وإذا بالقصيدة تُمزّق، وإذا بها تنسف في الهواء. قال أحمد: هذه قصيدة سخيفة المعنى، ركيكة المبني؛ قال سعيد: ليس من الضروري أن تنظم كل يوم قصيدة! قال أحمد: كلها تكلف وحذقة! قال سعيد ليهوّن أثر الصدمة: لا بأس بها، لكنها لا شيء بالنسبة إلى قصيدة ملائكة الرحمة، اعمل كل سنة قصيدة مثل ملائكة الرحمة، وكفاك.. قال أحمد.. وقال سعيد... ولكن كان رأسي بين أقوالهما كأنه في دوار، ولم أتمالك عن البكاء، وتركتها حانقاً ناقماً. وبعد ساعة كان سعيد فوق رأسي - وأنا لا أدري - يتلو أثر تلك الصدمة في قصيدي: «عارضني نوحى بسجع». فاخطفها، وعاد إليّ بها في الصباح، وعليها الجملة الآتية بقلم عمّه الشيخ أمين تقي الدين: «روح شاعرة، ليتها في غير معاني اليأس، فالشباب واليأس لا يلتقيان، أما النظم، فيبشر بمستقبل فيه مجيد».

«قسوة وعنف، أفاداني أن أكون مع نفسي بعدئذ قاسياً عنيفاً، أمزق القصيدة حين أشعر بالتكلف يدب فيها، وأن أفق موقف الناقد الهدام، أحطم شعري بيدي، أو أبديه وأنا راضٍ عنه، ضامن رضا قارئه أو سامعه. أحمد وسعيد ليسا من الزبانية؛ إنها ملكان كريهان! جزاهما الله عني خيراً».

ونعود إلى ما بدأنا به من الحديث عن أيام إبراهيم في بيروت فنقول: مضت عليه سنوات ثلاث في الجامعة، بلغ في نهايتها الثانية والعشرين، وقد قعد به المرض خلالها عن إتمام دراسته في الصف الأول العلمي، فانتقل إلى نابلس، ثم عاد في العام الذي تلا ذلك إلى الجامعة. وكان في هذه السنوات الثلاث لا ينقطع عن قول الشعر. وفي سنة 1925 نشرت له جريدة (الشورى) في مصر نشيداً وطنياً لتحية المجاهد الأمير عبد الكريم الريفي. فلما أطلع الشاعر الأستاذ خير الدين الزركلي على النشيد قال: «إن صدق ظني، فإن صاحب هذا النشيد سيكون شاعر فلسطين».

ومن عجب، أن يظل قلب إبراهيم خالياً من المرأة حتى ذلك الحين، ولقد كان أصدقاؤه في الجامعة يعجبون لذلك ويقولون له على سبيل المزاح: «أنت شاعر ولكن بلا شعور، أين وحي المرأة في شعرك؟».

في نهاية تلك السنوات الثلاث، بلغ إبراهيم الثانية والعشرين كما ذكرنا من قبل. وهنا مسّ الحب قلبه.. ولكن هل كان مس ذلك الحب رفيقاً رحيماً؟ كلا؛ بل كان مساً عنيفاً ملهباً أشعل بروحه وأيقظ حسّه، وأرهف نفسه.

ففي سنة 1926، طلعت في الجامعة في بيروت، فتنة تمثلت في صورة فتاة فلسطينية طالبة هناك، فأحيت قلوباً وسحقت قلوباً.. وتورط إبراهيم، ودخل المعركة، وابتلى حسنات وسيئات، أما السيئات، فليس هذا بموضع تدوينها، وأما الحسنات، فتنحصر في الطريق الأدبي الجديد الذي نهجه، والاستعداد الكبير للسير في هذا الطريق.

صار قوي الملاحظة، حاضر العاطفة، متحفز الأعصاب، صار كثير المطالعة، صياداً للمعاني، بسيط العبارات، سهل الفهم، مصيباً.

تلك هي حسنات ذلك الحب، على حد تعبيره.

ونظم في فتاته قصيدته (في المكتبة)، ونشرت القصيدة في إحدى الصحف في بيروت، فنطقت باللسنة الكثيرين من الطلاب والأساتذة أيضاً..

ومنذ ذلك الحين، أخذ إبراهيم يضرب على قيثار الغزل، فيطرب سماعه، ويعجب قراءه. وقد أحبته فتاته بمقدار ما أحبها، ثم ضرب الدهر بينهما، فكانت نهاية حبه مأساة، خلقت في قلب الشاعر جرحاً، كان يندمل حيناً، وتنكأه الذكرى حيناً آخر، فينعكس ذلك كله في شعره، كما تنعكس صورة على صفحة المرأة المصقولة.

نكتفي بهذا القدر من قصة ذلك الحب، الذي كان له أكبر الأثر في إرهاب حسه، والسمو بشاعريته إلى سماء الشعر الصادق، الذي ينبثق من ذات النفس، وينبعث من أعماق الروح.

ونلتفت الآن إلى بعض الأجواء الأخرى، التي كانت تحيط بإبراهيم في أعمامه التي قضاها طالباً في الجامعة.

لقد احتضنت إبراهيم في الجامعة وخارجها، بيئة شعرية أدبية لم تكن لتحتضنه لو لم يكن في بيروت. أما في الجامعة، فقد كان هناك رعييل من أقرانه الطلاب، امتاز بصبغته الشعرية، وتعاطيه لقول الشعر الجزل. من ذلك الرعييل كان عمر فروخ (صريع الغواني) وحافظ جميل (أبو النواس) ووجيه بارودي (ديك الجن) وإبراهيم (العباس بن الأحنف). وكان تجاوب الذوق والمشب قد وصل بين هؤلاء بأسباب المحبة والأخوة. وكانت تجري بين حافظ ووجيه وإبراهيم، مساجلات شعرية عديدة، تناقلها الطلاب وأحبوها، غير أن هذه المساجلات لم تكن لتخرج عما توحى به طبيعة الشباب الملتهب، المندفِع وراء الحياة..

هذا في الجامعة، وأما خارجها، فقد كانت هنالك مجالس الأدب العالي والشعر الرفيع، وكلها تفتح لإبراهيم صدرها، وتولييه من عنايتها واهتمامها، وتعتقد بينه وبين أصحابها صلة الود. وحسبي أن أذكر من أصحاب تلك المجالس الأدبية الرفيعة المرحوم الشيخ أمين تقي الدين والمرحوم الأستاذ جبر ضومط، والشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير).

أصبح إبراهيم شاعر الجامعة، كما لقبته صحف بيروت. ولم يقتصر في ذلك العهد على الشعر الغزلي فحسب، بل كانت أغاريدهِ الوطنية الفياضة بالعواطف الصادقة، والإيمان الوطني القوي، تسير جنباً إلى جنب مع أغاريدهِ الغزلية. وهذان الوتران كانا من الأوتار التي امتاز إبراهيم بالضرب عليها.

وفي سنة 1929، نال شهادته من الجامعة، ليخوض بحر الحياة العملية المزبد المتلاطم.

معلم، معلم، معلم، هذه هي الكلمة التي كان يسميها تتردد على شفاه الكثيرين من الطلاب الخريجين، يوم توزيع الشهادات؛ فيقول لنفسه: «أبعد هذا العناء والكد، يختار هؤلاء التعليم مهنة؟ ألا ساء ما يفعلون؛ ما أقصر مدى طموحهم».

أما هو، فقد كانت المفاوضات جارية بينه وبين إحدى دور الصحافة في مصر، وتوشك أن تنتهي على أحسن ما يتمناه. فهذه مهنة تلائم ذوقه على الأقل، وتسير مع اختصاصه. سيكون محرراً في مجلة كبرى في القاهرة؛ وناهيك بالقاهرة من مدينة فن وأدب وجمال. وأي شيء تصبو إليه نفس الأديب الناشئ الطموح، ولا يجده في القاهرة؟ المكتبة الكبرى، الأزهر، الصحف، الشعراء، الكتاب؛ «يا مصر، لله مصر!». صحافي، صحافي... هذا ما كان إبراهيم يحدث به نفسه في أيامه الأخيرة في الجامعة.

من المنصة التي منح عليها (البكالوريا)، مشى إبراهيم إلى سرير المستشفى؛ وأراني حتى الآن، لم أشر إلى أنه كان يشكو ألماً في معدته منذ أيام التلمذة في مدرسة المطران في القدس؛ وكثيراً ما أقعده ذلك عن مواصلة التحصيل، إلى أن يشفى فيعود إليها؛ وكثيراً ما حمله بعد ذلك، على الاستقالة من وظائفه التي تقلب فيها.

أبل إبراهيم من مرضه، وكان والده إلى جانبه في هذه الآونة، إذ قدم بيروت ليشهد حفلة الجامعة. ثم توجه الاثنان إلى مصر ليستشيرا الأطباء هناك، وليبحث إبراهيم في شغله الصحافي.

وفي مصر ينفذ البرنامج، وتتجه صحة إبراهيم اتجاهاً حسناً؛ وبعد بضعة أسابيع يعود الوالد بولده إلى نابلس، قرير العين، ناعم البال، على أن يعود إبراهيم للشغل في مصر بعد أن يمضي مع ذويه أياماً قليلة.

غير أن الأم تأبى عليه ذلك، وتحكم أن يظل ولدها قريباً منها، وتدخل العاطفة في الموضوع.. زد على ذلك أن أباه لم يكن راغباً في شغله في مصر.

وكانت هنالك ظروف أخرى، شاءت أن يلغي إبراهيم برنامجه الصحافي ويضرب بهذا الأمل المنشود عرض الحائط، ولو لمدة سنة.

وفي هذه الآونة، كانت وظيفة معلم اللغة العربية في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس شاغرة. فيأتي إلى إبراهيم والده، يقنعه بالموافقة على التدريس هناك؛ فهذه خدمة وطنية مشكورة، أضف إلى ذلك أن المسؤولين في المدرسة، سيجعلون ساعات العمل بحيث لا

يرهقونه، ثم إن هذا العمل في بلده، وأنه لون من ألوان الاختبار يقطع فيه إبراهيم جزءاً من أوقات الفراغ الطويلة المملة.

ويكون رد إبراهيم على أبيه بأنه لا يستطيع أن يتصور نفسه معلماً، فهذا عمل لم يخلق له، وسيكون فيه خائباً لا محالة. ولكن أباه يبين له أنه سيعلم في موضوعه، فلا يخرج عن نطاق ما خلق له.

وإذا بإبراهيم ذات صباح أمام فريق من الطلاب، على مقاعدهم الخشبية، وإذا به يكتب على اللوح: «الطقس جميل»، ثم يقول لأحد التلاميذ: ادخل (كان الناقصة) على هذه الحملة، فيقول التلميذ: «كان الطقس جميلاً».

نعم.. كان الطقس جميلاً، فتعكر، وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن..

زاوول إبراهيم مهنة التعليم في هذه المدرسة سنة واحدة، وكان له تأثير في بعض طلابه من الصفوف العالية؛ فحبب إليهم الشعر والأدب. ولا أزال أذكر ذلك اليوم الذي أقبل فيه يحدثننا متهجاً، بأن بعض تلاميذه النجب، قد بدأوا ينظمون الشعر على يده.

خلال هذا العام الدراسي (1929-1930) كان إبراهيم ينظم الشعر الوطني، فيرسله صرخات حافزة، وناراً مشتعلة. ومن أشهر قصائده في ذلك الحين (الثلاثاء الحمراء).

ففي حزيران سنة 1930 صدر حكم الإعدام على شهداء فلسطين الثلاثة، وذلك على أثر ثورة سنة 1929. وقد ضجّ أهل البلاد لهذا الحكم، وقدموا احتجاجاتهم ورجاءهم، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً.

وفي نهار الثلاثاء، السابع عشر من حزيران سنة 1930، كان التكبير على المآذن، وقرع النواقيس في الكنائس، يتجاوب صداهما في أرجاء فلسطين قاطبة؛ إذ في ذلك النهار، نفذ حكم الإعدام بالشهداء الثلاثة، في ثلاث ساعات متوالية. فكان أولهم فؤاد حجازي وثانيهم محمد جمجوم، وثالثهم عطا الزير. وكان من المقرر رسمياً أن يكون الشهيد (عطا الزير) ثانيهم، ولكن (جمجوماً) حطم قيده، وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز بغيبته..

وهنا يأخذ الشاعر ريشته ليصور هذا اليوم المخضب بالدماء أروع تصوير، وليسجل في سفر الشعر الوطني الخالد، مصارع أولئك الشهداء. فتكون قصيدة (الثلاثاء الحمراء).

وكان يوم حفلة مدرسة النجاح السنوية في نابلس، ولم يكن قد مضى على تنفيذ حكم الإعدام بهؤلاء الشهداء أكثر من عشرة أيام، فالنفوس لا تزال ثائرة، والعواطف لا تزال مضطربة؛ وفي تلك الحفلة، ألقى إبراهيم قصيدته (الثلاثاء الحمراء).. وذهل عن الجمهور؛ وشعر كأنها خرج من لحمه ودمه، فكان يلقي بروحه وأعصابه، فما انتهى حتى كان بكاء الناس يعلو نسيجه، ثم تدفقوا خارج القاعة في حالة هياج عظيم حتى لقد قال بعضهم يومئذ: «لو أن إبراهيم ألقى قصيدته في بلد فيه يهود، لوقع ما لا يحمد عقباه». يشير بذلك إلى فرط الحماس الذي أثارته هذه القصيدة في أولئك السامعين.

لم تكد تبدأ عطلة العام الدراسي الأخيرة لسنة 1930 حتى كانت الجامعة الأميركية في بيروت، قد عرضت على إبراهيم، بواسطة الأستاذ أنيس الخوري المقدسي، التعليم في قسم الأدب العربي في الجامعة.

كان مجرد فكرة العودة إلى بيروت، وآفاقها الرحبية السحرية، كفيلاً بأن يجعل إبراهيم يوافق على مزاوله التعليم مرة أخرى، وعن طيب خاطر.. فلقد كان حبه لهذا البلد، ولأهله الكرام، حباً متمكناً من نفسه، إلى حد بعيد، بل لقد كانت بيروت عنده بمنزلة الوطن الثاني له، يرى في أهلها أهله، وفي عشيرتها عشيرته، وكيف لا يكون لهذا البلد في نفس إبراهيم مثل هذا المكان الرفيع، وفيه تفتحت زهرة شبابه أول ما تفتحت:

أول عهدٍ بفنون الهوى بيروت؛ أنعم بهوى الأول..

وانتقل إلى الجامعة الأميركية، فدرّس فيها عامين، نظم خلالها أروع قصائده التصويرية، مما يدخل في باب الموضوعيات من شعره. ولإبراهيم في هذا الباب قصائد فذة، تفيض بالصور الحية الناطقة.

ولقد عادت المرأة، أو بالأحرى، عاد الجمال يحرك قلب إبراهيم في بيروت، فيوحي إليه بأرق الشعر وأجزله. ومسارح الجمال في بيروت مختلفة الألوان، متعددة الصور، وهي هناك تكاد تكون مكشوفة النقاب لا تحتجب وراء حجاب. وإبراهيم نشأ في بلد متمسك بتقاليده وعاداته أشد التمسك، فهو يسدل دون المرأة ستاراً كثيفاً نسجه. ومن هنا، كانت بيروت مهبط وحيه في ما قاله من شعر في المرأة.

وفي عادة إشبيلية أندلسية، كانت في بيروت، نظم إبراهيم فيما نظم من شعر غزل في ذلك الحين، عدة قصائد، وهو يعترف بأن انجذابه إلى هذه الغادة، قد لا يكون بدافع جمالها، وخفة روحها، بمقدار ما كان يتقرّأ في خلقتها من الدم العربي، وما كان يلاحظه من الفن العربي في ثيابها ورقصاتها.

وأثناء إقامته في بيروت قدم الجامعة الأميركية الدكتور (لويس نيكل البوهيمي)، وهو مستشرق تخصص في الغزل العربي، فكان ينتقل بين عواصم الشرق والغرب، باحثاً في مكاتبتها الكبرى عن الكتب المتعلقة بموضوعه، وكان من نتيجة ذلك أن ترجم إلى اللغة الإنكليزية كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي. وقد تعرف إبراهيم بالدكتور نيكل عن طريق صديقه الأستاذ أنيس فريجة، وكان هذا المستشرق، حين تعرف بإبراهيم، قد بدأ بتصحيح كتاب (الزهرة) لابن داود الأصفهاني، وتعليق حواشيه وتنظيم فهرسه. فلما رأى مدى اطلاع إبراهيم على الشعر القديم دعاه إلى العمل معه وإشراكه في تصحيح الكتاب وطبعه؛ وباشرا العمل معاً في اليوم الثاني للمقابلة الأولى. وفي بضعة شهور أنجزا عملهما فيه حيث طبع الكتاب سنة 1932. ويقول الدكتور نيكل بهذا الشأن في رسالة خاصة تلقيتها منه: «... ثم أقمنا حفلة (الزهروية) في مطعم نجار، ونظم إبراهيم قصيدة (غادة إشبيلية)، وكانت تلك الأيام من أسعد أيامه وأيامي...».

وفي نهاية العام الثاني لتدريسه في الجامعة، قدم إبراهيم استقالته من العمل، وعاد إلى فلسطين، حيث زاول مهنة التعليم في المدرسة الرشيدية في القدس. وفي هذا الحين، ضاق بعمله أشد الضيق، فنفس عن الكرب الذي لحقه من هذه المهنة بقصيدته (الشاعر المعلم) وقد صاغها في قالب فكاهي عذب، صور فيه ما كان يكابده من مشقة التعليم، والجهد الذي كان يبذله، والعناء الذي كان يلاقيه من جراء ذلك كله.

وفي أواخر سنة 1932، وقبل انتهاء الفصل الدراسي الأول، ألح عليه السقم، ولازمته العلة، فانقطع عن التدريس، وظل طريح الفراش، إلى أن اشتدت وطأة المرض، فأشار الأطباء بضرورة نقله إلى المستشفى، وإجراء عملية جراحية في معدته. ولقد كان من خطورة شأن هذه العملية، أن نفّض الجراح يديه من نجاة مريضه من الموت بعدها، لما كان عليه إبراهيم من النحول والضعف. ولكن (الله في السماء، والأمل في الأرض!) فقد أجريت العملية بالرغم من الشك الكبير في نجاته من خطرهما. وتشاء حكمة الله، أن ينجو إبراهيم من الموت المحقق؛ ولقد أقر الطبيب يومئذ، بأن سلامة مريضه كانت من معجزات الله، لا شأن لفن الطب فيها، ولا لحذق الطبيب، إذ كانت حال إبراهيم فوق هذين كليهما.

وتماثل للشفاء، وحانت الساعة التي سيغادر فيها المستشفى، فشيع الطبيب هذا (المولود الجديد)، كما كان يسميه، مهنتاً والديه به. وخرج إبراهيم وفي جيبه ورقة عليها هذه الأبيات:

إليك توجهت يا خالقي
إذا هي وليت فمن قادر
وما للطبيب يد بالشفاء
تباركت، أنت معيد الحياة
وأنت المفرج كرب الضعيف
بشكر على نعمة العافية
سواك على ردها ثانية
ولكنها يدك الشافية
متى شئت في الأعظم البالية
وأنت المجير من العافية

بلى؛ لقد كان إبراهيم يؤمن بالله إيماناً عميقاً صادقاً؛ وقد ابتلاه ربه بالحرمان من نعمة العافية، وهو في ريعان الشباب، فما وجده إلا صابراً متفائلاً. وإنك لتتصفح ما خلفه من مآثره الأدبية، فتراه قد عرض فيها مراراً عديدة لذكر مرضه وسقمه، ولكنه عرض مرح مبسم، لا روح للتشاؤم فيه ولا أثر لشكوى الزمان، إذ كان المرح والابتسام خلقه في إبراهيم، فلم يكن لينظر إلى الدنيا إلا من وجهها الضاحك المشرق؛ وانظر إلى هذه الأبيات لترى كيف كان يواجه تنكر العافية:

وطبيب رأى صحيفة وجهي
قال: لا بد من دم لك نعطي
شاحباً لونها، وعودي نحيفاً
له نقياً، ملء العروق عنيفاً
لك ما شئت يا طبيب ولكن
أعطني من دم يكون خفيفاً..

ضعف في البنية شديد، قد يبعث في غير إبراهيم التشاؤم والضجر، ولكنه هو، القوي بروحه، المرح بطبيعته لا يدع النكتة تغلت منه وهو في أشد حالات المرض: «أعطني من دم يكون خفيفاً».

غادر إبراهيم المستشفى موفور الصحة، وعاد إلى بلده بعد أن قدّم استقالته إلى المدرسة الرشيدية في القدس، وقد عزم عزمًا أكيداً على عدم العودة إلى هذه المهنة، مهنة التعليم، مرة أخرى.

أمضى بعد ذلك عامين في نابلس، خدم خلالها مدة في دائرة البلدية، وفي هذين العامين، نظم إبراهيم مقطعاته الوطنية التي كان يوالي نشرها في جريدة (الدفاع) والتي كان يقبل عليها القراء بشغف عظيم، لما فيها من تصوير صادق لوضع فلسطين الخطير، وتفكك الأمة المريع، في تلك الفترة من الزمن.

وفي سنة 1936 استلم إبراهيم عمله الجديد في القسم العربي في إذاعة القدس. وقبل الحديث عن أعماله هناك، أؤثر أن أقف عند شعره وقفة قصيرة.

إذا قرأت شعر إبراهيم، تجلت لك نفسه على حقيقتها، لا يحجبها عنك حجاب؛ ذلك أنه كان ينظر نظراً دقيقاً في جوانب تلك النفس، ثم يصوّر ما يعتلج فيها من عواطف وخلجات، كأصدق ما يكون التصوير؛ ومما كان يعينه على البراعة والصدق في التعبير، علم غزير بفنون الكلام وأساليبه؛ وهذا العلم كان نتيجة لاطلاعه الواسع على المآثر الأدبية الرفيعة، من قديمة وحديثة، إلى جانب القرآن الكريم، والحديث الشريف.

وما أعرف كتاباً أدبياً كان أحب إليه من كتاب (الأغاني)، فقد كان يرى فيه دنياً تغمرها الحياة على اختلاف ألوانها؛ وناهيك (بالأغاني) من كتاب أدبي توفرت فيه المادة، وتنوع الأسلوب، واتسع فيه مجال القول في الأخبار والنوادر الأدبية على اختلافها.

وكما كان كتاب (الأغاني) من أحب كتب الأدب العربي إلى إبراهيم فقد كان (المتنبي) من ناحية، (والعباس بن الأحنف) من ناحية أخرى من أحب الشعراء إليه وأقربهما من قلبه؛ وكان الدكتور نيكل قد ساعده في الحصول على نسختين تصويريتين لديوان (العباس) من اسطنبول إذ كان في نية إبراهيم - لو أمهله الزمن - أن يخرج هذا الديوان في طبعة جيدة أنيقة.

وأما «شوقي» في الشعراء المعاصرين فهو سيد المكان في قلب إبراهيم.

يمكنك أن تقسم شعر إبراهيم إلى ثلاثة أقسام: الغزليات، والوطنيات، والموضوعيات؛ وهذه الأخيرة تمتاز بعمق الفكرة، ودقة التصوير، وقد حلق فيها إلى آفاق الشعر العالي؛ هنالك «الشهيد» و«الفدائي» و«الحبشي الذبيح» وغيرها. ولعل واسطة العقد في موضوعياته، قصيدة «مصرع بلبل» وهي فتح جديد في القصة الشعرية، نلمس فيها تأثير إبراهيم بالأدب الغربي دون أن يفقد مميزات خياله الخاص، وتعبيراته الشعرية الخاصة.

وفي قصيدة «الشهيد»، ينقلنا إبراهيم بدقة وصفه، وروعة تصويره إلى ما يثور في نفس الشهيد من عواطف، واستقتال في سبيل الواجب الأسمى، لا يبتغي من وراء ذلك ذبوع اسم ولا اكتساب صيت، وإنما هو عنصر الفداء، وجوهر الكرم، صيغت منهما نفس الشهيد، فهان عندها الموت في سبيل الله والوطن.

ومن موضوعياته الرائعة قصيدة «الحبشي الذبيح» وهي صورة حية ناطقة، يرسم فيها إبراهيم حالة ذلك «الديك الحبشي» الأليمة حين يذبح ويأخذ يصفق بجناحيه، ويجري من هنا وهناك، مزوّد الخطى، كأنها هو يلحق بالحياة التي استلبت منه. ولقد أوحى إليه بهذا الموضوع العنيف، وقوفه يوماً برجل على جانب الطريق في بيروت يذبح

ديوكاً حبشية يعدّها لرأس السنة. وإذا بالنفس الشاعرة يروّعها أن لا يقوم السرور إلا على حساب الألم، وإذا بها تفيض بأقوى الشعر التصويري الحي.

ونلتفت الآن إلى إبراهيم شاعر الوطن، الذي سجل آلام فلسطين وآمالها خلال الانتداب الإنكليزي، كما لم يسجله شاعر فلسطيني من قبل.

انظر إليه وقد خلّد ثورة فلسطين وشهداءها سنة 1929 في قصيدة «الثلاثاء الحمراء»، ثم يوم عاد في الذكرى الرابعة لهؤلاء الشهداء فخلّدهم مرة أخرى في قصيدة «الشهيد» كل ذلك في شعر لاهب حماسي، فلا بكاء ولا استخذاء، وإنما هي صرخات مدوية مجلجلة، تحفز الهمم، وتثير الشعور بالعزة والإباء.

وأما بيع الأرض، فلم يزل إبراهيم يصور لقومه الخطر الذي ينتظر البلاد من وراء البيع، ولم يزل يفتح عيونهم على الشر الذي عم واستحكم من جراء ذلك:

أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة ونحن منذ هبطنا الأرض زراع
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ولا تعلمت أن الخصم خداع..
لقد جنيت على الأحفاد والهفوى! وهم عبيد.. وخدام.. وأتباع
وغرك الذهب اللعاب تحرزه.. إن السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك في أرض نشأت بها واترك لقبرك أرضاً طولها باع

وقد التفت إبراهيم مرات عديدة في شعره، إلى هذه الناحية. وحين نشرت الصحف أن زعيم الهند (غاندي) قد أُنذر انكلترا بالصيام مدى الحياة، ما لم تغير خطتها السياسية في الهند، راح إبراهيم يغمز ويقارن بين زعيم هنا.. وزعيم هناك:

حبذا لو يصوم منا زعيم مثل (غاندي) عسى يفيد صيامه
لا يصم عن طعامه... في فلسطين
ليصم عن مبيعته الأرض يحفظ بقعة تستريح فيها عظامه!

وهو في رثائه للمغفور له الملك فيصل، يضرب على هذا الوتر نفسه، مشيراً إلى استقبال الجثمان الطاهر في فلسطين:

ما الذي أعددت من طيب القرى يا فلسطين لضيف معجل
لا أرى أرضاً نلاقيه بها.. قد أضاع الأرض بيع السفلى

فاستري وجهك لا يلمح على صفحته الحزبي فوق الخجل!
ولم يكن ليدع مناسبة تمر، دون أن يشير إلى هذا الداء العضال، الذي بليت به
فلسطين. ولشد ما صبّ نقمته على تلك العصابة الحقيرة، عصابة السماسرة، التي يقوم على
يديها ضياع البلاد:

أما سماسرة البلاد فعصابة عار على أهل البلاد بقاؤها
إبليس أعلن صاغراً إفلاسه لما تحقق عنده إغراؤها
يتنعمون مكرمين.. كأنها لنعيمهم عم البلاد شقاؤها
هم أهل نجدتها.. وإن أنكرتهم وهم - وأنفك راغم - زعماؤها
ولكم كانت تروعه تلك الحزبية التي يضطرم وقودها في البلاد، فلا ينتج منها إلا
تفكك الأمة وشقاقها، وفي ذلك ما فيه من إعاقة السير نحو الهدف الواحد:

وطني، أخاف عليك قوماً أصبحوا يتساءلون: من الزعيم الأليق
لا تفتحوا باب الشقاق فإنه باب على سود الحوادث مغلق
والله لا يرجى الخلاص وأمركم فوضى، وشمل العاملين ممزق
ولطالما نقد أصحاب الأحزاب في شعره وندد بهم، لا ينخص فريقاً دون فريق، وإنما
يوجه القول إليهم جميعاً:

مالكم بعضكم يمزق بعضاً أفرغتم من العدو اللدود؟
اذهبوا في البلاد طولاً وعرضاً وانظروا ما لخصمكم من جهود..
والمسوا باليدين صرحاً منيعاً.. شاد أركانه بعزم وطيد!
كل هذا استفاده بين فوضى وشقاق؛ وذلة؛ وهجوم..
واشتغال بالترهات، وحب الذات.. عن نافع عميم مجيد
شهد الله أن تلك حياة فضلت فوقها حياة العبيد

وما كان أنكأ لقلب إبراهيم من خمود العزائم في حاملي عبء القضية الوطنية
ووقوفهم عند تقديم (البيانات) و(الاحتجاجات)، لا يتعدونها إلى غيرها من الأعمال
المجدية؛ انظر إليه يخاطبهم متهمكاً:

أنتم (المخلصون) للوطنية.. أنتم الحاملون عبء القضية..
 أنتم العاملون من غير قول.. بارك الله في الزنود القوية..
 و(بيان) منكم يعادل جيشاً بمعدات زحفه الحريية..
 و(اجتماع) منكم يرد علينا غابر المجد من فتوح أمية..
 ما جحدنا (أفضالكم).. غير أنا لم تزل في نفوسنا أمنيّة
 في يدنا بقية من بلاد.. فاستريحوا كي لا تطير البقية..

وبذلاقة ورشاقة، كان إبراهيم يتغلغل بقلمه إلى صميم الأشياء فيزيح عنها الستر
 ويبين ما خفى وراءه من حقائق مرّة؛ ويا لها من مرارة يرسلها في شعره متأماً (لمظاهر
 العبث) التي كان يراها تغلب على ميول الأمة.

أمامك أيها العربي يوم تشيب لهولته سود النواصي
 وأنت كما عهدتك.. لا تبالي بغير مظاهر العبث الرخااص
 مصيرك بات يلمسه الأذاني وسار حديثه بين الأقاصي
 فلا رحب القصور غداً يباق لساكنها، ولا ضيق الخصاص
 لنا خصمان، ذو حول وطول وأخر ذو احتيال واقتنااص
 تواصلوا بينهم.. فأتى وبالا وإذلاً لنا ذاك التواصي
 مناهج للإبادة.. واضحات وبالحسنى تنفذ، والرصاص..

وأما وعد بلفور؛ وأما هجرة اليهود إلى هذا الوطن المنكود، فلم يبرحاً مجالاً للقول
 ذا سعة في شعر إبراهيم، وهدفاً يرمي إليه، ويحوم حواليه.

وهكذا، ترى شعره الوطني شعراً يحمل طابعاً فلسطينياً خاصاً، كان حتماً أن تطبعه
 به أحوال البلاد المضطربة في هذا العهد المظلم من عهود فلسطين. وما كان إبراهيم يفوز
 بلقب شاعر الوطن، وشاعر فلسطين لو لم يسجل قضية بلاده في شعره القوي، الذي
 يمتاز بذلك الطابع الفلسطيني الخاص.. ولو لم تنعكس في ذلك الشعر أصدق صورة لهذا
 الوطن في هذا العهد..

تأسست إذاعة القدس سنة 1936، ووقع الاختيار على إبراهيم ليكون مراقباً للقسم
 العربي فيها؛ فاحتضن هذا القسم، ولّفه تحت جناحيه، وتعهّده بعنايته مدة أربع سنوات.

وفي سنة 1937 تعرف إبراهيم بـ (سامية عبد الهادي) من إحدى أسر نابلس، فاتجه إليها قلبه، وهناك استقر؛ فأصبحت شريكة حياته. وعاش هائناً في بيته، سعيداً بعاطفة جديدة مقدسة هي عاطفة الأبوة، إذ وُلد له «جعفر» ثم وُلدت «عريب».

أقبل إبراهيم على عمله في الإذاعة بكل قلبه، إذ كان مثل هذا العمل يوافق ذوقه ويمشي مع ميوله؛ ولم تمض مدة يسيرة على إشرافه على البرامج العربية، حتى كانت تلك البرامج مرآة ينعكس عليها ذوق هذه البلاد وآراء أهلها العرب؛ وكان أكبر همّه أن تكون الأحاديث قريبة من مستوى العقول على اختلاف طبقاتها؛ لا سيما الأحاديث الأخلاقية، فكان يصل إلى هذا الغرض التهذيبي بطريقة لا يشك في نجاحها، وهي طرق هذه الموضوعات من نواح ثلاث: الآية القرآنية، الحديث الشريف، المثل المشهور. ولكل من هذه النواحي أثرها البعيد في العقلات المختلفة لأهل المدن والقرى على السواء، لما لها من علاقة ماسة بالحياة الاجتماعية.

ولقد كان لإبراهيم في الإذاعة أحاديث أدبية كثيرة، أضف إلى ذلك قصصاً وروايات تمثيلية، كان يصنعها بنفسه، وأناشيد، منها ما كان ينظمه لبعض البرامج الخاصة، كنشيد «أشواق الحجاز» والنشيد الذي وضعه في رثاء المغفور له الملك غازي؛ ومنها ما كان ينظمه لأحاديث الأطفال.

لم تكن الوظيفة لتقعد بإبراهيم عن تقديم رسالته إلى هذا الوطن الذي تفانى في حبه، وجمع له هم قلبه؛ ولئن كانت قد اعترضت لهالة بلبل الوطن الغريد، وحالت دون تسلسل أغانيه الوطنية الشجيرة، التي طالما أيقظت القلوب النائمة، وألهبت النفوس الهامدة، فلم تكن لتستطيع أن تحول دون حبه لهذا الوطن، وبذله أقصى مجهوده لخدمة أمته عن طريق الإذاعة..

ولعل من أهم ما قام به هناك، تصديه لفئة غير عربية.. كانت تسعى سعيها لتنشيط اللغة العامية، وجعلها اللغة الغالبة على الأحاديث العربية المذاعة.. وكانت حجتها في ذلك، أن الإذاعة لا يمكنها أن تحقق الغرض الذي هدفت إليه، وهو نفع الطبقة المتوسطة، إذا جرت على استعمال اللغة الفصحى.. لأن هذه الطبقة من أهل المدن والفلاحين، لا تحسن اللغة الفصحى، على حد تعبير أصحاب القول بتنشيط اللغة العامية، ولا تفهم اللغة العربية (القديمة) التي جرى عليها المذيع! ..

وقف إبراهيم وقفة حازمة أمام هذا الرأي؛ ونقضه يومئذ بحجج دامغة، أظهرهم فيها على أن المذيع لم يجر على اللغة العربية القديمة، وأنه ليس في بلاد العرب من يعرف

29 هذه اللغة بالمعنى الذي قصده أصحاب القول باللغة العامية، غير أفراد متخصصين. وهي عندنا لغة الجاهلية التي قضى عليها القرآن بأسلوبه الجديد المبتدع. وإن عندنا اليوم لغة عربية صحيحة، يصطنعها المؤلفون ومحررو الجرائد، ويفهمها المتعلم والأمي على السواء.. وإن الفلاحين، وجلّهم من الأميين، لتقرأ عليهم الجريدة، فيناقشون القارئ في افتتاحيتها. ولا يعقل أن يناقش المرء في شيء لم يفهمه. هذا وأن العرب، مسلمين ومسيحيين، يدينون بالقومية؛ وهذا مشروع غايته القضاء على اللغة العربية، وهي عندنا كل ما بقي من ذلك التراث الطويل العريض الذي اجتمع لنا من الفتوحات والحضارات والعلوم والآداب والفنون.. فما من عاقل اليوم، يعرف قدر نفسه ويعتز بعروبيته، يرضى عن العبث بهذا التراث الباقي، والقضاء عليه بيده..

بهذه الصراحة التي عُرفت لإبراهيم في كل موقف ذي خطر، هزمت تلك الفئة التي اعترفت على أثر ذلك، بأن إبراهيم يحتاج إلى جلسات أخرى، لتزعزع أركان عقيدته في لغته.. واستغفر الله، وحاشا لإبراهيم..

ولشد ما لقي من صعوبات أثناء عمله، إذ كانت فلسطين خلال السنوات الأربع التي خدم فيها في الإذاعة، في ظرف دقيق جداً، ففي السنوات الثلاث الأولى، كانت الثورة في فلسطين قائمة على ساقتها، وفي السنة الرابعة، كانت الحرب العالمية الأخيرة.

أما الصعوبات التي لقيها في عمله أثناء الثورة، فتنحصر في ذلك الشغب الذي كان يدور حوله من قِبل بعض الجهات اليهودية، ووقوفها له بالمرصاد في كل ما يذيعه من أحاديث، أو ما يذيعه غيره من المحدثين العرب؛ فكانت تلك الجهات اليهودية تخرج كل ما يقال تخريباً سياسياً، وتشكل من القصة ذات اللغة البسيطة، والوضع المحكم، شعوباً ودولاً، وحكومات وانتدابات.. ولم تكن لترى في الأحاديث الأخلاقية، إلا تحريضاً تحت قناع ديني.. وأما الدعاية فقد كانت في رأيه مبهوثة في الموضوعات التاريخية! زد على ذلك، قول تلك الجهات اليهودية بأن الأحاديث النبوية، والأمثال المشهورة التي تقدم في الإذاعة، فيها الخطر كل الخطر! إذ يطلب فيها من الأمهات أن ينشوا أطفالهم بعضلات قوية؛ ومنشأ الخطر على زعمها هو أن تلك التنشئة القوية، إنما يقصد من ورائها المقدرة في المستقبل على المقاومة...

وعن الطريق الأقصر، فالبرنامج العربي الذي كان يشرف عليه إبراهيم مسخر للتحريض.. كما كانت تقول الصحف اليهودية..

وهكذا كانت توضع في الميزان جل أحاديث القسم العربي في الإذاعة، فيناقش إبراهيم فيها، ويحاسب عليها، ولكنه كان يعرف كيف يقف أمام ذلك كله.. وانتتهت الثورة، وقامت الحرب العالمية الثانية، فكانت الرقابة على الصحف والنشر والإذاعة.

ومن قِبَل بعض المشرفين عليها يومئذ، قامت الدعاية السيئة وقام التحريض ضد إبراهيم.

وكانت قصة (عقد اللؤلؤ) أو (جزء الأمانة) التي اقتبسها إبراهيم من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، وقدمها في المذيع في أحد برامج الأطفال. فأخذ الرقيب وعصبته تلك القصة، وخرجوها تحريجاً يكفل لهم استفزاز المستعمر.. فإذا بتلك القصة التي تشيد بالأمانة والوفاء تشهر سلاحاً في وجه إبراهيم أو بالأحرى في ظهره، من قِبَل من لا يعرف قيمة لمعنى الأمانة المقدس.

تكاثفت جموع الشر على إبراهيم من هنا وهناك، فأقيل من عمله في أول أكتوبر سنة 1940.

وإذا كان بوسع أحد من الناس، أن يبيع ضميره، ويضرب بمبدأه وعقيدته عرض الحائط، فيظل هائناً بعمله، قير العين، فما كان بوسع إبراهيم أن يفعل ذلك، وهو الأبّي النفس، العيوف للاستخذاء والذل، وهو الذي كان يتحول عن الحظ السعيد يأتيه وفيه جرح لكبريائه وكرامته، أو خلاف لعقيدته، كما يتحول المؤمن الصادق عن وسوسة الشيطان.

اشمأزت نفس إبراهيم، وعافت البقاء بين قوم لا خلاق لهم.. فأثر الرحيل عن وطنه الذي تفرّأ في حبه، وأذاب روحه في مناجاته، وعزم على الرحيل إلى العراق، بلد العروبة والعزة.

وفي مساء اليوم الذي أقيل فيه إبراهيم من علمه، خف صديقه أكرم بك الركابي إلى السيد طالب مشتاق، قنصل العراق في القدس يومئذ، وأطلعه على ما جرى بإبراهيم، وفي محادثة تلفونية من قِبَل السيد طالب، الصديق المحب، سجل اسم إبراهيم في وزارة المعارف في بغداد ليزاول مهنة التعليم في أحد معاهد العلم هناك؛ ولقد كان ذلك بسرعة، ودون أخذ ورد، إذ كان إبراهيم معروفاً لدى الأوساط الأدبية الرفيعة في العراق.

ولقد لاقى من والده معارضة شديدة بشأن ذلك الرحيل، وإلحاحاً عليه بالبقاء عنده في نابلس؛ ولكن إبراهيم، على برّه بوالده برّاً يفوق الوصف، وعلى تعلقه العجيب بوالديه وإخوته - ولقد كان هذا البرّ وهذا التعلق من خلائق إبراهيم الممتازة - سافر إلى العراق وهو عازم عزماً أكيداً على عدم العودة إلى فلسطين مدى الحياة! .

ومن هؤلاء الذين يصدق فيهم قول يزيد بن المهلب: «هم أهل العراق، أهل السبق والسباق، ومكارم الأخلاق» وجد إبراهيم على أبواب بغداد من ينتظره من الأصحاب العراقيين؛ وفي بيت السيد محمد علي مصطفى، الأستاذ في دار المعلمين العليا، نزل إبراهيم وأهله معززين مكرمين، إذ لم يكن قد تهيأ بعد. وفي دار المعلمين الريفية في الرستمية، باشر عمله.

كان للمعاملة السيئة التي لقيها إبراهيم في وطنه وبين قومه تأثير كبير على بنيته النحيلة؛ فلم تكن تلك البنية لتحتمل كل هذه الآلام النفسية التي كابدها إبراهيم خلال شهور، وهو الرقيق الشعور المرهف الإحساس إلى حد يكاد يكون مرضاً. فلم يكد يمضي شهران على إقامته في العراق حتى وقع فريسة العلة والسقم، مما حمله إلى العودة إلى نابلس قبل انتهاء الفصل الدراسي الثاني.

ونهكت الأسقام إبراهيم، فنُقل إلى المستشفى الفرنسي في القدس، وبعد أيام قليلة، وفي مساء الجمعة، الثاني من شهر مايو سنة 1941 أسند إبراهيم رأسه إلى صدر أمه، وقد نزف دمه، وخارت قواه، وهناك أسلم روحه الطاهرة إلى بارئه، واستراح استراحة الأبد.

كان لإبراهيم - رحمه الله - مصحف صغير، لا يخلو منه جيبه، تبركاً به من جهة، وليكون في متناول يده، كل حين من جهة أخرى. فلما توفاه بارئه، كان ذلك المصحف تحت وسادته، ولا تزال إلى اليوم ثنية ثناها في إحدى صفحات سورة (التوبة). وكانت هذه الآيات الشريفة آخر ما تلاه إبراهيم من كتاب الله أثناء مرضه؛ ولقد أثرت أن أحتم بها الحديث عن حياة إبراهيم إرضاءً لروحه:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَاقِيَةٌ مُّقِيمَةٌ ۝ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [التوبة: 20-22].

الحياة السياسية في فلسطين

قبل الولوج في حياة إبراهيم طوقان وشعره، لا بد من الحديث عن أحوال الوطن العربي عامة وعن فلسطين خاصة، لمعرفة تاريخ المرحلة التي عاشها الشاعر إبراهيم طوقان، وما كان فيها من أحداث جسيمة، والمؤثرات التي تفاعل معها الأدباء والشعراء. فالشاعر صاحب إحساس شديد يرى الحدث ويتفاعل معه، ويراه بعين تختلف عن غيره، فيصف أوضاع الأوطان وأحوال المجتمع الذي يعيش وسطه، ويربط ما هو فيه مع ما سبقه، ويتنبأ بما سيؤول إليه الحال. وإبراهيم طوقان كان واحداً من الشعراء الذين تفتحت عيونهم، وعاصروا القضايا السياسية والعوامل الاستراتيجية التي جعلت من فلسطين مطمعاً للأهداف الصهيونية لتنفيذ مخططاتهم بالاعتماد على قوى الاستكبار في الاستيلاء على فلسطين.

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر، تعرضت فلسطين إلى صراع عالمي، بسبب موقعها الطبيعي والجغرافي، ومن هنا ظهرت مشكلات متعددة لأهالي المنطقة عامة، ولم تكن فلسطين بعيدة عن هذه المشكلات، وقد تنبّهت بريطانيا إلى هذه المنطقة حين أبدى «راتزل» الألماني ملاحظاته آنذاك إلى أهمية موقع فلسطين، كما أن «نابليون» قال ذات مرة: لو أنه احتل (عكا) لسيطر على العالم، مما حدى ببريطانيا العمل على أن تكون فلسطين تحت أيديهم، وهذا ما جعل حكام مصر ينظرون إلى فلسطين نظرة خاصة. وهذا يقودنا إلى ما ورد في مذكرة «هربرت صموئيل» في شباط (فبراير) عام 1951 التي قدّمها للحكومة البريطانية بشأن مصير فلسطين: «إن الحكومة البريطانية باتساعها وازدهارها الحاضر ليس لديها بعد ما تضيفه إلى عظمتها، لكن فلسطين - على صغر مساحتها - تنتفخ ضخمة في خيلة العالم، حتى أن كل إمبراطورية مهما كانت عظيمة، قد ترفع من مكانها

ومركزها بامتلاكها لها. وإن ضم فلسطين إلى الإمبراطورية البريطانية سوف يزيد حتى في لمعان التاج البريطاني».

أضف إلى ذلك ما خلص إليه مؤتمر خبراء الاستعمار عام 1907: «... لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكم في العالم، فعلى طول ساحله الجنوبي من الرباط إلى غزة، وعلى ساحله الشرقي من غزة حتى مريسين.. شريان حياة أوروبا...».

وربما جاءت هذه الدراسات والقرارات التي جاءت فيما بعد، كانت تخوفاً من تعاظم شأن سكان هذه المنطقة العربية باتحادهم، فتكون ضربة للإمبراطوريات الاستعمارية، وتفادياً لذلك لا بد من تجزئة المنطقة، بما فيها فلسطين، وبناءً على ذلك، قامت سياسة بريطانيا بوضع جسر بشري يفصل بين شرق العرب وغربهم، وتأتى لهم بذلك السيطرة على قناة السويس.

والذي زاد المسألة صعوبة تنافس القطيين، الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي على المنطقة، الذي رأى منذ «لنين» أن أقرب الطرق إلى فرنسا هو جنوب شرق آسيا ومنطقة الشرق الأوسط، في حين سعى القطب الأميركي تحقيق وجوده في منطقة الشرق الأوسط وذلك بمساندة قيام «دولة إسرائيل» ومساعدتها سياسياً وعسكرياً، باعتبار أنها عمق استراتيجي لسياستهم في المنطقة، وهذا أيضاً ما بدأنا نسمعه الآن من الساسة الأميركيين بعدم التخلي عن «إسرائيل» وسط ما يجري من صراعات.

وهذا ربط الصراع العربي الإسرائيلي بالصراعات الدولية، وهكذا هيا موقع فلسطين لوجود أقطاب كبيرة في المنطقة، أضف إلى ذلك ما كان عليه العرب من ضعف وتفكك، مما جعل قضية فلسطين مستمرة حتى أيامنا.. وهكذا بدأت الحركة الصهيونية كحركة استعمارية متحالفة مع الرأسمالية الصناعية الغربية، وقد عمل يهود الغرب في القرن التاسع عشر للسيطرة على عالم المال واستطاعوا ربط مصالحهم الاقتصادية بحركة الاستعمار، وارتبط التوسع بفكرة التجارة من أجل الثروة. وقد ساندت بريطانيا مساعي الصهيونية في المؤتمر الصهيوني الأول بإقامة وطن قومي لليهود بضمانة من القانون العالمي، وهذا جعل «هرتزل» يسعى إلى كسب التأييد فزار الملوك والأباطرة في عصره، مع أنه كان دائماً يعرف أن بريطانيا هي الأمل المنشود، ولذلك سعى بكل قوته للتحالف مع بريطانيا لإنشاء دولة لليهود في فلسطين، علماً بأن ساسة بريطانيا عرضوا عليه مناطق أخرى لكن زعماء الحركة الصهيونية أصرروا على فلسطين وأعلنوا في مؤتمرهم السابع عام

1905: أنه لا بديل لفلسطين، خاصة بعد فشل هرتزل وغيره بإقناع السلطان عبد الحميد بمنحهم موطن قدم في فلسطين.

وفي وسط هذا الجدل الكبير، وفي عام 1908 صدر الدستور العثماني الذي ينص في بعض مواده على استقلال البلاد العربية، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدوائر الحكومية، وقد عبر كُتّاب فلسطين عن فرحتهم بذلك الحدث العظيم وكان منهم الأستاذ خليل السكاكيني الذي كان آنذاك في أميركا، والشاعر عبد المحسن الكاظمي الذي نظم في الحدث شعراً.

كانت فلسطين جزءاً من بلاد الشام، وبقيت على حالها تجود أرضها إذا جادت السماء بمطرها، وكانت أرضها تُزرع بوسائل زراعية بدائية، ومع ذلك، فلم يركن أهلها إلى دعة، ولم ينتظروا عوناً أو مساعدة، بل كدوا وبنوا وزرعوا وعمّروا البيوت والمزارع.

وكان التعليم حينذاك بدائياً، وربما لم تكن في فلسطين بألويتها إلا مدرسة ثانوية واحدة، مع أن مدارس الإرساليات كانت كثيرة، كالمدرسة الأميركية والمدرسة الألمانية والمدرسة الإنكليزية والمدرسة الفرنسية والإيطالية والروسية ثم تطورت المدارس العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فساهم هذا التطور في التعليم إلى رحيل بعض الشبان خارج فلسطين طلباً للعلم فمنهم من سافر إلى بيروت أو طرابلس الشام أو إلى الأزهر في مصر أو إلى الأستانة، ومنهم من اتجه إلى أوروبا وخاصة إلى فرنسا، ليعودوا إلى وطنهم لخدمة مجتمعاتهم ويرفعوا من شأن بلدهم. وهذا ما ذهب إليه الدكتور ناصر الدين الأسد «ومع ذلك فإن البذور الأولى للنهضة الفكرية الثقافية في فلسطين قد غرست في هذه الفترة...».

وفي سنة 1915 بُنيت الكلية الصلاحية في القدس، ونُخرج منها عدد لا بأس به من المعلمين الذين انتشروا في مدن وقرى فلسطين، وخدموا وطنهم وأهلهم ولغتهم، ورغم ما كان من تعقيم فإننا نستطيع القول، أن أبناء فلسطين قد بنوا المطابع وأنشأوا المجلات والجرائد، وقد ظهرت هذه المجلات بأسماء كثيرة غطت مساحة كبيرة من الأراضي الفلسطينية.

انتهت الحرب العالمية الأولى، وانتهى عصر الحكم العثماني في بلاد الشام، وبدأت النهضة الأدبية تؤتي أكلها في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، لكن فلسطين آنذاك رزحت تحت أنياب الانتداب البريطاني الذي حقق لليهود حلمهم بتنفيذ الوعد المشؤوم «وعد بلفور» فقد أعطى من لا يملك لمن لا يستحق.

فتح إثر ذلك ميدان الكفاح والجهاد باللسان والسنان مدة طويلة تخلت أثناءها بريطانيا عن وعودها للعرب، وراحت تنتكر لمبادئ الصداقة معهم، وكشفت عن نواياها بعقد معاهدة «سايكس بيكو» بينها وبين فرنسا، والتي بموجبها قسّمت بلاد الشام، وقضى هذا التقسيم بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وثبتت ذلك رسمياً عام 1922، بإقرار عصبة الأمم صك الانتداب. فبدأت بريطانيا بتنفيذ ما خططت له لأبناء فلسطين، وأثناء ذلك قامت الثورات، وتتابع الأحداث وحتى سنة 1947، وكان من بينها انتفاضة الشعب الفلسطيني الكبرى والتي دامت ثلاث سنوات بين سنة 1936-1939، ووقف الشعب العربي حينها إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وقد روى الشعب الفلسطيني في هذه الفترة أرض فلسطين بدمائهم الزكية، وضحوا بعدد كبير من الشهداء، سَطَرُوا خلالها صفحات رائعة من البطولة والشرف والفداء.

هذه الأحداث العظيمة الثقيلة، أحدثت نهضة عامة من الثقافة والفكر والأدب، وأبرزت شعراء كان لهم الأثر المتميز في وعي أبناء شعبهم وخاصة في الربع الثاني من القرن العشرين، فقد كان الانتداب البريطاني بلاءً ثقيلاً، ومن خلال برنامج منمّج، قامت بريطانيا بتحويل فلسطين العربية إلى دولة يهودية صهيونية، واستقدمت قطعان اليهود من كل أنحاء العالم وأحلتهم مكان الفلسطينيين، ثم قامت بتضييق الخناق على المزارعين في حقولهم ومزارعهم بحصار اقتصادي كما قامت بإعدام الشبان الفلسطينيين الثائرين على سياستها وعلى المحتلين، ومقابل ذلك قامت دولة الانتداب بتزويد العصابات الصهيونية بالأسلحة والذخيرة ومساعدتهم بالاستيلاء على الأراضي الفلسطينية. هذا بالإضافة إلى تعيين أول مندوب سام لفلسطين يهودي الأصل، بريطاني الجنسية، والذي أخذ على عاتقه تهويد فلسطين وتقسيمها إلى ألوية تتناسب مع وجود اليهود في مناطق فلسطين.

كان إبراهيم طوقان يرى ويسمع إلى جانب إخوانه من المثقفين الشعراء الذين كانت الأحداث تعصر قلوبهم، وقد وجد إبراهيم في تلك الأحداث ما ينبه به على ظلم المستعمر وطغيان المحتل فقام يكشف عن وجه هؤلاء فقال:

يَا قَوْمَ لَيْسَ عَدُوَّكُمْ مِمَّنْ يَلْبِسُ وَيُـرَحِّمُ
يَا قَوْمَ لَيْسَ أَمَامَكُمْ إِلَّا الْجُـلَاءُ فَحَزَمُوا

هكذا كان إبراهيم طوقان في هذه الفترة الصعبة من تاريخ وطنه، فقد برز كالنجم اللامع وهو يتصدى بتناجه الشعري للمؤامرات التي كانت تحاك لبلده وشعبه. فكان

37 لشعره صدى مؤثراً في أوساط الشعب الفلسطيني الذي تغنوا بشعره لأنه كان من أكثر الشعراء تمثيلاً لأحداث الوطن، صادقاً في تفاعله مع ما يجري. صحيح أنه بدأ شعره غزلياً أو عابثاً أو متهمكاً أو مداعباً، لكن أحداث فلسطين ساقته ليصبح شاعراً وطنياً يتفاعل بصدق وعفوية مع هول تلك الأحداث التي طوقت الوطن، فكان وصافاً دقيقاً لما يعانيه الشعب الفلسطيني.

حياة إبراهيم طوقان

إبراهيم طوقان

مولده وبيئته

وُلد الشاعر إبراهيم عبدالفتاح داود الآغا طوقان، عام 1323 للهجرة الموافق لسنة 1905 ميلادية، في مدينة نابلس، قلب الجزء الشمالي من فلسطين. هذه المدينة التي أقامها الرومان بين درجتي 32، 33 شمال خط الاستواء وكان يطلق عليها «نيابوليس» التي تعني القصر الجديد، ويكتنفها جبلان يشكلان خارطة لوسط المدينة هما جبل عيبال وجبل جرزيم، وهي ليست بعيدة عن مدينة الناصرة، وتتصل بسلسلة جبال القدس، ويتخللها سهول خصبة ويتجمع في بعض سهول قراها مياه الشتاء التي تبقى حتى أواسط الصيف. وجبل نابلس بسهوله وأوديته وجباله يُشكل لوحة رائعة المنظر، ويُزرع فيه أشجار المناطق الجبلية وأشجار المناطق الحارة المعتدلة، وتشتهر مدينة نابلس بصناعة الصابون، و«الكنافة النابلسية» المعروفة بلذة طعمها.

وقد أُطلق على جبل نابلس، جبل النار، وعُرفت المدينة بهذا الاسم إثر حملة نابليون بونابرت، الذي كان ينوي احتلال مدينة عكا، وعندما أحس أحمد الجزار والي عكا، عدم إمكانيةه على مواجهة جيش نابليون، استنجد بشيخ جبل نابلس، وأهاب به إرسال مدد له من الرجال والعتاد لدحر الفرنسيين الذين جاؤوا لهدم الدين واحتلال بلاد الشام، وقد أرسل ذلك في قصيدة مؤثرة، تعبر عن أخوة أهل الوطن ووحدتهم، تأثر شيخ نابلس آنذاك الشيخ يوسف آل جرار، فهبّ يستنهض الهمم بقصيدة أخرى تعبر عن الغرض بحماس شديد لنجدة مدينة عكا وواليتها وساكنيها، فلبّى مشايخ الجبل وفرسانهم من قبائل آل النمر، وآل جرار، وآل الجيوسي، وآل برقاوي، وآل طوقان، وهاجموا جنود نابليون في مرج ابن عامر ودحروهم إلى وادي عزون، ولما وجد الفرنسيون ضيق المقام عليهم، مالوا إلى الخديعة والحيلة، فقسموا جيشهم إلى قسمين، حيث انسحب القسم

الأول إلى السهل، وتوارى القسم الثاني في أحراش وادي الباشا، فعلوا ذلك تاركين ذخائرهم ليشغلوا العرب بها، وتنبه العرب إلى حيلة الفرنسيين، وبدلاً من أن يقعوا في مصيدة خطة قائد جيش نابليون قام المشايخ بإطلاق النار على العتاد والذخائر فاحترقت، واحترقت معها الأحراش القريبة بمن فيها من جنود الجيش الفرنسي، حينها صعق نابليون، وخاب أمله لما لحق بجيشه، مما دفع أحد ضباط نابليون واسمه «دوماس» على مهاجمة المقاتلين العرب على رأس جيش لتأديب جبل نابلس، فأحرق قلعة صانور، لكن محاولته باءت بالفشل، حين تصدى له الشاب «عايد الشبيطي» وأطلق عليه رصاصة أرداه بها قتيلاً، فآثر جيش نابليون الانسحاب عن المنطقة خائباً، وقيل أن نابليون خلع (طاقيته) ورمى بها من وراء سور عكا لتكون شاهداً على أنه وصل إلى هناك، ومنذ ذلك الحين يُطلق على جبل نابلس، «جبل النار».

وهذه أبيات الرسالة التي أرسلها الجزار إلى شيخ جبل نابلس يقول فيها:

على ما يقول المجاهد الذي فاض مابو	بدمع جرى مني على الوجنات
ولا يخلق الرحمن أفضل من النبي	النبي الهاشمي سيد السادات
يا غادياً مني على صيد حية	تجد السرى لا تأمن السّروات
رباعية لا ضمّاً مايمل العبا	تسبق هبوب الريح بالفلوات
تهدي هداك الله خذلي رسالتي	مرقومة بالخط من العبرات
اقطع بها مرج بن عامر وقبل	تلفي على بلادها نخوات
تلفي على جينين مع رايق الضحى	تلقى بها علالي وقصور مبنيات
طق الها بالسرع لا تأمن ألونا	قبّل على «صانور» فيها وبات
تلقى بها سبع الفلا سيّد الملا	لسنين «الغلاصيطو» علفات
قل له لا تحفظ الزلات يا طالب الثنا	مضى الذي مضى زمانه وفات
وأيش نخبرك عن علّة ما نحصي عددها	نصارى ترى ملبوسها اسكفات
اجتنا الفرنسي ساوي شبه الجراد والحصي	سلاطين سبعة مع سبع كرات
يهدّوا جوامعنا وينووا كنائس	ويدعوا قناديل الإسلام مطفيات
بريد منك فزعة عامرية	يوم الوغى ما تهاب من شوفات
تنطح كراديس الافرنج بجموعكم	وتخلى عيون الكفر مطفيات

هذا وقد تعاقبت أمم على مدينة نابلس كان منهم: الرومان والسومريون والمسلمون والصليبيون، كما مرّ عليها قادة وعسكريون كان أشهرهم صلاح الدين الأيوبي الذي جهز جيشه فيها لمعركة حطين، ثم الظاهر بيبرس الذي طرد الصليبيين الذين عادوا بعد موت صلاح الدين، وقد بقيت الأسر والعشائر تحكم جبل نابلس خلال الحكم العثماني، وظلت المدينة مركزاً تجارياً وصناعياً ووطنياً.

وكانت عائلة طوقان، من العائلات العريقة التي عرفها جبل النار، ومن أكثرها حفاظاً على التراث والعادات والتقاليد، كانت أسرة ذات يسار وعلم، «أسرة فاضلة سرية معروفة بمكانتها الاجتماعية وتأثيرها في الحياة الفكرية والاقتصادية» وقد أثبتت حضورها في الناحية وفي المدينة، فقد كان جدّ إبراهيم لأبيه «داود الآغا» حافظاً للتاريخ، ميّالاً للأدب، وكان رجلاً اقتصادياً، فكان صاحب تجارة ومصابن، وهذا كله أتاح لأبناء هذه العائلة أن ينهلوا العلم والمعرفة في كتاتيب نابلس ومدارسها. وكان والد الشاعر، عبدالفتاح طوقان من أعيان المدينة ونشطاء الوطنيين، وقد تعرض للسجن والنفي، وكان عضواً منتخباً في قيادة حزب الكتلة الوطنية، وكان من أول الموقعين عام 1913 ضد مشروع الأصفر (قرار بيع الأراضي المدورة بالمرزاد العلني وعدم إعادتها للمزارعين الذين أخذت منهم بطرق استبدادية)، كما كان عضو المؤتمر العربي الفلسطيني السابع، ثم عضواً في اللجنة التنفيذية عام 1928، وكان ضمن الوفد الفلسطيني إلى المؤتمر العربي القومي في بلودان بسوريا عام 1937.

أما والدة الشاعر (فوزية العسقلاني)، فكانت مثل غيرها من نساء فلسطين، ربة بيت، وكانت امرأة مريحة، صاحبة نكتة، وهي نشيطة تحذب على أبنائها، قريبة من النفس، خفيفة الظل، سريعة البديهة.

في وسط هذه الأجواء، وبينما كان أبناء فلسطين يدافعون وينافحون عن وطنهم، ويكافحون عن وجودهم وبقائهم، فتح إبراهيم طوقان «عينه على الدنيا مهزول البنية رقيق العود»، وكان ترتيبه الثاني بين الأبناء والبنات. وتقول فدوى طوقان إن أمه «ذاقت في طفولته الحلوى والمر، لقيت فيه من الحزن وطارات الهم أضعاف ما لقيت فيه من سعادة الأمومة». وقد رافقه الداء منذ اليوم الأول لولادته، وامتد المرض معه في صباه وشبابه، وقد لازمته علل ثلاث طوال حياته، صمم في أذنه، وقرحة شديدة في معدته، واستعداد لشتى الالتهابات في أمعائه، وبسبب ذلك تردد كثيراً على الأطباء، وتناول أنواعاً كثيرة من المسكنات، واضطر أكثر من مرة الانقطاع عن الدراسة، ولكن ورغم كل هذا فقد كان في

حادثة سنّه طفلاً مرحاً لعباً لا يهدأ ولا يستقر، «وكان أهله يترفقون به لضعف بنيته وخفة روحه، وفي مرحه وظرفه الذي كان يخلّص به من كل لوم وتعنيف».

ويبدو هذا واضحاً كما نخبرنا شقيقته فدوى، من مداعبة جدّته لأمه التي كانت تتحدث بلكنة تركية، فكان يعرف نزعها، ويحاول استثارتها بكثرة حركته حولها، والضجة التي يثيرها، وحركته بالقفز مما يزيد تهرمها بعبث الطفولة فيجبرها على زجره برطانتها التي تخالطها كلمات عربية بلكنة واضحة وخاصة في مخارج الحروف، فيضحك الطفل، لأنه تمكن من غيظ جدته وتهديدها، فيهرب أمامها وتلحق به فيقفز إلى شجرة في ساحة الدار، ويتعلق على فرع غليظ فيرضيها ببعض الأهازيج الشعبية التي كانت شائعة آنذاك بين أقرانه، فتعود الجدة إلى ابتسامتها ومداعبته بكلمات حلوة كان يريد أن يسمعها.

أما جدّه لأبيه فكان يقول الشعر والزجل، فتعلق به إبراهيم، الذي تأثر به كثيراً، وكثيراً ما كان يقف أمامه، يرتجل قولاً يرسله في وصف حادث رآه في بيته أو نكتة سمعها أو طرفة أعجبته من عبارة قيلت أمامه فكان يرسلها موزونة يقلد فيها جدّه بصوته أو حركة يديه وأصابعه، أو مما حفظه عن أمه التي كانت تقرأ له بعضاً من قصص عنتره أو أبي زيد الهلالي أو سيف بن ذي يزن في سمر الشتاء أو أمسيات الصيف، فيثيبه جدّه على ذلك تشجيعاً وتحفيزاً.

كما تأثر إبراهيم بوالده، الذي نهج في تربية أبنائه وإعدادهم للحياة على الحكمة والمسيرة واللباقة والملاطفة مسيرة الزمن بالتوجيه والتقويم «وكما تعلق إبراهيم بالزجل ثم الشعر في نشأته وصباه، كذلك أولع بالقرآن الكريم، يديم النظر فيه ويعاوده القراءة والتفهم لآياته ومعانيه... ولم تكن عناية إبراهيم بالقرآن موقوتة أو عابرة فقد ترك إعجازه في نفسه هزة وأثراً عميقاً وأفاد من بلاغته وبيانه حتى انتقل إلى المدرسة الرشادية في بلدته نابلس» وهذا أيضاً كان واضحاً في حياته الدراسية في القدس وفي الجامعة. وكان كثيراً ما يقرأ القرآن على عمّته (كريمة) خاصة في شهر رمضان المبارك وهذا ما بينه إبراهيم نفسه «الجميل في رمضان عندي خاصة، أنني أقرأ القرآن فيه، وأقرؤه كله، هذا ما أصنعه في كل سنة وأتلى ذبه، فأصقل به لغتي، ونعمّ صقال القرآن، وتستوقفني بعض التراكيب، فأرجع إلى كتب البلاغة، فأتفقه بكشف أسرارها، وتشكل عليّ بعض المعاني فأرجع إلى سيد المفسرين أستاذ الدنيا، جار الله محمود الزمخشري، فأصدر عنه ريان شبعان، وأنتبه إلى طرفة تاريخية، فأرجع إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري فأنسى نفسي بين أحاديثه، هذا فضل رمضان عليّ، وهكذا أحسن استغلال شهر كامل في مدينة نابلس».

وقد ذكر لي ولده المهندس جعفر أن والده كان يحب لحظة قراءة القرآن كما سمع من جدّته وأنه كان ودوداً واسع الصدر متسامحاً صافي السريرة محباً لوالديه محترماً لأهله وأصدقائه، قوياً عند حقه.

فتح الشاعر إبراهيم عينية على هذه الدنيا، ورأى سياط الأتراك تلهب ظهور العرب، ثم نشأ وترعرع تحت استعمار قاسٍ من الإنكليز الذين حكموا وطنه بالسياط والنار، وأفزعه معتقلات المستعمر ورؤيته مظالمهم، وهكذا شهد عهدين أسودين، فرأى بلده والجراح تدميه ووطن مهيبض الجناح، فكان لكل ذلك آثاره على نفسيته وعلى شاعريته التي جاءت كما وصفها من عاشوا في زمانه، ومن ردّدوا أشعاره من أبناء وطنه وأبناء العروبة في جوار وطنه. في فترة زمنية لو امتدت طويلاً، لأتيح لها إنتاج الكثير الكثير فوق ما نظممه وقاله في الوطنيات والوجدانيات وشعر السياسة وشعره القومي.

مراحل الدراسة

كان إبراهيم في التاسعة من عمره حين التحق بالمدرسة الرشادية في مدينة نابلس، وقد أمضى فيها أربع سنوات، كانت فترة الحرب العالمية الأولى 1914-1918 تلقى فيها علومه الابتدائية على أيدي أساتذة كرام كان منهم المرحوم الشيخ إبراهيم أبو الهدى الخماش، والمرحوم الشيخ فهمي هاشم. وكانت المدرسة تنهج بفضل أساتذتها وشيوخها نهجاً حديثاً في تدريس اللغة العربية، لم يكن مألوفاً في مدارس المدينة من قبل، فهؤلاء المدرسون، من خريجي الأزهر الشريف، وقد تأثروا بالحركات الأدبية والشعرية في مصر، ونقلوا تجارب شعراء مصر معهم أمثال شوقي وحافظ، مما أشاع روح الشعر والأدب بين طلابهم، وفتحو آذان طلابهم على أسلوبهم الإنشائي، وشنفوا أسماع الطلاب بدرر شعرية لشوقي وحافظ ومطران. هذا إضافة إلى جرأة المدرسين ونزعتهم القوية العروبية، ومبادئ الوطنية التي كانوا يحملونها في صدورهم، رغم حصار المستعمر لكلماتهم، وكانوا في نفس الوقت علماء أفاضل وشعراء مبدعين وأدباء مثقفين، وقد استطاعوا بحماسهم وإخلاصهم أن يغرسوا في طلابهم وخاصة إبراهيم أول جذور النزعة التجديدية في الفكر والتعبير، وتحفيز روحه الوطنية التي ورثها من بيته وجدّه ثم والده أثناء طفولته.

وبُعَيْدَ انتهاء الحرب العالمية الأولى، انتقل إبراهيم إلى القسم الداخلي بمدرسة المطران في القدس، ولم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره وقد بقي فيها ما بين 1919 و 1923، وفيها عرّفه أخوه أحمد الذي كان يدرس في الكلية الإنكليزية بالأديب والأستاذ نخلة زريق، وكان لهذا الاتصال أثره الكبير في إتقانه اللغة العربية وحبّها. فكان

فيشجعه جده بالإطراء أو بهدية بسيطة. وفي المدرسة كان يلقي شعراً، فيسمعه المعلمون الذين كانوا يطربون لشعره، فيثنون عليه ويشجعونه على قول الشعر، ويتوقعون له مستقبلاً عظيماً، خاصة عندما كان يحاكي شعراء عصره فيشنف أسماهم بالعجب والطرب وهو ينشد أشعاراً عربية وأخرى تركية، بموسيقى شعرية جميلة، وكان صوته الجميل وإلقائه الذي يشنف الأذان يزيد السامعين إعجاباً وطرباً.

ولكن فإن لكل شاعر أو أديب متميز، حادثة ترتبط ببواكير أعماله الأدبية، تحرضه على الإبداع الفني الذي تميز به، وبما أن موهبة إبراهيم قد بدأت منذ صغره، فمن الجائز أن نذكر له، ما كان يذكره في كثير من الأحيان أو كلما سنحت له الفرصة في ذلك، فتلك هي قصيدة قالها في المداوية الموساسية عندما دخل المشفى في بيروت للعلاج، وهذا ما حدثنا به أخته فدوى حين قالت: «تداولها أخوه أحمد وصديقه سعيد تقي الدين بالنقد والملاحظة، حتى اختلف الرأي بينهما في تقدير القصيدة، وكان الشيخ أمين تقي الدين.. بمنزلة القاضي الأدبي.. فعرض القصيدة عليه ابن أخيه سعيد، ولما قرأها متأملاً، كتب عليها حكمه هذا: (روح شاعرة، ليتها في غير معاني اليأس، فالشباب واليأس لا يجتمعان، إن النظم يبشر بمستقبل فيه مجيد)». فإذا كان هذا هو رأي الشاعر الكبير الشيخ أمين تقي الدين، وهو من أوائل المجددين العرب في لبنان ومصر، ليعود إبراهيم طوقان نفسه يقول بعد حين: «بهذه العبارة قسوة وعنف أفاداني في أن أكون مع نفسي بعد ذلك النقد الأدبي قاسياً عنيفاً أمزق القصيدة حين أشعر بالتكلف يدب فيها»، وهذا جعله يعتني بشعره فلا ينشره إلا بعد تنقيحه. وبهذا المعنى تقول فدوى طوقان: «كانت عاطفته في تلك الفترة من صباه جياشة بأنفاسه الشعرية، فيودعها في إطارها الفني قصيدة يستوحي معانيها وصورها من الحياة التي كان يعيشها وجدانه وشعوره، وقد أوتي أداة التعبير لكنه يخشى رأي النقاد، فلا ينشر شعره إلا بعد أن يتجاوب معه طويلاً حتى يدفعه إلى الظهور».

كانت محاولاته الشعرية قد بدأت عندما انتقل إلى القدس، حين حاول قول الشعر الصحيح، وفي هذه الفترة استعان بأخيه أحمد ليشرح له البحور الشعرية، وأصول القوافي، وكان لديه استعداد ومواظبة ومثابرة لاستيعاب أمر العروض، وبذلك فتح له باب دنيا الشعر الذي أحبه، بل قل الذي ملك عليه نفسه وروحه وراح في مدرسة المطران بالقدس يقدم محاولته مع (العدس) والتي كانت تعبر عن مشاعر كامنة في نفس إبراهيم مع عدم نضوج التجربة إلا أنها كانت محاولة كما أظن ناقدة لموقف معين، ناقماً فيها على الملل أو مداعبة على مادبة في السكن الداخلي فيقول فيها:

عدسٌ عدسٌ عدسٌ عدسٌ وبه الأولاد قد انغمسوا
قاموا قعدوا فزوا قمزوا لما أطمعناهم (غولا)
سنتين درسنا فرنساوي (ديكتيه) مع ميسيو (صيداوي)
والآن زهقنا (وي) (وي) (وي) فهلّم نشد الأرحالا

فكلمة غولا تعني (جول) الهدف، وكلمة (ديكتيه) فرنسية تعني الإملاء و(صيداوي) معلم اللغة الفرنسية في المدرسة، وكلمة (وي) فرنسية معناها نعم، وهي أبيات مرتجلة بعد وجبة طعام، وكانت الأبيات عفوية ربما قالها في السكن، وعلى أي حال فهي محاولة عروضية من البحر المتدارك.

لكن موهبة إبراهيم طوقان تجذرت في بيروت في عالم رحب، مساحته في الحرية واسعة، والأدباء كثيرون، ففي سنة 1923، نشر إبراهيم طوقان قصيدته الأولى وقيل في شأنها حينذاك: «لعلها أول قصيدة نُشرت في صحيفة. رحم الله عمي الحاج حافظ، قرأها فأبدى إعجابه بها، وطلب إليّ أن أبيضها لينشرها في الجريدة، فأسرعت إلى تلبية طلبه، وعنيت بكتابتها قيراطاً، ويوضح اسمي تحتها ثلاثة وعشرين قيراطاً، ثم أتيت بها إليه، فقال رحمه الله، أتضع اسمك هكذا إبراهيم طوقان؟! لا يا بني، يجب أن تضع اسم الوالد أيضاً، إبراهيم عبدالفتاح طوقان، اعترافاً بفضل عليه..» فنشر هذه القصيدة، أكد له ذلك بأنه يمتلك موهبة شعرية، فراح يتمثل الصور المعاصرة داخل حرم الجامعة وخارجه. حيث الصراعات الفكرية والأدبية، وهناك اطلع على المذاهب الأدبية، وخاصة أصحاب المذهب الرومانتيكي، كما اطلع على آثار الشعراء والكتّاب القدماء والمحدثين بشكل متفحص ودقيق، فكان أول عمل شعري لفت الأنظار إلى شاعريته في قصيدة (ملائكة الرحمة)، فكان سعيداً ومسروراً، وغمرته نشوة مفعمة بالزهو، وفي هذا الصدد يقول: «كنت قد توقفت في قصيدة ملائكة الرحمة وسمعت كثيراً من كلمات الإعجاب بها، فخيّل إليّ أن كل قصائدي في المستقبل ستكون مثلها مدعاة للإعجاب». غير أن هذا الزهو وتلك السعادة لم يستمر، عندما تعرض إلى نقد جراح من أخيه أحمد إثر نظمه قصيدة غزلية وساءه ما دار من نقاش بشأنها بين أخيه أحمد وصديقه سعيد تقي الدين فيقول إبراهيم في ذلك: «وأخذت في نظم قصيدة غزلية، وأنا مفعم بزهوي وخيالي، وأخذت أغوص على المعاني، وأتفنن بالألفاظ!! ... وكان يشرف على نشأتي الأدبية، اثنان من الزبانية هما: أخي أحمد، وسعيد تقي الدين، فهرعت إليهما لأسمع إعجابهما وأنتشي

به». وبدلاً من النشوة التي توقعها إبراهيم بقصيدته فإنه أصبح كمن أحس بمؤامرة عندما سمع أخاه أحمد يقول: «هذه قصيدة سخيقة المعنى، ركيكة المبنى» وقال سعيد، محاولاً تخفيف الصدمة على إبراهيم: «ليس من الضروري أن تنظم كل يوم قصيدة» ثم عاد أحمد فقال: «كلها تكلف وحذقة».

سمع إبراهيم تعليقات أحمد وسعيد، فلم يتمالك نفسه، حتى أجهد بالبقاء لكنه لم ييأس ولم يُحبط، وما لبث أن عادت ثقته بنفسه حين اختطف سعيد منه قصيدة «عارضي نوحى يسجع» ليعرضها على الشيخ أمين تقي الدين، ويعود بها إلى إبراهيم وقد علّق الشيخ عليها: «روح شاعرة، ليتها في غير معاني اليأس، فالشباب واليأس لا يجتمعان، أما النظم فيسّر بمستقبل مجيد»، وبعد ذلك أصبح يقف من شعره موقف الناقد، ومن ذلك الحين بدأ إبراهيم طوقان يتألق في دنيا الشعر، وبدأت الألسنة تتناقل قصائده تتغنى بها داخل الجامعة وخارجها، وخاصة في مجالس الأدب والشعر، وعلى رأس أصحاب هذه المجالس الشيخ أمين تقي الدين، والمرحوم الأستاذ جبر ضومط، والشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير).

مصادر ثقافة إبراهيم طوقان

تشكلت ثقافة إبراهيم طوقان من مجموعة من العناصر كوّنت في النهاية مصادر ثقافته التي جاءت متناغمة في تكوين شاعريته، فقد تمثلت في بداياتها من بيئته المحلية في بيته وهو ما يزال طفلاً صغيراً، حيث تأثر بوالده الذي كان يدعم أولاده ويربيهم على الأخلاق الفاضلة، وعلى الدين الحنيف، بقراءة القرآن الكريم واستظهاره، ولذلك ولع إبراهيم بما علّمه إياه والده، فاستفاد من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته وتلذذه بتلاوته، فترك إعجاز القرآن أثراً واضحاً في ثقافته.

أما جدّه الذي كان شاعراً وأديباً، فكان إبراهيم يرتجل الشعر والزجل أمامه، وكان جدّه يشبهه على ذلك، ثم مما كان يسمعه من والدته من قصص قديمة، فيعود إبراهيم ليقصّها على غيره، أضف إلى ذلك تشجيع أخيه أحمد على قول الشعر وتعليمه العروض والقوافي.

ومن المصادر الأولى التي أثرت في ثقافة إبراهيم ما تعلّمه على أساتذته في المدرسة الرشادية ومنهم الشيخ إبراهيم الخماش الذي حرص على تعليم طلابه العربية وزرع الوطنية والقومية فيهم، وكذلك الشيخ فهمي هاشم العالم الفاضل والأديب الشاعر الذي

فتح عيون طلابه على قول الشعر وفهمه، وقد استطاع معلمو هذه المدرسة زرع أول بذور الشعر في حياة شاعرنا إبراهيم، الذي كان ثمرة من ثمار هؤلاء المدرسين والذين طبعوه بطابع النزعة التجديدية في الفكر والتعبير.

وفي مدرسة المطران بالقدس، تأثر إبراهيم طوقان بأستاذه نخلة زريق الذي حبب إليه اللغة العربية والشعر القديم، فصقلت ألفاظه وميز بين الغث والسمين من الشعر.

وفي الجامعة الأميركية في بيروت، لقي إبراهيم ما لم يحده في نابلس وفي القدس، فكانت رحابة الجامعة بأساتذتها وطلابها ومعاجمها وتراثها الأدبي ومصادرها ومراجعها.

ورغم مصادره المتعددة فقد بقي القرآن الكريم أهم مصادره التي تأثر بها، وذلك نتيجة طبيعية لتربيته الأولى. فنراه يوظف هذه الثقافة الدينية في أدبه وشعره، ولا تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها.

ففي قصيدته «حطين» يقول الشاعر:

جبريل ينفخ في فؤادك ما يفيض على اللسان

وفي نفس القصيدة يقول:

بالعاديات لديه ضجاً والأسنة في اللبان

ترمي بهارجها وما غير العجاجة من دخان

ومنها أيضاً:

وعلا الأذان ورجعت تكبيرة شرف الأذان

ومن تعبيراته الشعرية ما أورده في مقدمة «الثلاثاء الحمراء»:

لم ألق مثلك طالعاً في روعة فاذهب لعلك أنت يوم المحشر

أو قوله في «الساعة الثالثة»:

قسماً بروحك يا (عطاء) وجنة الملك القدير

ومنها ما عبّر عنه الشاعر في قصيدته «اشترى الأرض»:

ليصم عن مبيعته الأرض يحفظ بقعة تستريح فيها عظامه

وهذا اقتباس من معنى الآية الكريمة ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 184]
وعبر الشاعر عن كظم الغيظ صراحة في قصيدته «يا رجال البلاد» حين ضاقت عليه
الكلمات، فكاد الغيظ يخنقه فقال:

شفها الغيظ والأسى تراها كظمت غيظها وأخفت أساها
مقتبساً من قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 134].
ومثل هذا أيضاً نلمسه في قصيدة «مناهج» حين يقول:

أمامك أيها العربي يوم تشيب لهولهُ سود النواصي
وقوله:

فلا رحبُ القصور غداً يباق لساكنها ولا ضيق الخصاص
وقوله الواضح في نفس القصيدة:

تواصوا بينهم فأتى وبالأُ وإذلاً لنا ذاك التواصي
وليس منهجه في وطنياته أو قصائده السياسية وإنما تعدى ذلك حتى في غزلياته،
حين قال في قصيدة «في المكتبة»:

وسـقاه في الفـردوس مختوم الرحيق وركبه

مقتبساً هذه الصورة من الآية ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المطففين: 25] وكما في
قصيدة «الحبشي الذبيح» حين يقول:

وجرى يصيح مصفقاً حيناً فلا بصريزوغ ولا خطى تتكعب

اقتباساً من معنى الآية: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17]، وفي مثل قوله:

روضتك الغناء يا وردتي قد أنبتت من كل زوج بهيج

من معنى الآية الكريمة ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5] وكثيراً ما ردد
مثل هذا في شعر الرثاء الذي هو أقرب إلى الدار الآخرة والجنة والنار، ولو شئت أن أعدد
أماكن اقتباسه من القرآن الكريم لاحتجت إلى كتاب بحاله، وهذا يدل على ثقافته الدينية

مما انعكس على شعره في جميع أغراضه. فالشاعر إبراهيم طوقان يفيء في شعره إلى ظلال القرآن الكريم، ولذلك جاءت صورته معبرة كاملة، وقد استثمر بقدرته على النظم هذه المعاني الجميلة لاستثارة السامعين أو القارئ.

أما المصدر الثاني في ثقافة إبراهيم، فيتمثل باستخدامه مصطلحات وتعبيرات شعبية، وأزعم أن الشاعر كان ذكياً في استخدام الألفاظ الدارجة على ألسنة الناس، فيفهم شعره المثقف والعامي، وينفذ إلى مشاعرهم وأحاسيسهم، وقد أكثر من استخدام هذه المفردات في شعره الوطني وشعره السياسي، لأنه يعرف أنها تمس عقول الناس كافة كما تمس أحاسيسهم وقضاياهم.

ويظهر للباحث في شعر إبراهيم طوقان أنه انتقى ألفاظه الدارجة ليعين سخريته ويثير الضحك، أو ربما اقتبسها من أمثال عامية شعبية كما في قوله: «وخلص البلاد صار على الباب»، «شبعتم ظهوراً على ظهور الناس».

كما استخدم في نفس المجال ما تعارف عليه أهل السوق مندجاً مع روح العامة مثل قوله: «ناصر ي يا رمان من كفر كنة».

ومن هذه الصور التي استخدمها في قصائده الشعرية ما أورده في قصيدة «تفاؤل وأمل»:

وانظر بعينيك الذئاب	تعرب في أحواضها
وطن يباع ويشتري	وتصيح «فليحيى الوطن»
مثل الغراب، نعى الديار	وأسمع الدنيا نعيه
أله ثم الله ما أحلى	التضامن والوفا
لا بد من ثمر له	يوماً وإن لم يعقد

وهذا ما نجده كثيراً في قصيدة «فلسطين مهد الشهداء» يقول:

فيه الرحيل عن الربوع غداً إلى وادي الفناء

وهذه من قول العامة «من خرج من داره قل مقداره»، ومثل قوله:

فالمسح مثل المسحاح تضمه لهم خضر وحمر

كما قال أيضاً:

ولكنكم أضاع حقوقنا الرجل الموكبل بالحراسة
والله ليس هنالك إلا كل قنّاص الرئاسة
وهذا يتفق مع القول الشائع: «حاميها حراميها».

ومن قصائده التي حملت السخرية والتهكم قصيدة «إلى الأحرار» ومنها:
أنتم رجال خطابات منمقة كما علمنا وأبطال احتجاجات
وكذلك قال في قصيدة «الإيمان الوطني»:

لا تلمني إن لم أجد من وميض لرجاء ما بين هذا السواد
وهذا القول يستخدمه الناس بقولهم: «نفضت يدي منهم».
أو قوله في قصيدة «الشيخ المظفر»:

إن (المظفر) من حديد جسمه فيما أرى وجسومهم من سكر
مثل قول المثل: «يا شايف الزول يا خايب الرجا».

وله قصيدة بعنوان «زيادة الطين» ينعي فيها على أولئك الذين يزيدون تشاؤم الناس
وإحباطهم:

واليوم من شؤمكم نبلى بكارثة هذا هو الطين والماء الذي زاد
كقول المثل: «زاد الطين بله».

ويستمر الشاعر في إيراد مثل هذه المعاني، كما في قصيدته «فرحتي» يقول:
يا أخا الصوت الحنون لست تدري ما شجوني
تسلى، تسلى
وتراني، أتقلى

وهذا قول شائع خاصة عند الغضب «العصفور بتقلى، والصياد بتقلى».
ويبدو أن الشاعر كان مولعاً بضرب الأمثال، فسواء كان يريد التشبيه أو أنها كانت
تأتي الأمثال في شعره عفوية، فإنه استطاع أن يكسبها ذخراً بتشبيهاته الجميلة، وما أورده
في «مصرع بلبل» ختام قصيدته:

وردة تبهر العيون ولكن «كثرة الشم قد أضاعت شذاها»
وهذا مثل يُضرب لكثير من الأحوال.

ومثل تلك التشبيهات الجميلة وتضمن الأمثال ما قاله الشاعر في قصيدته «إليه»:

ذَكَرْتُ وَجْهَكَ فِيهِ «والشيء بالشيء يُذكر»
وقوله:

لَكُنْ أَرَاكَ سَعِيدَ «خُلِّ الشَّقِي بِحَالِهِ»

ولو تتبع قصائد إبراهيم طوقان، لوجدت الكثير الذي حفل بهذه العبارات ولكنني أضع هذه كأمثلة، وهي كما ترى منها سخرية، ومنها ما يثير الضحك، ومنها ما يبكي، وقد صرح بذلك بلغة سهلة بسيطة لا تكلف فيها ولا تعقيد، لغة مرنة استوعبت تعبيرات لها مترادفات فصيحة مما جعل من قصائد الشاعر مفهومة سهلة الحفظ والترديد لافتة.

ومن مصادر ثقافة إبراهيم طوقان، اعتماده على التاريخ، ودراسته لمجريات الأحداث، وقد ورد في شعره إشارات كثيرة للأحداث والشخصيات مما دعم به رؤيته الشعرية، وأغنت قصائده بأجواء البطولة والكفاح، وقد جاءت هذه الإشارات كمصطلحات رصّعت قصائده بدرر وضحت الغرض الشعري، ومما قاله في «الثلاثاء الحمراء»:

يَوْمَ أَطْلَ عَلَى الْعُصُورِ الْخَالِيَةِ وَدَعَا أَمْرَ عَلَى الْوَرَى أَمْثَالِيهِ
فَأَجَابَهُ يَوْمَ: «أَجَلْ أَنَا رَاوِيَةٌ لِمَ حَاكَمَ التَّفْتِيشُ» تِلْكَ الْبَاغِيهِ
ومنها قوله:

فَسَمِعْتُ مَنْ مَنَعَ «الرَّقِيقَ وَبَيْعَهُ» نَادَى عَلَى الْأَحْرَارِ يَا مَنْ يَشْتَرِي
ومما أورده في قصيدة «شرعة الاستقلال»:

وَإِذَا الْخِيَامَ قُصُورَ أَمْلاكِ الْوَرَى وَإِذَا الْقَفَارَ دَمَشْقَ وَالزُّورَى
وَيَارْبُوعَ الصِّينِ كَبَّرَ فَيْلَقَ وَبِأَرْضِ قَسْطَنْطِينِ رَفَّ لِسَوَى
تِلْكَ الْخَوَارِقِ إِنْ طَلَبْتَ أَدْلَى ثَبَتَ الْبَرَقَ بَيْنَ وَالْإِسْرَى

نزل الكتاب على النبي محمد ما يصنع الخطباء والشعراء
إن الكتاب شريعة استقلالكم فتدبروه وأنتم الخلفاء
وكأنني بأبياته في هذه القصيدة عدت إلى الفتوحات الإسلامية، والمصطلحات
الدقيقة التي وقعت في أماكنها فشذرت عطراً، عبر قراءته للتاريخ العربي الإسلامي. ومجد
المسلمين التليد في فتوحاتهم وانتصاراتهم. كما تذكرنا أبياته بقصيدة «ميسون» التي أحبت
بيت الشعر على قصور دمشق.

ثم يعود بالتاريخ إلى عز الدولة الإسلامية في دمشق، وانتصارات خلفاء بني أمية في
قصيدة «أنتم»:

«واجتماع» منكم يرد علينا غابر المجد من فتوح أمية
ومن ذكريات التاريخ ما قاله في قصيدته «زيادة الطين»:

من كان ينكر نوحاً أو سفينته فإن نوحاً بأمر الله قد عادا
حلّ الوبال بعيال فما به يا هيبة الله إبراقاً وإرعادا
ومن قصائده التي عبقّت بالتاريخ ذكره (بلقيس وسليمان) في قصيدة «دير قديس»:
ما عرش بلقيس في إبان دولتها ولا سليمان مزفوفاً لبلقيس
وفي «فتية المغرب» يسلط الضوء على فتوحات المسلمين للأندلس فقال:

نحن أبطال فتاها ابن زياد ولها نرخص غالي الأنفس
ومن هذا القبيل قال في «نشيد بطل الريف»:

يتهادى نـــــــــــــــسيم فيه أزكى سلام
نحـــــــــــــــو «عبد الكريم» الأُمير الهمام

هذا ما كان في التاريخ القديم، أما في التاريخ المعاصر فقد كانت الصورة أوسع
وأشمل، وهو في قصائده يقرر أن التاريخ فيه عبرة ولذلك حشد له قصائد كثيرة، وقد
وصف أحداث فلسطين وأحداث الوطن العربي والعالم الإسلامي.

ومن قصائده التي قالها «أطلقني ذاك العيارا» وقال فيها:

احشدي البيد أسودا واملاي الشام حقودا
ووعوداً وعهوداً وبنوداً وبنوداً

وعندما رثا الشيخ عبدالقادر المظفر، وصف اعتقاله، كما وصف قوانين الطوارئ التي فرضت ثم وصف رفضه التوقيع على الكفالة فسُجن فقال إبراهيم:

عرضوا الكفالة والكرامة عنده عبثاً... وهل عرض يقاس بجوهر
ورأى التحير في التخيّر سُبة ففدى كرامته «بسته أشهر»

ثم يصف موقفه وموقف من وقع على الكفالة فقال:

إن المظفر من حديد جسمه فيما أرى وجسومهم من سكر

وتحدث في قصيدة «أيها الأقوياء» عن المستعمر البريطاني والاحتلال اليهودي وقد وصف حديثه وهو يواجه للمستعمر والمحتل بسخرية وتهكم:

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة وختمنا لجنودكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقاً وفيّاً كيف ننسى انتدابيه واحتلاله

وهذه مصطلحات عصرية، أعلن عنها إبراهيم طوقان مما يؤكد ثقافته في قراءة التاريخ المعاصر، ومن الكلمات التي استخدمها أيضاً قضية فلسطين، والزعامات والأحرار، كما وقد ذكر أيضاً أسماء لها ذكر في التاريخ المعاصر، مثل: الملك غازي، الملك فيصل، عبدالكريم الخطابي، أحمد مريود وغيرهم من الأسماء وهي كثيرة وردت في قصائده وبهذا فقد جاءت قصائده سجلاً تاريخياً حافلاً بالأحداث والشخصيات وأسماء الأماكن خدمة لغرض القصائد الوطنية والقومية والسياسية، كما أنها تخدم غرضاً اجتماعياً، وكلها بأسلوب سهل أعطى أهمية لأشعاره وطبعها بالرصانة.

ومن مصادر ثقافة إبراهيم، ما تأثر به من شعراء وأدباء، من خلال مطالعته ودراساته التي انكب عليها طويلاً، فقد تغنى بكتاب الأغاني وتقول فدوى: «وما أعرف كتاباً أدبياً كان أحبّ إليه من كتاب الأغاني فقد كان يرى فيه دنيا تغمرها الحياة على اختلاف ألوانها، وناهيك «بالأغاني» من كتاب أدبي توفرت فيه المادة، وتنوع الأسلوب».

ومثلما أحب كتاب الأغاني، كان المتنبي من أحب الشعراء إلى قلبه، ولعله من أكثر الشعراء الذين تأثر بهم، وهذا واضح في قصيدته «مرايح الخلود» التي ألقاها في الذكرى

الألفية للمتنبى وقد استوعب طوقان في قصيدته مراحل من حياة المتنبى، فبعد التمهيد لقصيدته التي بدأها بقوله:

لما انجلت من حجب الزمان مرابع الخلود والمغاني
انتقل إلى مشهد آخر وبدأه بقوله:

طافت على الملوك والقيصرة فانقلبت تقول وهي ساخرة
حتى يصل بالقصيدة إلى مقطع «في حضرة المتنبى» فقال منه:

رأيت ظلاً شاملاً ظلّياً يضم صرحاً مائلاً جليلاً
فارتد طرفي عنهما كليلاً إذا طلبت لها تمثيلاً
(فالحادث الحمراء في «بوان»)

حتى يقول:

ذاك الذي وقفن عن جنبيه خلعت ملوك الأرض في برديه
أو الأنعام تحمت أخمصيه قيل اسجدي خاشعة لديه
فـالمتنبى سـيد المـكان

ثم يصل إلى علاقة المتنبى بكافور الإخشيدي، وينهي قصيدته «والحسد خالد» فيقول:

وتغمر الشرق بهذا اللهب قد يسترد الحق بعض الكتب
وقد يكون المجد في ديوان

ثم نجده يقتبس من شعر المتنبى في قصيدته التي رثى فيها أبي المكارم وقصيدة «صاحب غمدان»، ولكنه وإن اقتبس من قصائد المتنبى إلا أن اقتباسه جاء في تزوين قصائده التي أوفت بغرضها، كما أخذ معنى بعض أبيات المتنبى، ونسج على منوالها أبياتاً في قصيدة «يا حسرتاً» والتي قال فيها:

سهل الهوان على النفوس فلم يعد للجرح من ألم ... وخفّ العارُ
من قول المتنبى:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

كما تمثل إبراهيم طوقان إيقاع المتنبي الشعري والنفسي في قوله:

وأنا الذي اجتلت النية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وقد مثل إبراهيم هذه الصورة بإيقاعها في قوله:

لم يكن ما دَجَوْتُ حتى ترحلتُ فمن ظالم ومن مظلوم

وهذا التأثير لا يفاجئ المتأدب، فإبراهيم مثل غيره ممن تأثروا ودرسوا شعر المتنبي.

وكما تأثر إبراهيم بالمتنبي، فقد تأثر أيضاً بالمعري والذي ضمن قصيدته «مناجاة وردة» بيتاً كاملاً من أبيات المعري وفيه يقول:

تشتاق أيار نفوس الورى وإنما الشوق إلى وردة

هذا وقد أفاد طوقان من الأفكار والمعاني التي تناولها عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة «ليت هنداً أنجزتنا ما تعد»، وقد مثل ذلك في قصيدته «شوق وعتاب».

كما وافق إبراهيم أبا فراس الحمداني في قوله: «إذا مت ظمناً فلا نزل القطر» في قوله:

أيا وادي الرمان لا طببت وادياً إذا هي لم تنعم بظلك سرمداً

وقد ذكر إبراهيم بعض شعراء العربية كأبي نواس، وابن زيدون وولادة بنت المستكفي في قصيدته «غادة إشبيلية»:

أنا (ابن زيدون) وتصبويلية (ولادة) في دمهها والإهاب...

وكما ذكر أيضاً الأصمعي في قصيدته «رثاء الشيخ سعيد الكرمي» في قوله:

جامع الفصل في الرواية والشعر إلى الأصمعي طبع الوليد

والوليد الذي ذكره طوقان في بيته هو الشاعر البحري المشهور.

هذا وقد عكف إبراهيم على قراءة الشعر والنثر المعاصر، وخاصة عندما كان في بيروت، حيث أتاحت له فرصة الاطلاع والاشتراك مع الآخرين في تحقيق الكتب، وقد تأثر إبراهيم بغيره من الشعراء المعاصرين ومنهم شوقي وحافظ كما قرأ لمطران وغيرهم من شعراء العصر.

لقد تعددت نواحي النبوغ في شخصية إبراهيم طوقان، مما نوّع مصادر ثقافته، فكما كان إبراهيم شاعراً فقد كان محققاً وباحثاً وأديباً موهوباً، فقد كان ينعم بثقافة عربية قديمة وأجنبية، حيث تمكّن من الأدب العربي القديم وحفظ نماذج كثيرة منه. كما كان إبراهيم راوية لشعر كثير، وكما جادت قريحته في فن الكتابة العربية وهذا واضح في أحاديثه الإذاعية ومقالاته في الجرائد والصحف. كما عني بدراسة التوراة وتاريخ العبرانيين، وهذا واضح في ردّه على الأفلام الصهيونية.

واطلع أيضاً على الأدب الإنكليزي واطّلع على الأدب الغربي والسكسوني كما عرف الفرنسية.

كما برع في تحقيق النصوص العربية، وتتجلى هذه البراعة في عرض المستشرق التشيكوسلوفاكي الدكتور «لويس نيكل البوهيمي» على إبراهيم طوقان في مساعدته لنشر كتاب «الزهرة» لأبي داود الأصفهاني، فكان لإبراهيم مشاركة جدية في نشر الكتاب، وقد استفاد من هذه العلاقة مع نيكل في تصحيح مخطوطة الكتاب والتعليق على حواشيه وتنظيم فهرسه.

والحقيقة، ما كان الدكتور نيكل يسعى لمشاركة إبراهيم في عمل هذا التحقيق لولا تأكده من قدرة إبراهيم في الضبط والتصحيح ومعرفته العالية بالشعر القديم ونفائس الأدب العربي.

هذا ويكفينا شهادة الدكتور عمر فروخ حين قال: «كان إبراهيم أكثر توفراً على مطالعة شعر شوقي وحافظ والبارودي من الشعراء المعاصرين، ثم على شعراء العصر العباسي خاصة كأبي نواس والعباس بن الأحنف والبحري وابن المعتز»، والمطلع على شعر إبراهيم طوقان وأدبه يتعرف على مدى سعة اطلاعه وإحاطته بثقافة متنوعة ومعارف متعددة. تشهد له بذلك أشعاره وقصائده التي تنوعت بها أغراضه الشعرية رغم قصر حياته.

حياته العملية

أحب الشباب زمن إبراهيم طوقان مهنتي التعليم والصحافة، ويرجع عشقهم لهاتين المهنتين، لما كان يدور في أذهانهم من خدمة للوطن والمجتمع وتعريف العالم بأوضاع بلادهم السياسية.

وكان إبراهيم أحد شعراء العرب المعاصرين، ويحمل على عاتقه واجباً وطنياً كبيراً، بدأه في مدرسة المطران وانتقل هذا الواجب معه إلى الجامعة الأميركية ببيروت وكان

حلّمه أن يكون صحفياً معبراً عن مجتمعه وحال وطنه، مبتعداً عن مهنة التعليم ظناً منه أنه لن يقوى على مقارعة التلاميذ وكراريسهم بسبب مرضه، وفي سنة 1929 حصل على الشهادة الجامعية، وكان يسمع آنذاك غداة توزيع الشهادات - كلمة معلم .. معلم - من زملائه، فكان يقول لنفسه: «أبعد هذا العناء والكد، يختار هؤلاء التعليم مهنة!! ألا ساء ما يفعلون.. ما أقصر مدى طموحهم».

كان طموحه أن يكون صحفياً، وفي ساعة تخرجه صادف أن أغمي عليه وهو يقف فوق منصة التخرج بسبب نزيف في معدته، فرافقه والده إلى مصر لاستشارة الأطباء، وعندما تحسنت صحته، قام باتصالاته مع دور الصحافة، وأراد البقاء في مصر، غير أن والدته أصرت عليه لأن يعود إلى نابلس، خشية عليه من ضعف جسمه، فيظل ولدها على مقربة منها، وبالفعل أطاع والديه ووافقهما على إصرارهما فعاد مع والده إلى نابلس.

إبراهيم المعلم

عاد إبراهيم إلى نابلس، فوجد مدرسة النجاح الوطنية تنتظره وتفتح ذراعيه له لتدريس اللغة العربية وآدابها، تردد في بداية الأمر، لأنه لم يكن يتصور نفسه معلماً، لكن يبدو أن الرياح كانت تجري عكس طموحه. ويذكر الدكتور زكي المحاسني في كتابه «طوقان شاعر الوطن المغصوب»: «تردد إبراهيم في قبول وظيفته الجديدة مدة، ثم رضي بالتدريس الذي خشي أن تضنيه متاعبه، ولم تطل أيامه في مدرسة وطنه التي أحبتها، وتعلق به طلابها حين حُبب إليهم الشعر والأدب، ونفث فيهم روحاً قومية وحماسة وطنية ضد الاستعمار لا على فلسطين وحدها بل على كل أرض عربية».

حظيت كلية النجاح بموافقة إبراهيم بالتدريس فيها، وتفاعل الأستاذ الشاعر مع طلابه ومع ثورات بلاده، حيث اندلعت الحركات الوطنية إثر ثورة 1929، فكان إبراهيم على موعد مع الحدث الجلل لتدوي قصائده في نفوس طلابه، وفي أنحاء الوطن، هذه القصائد التي أرسلها زفرات حرى، حين وقف يلهب مشاعر وأحاسيس أبناء الوطن إثر إعدام أصحاب «الثلاثاء الحمراء».

وبإبان عمل إبراهيم في كلية النجاح، حضر طلاب من المغرب العربي للدراسة في الكلية فاستقبلهم إبراهيم بنشيد مؤثر حفز الفتية على ترديده، خاصة وأن المغرب كان حينذاك يرزح تحت الحكم الإسباني، ومما جاء في القصيدة قوله:

فتية المغرب هيّا للجهاد نحن أولى الناس بالاندلس

نحن أبطال فتاها ابن زياد ولهانرخص غالي الأنفس
انتهى العام الدراسي، وبدأت العطلة المدرسية، وأثناء ذلك تلقى إبراهيم عرضاً من
الجامعة الأميركية عن طريق الأستاذ أنيس الخوري للتدريس في قسم الأدب العربي في
الجامعة. لم يتردد إبراهيم أمام هذا العرض، وكانت موافقته في هذه المرة عن طيب خاطر،
فإبراهيم أحب بيروت وأهلها، وكان يعتبرها وطنه الثاني.

انتقل إبراهيم للتدريس في الجامعة الأميركية سنة 1930، هذه الجامعة التي درس
فيها ومنح منها شهادته الجامعية، وبيروت تلك المدينة التي نَعِمَ فيها، وتفتّح فيها قلبه،
واتسع فيها أفقه، وحظي فيها بحبه الأول حيث قال:

أول عهدني بفنون الهوى بيروت، أنعم بالهوى الأول
دَرس في الجامعة سنتين، نظم خلالها أروع وأعذب أشعاره ونشر فيها جواهره التي
استوحاها من حياته الجديدة، مما لفت الأنظار إلى شعره، ومع أنه غادر وطنه، إلا أن قلبه
بقي متعلقاً ومتتبعاً لما كان يجري فيه من حوادث الثورة والنضال «فكان يرسل في شعره
الحماسي صيحات عنيفة تعبر عما يتجاوب في شعره نحو قضية بلاده».

في بيروت كُرم إبراهيم فأصبح «شاعر الجامعة» لما كان له من أثر على طلابه
وزملائه، وفيها فتحت صحف بيروت كما كانت صحف فلسطين صفحاتها لتزدهي
بأشعاره النابعة من فكره وعواطفه الصادقة والتجديد في عباراته. وفي نهاية العام الدراسي
الثاني، قدّم إبراهيم استقالته من الجامعة، ثم قفل عائداً إلى نابلس ليزاول مهنة التدريس
من جديد في المدرسة الرشيدية في القدس، لكن صدره ضاق بالعمل، فأراد أن ينقّس عن
كربه بقصيدة يعارض فيها قصيدة أحمد شوقي «قم للمعلم بقصيدة» «الشاعر المعلم»
ويقول فيها:

شوقي يقول - وما درى بمصيبي «قم للمعلم وفّه التبجيلا»
أقعد فديتك هل يكون مبعجلاً من كان للنشء الصغار خليلاً
ويكاد (يفلقني) الأمير بقوله «كاد المعلم أن يكون رسولا»
لو جرّب التعليم شوقي ساعة لقضى الحياة شقاوة وخمولا

عاود إبراهيم المرض في أواخر سنة 1932، وقبل نهاية الفصل الدراسي الأول
اضطر تحت وطأة شدة الألم أن ينقطع عن التدريس، وظلّ طريق الفراش، حتى أُجريت

له عملية جراحية نجا فيها من موت محقق بعناية الله ورعايته، كما أخبر الجراح الذي قام بإجراء العملية.

ولما شفي من سقمه وغادر المستشفى في آذار 1933، قدّم استقالته من التدريس، وعزم على عدم العودة إلى هذه المهنة لأنه وجد فيها بلاءً وسقمه. عمل بعد ذلك مديراً لمصلحة المياه في دائرة البلدية، ثم عمل مدير أعمال والده التجارية، ثم ملّ هذا العمل فترك الوظيفة. وفي أثناء هذه الفترة التي توقف فيها عن العمل، نظم قصائده الوطنية، ونشرها في جريدة (الدفاع) الفلسطينية، وكانت هذه القصائد سجلاً تاريخياً صادقاً لآلام وآمال الفلسطينيين. ثم عمل في الإذاعة الفلسطينية، مديراً للبرامج العربية عام 1936، وتحت وطأة الدسائس والمكائد، أقصي إبراهيم عن عمله في الإذاعة.

أصابه قلق نفسي أثر عليه كثيراً بسبب إقصائه عن عمله في الإذاعة، فخطر بباله أن يشغل وقته ثانية بالتدريس الذي ألفه، وفي هذه المرة انتقل ليعمل في وزارة المعارف العراقية سنة 1940، وفي العراق اشتد عليه الألم، وعاوده المرض من جديد، فُنقل إلى نابلس للمعالجة والراحة، ثم ما لبث أن فارق الحياة، بعد أن استطاع أن يؤثر في نفوس الطلاب، ومن كان حوله رغم قصر المدد التي عمل فيها معلماً، تاركاً للآخرين صورة المعلم المخلص الأمين، ورغم أنه عارض شوقي في قصيدته إلا أن إبراهيم نظر إلى المعلم نظرة تقدير واحترام في عمله وفي تصحيح واجبات التلاميذ.

إبراهيم المذيع والصحفي

أنشأ المستعمر البريطاني إذاعة فلسطين في القدس سنة 1936، خدمة لمصالحه الاستعمارية وبث روح الفرقة بين أبناء الشعب الفلسطيني، وإضعاف روح الانتماء العربي بنشر العامية بدل الفصحى. وبدأ المسؤولون عن برامج الإذاعة البحث عن من يصلح لإدارة البرامج العربية، وأخيراً وقع الاختيار على إبراهيم طوقان. وقد نال هذا الاختيار رضا إبراهيم، لأنه وجد العمل في الإذاعة أقرب إلى طبعه، وأن عمله الإذاعي سيحقق له مهمة الصحفي التي تمنّاها قبل عمله في التدريس.

وفي 29 مارس (آذار) سنة 1936، كان صوت إبراهيم أول صوت عربي ينتقل عبر أثر هذه الإذاعة إلى فلسطين والوطن العربي.

لقد اتجه إبراهيم اتجاهاً عربياً، وأظهر نشاطاً كبيراً في سبيل إعداد هذه البرامج العربية، مما ساء القائلين على الحكم، وقد أرسل إلى صديقه الدكتور عمر فروخ رسالة

يبين فيها سعادته بهذا العمل: «... لقد أصبح دأبي أن اجعل هذا البرنامج تحفة من التحف بحيث أبدّ به برنامج مصر، وقد توقفت في ذلك إلى حد بعيد، فقد جاءني الشاء العاطر من مصر نفسها، ومن العراق وسوريا والهند والرياض، فتأمل كم يدعو ذلك إلى النشاط، وكم يتسع العذر معه للتصديق!».

لقد استطاع إبراهيم طوقان أن يستقطب الجماهير إلى البرامج العربية في الإذاعة، وأن يثير اهتمام المتعلمين والمثقفين بطرائف الأدب والفن التي كان يختارها.

وكان يريد من عمله هذا أن لا تقل هذه الإذاعة الفتية عن إذاعة مصر التي سبقتها، لكن حساد إبراهيم ساءهم ما يقوم به، فبدؤوا يدسون عليه ويمكرون به، ويحرضون عليه من أجل إبعاده عن البرامج العربية، وخاصة ما قامت به الوكالة اليهودية، والصحف اليهودية، التي بيّنت توجيه برامج الإذاعة توجيهاً قومياً عربياً وإلحاق الأذى باليهود ومخططاتهم، كما اكتشف الإنكليز الذين أنشأوا الإذاعة لخدمة أغراضهم، اكتشفوا أن إبراهيم لا يحقق لهم أهدافهم التي رسموها للإذاعة، زد على ذلك أن إبراهيم رفض إحلال العامة محل الفصحى وقدم برامجها بلغة يفهمها المتعلم والعامل والفلاح، بل وراح أيضاً يركز على الأحاديث النافعة للعرب التي تحقق الرسالة الحقيقية للإذاعة ومن منابع اللغة العربية (القرآن والسنة) بطريقة تلفت نظر العرب إلى ما يحيط بهم من أخطار ومؤامرات.

لهذه الأسباب وغيرها بدأ المستعمر يتحين الفرصة للتخلص منه ومن برامجها. خاصة وأن هذه الفترة من سنة 1936-1940 كانت فلسطين مشغلة بالحوادث، ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية، وكان المستعمرون يريدون الإذاعة دعاية لهم أولاً، ثم بعد ذلك تكون لغيرهم ممن يبحثون عن الأفكار المنحرفة أو ضعف القومية.

ورغم ما تعرض له إبراهيم من صعوبات، فلم يعبأ بها ومضى في خطته، يقدم البرامج التي تبعث الوعي في ضمير العرب، وتوقظ النقمة على الفساد والمفسدين، والتي رأت فيها العصابات اليهودية تحريضاً عليهم تحت قناع ديني أو زعمها عندما يطلب من الأمهات تنشئة الأبناء تنشئة قوية إلا دعوة لتدريب أطفالهن على المقاومة والثورة، وعلى أي حال فقد وصفت فدوى هذه المرحلة من حياة إبراهيم على أنها «من أسعد أيامه، فيها عول على الاستقرار في حياة زوجية، وقد وفقه الله إلى شريكة حياته، فكانت زوجته المثقفة من أسرة (آل عبد الهادي) التي لم يكن بينها وبين أسرته ود وتعاطف، وكلتا الأسرتين سبق وأن تنازعتا الواجهة والزعامة في القديم، ولم تنس أجبالهما التجاني الموروث، لكن

إبراهيم وهو الشاعر التقدمي الواسع الأفق، ضحك من هذا التجاني الذي لا ذنب للأبناء فيه، فاختار عروسه وفق ذوقه وخياله... وَصَفَتْ حياته الزوجية وطابت وسعد أهله لسعادته». فكانت زوجته سامية عبدالحادي وفي هذه الفترة خضعت أحاديثه لرقابة صارمة، ثم استجوب بسبب قصة (عقد اللولو) والتي لخصها عن كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ والتي كانت تدور في موضوعها حول الأمانة، وقامت الضجة حين أوّل اليهود أن الأمين هو رمز للحاج أمين الحسيني. قيدت يدا إبراهيم حين فُرِضت الرقابة على الصحف والمجلات ودور النشر والإذاعة إبان الحرب العالمية الثانية، وأصبح لا يستطيع إذاعة ما يريد، وغير راضٍ عما يُذاع، فسَاءت حالته، وكابد كثيراً من الدسائس والافتراءات، لكنه مضى في خدمة وطنه، وتبصير بني وطنه بما يُحاك له، وبعد أربع سنوات من عمله في الإذاعة التي أحبها، وبذل الكثير من أجلها، انفصل من عمله. ومن المذيع الذي كان ينقل للناس أحداث بلادهم بالأمس، وبعد زمن ينقل خبر نعيه، فوجت النفوس وانهالت الدموع على الأمل الذي كان يرتجى للوطن المغصوب.

لقد تجلّت عبقرية إبراهيم طوقان الإذاعية والأدبية في أحاديثه التي كان يبثها بين الجدة والابتكار، ولعل الحديث «حقيقة وفاء السموأل» الذي ألقاه في 20 أيلول 1937 من أطرف الموضوعات، والذي قام رأي الأديب على أن «السموأل بن عاديا» الشاعر الجاهلي الذي كان يحمل نزعاً صهيونية والذي كان يحب المال وهي سمة تميز اليهودي، هو الذي دفعه إلى إثارة ذبح ابنه الوحيد الذي كان خارج الحصن، ولم يكن ذلك من أجل الوفاء لامرئ القيس، أَوْ كَيْسَ السموأل يهودياً؟ أَوْ ليس حب المال صفة خاصة باليهود.

وقد وُضِحَ ذلك في قوله:

يوسف باعه أبوكم يهوذا إن حب الدينار فيكم قديم

وقد أراد إبراهيم طوقان بحديثه أن يهدم سيرة الوفاء السموأل المشهور:

وفيت بأدرك الكنديّ إني إذا ما خان أقوام وفيت

والقصة أذاعها إبراهيم طوقان على الهواء وهي كما قال:

«في حديثي عن السموأل، أيها السيدات والسادة، خروج على المؤلف المتداول من سيرته، حديثي هذا المساء فيه جرأة على شخصية ممتازة تتمتع في آدابنا بمكانة سامية ومقام رفيع «يعز من رame ويطول».

فاسم السموأل مقرون بفضيلة الوفاء، تاج الفضائل الإنسانية وقصته المروية عن وفائه لامرئ القيس، حوّله الحق في ضرب المثل باسمه فقالوا: «أوفى من السموأل».

ولكن ما حقيقة السموأل؟!، وما هي حقيقة هذا الوفاء، وإلى أي حد نستطيع أن نسير مع الرواة الذين عنوا بالسموأل؟! .

هذا ما أردت أن أتحدث إليكم به، فأفضي برأيي فيه إفضاءً، لا حاملاً أحداً منكم على الأخذ به، ولا داعياً فيه أحداً إلى مناقشة أو جدال.

خلاصة ما نعرف عن امرئ القيس أنه تولى أمر الانتقام لأبيه (حجر) من قاتليه، من بني أسد، فارتحل حتى نزل بكرةً وتغلب يستنصرهم فنصروه، وأصاب من بني أسد ثأره فقتل جماعة منهم إلا أنه يشط في الانتقام فيتخلى عنه أنصاره، ويلجأ إلى غيرهم فلا يجد عندهم بغيته حتى ينزل برجل من بني فزارة فيدله هذا على السموأل صاحب حصن تيماء... ولا يطول المقام بامرئ القيس حتى يبرح الحصن بكتاب من السموأل إلى الحارث الغساني بالشام فيوصله هذا إلى قيصر بالقسطنطينية.

وتذهب الرواية إلى أن امرأ القيس استودع عند السموأل دروعاً قبل سفره إلى قيصر، فيأتي الحارث بن ظالم، فيطالب بها، فيأبى السموأل، ويتحصن منه في حصنه، فيظفر الحارث بابن السموأل الذي كان راجعاً من الصيد، فيخيّره بين تسليم الدروع وبين قتل ولده فيأبى السموأل ويضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فيقطعه قطعتين.

هذه هي القصة المشهورة... فلنحقق الآن في قضية (حجر) والد امرئ القيس مع بني أسد، فإن فيها ما يدعو إلى النظر والاهتمام.

لم يكتفِ قاتلو حجر بقتله، بل امتدت أيديهم إلى ماله فنهبوه وأخذوا خيله ومتاعه، وحملوا جواريه، ولم يستخلص من ذلك سوى عدد من الدروع بينها خمس ذات قيمة وسنرى لهذه الدروع شأناً مع السموأل.

ولما علم بنو حجر بقتل أبيهم، قعدوا عن الأخذ بثأره لأسباب أراها وجيهة منها: أن القيام بهذه المهمة الدامية قد يكون سهلاً لو بقي لهم مال أبيهم وعدّته كما أن الاستنجاد بالقبائل قد يكون هيناً ميسوراً لو لم تكن القضية فردية، تؤدي إلى شر عظيم، قد يعم الجزيرة.

أما قيام امرئ القيس بأعبائها دون سائر إخوته، فإنها غمرة من غمرات الشباب، ونزوة من طيش الصبا ونزق الفتوة، ولما قدم عليه وجوه العرب وأمراؤهم يعرضون

الدية، ويرجون تسوية القضية بالتّي هي أحسن، تفادياً للفتنة، وحقناً للدماء، ردّهم امرؤ القيس، ردّاً غير جميل بقوله: «رويداً وينكشف لكم وجهاً عن فرسان كندة، وكتائب حمير، أتقيمون أم تنصرفون؟! قالوا: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلّ الاجترار لمكروه وأذية، وحرب وبلية».

وقد وجد امرؤ القيس في قبيلة بكر وتغلب من ينصره، فهاجم بهم بني أسد وقتل منهم جماعة، وداهمهم كربة أخرى، فوضع السيف في جيرانهم من بني كنانة... ورأى حلفاؤه أنه قد بلغ أربه من الثأر لأبيه، ونصحوه بالوقوف عند هذا الحد، فأبى إلا الاستمرار واشتط في الانتقام، فتخلّوا عنه وفارقوه، ولجأ بعدهم إلى قبائل عديدة، فلم يجد له من بعدهم نصيراً.

وظل امرؤ القيس يستجير برجال من ذوي النفوذ بينهم ابن عمته «عمرو بن المنذر»، و«مرثد الخير ذي جدين» و«قرمل بن الحميم» و«الحارث بن شهاب» و«سعد بن الضباب الأيادي» و«المعل بن تيم الطائي»، وغيرهم من وجوه العرب وكرامهم، فلا يجيره أحد فهو غوي مستهتر مشؤوم.

ويعمد الشاعر «الضليل» إلى المال يستأجر به الرجال، ومن أين له المال وقد عرفناه متلاًفاً مبذراً، كما رأينا مال أبيه يفوز به قاتلوه، فلا يبقون منه باقية.

وهكذا تضيق الدنيا في وجهه إلى حد يستجير معه برجل من الخلعاء الفتاك يقال له «عامر بن جوين»، قد تبرأ قومه من جرائمه.

هذه هي حال امرئ القيس المادية والمعنوية التي كان عليها قبل أن يصل إلى السمّوال، صاحب حصن تيماء!.

ولكن، أنا وأنت، أيها المستمع الكريم على حذر من رواية يقال له «دارم بن عقال» انفراد برواية ما مرّ على امرئ القيس من إغراض القبائل عنه، وانصراف كرام العرب عن قضيته، ويمضي في روايته تلك بما لا يخفى على المحقق من التهويش والتهريج حتى يقف بامرئ القيس ويلقي به على قدمي السمّوال، شاعراً مادحاً مستجدياً بقصيدة مطلعها:

طرقتك هند بعد طول تجنّب وهناً ولم تك قبل ذلك تطرّق!

ويعلق صاحب «الأغاني» على هذه القصة بما نصّه بالحرف:

«... وهي قصيدة طويلة، وأظنها منحولة، لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس والتوليد فيها بيّن، وما دَوَّنَها أحد من الثقات في ديوانه، وأحسبها مما صنعه «دارم» لأنه من ولد السموأل...» انتهى كلام صاحب «الأغاني».

«دارم بن عقال» إذاً من ولد السموأل، فينبغي لنا أن نكون على حذر من تعرضه، ودارم بن عقال من الدعاة المهرجين الذين لا يكثر عليهم أن يشوَّهوا وجه الحقيقة ويطمسوا معالمها! .

أما السموأل أو «صموئيل» إذا شئت، وأخوه سعيه «شعيا» فكلاهما معروف الأصل يتصل نسبه بهارون بن عمران عليه السلام.

كان السموأل عظيم الثروة، متشعب التجارة، واسع النفوذ، وكان حصن «تيماء» سوقاً لتجارته، فإذا اتصل به امرؤ القيس ولجأ إليه على غير معرفة سابقة، وهو على ما عرفنا من الغواية والتبذير والشطط، وعلى ما رأيناه من الحاجة إلى المال والقوة لمناهضة أعدائه، بعد هذا كله، يصعب علينا جداً أن نأخذ برواية «دارم» على وجهها، فنصدق أن يمدَّ السموأل التاجر المرابي يده، عن طيب نيّته وكرم عنصره، لمساعدة امرئ القيس، وإنما الأقرب إلى العقل والصدق أن يقدم السموأل لامرئ القيس دَيْناً بضمان يؤمنه عليه، فيكون الضمان تلك الدروع التي ورثها امرؤ القيس عن أبيه يضعها عند السموأل رهائن على المال!! .

ويرتحل امرؤ القيس إلى الشام، ومنها إلى القسطنطينية، لتنفيذ مشروعه الحربي الضخم الذي يوشك أن يصبح بفضل مال السموأل وهوس امرئ القيس مشكلة دولية بين الروم والعرب بعد أن كانت فردية محلية.

في هذه الفترة يُقَدَّم «الحارث بن ظالم» مطالباً بالدروع، فيأبى السموأل أن يسلم رهائن بيده على مال له، ويلحف الحارث بالطلب فيصر السموأل على الاحتفاظ برهائنه، كيف لا وهي مقابل ماله، وبضياعتها ضياعه، ويتحصن في حصنه، ويغلق عليه أبوابه.

وفي خلال ذلك يكون أحد أبناء السموأل راجعاً من الصيد، فيأخذه (الحارث) أسيراً وينادي أباه، فيطل عليه من فوق الحصن فيخبره (الحارث) بين قتل ولده تحت عينيه وبين تسليم الدروع إليه، فيتردد الوالد، وفي وسعه أن يبذل ثمن الدرع الواحدة أضعافاً مضاعفة فيحتفظ بولده، وفي لامرئ القيس بأمانته.

لو كانت القضية قضية وفاء لبانت حقيقتها، ولكن هيهات... لقد كانت قضية مال، بل هي غريزة حب المال تغلبت على حب ولده، فضحى به على مذبح حرصه وطمعه. هذه في رأيي حقيقة وفاء السموأل، وكما قدّمها لنا حفيده «دارم بن عقال». ولا يبعد أن يكون دارم هذا، وقد عرفنا تهريجه وجرأته على الانتحال، لا يبعد أن يكون ناظم قصيدة السموأل المشهورة:

إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
فالقصيدة من أولها إلى آخرها ليس فيها ما يدل على جاهليتها لا لغة ولا تفكيراً، بل انظر إلى الصناعة في قوله منها:

تسيل على حد الطّبابة نفوسنا وليست على غير الطّبابة تسيل
يُقرّب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطوّل
فما أغرب أن يكون هذا القول من السموأل، وما أبعد أن يكون للجاهلين المعاصرين لامرئ القيس مثل هذا الأسلوب.

رد الفعل على الحديث الإذاعي:

سمع الصهاينة هذا الحديث الإذاعي، فقامت قيامتهم ولم تقعد، بل راحوا يتناولون الحديث بالنقد والتجريح في صحفهم، وشنت جريدة (دافار) الصهيونية في عددها الصادر يوم 20/9/1936 حملة قاسية شنيعة على إبراهيم طوقان، وقامت تحرض المسؤولين على محاسبته وإقصائه ومما ورد في صدر صفحاتها:

«بلغت حرية الكلام في فلسطين إلى حد أن مصلحة الإذاعة الفلسطينية أذاعت حديثاً ضد السامية مساء أمس بين الساعة 7:45 و 8:00، وقد كان المحاضر سامياً، وقد أذاع بُغْض إسرائيل سامي أيضاً، أما هذا السامي، فليس رجلاً عادياً، فهو موظف من الدرجة الأولى واسمه «إبراهيم أفندي طوقان»، المساعد العربي لمدير البرامج في مصلحة إذاعة فلسطين، وقد أذيع هذا البرنامج على أن سيكون قراءة من كتاب «الأغاني»... وكان موضوع الحديث، القصة الشهيرة عن «وفاء الشاعر اليهودي البطل» الذي عاش في جزيرة العرب قبل الإسلام ألا وهو «شمويل بن الكاهن عاديا» المعروف عند العرب بالسموأل، وقد كان وفاؤه عندهم مضرب الأمثال» ثم تابعت الجريدة نفسها تنشر حكاية السموأل ووفاءه، ونددت في ختام مقالها بإبراهيم طوقان وبما أخرجه على الناس من رأي جديد... (شاعران من جبل النار، وليد صادق جرار، ص 103).

ثم أعادت جريدة «دافار» الرد في مقال آخر نشره «داود يلين» على الصفحات الأولى في العدد الصادر يوم 28/9/1936 ... وأن المحاضرة بلغت القمة في السفالة ضد اليهود، وعندي أن هذه الحادثة، والطريقة المتبعة في تقديمها أشد خطراً من قبلة ينشأ عن إلقائها قتل بضعة أشخاص...».

ثم عادت الجريدة نفسها تناقش الموضوع في اليوم التالي في افتتاحيتها الصادرة في 29/9/1936 تقول في ترجمته:

«لقد أوضح «داود يلين» المختص بالعلوم العربية، وصديق الثقافة العربية الصديق في عدد «دافار» أمس أن التمويه الذي أولى به طوقان في حديثه عن حقيقة وفاء السموأل، يعتبر خيفاً حقاً لأنه ليس قلباً للحقيقة التاريخية فحسب، وإنما هو دعاية لهذه القبلة الخطيرة في هذه الأيام الحرجة الحاضرة والمقبلة... (نفس المرجع السابق).

ولو رجعنا إلى حديث إبراهيم طوقان، عرفنا سبب إنصات جميع المستمعين بل وكل المتابعين إلى البرنامج العربي في الإذاعة الفلسطينية آنذاك وسر متابعتهم لما كان ينشره إبراهيم طوقان، فلم تكن أحاديثه متكلفة ولم يكن يستخدم التنميق، أو السجع، بل كان هم إبراهيم توصيل فكرته إلى الناس على اختلاف ثقافتهم وأمزجتهم، معبراً عما يدور في ذهنه بعقل متفتح ورؤيا وطنية ودراية بأساليب التحقيق الأدبية.

ولذلك وجد في مقالات جريدة «دافار» مادة إذاعية مفتوحة وواسعة، وشرع يدفع الحجة بالحجة، يرد عليها، ويفندها بهدوء العالم وشجاعة الأديب وقال في رده الذي وقع على كُتّاب الصهاينة وصحفيهم كالصاعقة:

«... السموأل واحد من شخصيات عديدة في الأدب العربي، كانت ولا تزال موضع أخذ ورد في الأوساط الأدبية، لا بل إن هذا الدور من تاريخ الأدب له من ينكره إنكاراً باتاً، ويعدّه في الأساطير التي لا تستند إلى أساس، والسبب في ذلك: كون تاريخ الأدب في أدواره الأولى والتي نحن بصدها، مأخوذاً من ألسنة الرواة يتناقلونه بزيادة ونقصان فيكون تحت تأثير عوامل شتى: ومنها رواج سوق الرواية والتكسب بها عند الخلفاء والأمراء مما يتطلب دوام المادة وتجديدها، مما شجّع كثيراً من الرواة على الاختراع والانتحال في القصص والشعر والأخبار.

وعندما جاء دور التدوين تجمع في كتبنا ركام من هذا التاريخ نجد في تضاربه واختلاف مصادره باعثاً ملحاً على الاستقصاء العلمي، داعياً إلى النشاط في الكشف عن

صحيحه وزائفه، والتحقيق في صدقه وكذبه، وعلاقة السموأل بتاريخ الأدب العربي وأعظم شاعر في الجاهلية «امراً القيس» تحول كل متخصص بأدبنا وتاريخه أن يتحدث عنه كما يتحدث عن أي شاعر أو أديب، بقطع النظر عن قوميته ودينه.

فاختياري السموأل هو اختيار أدبي تاريخي، وبحثي فيه علمي سبق لي مثله في عدة أبحاث ابتدأت بها في عهد دراستي في جامعة بيروت، وكانت خطتي أن أتناول حياة الشاعر وما يتعلق بها من روايات مختلفة، والنظر في آثاره، فأخرج له سيرة منظمة مبنية على نقد علمي خالص، متبعاً في ذلك أساليب البحث الحديثة وأذكر من هؤلاء الشعراء: العباس بن الأحنف وديك الجن الحمصي، وهذه نشرت في حينها في مصر وبيروت والشام، وتناقلت بعضها الجرائد، ومنها أيضاً: سبط بن التعاويذي، ومحمد بن منذر، والسري الرفاء، وقد أذعت طرفاً من حياتهم ونهاذج من شعرهم بتاريخ 4/6، 4/29، و 29/6/1936، والسموأل من هؤلاء، والبحث في حياته لا يخرج في طريقته عن الأبحاث في الشعراء المذكورين.

لقد عني بالسموأل نقاد ثقات، أذكر منهم: الأب لويس شيخو اليسوعي، وروحي بك الخالدي المتوفى سنة 1914. وكان هذا البحث في مجلات محترمة «كالمشرق»، و«المنادي»، وكتب معروفة منها «شعراء النصرانية». ودار البحث حول يهودية السموأل، فاثبتتها الخالدي، وأنكرها شيخو، مقررّاً نصرانيته، كما أن التحقيق أضعف شأن الرواية المنقولة عن علاقة امرئ القيس بالسموأل، ووقف متردداً في قبولها.

إن «دافار» لم تكن منصفة بأخذها «نتيجة البحث» دون البراهين التي أدت إلى هذه النتيجة، ولو أنها تجردت عن الغرض لرأت أنني تناولت امرأ القيس، أعظم شعرائنا وأخلصهم عروبة، بنقد صارم وقسوة لا رأفة فيها، فبيّنت مواطن الضعف العديدة في أخلاقه، وذهبت إلى أنه تأمر على أمته في قصده ملك الروم، متهماً إياه بالخيانة العظمى.

أما الثقة التي عوّلت عليه في التعليق على قصة السموأل، فهو «أبو الفرج الأصبهاني» صاحب كتاب «الأغاني» فقد ورد ذكره في الحديث المذاع.

لكن ورغم هذا الرد، المدعّم بالتقصي والتحليل والمعلومات الدقيقة التي قدّمها إبراهيم طوقان، رغم كل جهده إلا أن الحاقدين والمتآمرين عليه، راحوا يمدون أيديهم وألستهم الحاقدة يكيدون مرة ويحرضون مرة أخرى، سواء من الصهاينة أو من غيرهم مما أوغر صدر المستعمر البريطاني المسؤول عن الإذاعة، فأقيل إبراهيم من عمله في أول (أكتوبر) تشرين أول من عام 1940.

وعلى إثر ذلك سعدت الصحف الصهيونية، ونشرت سعادتها على صفحات صحفها تشكر وتمدح المسؤولين البريطانيين الذين استجابوا لصرخاتهم بإقالة الشاعر والصحفي والمذيع إبراهيم طوقان.

مرضه ووفاته

يقول إبراهيم مقررأ حقيقة مرضه وعَلَّته: «إن المرض كالعمر والرزق، والتوفيق والفشل... وأنا بين إخوتي الباقين وعددهم (تسعة) حملت بي الوالدة أم أحمد. إثر مرض خطير كان أشرف بها على الموت، فكنت أنا في أحشائها عندما كانت هي في دور النقاهة وأعضاء جسمها وقوتها بوجه العموم ضعيفة... (فجئت مركباً) على مرض وضعف».

وُلد إبراهيم ضعيف البنية مهزولاً، ورافقه هذا المرض من طفولته إلى صباه وشبابه، ونمت معه علله. فكانت هذه العلل تشكل كابوساً له يلاحقه في حلّه وترحاله، في دراسته وعمله. فكان كثير التردد على الأطباء والمشافي، حتى عانى من كثرة تناول أنواع الأدوية والمسكنات.

لقد اضطر إبراهيم أكثر من مرة قطع الدراسة أو التوقف عن العمل وقد ذكرت أخته فدوى على لسان أمها: «لم ألد مثل إبراهيم رقة وهزالاً وشحوباً، ولقد ذقت في طفولته الحلو والمر، ولقيت فيه من الحزن وطارقات الهموم أضعاف ما لقيت فيه من السعادة والهناء...».

لم يكن مرضه مقلقاً له فحسب، بل كان مقلقاً أيضاً لأهله، لأمه وأبيه خاصة، يخشون عليه من ارتفاع الحرارة وكثرة تجرعه للأدوية. كما كان كذلك لأصدقائه ومعارفه. لكن يبدو أن مرضه ربما أوحى له نظم بعض قصائده والتي منها: ملائكة الرحمة، وإلى الممرضة الروسية، والدم الخفيف، ونعمة العافية، وهذا يعني أنه بالرغم مما لحق بجسمه الرقيق، إلا أنه كان ظريفاً سريع النكتة ظاهر الدعابة، فقد ذكر الدكتور زكي المحاسني «عرفته إبان صحته وفي خلال مرضه، فكان نحيفاً دقيق الملامح، ينظر من وراء نظارة بيضاء بهدوء يدل على ما وراء العينين من عمق في الإدراك ونفوذ البصيرة، ولم تكن نظراته خادعة أو مواربة... وما زلت أحب تشبيه نظرات طوقان بهاتيك اللواتي تنطق بهدوء من عيني طفل بريء».

انتقل إبراهيم من نابلس إلى القدس، وانتقل معه المرض، فاشتكى من معاودته إليه مرة تلو أخرى، ثم انتقل إلى بيروت، وهناك كثيراً ما لزم الفراش، لكنه ظل قوياً لم

يستسلم لمرضه ولم ييأس، فعندما كان يحس بتحسن ينهض مسرعاً إلى دراسته، لكن مرضه اشتد عليه عام 1924، فاضطره أن يعود إلى نابلس.

كثر حديثه عن صحته وعلته، ولم يفارق توسله إلى الله - عز وجل - أن يشفيه وكان ديدنه إيمانه بنعم الله على البشر، ولعل إحساسه المرهف وتأثره الشديد بما كان يجري لوطنه، وما يجري حوله من دسائس ومؤامرات من أهم العوامل المؤثرة في زيادة سقمه واشتداد القرحة في معدته، فقد بعث يوماً إلى صديقه عمر فروخ يخبره عن مرضه وفي واحدة من رسائله قال: «آلام شهرين انقضت بعون الله وعملية جراحية في المعدة».

وفي أخرى أرسل لصديقه شعراً قال فيه:

من طبيب إلى طبيب فقبحاً حياة على الأطباء وقف

اشتد عليه المرض وهو في بيروت، وكان آخرها يوم حفلة تخرجه من الجامعة الأميركية، فبينما كان يقف على المنصة ليمنح شهادة البكالوريوس، سقط مغشياً عليه إثر نزيف حاد في المعدة، وكان والده قد حضر إلى بيروت لحضور حفل التخرج، وعلى الفور حمله والده إلى القاهرة لاستشارة الأطباء هناك، ومع أنه كان مريضاً، فقد وجد في رحلته هذه فرصة للاتصال ببعض دور الصحافة للعمل فيها، لكن الرياح لم تجر مع سفينته، فلما تحسنت صحته، عاد إلى نابلس تحت إصرار والده ورغبة أمه.

عاد إلى نابلس وعمل معلماً في كلية النجاح الوطنية، وأثناء ذلك اشتد عليه مرضه من جديد، فانقطع عن التدريس، واضطر الأطباء لإجراء عملية جراحية لإبراهيم في معدته، وشاءت الحكمة الإلهية أن ينجو من موت محقق بعد زوال خطر تلك العملية.

غادر إبراهيم المستشفى الألماني في آذار عام 1932، وعاد إلى نابلس، وفي عام 1935 وقع الاختيار عليه ليعمل مديراً للبرامج العربية في الإذاعة الفلسطينية، وقد أحس أن الدنيا ابتسمت له، طالما عمل في المهنة التي أحبها وتمناها، وكان يحلم بها، فقرر حينها الاستقرار في الوطن الذي لا يرتاح إلا في أحضانه.

لم يتزوج إبراهيم باكراً، وربما كان ذلك بسبب حالته الصحية، وقواه المنهكة، لكنه بعد سنة من عمله في الإذاعة تعرّف على (سامية عبدالهادي) ومال قلبه إليها، ومن اللطائف، بعد أن عقد قرانه عليها، جاءت الصويحبات إلى سامية للتهنئة، فهمست إحداهن في أذنها، أن إبراهيم سوف ينقلها إلى نابلس، وأنه سوف يغير طريقة لباسها،

فذهبت وسألته، فقال لها: صحيح أنني تربيت في بيت إسلامي، وله عاداته وتقاليده، ولمدينتي مظاهر خاصة، لكن هذا لا يتعارض مع حريتي وحيي للديمقراطية. فاطمأنت سامية وأصبحت شريكة حياة إبراهيم في ربيع عام 1937. وأنجبت طفلها الأول «جعفر» عام 1938، وفي العام التالي 1939 أنجبت ابنتها عريب.

نعم إبراهيم بهذا الزواج وعاش هانئاً في بيته، وسعد بعمله في الإذاعة، لكن فرحته لم تدم طويلاً، فهو لا يهادن ولا يسالم على حساب وطنه، وهو العيوف للاستخذاء والذل، ويأبى أن يبيع ضميره، فحيكت عليه الدسائس والمؤامرات، وبدأ اليهود يهاجمونه في الصحف والمجلات إثر أحاديثه الإذاعية التي نمت الروح الوطنية، فأقيل من عمله في تشرين أول (أكتوبر) عام 1940.

صعب الأمر عليه، فالعمل الصحفي ديدنه وحلمه، فأثر الرحيل عن وطنه، وحينها علم صديقه أكرم الركابي بما حصل له، فسارع بنقل الخبر إلى القنصل العراقي في القدس السيد طالب مشتاق، فتعاطف الأخير مع إبراهيم، وأجرى اتصالاته، واستدعى إبراهيم إلى القنصلية ليخبره بعمله الجديد في العراق، وعزم على الرحيل إلى بغداد، فعارضه والده، لكن إبراهيم أصرّ هذه المرة بعد أن اشمازت نفسه مما حيك له من دسائس، وانتقل إبراهيم ومعه زوجته وابنيه حتى وصل إلى بغداد. فوجد أن شهرته وألمعيته قد سبقته، ووجد مضيفه ينتظره، فنزل في بيت السيد محمد علي مصطفى الأستاذ بدار المعلمين العليا، ولقي عنده كل الاحترام والتقدير، وأقام إبراهيم وعائلته معززين مكرمين، وعمل إبراهيم معلماً في الرسمية ببغداد.

لم يكد يمضي شهرين في بغداد، حتى عاوده المرض واشتد عليه فوقع فريسة لسقمه، وقبل أن ينهي الفصل الثاني من السنة الدراسية، اضطر أن يعود إلى نابلس، وهناك أنهكته آلامه وأسقامه، وقد استشعر دنو أجله وانقضاء عمره فقال:

أرى الثلاثين سـتعدو بيـة مغيرة أفرأـُها في اقـتراب
وبعد عشر يلتوي عوديه وينضب الزيت ويخبو الشهاب

نقل إبراهيم إلى المستشفى الفرنسي، قرب بيت لحم، ولم يمكث إلا أياماً قليلة، وفي مساء يوم الجمعة، الثاني من شهر أيار (مايو) سنة 1941، أسند إبراهيم رأسه إلى صدر أمه، وأسلم روحه الطاهرة إلى بارئها في ميعة الشباب ولم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره.

ارتحل إبراهيم، ارتحل شاعر فلسطين، شاعر الجامعة، شاعر المدرسة شاعر الوطن، شاعر القومية، شاعر السياسة. ارتحل الشاعر الكبير، وهو خالد في قلوب محبيه، وما تزال أشعاره وآدابه تشجيهم بنغمة نائرة هادرة، مات إبراهيم بعد أن قدم شعراً وأدباً وفكراً، خلاصاً لقضيته ووطنه.

لقد قضى والنكتة تعلو وجهه مع ندرة شيوعها رغم مرضه، فلم يهن ولم ييأس وحسبنا أن نقول: بدأ حياته العملية مريضاً ومعلماً وقضى وكان آخر عمل له معلماً ومريضاً.

رحم الله شاعرنا وأديبنا ومعلمنا، وكما تقول أخته، فإنني أيضاً أثرت أن أختتم حياتي بقولها: «كان لإبراهيم - رحمه الله - مصحف صغير لا يخلو منه جيبه، تبركاً من جهة، وليكون في متناول يده كل حين من جهة أخرى، فلما توفاه بارئته، كان ذلك المصحف تحت وسادته، ولا تزال إلى اليوم ثنية ثناها في إحدى صفحات سورة التوبة، وكانت الآيات الشريفة آخر ما تلاه إبراهيم من كتاب الله أثناء مرضه، ولقد أثرت أن أختتم بها الحديث عن حياة إبراهيم إرضاء لروحه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [التوبة: 20-22].

رحم الله معلمنا ومذيعنا وشاعرنا، وأسكنه فسيح جنانه وليس لنا إلا أن نقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

شعر إبراهيم طوقان

شعر إبراهيم طوقان

بداياته الشعرية

يخلق المرء ومعه مواهب كثيرة، فإما أن تصقل هذه المواهب أو تتمخض حياة الفرد عن موهبة محددة، فتقوى وتزداد وتتدرج حتى تكون صبغة خاصة لهذا الإنسان، وإما أن تهدر أو تحبط هذه الموهبة ولسبب ما تضيع. فأين إبراهيم طوقان من هذه وتلك؟! .

وُلد إبراهيم طوقان في مدينة نابلس، من أسرة فاضلة ميسورة الحال معروفة بمكانتها الاجتماعية، وتأثيرها في الحياة الفكرية والأدبية، محبة للعلم والأدب والشعر، وُلد مهزولاً ضعيفاً، ومع ذلك فقد كان طفلاً لعبوباً، لا يهدأ ولا يفتر، يداعب جدته لأمه صاحبة اللسان التركي، ويطيّب له مناكفتها بعبث الطفولة، فيقلدها في طريقة كلامها، فتزجره فيضحك الطفل ويهرب إلى شجرة النارنج التي كانت في ساحة الدار، ويتسلق غصناً غليظاً، فيأمن غيظ جدته، لكنه كان يجلس على ذاك الغصن وكأنه كرسي مريح له (ليدلي) رجله عليه، ويردد بعض الأهازيج الشعبية التي كانت شائعة وكانت محبة إلى نفوس الأطفال ويظهر براعته أمام جدته التي كانت تهدده قبل قليل، فتبتسم الجدة، وترضى عنه، خاصة إذا ما عرفنا أن ضعف بنيته وخفة روحه كانت تدر العطف عليه من جهة، وحركاته التي تُفرح أهل بيته من جهة أخرى.

هذا إلى جانب طريقة والده في تربية أبنائه وإعدادهم للحياة، فقد كان إبراهيم المولود الثاني بين أبناء تلك الأسرة، إلا أنه كان محط الأنظار، فقد أحبه جدّه لأبيه، الذي كان يقول الشعر والزجل فكان إبراهيم يلتصق به يسمع منه، ويسمع من أمه وهي تقرأ قصص قديمة مثل قصة عنتره وقصة أبي زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، كان يسمع ذلك ويعي ما يسمع، فكان يردد ما يحفظه، فكانت مواهبه رغم حداثة سنّه، تتفتح يوماً بعد يوم، أضف إلى ذلك ولعه بالقرآن الكريم الذي يحفظ ما يستطيع حفظه، ويتأمل ما

يستوقفه من آيات الله - سبحانه وتعالى - فيفهم معاني هذه الآيات الكريمة، وكانت عنايته بما يقرأ، عناية المتأثر فأفاد من بلاغته وإعجازه، مما يجعله يردد الشعر بطريقة صحيحة، وكانت هذه البدايات بشارة لظهور شاعر جديد في أسرة طوقان النابلسية.

وبقي هكذا حتى دخل المدرسة الرشادية في نابلس، إذن بداية شاعريته بدأت من مداعباته لجذته، وإلقائه الشعر أمام جدّه، من خلال ما كان يستظهره من أرجال جدّه، وأثناء قراءته كان يصقل لغته، فإذا حار أمام معنى من المعاني يرجع إلى جار الله الزمخشري، وإذا حضرته طرفة من الطرائف يعود إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فينسى نفسه بين أحاديثه ورواياته، وكان يحب أن يروي ما يقرأ وما يسمع أمام عمته «كريمة» التي كانت تقدم الإطراء له وتشجعه وخاصة في دراسته الابتدائية.

دخل المدرسة الابتدائية، وأحس بتحفز موهبته، مع توجيه تلك الموهبة إلى الوجهة المثلى التي تعينه على دراسته وحياته، فكان جدّه يعجب بطريقة حفظه وإلقائه، وتفرح أمه ويعتز أبوه به خاصة إذا ما أنشد خواطر من (العتابا) التي تحمل معاني الحب والحنان، أو يلقي ما تعلمه في المدرسة أو يحاكي ذلك الشعر، فيشجعه جدّه بتقديم الهدايا له، فيتيح له ما يتاح لأولئك الشعراء الذين يحفزونهم أهلهم في تقرير هذه الموهبة عند أبنائهم.

لقد نال إبراهيم حظوة في بيته من والده ووالدته كما كانت له حظوة عند جدّته وجدّه، وهذا لا يقل عن أثر المدرسة وما وجده من عناية ورعاية من معلميه في المدرسة الرشادية، وكذلك في المدرسة الثانوية حين انتقل إلى المدينة المقدسة، حيث لفت نظر المعلمين فيها بما كان يحاكيه من الشعر، خاصة إذا عرفنا أن هذه الفترة كانت فترة نهضة أدبية، وبدأت قصائد شوقي وحافظ ومطران وفؤاد الخطيب وبشارة الخوري والكاظمي وغيرهم من الشعراء تنتشر بين أبناء البلاد العربية، فتلقى إبراهيم طوقان من شعر هؤلاء ما يطور موهبته المبكرة. أضف إلى ذلك ما كان يرى من ظلم الاستعمار لوطنه والبلاد العربية المجاورة، والتي خطت في مخيلته ونفسه صوراً عديدة كان لها كبير الأثر فيما بعد من أحاسيس وطنية وحماسية. وكما كان لأساتذته فضل كبير عليه خاصة وكما ذكرت فدوى طوقان الشيخين الجليلين: إبراهيم أبو الهدى الخماش، وفهمي هاشم، حيث زرعا في نفس إبراهيم حب العربية، والحماس للعروبة والوطن.

بدأ إبراهيم طوقان ينظم الشعر، في المدرسة الثانوية، ولما لم يستقم له وزن الشعر، استنجد بأخيه أحمد الذي عرفه على تفعيلات البحور الشعرية وأصول القوافي، وزاد على

79 ذلك أن قدّمه إلى أستاذه نخلة زريق الذي كان أحد رواد الفكرة العربية، وكان له تأثير شديد على طلابه لتمكنه من اللغة العربية وعلومها وآدابها، ووطنيتّه التي كان يحملها بين ثنيات جسده.

انطلق إبراهيم إلى أستاذه نخلة زريق يحضر ندواته ومجالسه، وتعلق إبراهيم بالأستاذ الكبير، ليتأثر به، وفي أثناء ذلك فقد حتّه أخوه أحمد على نظم الشعر، فكان شعره في هذه المرحلة تصويراً لمظاهر الحياة التي يشاهدها في المدرسة، فكان يداعب أترابه وبعض مدرسيه في تجربة شعرية رغم حداثة سنّه، فبدأ يحاكي شعراء الغزل في وصف الحسان اللواتي يصادفهن، وكان حجاب المرأة يستهويه ويؤجج أشواقه رغم عدم قدرته على الوصول إليهن.

وعندما انتقل إلى الجامعة في بيروت، وعرض تجربته، وجد عناية من زملائه وأساتذته وكان منهم الباحثة أنيس المقدسي، واللغوي جبر ضومط، كما وجد التشجيع من الطلاب الكبار أمثال الدكتور عمر فروخ، ووجيه بارودي، وسعيد تقي الدين، وكان يربطهم به روابط أدبية. ورغم معاودة المرض بين الفينة والأخرى إلا أنه كان يتغنى بالأشعار الغزلية ويتغنى بجمال الفتيات.



شعر إبراهيم طوقان السياسي والقومي

كانت فلسطين عبر التاريخ عينا لكل قوى الاستعمار، وكانت تتعرض إلى هجرات الأقوام والاحتلال، ولعل محاولة «قورش» هي أول المحاولات التي سجلها التاريخ لإقامة دولة يهودية في فلسطين وذلك في سنة 549 ق.م. وفي سنة 1799 أصدر نابليون نداء إلى اليهود دعاهم فيه إلى الالتحاق بجيشه مقابل أن يقيم لهم دولة في فلسطين.

وتزايد الاهتمام بإقامة دولة يهودية خاصة إبان نفوذ محمد علي الذي قام بحملة عسكرية وبعده كانت حملة ابنه إبراهيم على بلاد الشام مبتدئاً بفلسطين وكادت حملته القضاء على سلطة العثمانيين، لولا تدخل الدول الغربية وعلى رأسها بريطانيا.

ثم قامت الحرب العالمية الأولى 1914، ولم تكن فلسطين بمعزل عن هذه الأحداث الجسيمة، والتي بدأت تمهد الظروف لخديعة العرب من قبل بريطانيا وانتهت بمراسلات مكماهون، وقد ذكر صالح مسعود جهاد شعب فلسطين «ولعله لم يكن مؤكداً دخول

الإنكليز منتصرين لولا ثورة العرب على الخلافة العثمانية ومشاركة الإنكليز في حرب الأتراك...» .

وقد لعبت الصهيونية العالمية آنذاك دورها في سبيل تحقيق مآربها وفي عام 1918 وضعت الحرب أوزارها، وتم للإنكليز ما كانوا يخططون له وقسمت البلاد العربية وفصلت فلسطين عن سوريا الكبرى، وأصبح الشعب الفلسطيني وجهاً لوجه أمام مؤامرة بريطانيا، وفتح على أثر ذلك باب الهجرة أمام كل صهيوني، فقامت ثورات عرب فلسطين وكان منها ثورة 1920 وثورة عام 1929، وفي يوم الثلاثاء 17 يونيو 1930 أُعدم ثلاثة من أبطال فلسطين في سجن عكا وهم فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم. ثم قامت ثورة فلسطين الكبرى سنة 1936، وخرجت المظاهرات وأعلنت الإضرابات وتعتبر ثورة 1936 بحق الثورة الكبرى في فلسطين لأن هذه الثورة كانت منضبطة ومنظمة، وفي منطقة جبل النار تكونت فصائل للثورة المسلحة وكان قائد الثورة في منطقة نابلس «يوسف أبو درة» وقد تجمع حوله نفر من المجاهدين، وبدأ غاراته على جنود الإنكليز، وكان «فوزي فياض جرار» في منطقة جنين، وجعل من «صانور» مقراً لقيادته، وكان الشيخ «محمد صالح» الذي حرص على الشهادة في «سيلة الظهر»، وفي طولكرم كان «عبدالرحيم الحاج محمد» وهكذا اشتعلت الثورة في كل فلسطين، وضرب المثل في كفاح وجهاد أهل فلسطين في العالم العربي وفي العالم الغربي أيضاً.

شهد إبراهيم طوقان ما يجري في وطنه فقد وُلد عام 1905 في وسط هذا المخاض الشديد لأحداث فلسطين، وتفتحت عيونه على الأحداث الجارية، وما ابتليت به فلسطين إبان كفاحها، من تهويد الوطن إلى تشريد الأهل وحكم المستعمر وما قامت به الصهيونية العالمية التي وضعت ثقلها ومخططاتها لتحقيق أهدافها وقد وصف إبراهيم طوقان في قصيدته «المناهج» ذلك:

لنا خصمان: ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فأتى وبالا وإذلاً لأننا ذاك التواصي

وأكثر ما يؤلم الإنسان ما يقع من داخل المجتمع نفسه، وهذه كاسرة الظهر في الظاهرة التي تمثلت في بعض الجواسيس ولصوص الأرض وقادة الأحزاب السياسية وأثرياء بعض العائلات المسيحية اللبنانية (عائلة سرسق، وعائلة الجزائري، وعائلة المغربي، وعائلة تيان اللبنانية وغيرها) الذين سقطوا في مصائد المستعمر والصهاينة وهذا ما عبّر عنه شاعرنا في قصيدة «يا حسرتاً»:

الظالم الباغي يسوس أمورهم واللص والجاسوس والسُّمّاسار
إضافة إلى السياسة الاستعمارية من قِبَل بريطانيا التي قامت بدور كبير لإثارة
سياسات تافهة كإغراء الشباب على رئاسة البلديات وعضوية المجلس الإسلامي الأعلى
واستفحال الخصومات المحلية والنزاعات الحزبية.

فهبّ الشعراء والأدباء يقاومون هذه السياسات، وعلى رأسهم إبراهيم طوقان
الذي نهض بلسانه وقلمه يفضح مخططات المستعمر ويكشفها بقصائده اللاهبة بجرأة
وشجاعة دون خوف أو وجل، وينبه سراة البلاد حول المستعمر ووعد بلفور الذي دكّ
العقول والقلوب، كما نبههم إلى عدم التسابق في طلب المناصب وطلب منهم التمسك
بأهداب الدين، لأن الوطن يتعرض للخطر الحالك والظلام الدامس وقد فصل هذا
المشهد البائس في قصيدة «يا سراة البلاد» التي قال فيها:

يا سراة البلاد يكفي البلاداً	ما أذاب القلوب والأكبداً
انتداب أحد من شفرة السيف	وأورى من المنايا زناداً
وعد بلفور دكها، فلماذا	تجعلون الأنقاض منها رماًداً
أحبط الله سعيكم، أخطبّ	الذات قمتم تهيثون العباداً
تبذون الأوطان في طلب المنصب	والسدين والهدى والرشاداً
يا جناة على البلاد بدعوى الخير	والبر، لا نعمتم رُقاداً

ولم يكن أمام إبراهيم طوقان خياراً إلا أن يستمر في التهكم على أولئك وكشف
أعمالهم، أولئك (الزعماء) أو الذين نُصّبوا زعماء وهم في حقيقة أمرهم كما رأهم إبراهيم
إلا سماسرة، يبيعون الأرض والدين (بالدرهم والدينار) ولذلك لم يقبل زعامتهم بل راح
يصب عليهم سخطه ونقمتهم في قصيدة مشهورة بعنوان «رجال البلاد» ووصفهم فيها بـ
«الدالين» وهذا مفهوم السياسة عند إبراهيم وهو يخاطبهم بقوة ويكشفهم للناس،
يخاطبهم بصراحة دون مواراة أو مراوغة فيقول:

وطني مبتلى بعصبة (دالين)	لا يتقون فيهِ الله
يا رجال البلاد يا قادة الأمة	ما إذا دهاكم ودهاها
هل لديكم سياسة غير هذا القول	يحيي النفوس قواها

عرف الناس والمنابر والأقلام أفـضالكم منها تواسواها
كلكم بارع بليغ بحمد الله طيب بحالنا ودواها
غير أن المريض يرقب منكم هذه الجرعة التي لا يراها

هكذا فهم إبراهيم طوقان السياسة، فهمها بمواجهة هؤلاء بالقوة والعنف لأنهم تبادوا في بيع ضمائرهم، وبيع حقوق الوطن والشعب في سبيل المناصب والمراكز الخسيسة البالية فخطبهم بقصيدة «فلسطين مهد الشهداء» لعلهم يحسون بأهمية الوطن، وأن الوطن أكبر من الخلافات والمناصب:

منذ احتلال الغاصبين ونحن نبحث في السياسة
شأن الضمير مع السياسة كالريق مع النخاسة
فإلى متى يا ابن البلاد وأنت تؤخذ بالحماسة
وإلى متى زعماء قومك يخلبونك بالكياسة
ولكم أحطنا خائناً منهم بهالات القداسة
ولكم أضاع حقوقنا الرجل الموكل بالحراسة

كان إبراهيم طوقان عيناً مراقبة لما يجري وكان يعلم كيف قامت الأحزاب السياسية، وقد وصف القائمين عليها بأنهم أصحاب أحلام لا تلبث أن تزول، وأنهم يفيضون بالكلام دون أفعال وما أسرع هروبهم عند المواقف التي تحتاج الوقوف عليها:

كل يوم حزب وحلم، فحدث عن ضعيف سلاحه أحلام
فغرم بالبلاد صببٌ ولكن بسوى القول لا يفيض غرامه
بطل إن علا المنابر كرّار سريع عند الفعال انهزامه

هكذا كانت صورة أولئك الذين يزعمون أنهم يخدمون شعبهم ويرسمون سياساتهم، وكثيراً ما نقد إبراهيم أولئك وفضح سرائرهم وكشف بواطنهم، وقد صادف بعد عام 1932 أن قرر بعض الزعماء التظاهر بعد كل صلاة جمعة من كل أسبوع في كل المدن الفلسطينية، ولما أحست الشرطة الإنكليزية بالأمر، ألقت القبض على بعض الزعماء بتهمة التحريض وساقتهم إلى المحكمة، وأصدرت بحقهم أحكاماً بالسجن أو التوقيع على كفالات ضمانه منهم بعدم التحريض على الشعب، فوقعوا على هذه الكفالات

باستثناء «الشيخ عبدالقادر المظفر» الذي فضل السجن على توقيع الكفالة، مما دفع إبراهيم طوقان أن ينظم فيهم مقطوعات شعرية يتهمهم ويسخر منهم، ويقارن بينهم وبين الشيخ المظفر الذي رفض التوقيع كما وأشار إلى إخلاصه لوطنه:

أحرارنا ق كشتتم عن بطولتكم	غطاءها يوم توقيع الكفالات
أنتم رجال خطابات منمقة	كما علمنا وأبطال احتجاجات
وقد شبعتم ظهور في (مظاهرة)	مشروعة وسكرتم بالهتافات
ولو أصيب بجرح بعضكم خطأ	فيها، إذ ألترتعم بالحفاوات
بل حكمة الله كانت في سلامتكم	لأنكم غير أهل للشهادات
ذاك السجين الذي أعلى كرامته	فداؤه كل طلاب الزعامات

واشتد الخصام بين الأحزاب السياسية، عندما أعلن المستعمر عن انتخابات البلديات في المدن الفلسطينية، وقد غذى المستعمر هذه الانقسامات بين أعضاء هذه الأحزاب، لتوجيه الأنظار عن القضية الأساسية وتلهي أبناء الشعب بأشياء جانبية، تنبه شاعرنا إلى هذه القضية فوق ينذر ويحذر ويتوعد في قصيدة بعنوان «يا قوم» قال فيها:

هزلت قضيتكم فلا	لحم هنالك ولا دم
حتى العظام فقد تعرّفتها	الذئباب وأنخمشوا
بليت قضيتكم فصارت	هيكلاً يتهدم
ضمرت إلى (بلدية)	فيها العدا تتحكم
يا قوم ليس عدوكم	ممن يلين ويرحم
يا قوم ليس أمامكم	إلا الجلاء فحزّموا

هذه بعض جوانب السخرية في شعر إبراهيم طوقان وهو استهزاء بمن يحملون تجارة ولا يعملون لنيل الحقوق، وقد خاطب الزعماء، فقال:

أنتم المخلصون للوطنية	أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون من غير قول	بارك الله في الزنود القوية
وبيان منكم يعادل جيشاً	بمعيدات زحفه الحربية
واجتماع منكم يرد علينا	غابر المجيد من فتوح أمية

ما جحدنا أفاضلكم غير أنالـم تـزل في نفوسنا أمنيـة
في يـديـنا بقيـة مـن بـلاد فاستريحوا كيلا تضعـب البقيـة
وينظر شاعرنا إبراهيم طوقان إلى ما يجري بين هذه الأحزاب السياسية وما تخلفه
الخلافات بينها من ثارات وتنافر لا تجني على الوطن إلا الدمار والخراب وبدلاً من
مقاومة الأحزاب الصهيونية والعصابات التي تنهب الأرض، راحت تضم نار الفرقة بين
بعضها البعض، فقال قصيدة بعنوان «رثاء الشيخ سعيد الكرمي» يعبر عما يحس به بكل
جرأة وصراحة:

مـا بـالـكم بـعضـكم يـمزق بـعضاً أفرغتم من العدو اللدود
اذهـبوا في البـلاد طـولاً وعـرضاً وانظروا ما لخصمكم من جهود
كل هـذا اسـتفادـه بـين فـوضى وشقاق وذلة وهجود
شـهد الله أن تـلك حـياة فضلت فوقها حياة العبيد
أصـبح المـوت نـعمة يـحسد المـيت عـليها مـوسداً في الصـعيد

وإبراهيم في كل هذا لم يكن محبطاً ولم يدعُ إلى الإحباط، لكن آلامه وأحزانه كانت
قوية دفعته لكشف ما يجري لتعريف الشعب وتنبهه حول نقاط النقاش الدائر في بلاده،
وهو بهذا يعرّي الخونة، ولكن ومقابل هذه الصورة هناك صور مشرقة لوجهاء وزعماء
وطنيين، حريصين على البلاد والدفاع عنها، وقد ضرب لنا مثلاً على الزعماء الوطنيين
أمثال «الشيخ المظفر» والذي لم تنسه سجون المستعمر عن عزمته القوية، بل راح الشاعر
يمدحه ويقارن بينه وبين غيره ممن يذوب في أول هزة ريح ضعيفة فقال:

انظـر لـما فـعل «المظـفر» إنـه نفع القضية غائباً لم يحضر
أحيا القلوب ودوّنهن ودونه غرف الحديد وحاميات العسكر
عرضوا الكفالة والكرامة عنده عبثاً... وهل عَرَضَ يقاس بجوهر
ورأى التحيّر في التخيّر سبة فغدى كرامته (بسته أشهر)
إن «المظفر» من حديد جسمه فيما أرى وجسومهم من سُكَّر

وفي قصيدة أخرى مدحه وبيّن موقفه أمام سجانيه فقال:

رحم الله مخلصاً لبلاده ساوموه الدنيا بها فأباها

لو أتوه بالتبر وزن ثراها لأباه وقال أفدي ثراها
وكان إبراهيم يستبشر خيراً، حين يسمع عن تضامن بعيد عن المزايدات الحزبية،
لأن اهتماماته بالوطن، كان أكبر عنده من الخلافات، وفي قصيدته «تفاؤل وأمل» إشارات
كثيرة لتبديد التشاؤم فقال:

الله ثم الله ما أحلى التضامن والوفاقا
بوركت مؤتمراً ألف لانزاع ولا شقاقا
اليوم يشرب موطني كأس الهنا لكم دهاقا
لا تعبأوا بمشاغبين ترون أوجههم صفاقا

هذا ما كان يسعى إليه إبراهيم طوقان، أن يصدق الناس بالحقائق التي يغفلون
عنها. فلم يتوانى لحظة منذ عام 1935 عن نظم مقطوعات شعرية وينشرها في جرائد
فلسطين وفي خارج فلسطين لإثارة الأوساط الحزبية والشعبية ويعرف الجماهير والقراء
الذين صاروا ينتظرون قصائده كل أسبوع لما يُحدث به نفوسهم ومشاعرهم بتصوير
صادق للواقع في فلسطين. ولم يكن قاسياً في شعره إلا لإثارة النخوة في نفوس هؤلاء
الزعماء وتحويلهم إلى القضية الأساسية والرئيسية التي يجب الدفاع عنها، كما خاطب
القدس مقر الزعامة والأحزاب السياسية بألم يدل على صدق وطنيته ونقاء سيرته في
قصيدة خاصة بعنوان «القدس» ومما جاء فيها:

دار الزعامة والأحزاب كان لنا قضية فيك ضيعنا أمانها
هل تذكرين وقد جاءتك ناشئة غنية دونها الأرواح تفديها
ما كان كفواً عفيف النفس كافلها ولا أيها حمى الأنف راعيها
قضية نبذوها بعد ما قتلت ما صرّ لو فتحوا قبراً يواربها

هذه صورة مجملة للبُعد السياسي في شعر إبراهيم طوقان، ولكنه في نفس الوقت لم
يكن بعيداً عما كان يجري في البلاد العربية، ولم يغفل في نضاله على نفسه وعلى وطنه، فقد
كانت تهزه أنباء الثورات في الأقطار القريبة والبعيدة، فقد كانت فلسطين إحدى البلدان
العربية وتربطها بباقي الوطن الكبير روابط عربية ودينية وقومية، ولذلك جاءت أشعاره
الوطنية فياضة من أرض فلسطين إلى كل البلاد العربية، وقد علق الدكتور زكي المحاسني
في كتاب إبراهيم طوقان، شاعر الوطن المغصوب بقوله:

«كانت تهزه أخبار الوطنية، وأنباء الثورات في الأقطار الدانية والقاصية، ممن تربطهم روابط العروبة والنضال، فلما قام الزعيم المغربي (الأمير عبدالكريم الخطابي) بثورة ملتبهة على الاستعمار الذي أشقى بلاده سنة 1924، وذاعت محامد بطولته وقيادته ومآثر الآباء والشجاعة التي أداها أعوانه ورجاله كان الشاعر يتتبع أخبار هذه الثورة التي قامت في الشمال الإفريقي ضد الفرنسيين والإسبانيين، فيطالع الصحف العربية والغربية مستبشراً ببطولة الزعيم، وجهاده من أجل الحرية... (ويتمنى) ثورة واحدة تكافح بالعرق والدم للتحرر من ضيم المستعبدين الذين أذلوا الرقاب، وأشاعوا الخلاف والفساد في كل أرض احتلوها».

ولو عدنا إلى الترتيب الزمني في شعر إبراهيم طوقان، لوجدناه في عام 1924 ينظم قصيدة قومية حين اجتمع شاعرنا وعبدالرحيم قليلات صاحب ديوان (الهيام) ومحمد فليفل في مقهى الكاريون ببيروت.. فخطر لإبراهيم أن ينظم نشيداً لهذه الثورة ليدوّن صدى هذه الحرب في نفوس العرب المتوثبة إلى التحرر من النير الأجنبي فقال بعنوان «نشيد بطل الريف»:

في ثنائـا العجـاج	والتحـام السيوف
بيـننا الجـوداج	والمنايات تطـوف
يتهدى نـسيم	فيه أزكى سـلام
نحو «عبدالكريم»	الأمير الهـمام

ويكمل إبراهيم حتى يصل:

ريفنا غابنا	نحن فيه الأسود	ريفنا نحـميه
طالما اسـتعبدوا	وأذلوا الرقبـاب	
أيها الأيـدُ	جاء يوم الحسـاب	
فليذوقوا الزعـاف	بالظبي والأسـل	
وليُعـل الهـفاف	للأمير البطـل	

جاءت هذه القصائد الحماسية تلبية ما يدور في نفوس الشباب على امتداد الوطن العربي، وكانت هذه القصائد تُنشر في جرائد الوطن العربي وخاصة جريدة الشورى بمصر، وقد انتشر صيت هذه القصائد حتى أن الطلاب كانوا يرددونها في كل بلد عربي.

ولم يقف شاعرنا عند بلد واحد، بل التفت إلى سوريا ولبنان اللتين كانتا تشكلان بالأمس مع فلسطين سوريا الكبرى وأصبحتا اليوم ترزحان تحت الانتداب الفرنسي، وقد رأى الشاعر أن ما يدور في هذين القطرين من معاملة المستعمر كما كانت فلسطين أيضاً، فهبّ شاعرنا يستصرخ أهل الشام حتى لا يستكينوا لذل المستعمر فقال:

ما وُنت عن جهادها الدهر لكن لطف الصبح كرهاً والنضالاً
هي حد السوريتين شمالاً وجنوباً وما تنوء مجالاً
لست تلقى سوريتين، ولكن قيل هذا، تفننا وضلالاً
ويقصد بالسوريتين (سوريا ولبنان).

ثم قام يحرض الشعب العربي في سوريا ويذكرهم بمعركة ميسلون وتضحيات شباب سوريا في سبيل الذود عن البلاد وحريتها:

لك في ترب ميسلون دفين كان للذائدين عنك مثالا
مات في ميعة الشباب شهيدا وكذا الحر لا يموت اكتهالا
وما يزال الشاعر يحرض أبناء سوريا، فيذكرهم بأيام عز دمشق والشام أيام دولة بني أمية ويدعو لهم الله بحفظ أمجادهم:

هذه شيمة الكرام بني الشام سمت همّة وطابت فعالا
عربي إياؤكم... أموي لا أباد الزمان تلك الخلالا
يحرس الله مجدنا ما بذلنا في سبيل الأوطان نفساً ومالا

وقد كان لمصر نصيب كبير في شعر إبراهيم طوقان، مصر التي أحبها فقد أكثر من ذكرها في شعره، فحزن لحزنها، وفرح لفرحها وانتصاراتها، وعندما توفي «سعد زغلول» حزن شاعرنا، وانطلق من عقاله، فقال قصيدته الدالية بعنوان «سر الخلود» يمجّد زعيم مصر، وباعث نهضتها، وقد جاءت القصيدة مفعمة بالعواطف والحب، وقد بدأها بذكر سعد زغلول:

هل كان سعد كما علمت في الورى فيموت؟ كلا، إن سعد لأوحد
هبت عواصف نعيه مصرية فإذا بها شرقية... تتمرد
فجعت بنو مصر بفقد زعيمها الله أكبر أي أروع تفقّد

يا سعد يا بن النيل رنق ماءه
منصر التي فقدتك قلب خائق
ويستمر في قصيدته إلى أن يقول:

يا سعد شأنك والبطولة إنها
الله في سبع وستين انطوت
يا حسرتا على البلاد يقيمها
زفرتها زفرات مصر تصدعت
تجثو لديك وأنت أنت السيد
والموت مضاء العزيمة يطرد
غدر المنيعة بالرئيس ويقعد
من هولهن قلوبنا والأكبّد

ويستمر شاعرنا يتحدث عن مصر وعن شعرائها، فعندما عزم «شوقي» زيارة فلسطين سنة 1928، بدأ أدباء فلسطين وشعراؤها يعدون لإقامة مهرجان يليق بأمر الشعراء، غير أن الزيارة لسبب ما لم تتم، فوجه إبراهيم طوقان قصيدة يعاتب فيها شوقي على عدم مشاركته أهل فلسطين نكبتهم، وعلى قلة شعره بأحداث فلسطين، مع أنه لم يخل بقصائده على غيرها مثل نكبة دمشق على سبيل المثال فقال:

أهلاً بشوقي شاعر الفصحى
يا فرقد الشعراء كم
ثم يقول في عتابه لشوقي:

يا باكي الفيحاء حين أبت
أيام كانت وردة
أرسلت عن بردى سلامك
وذرفت دمعا لا يكفكف
عرج على حطين واخشع
وانظر هنالك هل ترى
جل المصاب أبا علي
تقويم على الهوان
بدم البواسل كالدهان
في لظى الحرب العوان
هيجه الغوطتان
يشج قلبك ما شجاني
آثار يوسف في المكان
فابك هاتيك المغاني

وستجد القصيدة كاملة بين قصائد الديوان في القسم الأخير من الكتاب ويصل طوقان بقصائده إلى بلاد المغرب، حين كان معلماً في كلية النجاح عام 1929/1930،

وقد جاء طلاب من المغرب لمتابعة دراستهم في الكلية فاستقبلهم طوقان يث فيهم الروح القومية والحماسة الوطنية فنظم نشيداً بعنوان (فتية المغرب) ينشدونه في طابور الصباح، وقد جعل هذا النشيد نابضاً بالتضحية والجهاد، فذكرهم بفتح المغرب والأندلس، وبقصر الحمراء وبمآثر المسلمين وحضارتهم في الأندلس:

فتية المغرب هيا للجهاد	نحن أولى الناس بالأندلس
نحن أبطال فتاهنا ابن زياد	ولها نرخص غالي الأنفس
قف على الشاطئ وانظر هل ترى	لهب النار وأثار السفين
يوم لا طارق عاد القهقهة ترى	لا ولا أباًؤنا أسد العرين
يا فتى المغرب سلها: من بنى	دارها الحمراء تسمع عجباً
نحن أهلوها وإن هبت صبا	من رياهها فعلينا أولاً
جنة الفردوس هاتيك الربا	كيف تبقى لسوانا نزلاً

وإبراهيم طوقان رغم قوميته المعروفة، لم ينسَ لحظة واحدة وطنه، وهذا يظهر في قصيدة قام يعاتب ويلوم شعراء مصر، ويذكرهم بأواصر العروبة التي لن تبليها السنون، وجاء عتابه لأن شعراء مصر لم يقدموا ولو شيئاً قليلاً إلى الذين تهفوا قلوبهم في فلسطين إلى مصر شوقاً.

وهو عاتب على شوقي الذي لم يذكر في شعره وطن الشاعر وهو معجز البيان وأمير الشعراء، مع أن قضية فلسطين هزت العالم بأسره بينما لم تحرك بيانه وشعره مع أن أمير الشعراء لم ينسَ أحداث ونكبات أخرى.

كما عاتب حافظ إبراهيم الذي هزّته أحداث هنا وهناك حتى فاضت أحزانه على زلزال اليابان، ولم تحرك شاعريته زلزالاً عربياً على حدود مصر، زلزال المستعمر والمحتل في فلسطين.

وعاتب أيضاً على خليل مطران الذي أثاره نيرون، ولم يثر ظلم الصهاينة شعره وحنقه، لقد أثار طوقان موقف شوقي وحافظ ومطران وغيرهم من الشعراء إلا أنه تحدث عن هؤلاء كنموذج لشعراء يعاصرون الحدث الفلسطيني ولا تهتز جوارحهم وأشعارهم له، فعاد شاعرنا من جديد يخاطب شعراء عرب وهو حزين متألم فقال في قصيدة بعنوان «عتاب»:

جئتكم عاتباً بلا بل مصر
 رفر الشعر فوقكم بجناحيه
 كم بلاد تهزكم ليس فيها
 خَطْبُنَا لا يهز شوقي ولكن
 خَطْبُنَا لا يهز حافظ إبراهيم
 ما لمطران يا فلسطين شأن
 سيقولون: قد ست هذه الأرض
 بل فلسطين بالشياطين ملأى

ولم يقف شاعرنا عند لوم شعراء مصر، وقد حق له ذلك، فهو شاعر يعيش في قلب العالم العربي، ونظر فرأى أن بعض العرب أيضاً لا يبالون بما هو محقق بوطنه وبمدنه، وقد خُذعوا بالمظاهر التي كانت وراءها الصهيونية فقال قصيدة ينبههم فيها عن غفلتهم بعنوان «فلسطين مهد الشهداء» أو (فلسطين مهد الشقاء):

إخواننا أهل الوفاء
 من كل قطر بالعروبة
 أحبابنا لا تُخدعوا
 ليست فلسطين الرخيصة
 أهل المودة والولاء
 ذي ازدهار وازدهاء
 عنا بظاهرة الرخاء
 غير مهد للشقاء

ورغم لومه وعتابه، إلا أن قوميته استمرت ولم يتوانى عن التفاعل مع أحداث البلاد العربية، حتى أنه كان في مراثياته يصور ما يجري في فلسطين وما حولها ولا أدل على ذلك من مراثيته في ملك العراق (فيصل الأول) وقد ألقاها في حفلة الأربعين في مدينة نابلس:

شيعي الليل وقومي استقبلي
 واخشعي يوشك أن يغشى الحمى
 ما دنا حتى همى الدمع فهل
 ما الذي أعددت من طيب القرى
 لا أرى أرضاً نلاقيه بها
 طلعة الشمس وراء الكرمل
 يا فلسطين سنئى من فيصل
 «إيلياء» الغيث فوق الجبل؟
 يا فلسطين لضيف معجل
 قد أضاع الأرض بيع السيفل

أكرمي ضيفك إن أحبيته بأمانيته الكبار الحفل
لا تقومي حوله معولة من جلال الملك الأتولي
ثم ينتبه شاعرنا إلى ما قام الآشوريون به في العراق بتفتيت الأمة وتمزيق الوطن،
مُخْرِضِينَ مِنْ قَبْلِ الْمُسْتَعْمَرِ الْغَاشِمِ فَقَالَ بِعَنْوَانِ «نَسْرُ الْمُلُوكِ»:

أشرت آشور حتى جاءها أمرها بين الطيبي والأسل
كل لؤم وعقوق دونه فعل «شمعون» لثيم الموصل
ثورة الغاضب للحق ترى هذه أم شغب من وكّل
وهو كما ترى يرثي، لكن وبدون أن يحس يجد نفسه ينساق إلى موضوع يشغل
العرب جميعاً، وهذا واضح في رثائه زعيم فلسطين آنذاك «موسى كاظم». حتى قيل له: ما
هذا الرثاء؟ فقال:

وجه القضية من جهادك مشرق وعلى جهادك من وقارك رونق
لله قلبك في الكهولة إنه ترك الشيبة في حياء تطرق
تلك الثمانون التي وفيها في نصفها عذر لمن لا يلحق
لكن سبقت بها فما لمقصّر سبب لمعذرة به يتعلق
ثم راح يتحدث عن فلسطين:

وطني أخاف عليك قوماً أصبحوا يتساءلون: من الزعيم الأليق
لا تفتحوا باب الشقاق فإنه باب على سود العواقب مغلق
والله لا يرجى الخلاص وأمركم فوضى وشمل العاملين ممزق
وعندما أقيم حفل تخليد ذكرى «عبدالحسن الكاظمي» عام 1935 قال إبراهيم
يرثي الفقيد:

سل جنة الشعر ما ألوي بدوحتها حتى خلت من ظلال الحسن والطيب
ومن تصدى يرد السيل مزدحماً لما تحدر من شم الأهاضيب
ثم انكفاً يخاطب العرب اللاهين عن مصيرهم، والنكبات تتوالى عليهم:

أبا المكارم قم في الحفل مرتجلاً مهذباً لم تصقل بتهذيب

وأضرم النار إن القوم هامدة قلوبهم، ذل قلب غير مشبوب
ما أشرف الغدر لو أن الوغى نثرت أشلاءهم بين مطعون ومضروب
كأنهم لم يشد فجدا أولهم على السيوف وأطراف الأنايب
هل جئت منهم أناساً عيشهم رغد أم هل نزلت بقطر غير منكوب

لقد كانت القومية عند طوقان مستمدة من الدعوة الإسلامية وشريعة الاستقلال ولم تكن قومية ضيقة مسوخة كما ينادي بها بعض الأدعياء، وفي رأي شاعرنا أن الشريعة الإسلامية هي التي جلّت الأنظمة والقيادة، والعربي لا يمكن له جلاء القومية إلا من رحاب الإسلام. وقد وضح ذلك في قصيدته «شريعة الاستقلال» التي عرج في آخرها على مخاطبة قومه لنبذ الخلافات والتمسك بكتاب الله حتى يتخلصوا من براثن الاستعمار فقال:

يَوْمَ بَدَاجِيَةِ الزَّمَانِ ضِيَاءٌ وَهَآؤُهُ لِلخَافِقِينَ بِهِاءُ
يَزْجِي النِّسِيمَ بِهِ هَجِيرٌ لَافِحٌ عَجِبَاءُ وَتَبَسُّطُ ظِلِّهِ الصَّحْرَاءُ
وَإِذَا الرِّشَادُ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى وَمِنَ الشَّقَاقِ تَأَلَّفٌ وَإِخَاءُ
وَإِذَا الْخِيَامُ قُصُورُ أَمْلَاقِ الْوَرَى وَإِذَا الْقَفَارُ دَمَشَقُ وَالزُّورَاءُ
وَعَلَى رَبْوَعِ الصِّينِ كَبُرَ فِيلِقُ وَبِأَرْضِ فَلَسْطِينَ هَبَّ لَوَاءُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

نَادَيْتَ قَوْمِي، لَا أُخْصِصُ مُسْلِمًا أَبْنَاءَ يَعْرَبٍ فِي الْخُطُوبِ سَوَاءُ
إِنْ الْكِتَابُ شَرِيعَةٌ اسْتِقْلَالُكُمْ فَتَدْبِرُوهُ وَأَنْتُمْ الْخُلَفَاءُ



شعره الوطني

يقول البدوي المثلث في شعر إبراهيم طوقان الوطني: «وكنت ممن أطلق على إبراهيم لقب «شاعر فلسطين» وقد أهله لهذا اللقب أن فلسطينياته أهم قصائده وكونه أول شاعر فلسطيني طار صيته بين العرب... كان إبراهيم خفيف الروح، خفيف الظل، دعاباً، ممراحاً، حديثاً، بارع النكتة، حاضر البديهة، ولكنه كان يخفي وراء ذلك كله غماً وهماً... وكان رهيف الحس، دقيق الشعور، وقد أثر هذا كله في بعض نواحي شعره من حيث لا

يدري... ومن هنا جاءت فلسطينياته دكناء تنضح بالحملاط الشعواء على الزعامة والزعماء».

والقارئ المتفحص لشعر طوقان الوطني يجده ممجداً للبطولات حيناً ومندداً بالزعامات حيناً آخر، فمنذ أن وعى شاعرنا رأى المؤامرات التي حيكت ضد وطنه وشعبه، ورأى في شبابه ما يصنع المستعمرون في بلاده، تمثلت له أولى الصور التي أصبحت فيما بعد تلاحين لوطنه، فالشاعر كان ينظر إلى المأساة والمعاناة فيهب للدفاع عن وطنه بكل مشاعره الملتهبة وأحاسيسه الفياضة فيقول:

يا موطناً قرع العداة حصاته أشجيتني ومن الرقاد منعنتني
يا موطناً طعن العداة فؤاده قد كنت من سكينهم في مأمن
لهفي عليك وما التهاني بعدما نزلوا حماك على سبيل هين
وأتوك يبدون الوداد وكلهم يزهو بشوب بالخداع مبطن
ثم تنبه الشاعر لما غفل الناس عنه، حين بشر المستعمر بالمدنية الزائفة والحرية المبطنة بالديكتاتورية، فانبهر أصحاب القشور بالكلام المعسول وانحنوا للمستعمر صاغرين وما حسبوا أن كل هذا خداع فقال إبراهيم يعرفهم بحقيقة ما خدعوا به:

قد كنت أحسب في التمدن نعمة حتى رأيت شراسة التمدن
فإذا بجانب رفقه أكرُّ الوغى وإذا الحديد مع الكلام اللين
ثم اتجه إلى قومه يستنهضهم ويلومهم بتقريع وتعنيف فقال:

عجباً لقومي مقعدين ونوماً وعدوهم عن سحقهم لا ينثني
لم يوجسون من الحقيقة خيفة لم يصدفون عن الطريق البين
إن البلاد كريمة يا ليتها ضنت على من عقها بالمدفن
وقد عول شاعرنا على الشباب في سماع صوته وصرخاته فهم أمل الوطن وضميره وهم الذين يضحون بأنفسهم فداء لوطنهم فخاطبهم:

قالوا: الشباب فقلت سيف بتر وإذا تثقف كان صافي المعدن
مرحى لشبان البلاد فما لهم إلا السمو إلى العلى من ديدن
نهض الشباب يطالبون بمجدهم يا أيها الوطن المجيد... تيمن

أمضى إبراهيم في مدرسة المطران بالقدس أربع سنوات، ثم التحق بالجامعة
الأميركية في بيروت، وخلال وجوده في الجامعة، ارتسمت في أعماق نفسه صوراً أثرت في
حياته فأصبحت رثاء حماسية في أناشيده، ومنها نشيد موطني المشهور ويقول فيه:

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في ربـاك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هـواك

هل أراك

سالماً منعماً وغانماً مكرماً

هل أراك في عـلاك

تبلغ السماك

موطني

هذا النشيد الذي ذاع صيته بين الخاصة العامة، وقاموا يرددونه في مدارسهم وفي
بيوتهم وفي شوارعهم، هذا النشيد الذي نظمه شاعرنا وهو بين طلابه بعثاً للأمل في
نفوسهم، وإعداداً لهم لحياة حرة، هذا النشيد هزّ أعطاف البلاد بل قل البلاد العربية قاطبةً
لما كان يحمله من معاني وطنية صادقة وما زالوا يرددونه:

موطني... الشباب لن يكل همـه أن نستقل... أو نبـيد

نستقي من الـردى ولن نكون للعدى... كالعبـيد

لا نريد

ذلنا المؤبد وعيشنا المنكد

لا نريد... بل نعيد

أراد لوطنه أن يكون حساماً ويراغاً، ولا يريد كلاماً ونزاعاً فالعهد لمجد هذا
الوطن، وواجب الشباب، الوفاء له، حتى يقهر المستعمر الجاثم على صدر الوطن:

موطني الحسام واليراع لا الكلام والنزاع... رمزنا

مجدنا وعهدنا وواجب إلى الوفاء... يهزنا

عزنا

يقول عمر فروخ: «ما اجتمعت إلى إبراهيم يوماً إلى وسكرت بشعره، الذي يسيل غزوبة وحباً وما سمعته ينشد موطني إلا وأحسست أنه يجب أن يستقل العرب.. وشعرت أن هذا الشاب الهزيل قد تحول إلى مارد جبار، ينث نارا ويرسل حمماً».

كان إبراهيم مرهفاً حساساً، وكان صوته مؤثراً في سمع وقلب من يسمعه جيد الإلقاء، وإذا أنشد احمرت عيناه، وأخذته رجفة، ولكنه ومهما كانت المناسبة فلا ينسى وطنه، وفي عام 1927 هز زلزال عنيف مدن فلسطين والأردن، فراح شاعرنا يصور المحن من زلزال قاصف، عصف بمدنها عصفاً إلى جراد زاحف، طغى على سهولها وجبالها... إلى وباء جارف غشي بني وطنه وكان نذير شؤم وتعاسة:

دخلاء البلاد إن فلسطين	لأرض كنوزها من نكال
تبرها صفرة الردى فخذوه	عن بنيتها وأذنوا بارتحال
ربّ لطفاً فقد أتاننا نذير	بوباء من بعده هذا الوبال
وجراد وكل آت قريب	أو بعد الإحمال من إحمال
ربّ إن الكروب تترى علينا	حسبنا كرب هجرة واحتلال

ثم يعود إلى موضع آخر إلى الجشعين للمال، وإلى سيطرة الأراضى فيهيح شاعرنا ويقذفهم بحممه الشعرية ليصفهم بلغة العار ويخاطبهم:

باعوا التراب إلى أعدائهم طمعاً	بالمال لكننا أوطانهم باعوا
قد يُعذرون لو أن الجوع أرغمهم	والله ما عطشوا ولا جاعوا
وبلغة العار عند الجوع تلفظها	نفس لها عن قبول العار رداع
تلك البلاد إذا قلت: اسمها وطن	لا يفهمون، ودون الفهم أطماع

ولم يتوان إبراهيم طوقان عن تقريع وسيطرتهم على ضعاف النفوس بالرشوة:

أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة	ونحن منذ هبطنا الأرض زُرّاع
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة	ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد - والهفي	فهم عبيد وخدام وأتباع
وغرك الذهب اللعاع تحرزه	إن السراب كما تدريه لماع

فكر بموتك في أرض نشأت بها واترك لقبرك أرضاً طولها باع
وفي ناحية أخرى يرد على المشككين والمتهمين فيقول:

يقولون في بيروت أنيتم بنعمة تبيعونهم ترباً فيعطونكم تبراً
شقيقتنا مهلاً متى كان نعمة هلا ألوف الناس في واحد أثرى
وباذل هذا المال يعلم أنه يسلم باليمنى إلى يده اليسرى

لقد هز إبراهيم طوقان ما رآه من سيطرة الأراضى، وأحس بأنهم مرض، وهم
عامل كبير من عوامل ضياع البلاد، فحمل عليهم، وتصدى لهم يفضحهم ويعريهم، ومما
كان يغضب شاعرنا ما تظاهر به أولئك السماسرة على مصالح البلاد والعباد وهم في رأيه لا
يزيدون على أن يكونوا لصوصاً ساعدوا في تهويد البلاد فألمه بقاؤهم يسرحون ويمرحون
بثياب الزعامة، فقال قصيدة يزيل عنهم براقع الكذب:

أما سيطرة البلاد فعصبة عاز على أهل البلاد بقاؤها
إبليس أعلن صاغراً إفلاسه لما تحقق عنده إغراؤها
يتنعمون مكرمين كأنها لنعيمهم عم البلاد شقاؤها
ومن العجائب إن كُشفت قدورهم أن الجرائد بعضهن غطاؤها
كيف الخلاص إذا النفوس تراحمت أطاعها وتدافعت أهواؤها
وفي عام 1928 ركزت الحركة الوطنية، ورجحت موازين السماسرة فألقى إبراهيم
قصيدة من عيون الشعر السياسي والوطني فقال:

كفكف دموعك، ليس ينفعك البكاء ولا العويل

وانهض ولا تشك الزمان، فما شكا إلا الكسول

إلى أن يقرّع من يشكون دون فعل بل يقومون بإحباط المستعدين للعمل:

كم قلت أمراض البلاد وأنت من أمراضها

والشؤم علتها: فهل فتشت عن أعراضها

يا من حملت الفأس تهدمها على أنقاضها

اقعد فما أنت الذي يسعى إلى إنهاضها

ثم يتناول جانباً سياسياً آخر فيه حث ولكن بطريقة التقرير:

وطـن يـبـاع ويـشـترى وتـصـيـح فليـحـيـى الوـطـن
لو كنت تبغي خيره لبذلت من دمك الثمن
ولقمت تضمد جرحه لو كنت من أهل الفطن

ولكن وبعد هذا المشهد، يكمل الشاعر فيرفع من شأن الشباب، فهم أهل عزيمة وقادرين على مقارعة المستعمرين، وما هو يذف للوطن هؤلاء الشباب الذين سوف يأتي يوم فتثمر أعمالهم لأنهم يتسلحون بالعلم والخلق:

حيّ الشباب وقـل سـلاماً إنكـم أمـل الغـد
صـحّت عـزائكمـكـم عـلى دـفع الأثـيم المـعتـدي
والله مـدّ لـكم يـدأ تـعلـو عـلى أقـوى يـد
وطـنـي أـزف لـك الشـباب كـأنـه الزهـر النـدي
لا بـد مـن ثـمـر لـه يـومـمـاً وإن لم يـعـقـد

وفي نفس عام 1929، رسم إبراهيم طوقان بريشة الشاعر الفنان الغاضب ذلك اليوم الحالك المخضب بالدماء ليسجل في شعره الوطني الخالد «الثلاثاء الحمراء» هذه القصيدة المتوثبة بعبق القومية والوطنية حين حاول اليهود الاعتداء على الأماكن المقدسة في فلسطين وتوجهوا إلى حائط البراق، فهاج العرب، ونشبت إثر ذلك اضطرابات دامية في مدن فلسطين كالقدس والخليل ويافا وصفد، فتحركت السلطات البريطانية وقبضت على عدد من الشبان الذين ملأت الحماسة صدورهم بتهمة قتل اليهود ثم حوكموا، وحكمت محاكم الإنجليز عليهم بالإعدام، وكان من هؤلاء الشهداء فؤاد حجازي ومحمد مجوم وعطا الزير، وقارن أحداثها بالمظالم التي مرت بها الإنسانية في عهود محاكم التفتيش في أوروبا ثم عهود الرقيق فيها ثم عهد جمال السفاح في سورية، وقد جعل الملحمة في ثلاثة أبواب، وكانت في نهار الثلاثاء السابع عشر من شهر حزيران سنة 1929، حيث ارتفع صوت التكبير على المآذن، وبدأ قرع النواقيس في الكنائس، إعلاماً بإعدام الشهداء الثلاثة.

ألقي إبراهيم طوقان قصيدته «الثلاثاء الحمراء» وكأنها خرج من لحمه ودمه، وما أن انتهى حتى كان بكاء الناس يعلو نشيجه، وتدافعوا خارج قاعة كلية النجاح التي كانت

مكان الاحتفال في حالة هياج حتى قال بعضهم: «لو أن إبراهيم القى قصيدته في بلد فيه يهود لوقع ما لا تحمد عقباه».

وقد استعرض الشاعر في المقدمة ذلك اليوم الحزين وتعالى التكبيرات وأجراس الكنائس فقال:

لما تعرّض نجمك المنحوس وترنحت بعري الحبال رؤوس
نواج الأذان وأعول الناقوس فالليل أكدر والنهار عبوس
طفقت تشور عواصف وعواطف
والموت حيناً طائف أو خـاطف

ثم يتابع الشاعر تصوير تلك المواقب النفسية الثائرة بأداء موسيقي حزين وقد وصفت فدوى طوقان فقالت: «فهي أشبه بملحمة صغرى لها مميزات الملاحم في سردها الفني وروحها الحماسية». وهنا يعود إبراهيم ليستنطق الأيام الغابرة:

يوم أطل على العصور الخالية ودعا: (أمرّ على الورى أمثاليه)
فأجابه يوم: (أجل أنا راويه لمحاكم التفتيش تلك الباغيه)
ولقد شهدت عجائباً... وغرائباً
لكن فيك مصائباً... ونوائباً

لم ألق أشباهاً لها في جورها فاسأل سواي، وكم بها من منكر
ويكمل الشاعر مقدمته حين طفق يوم الثلاثاء يسأل الأيام حين التقى بيوم راسف
بالقيود ويكابد الظلم والقهر والعبودية، فيذكر بيوم «عالية» الذي بطش فيه السفاح
بأحرار البلاد، لكن هذه الثلاثاء فاقت بظلمها وروعها كل الأيام.

وهكذا ينقضي المشهد الأول، ويبدأ الشاعر برسم المشهد الجديد، ليصف كل ساعة
مع شهيد حين نفذ الإعدام في ثلاث ساعات متتالية مرتبين، فكان أولهم البطل الشهيد
فؤاد حجازي، وثانيهم الشهيد البطل عطا الزير وثالثهم الشهيد البطل محمد مجوم، لكن
محمد مجوم حطم قيده، وزاحم رفيقه حتى فاز ببغيته في الساعة الثانية فوصف إبراهيم
هذا الموقف فقال على لسان فؤاد حجازي:

أنا ساعة النفس الأبيـه الفـضل لي بالأسـبقـيه

أنا بكر ساعات ثلاث
بنيت القضية إن لي
قسماً بروح فؤاد
ثم يقول على لسان محمد مجوم:

أنا ساعة الرجل العتيد
أنا ساعة الموت المشرف
زاحمت من قبلي
أما من الساعة الثالثة، ساعة الرجل الصبور بلقاء ربه، الذي طلب الحناء قبل دنو
أجله فغضب بها يديه ورجليه ليلقى ربه وهو على هيئة الشهداء الأبرار فينشد على لسان
عطا الزير:

أنا ساعة الرجل الصبور
بطلي أشد على لقاء الموت
جذلان يرتقب الردى
يلقى الإله غضب الكفين
قسماً بروحك يا عطاء
ما أنقذ الوطن المفدى

وهكذا يستمر الشاعر في تدفق نغماته وعواطفه، يقيم بناءه بالصور الرائعة إلى أن
يصل المشهد الثالث، وهو ختام عمله الفني الرائع، وقد توارت أجساد الشهداء في تراب
الوطن الذي ضحوا من أجله، وتصعد أرواحهم إلى جنة الرضوان فيصف تلك اللوحة
بقوله:

أجسادهم في تربة الأوطان
وهناك لا شكوى من الطغيان
أرواحهم في جنة الرضوان
فهناك فيض العفو والغفران

لا ترج عفواً من سواه... هو الإله
وهو الذي ملكت يده... كل جاه

ونكمل البُعد الوطني عند إبراهيم طوقان الذي تفانى في حب بلاده والذود عن حياضها، فهو لم يدع حادثة تمر في بلاده دون أن ييث فيها شجونه الشعرية. ففي ربيع عام 1930 اجتمع في نابلس الشعراء: عبدالرحمن عبدالمجيد، والشيخ محمد البسطامي وإبراهيم طوقان، فطرح أحدهم السؤال التالي شعراً:

رَعَاكَ اللهُ - مَا تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ سَمْسَارَا؟

فاستطاب ثلاثهم السؤال وأنشدوا معاً:

إذا ألفتِـــه في الـــدار	أهــــدم فوقه الــــدارا
وأجعل فوقه الأحجار	لا أتــــرك أحجــــارا
وأجمعــــه بملقــــاط	وأضرم فوقه النــــارا
أصــــوب بــــين عينيــــه	أدق هــــناك مــــسارا
أعلق لوحــــة فيــــها	ألا قبــــحت مــــسارا

وفي أحد الأيام نشرت جريدة يهودية هي «دوارها يوم» قصيدة للشاعر اليهودي «ينجمان بيبالك رثوين» بعنوان «أنشودة النصر» هجا فيها العرب بألفاظ بذئية، وشبه العرب بالفرثان الخارجة من جحورها، وسخر من ثورتهم، وعيّرهم بأنهم أبناء هاجر جارية سارة، وأنهم قطاع طرق، وأهل خيانة وغدر، وقامت جريدة فلسطين الصادرة في يافا بترجمة القصيدة، فقرأها شاعرنا فهب يرد على الشاعر بشكل يوضح سعة اطلاعه على أساطير التوراة، وتاريخ بني إسرائيل المليء بالكذب والأساطير الخرافية وقال معقّباً: «وقد نظمت هذه القصيدة رداً على «أنشودة النصر» غير معترض كثيراً إلى الحوادث بقدر اعتراضه إلى تاريخ اليهود وثوراتهم، وما عرفوا به من قبل، وما هم عليه اليوم من الادعاء الباطل والغدر، ونكران الجميل، مما يناقض كل ما ادعاه الشاعر «رثوين» وما وصف قومه من المزايا والأخلاق».

هاجرُ أُنمنا ولود رؤوم	لا حــــسود ولا عجــــوز عقيــــم
هاجر أُنمنا ومنها أبو العرب	ذاك النــــبي ... الكــــريم
نسب لم يُضـع، ولا مزقــــه	بابل، أيــــها اللقيــــط اللثــــيم
ودم في عروقنا لم يرقــــه	سوط فرعون والعذاب الأليم

ثم يكمل فيقول:

يا يهودي كيف علّمك بالتوراة قل لي، أم فاتك التعليم
يوسف باعه أبوكم يهوذا إن حب الدينار فيكم قديم
وكفرتكم بنعمة الله حتى ضاق ذرعاً بالكفر موسى الكليم
يشهد التيه أنكم شعب إسرائيل شعب منذ الخروج أثيم
ويكمل الرد بإثبات ما قاله «شكسبير» في روايته «تاجر البندقية» عن أخلاق اليهود وجشعهم:

أي «رئوين» أما قرأت شكسبير؟ بلى أنت شاعر مشؤوم
وشكسبير خالد القول فيكم أمر «شيلوخ» في الورى معلوم
غير أن الذي منهم شكسبير تناسوا ما قال ذاك العظيم
ويستمر شاعرنا في قصيدته بعد أن عرّف اليهود وشاعرهم بتاريخهم وأعلمهم بأنه
مهما طال بقاؤهم على هذه الأرض فإن لبنها وعسلها الذي يتناولونه سوف يتحول إلى
سم زعاف يقضي عليهم ويمحقهم:

لبن الأرض، فاض سماً زعافاً ودماً، فانزلوها وأقيموا
واشربوه ملء البطون هنيئاً هكذا تشرب الذئاب الهيم
يا يهودي لا عليك سلام وإذا شئت لا عليك «شلم»

هكذا كان رد إبراهيم طوقان ابن فلسطين على عدو فلسطين وشعب فلسطين وهذا
هو الرد المناسب على شاعر اليهود، فشاعر فلسطين كان راصداً لكل ما يحدث ولكل ما
يقال ضد وطنه.

وإمعاناً في إذلال العرب وقهرهم، عيّن الإنكليز في فلسطين «بتتويش» اليهودي
نائباً عاماً وعُهد إليه بوضع القوانين التعسفية ضد العرب، فأمعن في تعذيبهم
واضطهادهم، وعلى أثر هذا الظلم والاضطهاد كمن أحد الفدائيين الأبطال وقيل هو
«عبد الغني محمد من عائلة السباعنة» عند مدخل دار الحكومة في القدس، وأطلق النار
عليه فجرحه، فنظم إبراهيم قصيدة سمّاها «الفدائي» في هذا الشاب الجريء، وقد علق
عليها الأستاذ بشارة الخوري صاحب جريدة «البرق» البيروتية في حزيران عام 1930

بقوله: «أتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى إلى حرياتها؟
أتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملهبة دماً وناراً؟ تعرف إليها إذن»:

لا تسل عن سلامته	روحه فوق راحتته
بدلت همهومه	كفنا من وسادته
يرقب الساعة التي	بعدها هول ساعته

إلى أن يصل:

هو بالباب واقف	والردي من خائف
فاهدني يا عواصف	خجلاً من جراته
صامت لو تكلما	لفظ النار والدم
لا تلوموه، قد رأى	منهج الحق... مظلماً

صورة رائعة أوردتها في وصف هذا الفدائي، صورة متكاملة متلاحقة المشاهد المتناسكة.

ثم نظم شاعرنا إبراهيم طوقان قصيدته «البلد الكئيب» بمناسبة إضراب فلسطين يوم وعد بلفور سنة 1929 يخاطب وطنه بأسمى العواطف فقال:

يا أيها البلد الكئيب	حيّاك منهمر سكوب
لا تبئس بالظلم إن	غداً لناظره قريب
أشرق بوجهك ضاحكاً	ويشمس شانك الغروب
ما بعد غمك غير يوم	تطمئن له القلوب

ثم يلتفت الشاعر إلى بلفور فتغيرت نبرته وجفت ألفاظه لمناسبة مقتضى الحال، وأصبح الوعيد لغة القصيد:

بلفور كأسك من دم	الشهداء لا ماء العنب
لا يخدعك أنها راقية	وكللهما... الحب
فانظر لوجهك، إنه	في كأس لوحة الغضب

بلفور يومك في السماء عليك صاعقة السماء
ما أنت إلا الذئب قد صورت من طين الشقاء
والذئب وحش لم يزل يضرب برائحة الدماء
إخسأ بوعدك إن وعدك دوننه رب القضا

أما في الذكرى الرابعة لشهداء «الثلاثاء الحمراء» فقد ألقى شاعرنا قصيدة من نوع الموشح، وقد فاضت مقاطعها بالأسى المرير والعاطفة المشبوبة فقال قصيدة «الشهيد» وهي صورة صادقة لكل شهيد فقال فيها:

عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقترح
رابط الجأش والنهي ثابت القلب والقدم
لم يمس الأذى ولم يثنه طارئ الألم
نفسه طوع هممة وجهت دونها الهمم
ومن الحق جذوة لفحها حرر الأمم
سار في منهج العلى يطرق الخلد من زلا

فهو رهن بما عزم

أي وجهه تهلا يرد الموت مقبلا
صعد الروح مرسلا لحنه ينشد الملا
أنى الله والوطن

وهكذا كان أبو جعفر شاعر فلسطين، يصور آلامها ويغني أحلامها ويسجل كفاحها، وحق له أن يكون شاعر الوطن وشاعر فلسطين فقد سجل في شعره قضية وطنه بأصدق المشاعر وأجمل الصور، ولا غرو إن قلنا أن شعره اخترق الحواجز وشدت به الألسنة، وتناقله الرواة، وقد برع في الأناشيد الوطنية، ولا يزال ينشد في معظم بقاع العالم العربي وقد جاء شعره صورة صادقة، فقد تخير الألفاظ، وكانت خطاباً حساساً يلمس القلوب في خيال واسع وعواطف متوهجة. شاعر فذ، لم يمهله الموت، ولو أمهله لجادت قريحته بالكثير الكثير المعجب. وغني عن القول أن قصائده الوطنية جاءت رموز خالدة فيها دروس وعبر كثيرة تأخذ الأبواب وتأريخ لكفاح شعب فلسطين، فقد كانت تنبهاً للأمة من الأخطار المحدقة بها، وقد ألهمت مشاعر الشعب على جميع مستوياته، وكانت

هذه القصائد علماً بارزاً لتوحيد كلمة الأمة ورص الصفوف لمقاومة الانتداب وأطماع اليهود، وقد كان في وطنياته واقعياً لا ينجح إلى خيال، يحلل ما يلمسه ويشاهده، وكأنه يقرأ سجل المستقبل ويحذر مما سيؤول إليه الحال.



شعره الاجتماعي

لم يقف إبراهيم طوقان في شعره عند الوطنيات أو الشعر السياسي فحسب بل جادت قريحته بأشعار كثيرة، تعددت فيه أغراضه الشعرية، فجاء شعره خصباً وتصويره مفعماً بالحركات التي ترجعنا إلى الشعر القديم، فكانت أغراضه كما وصف البدوي المثلث في شاعر الوطن المغصوب: «فيها محاولات في القصص الشعري تأليفاً وتعريباً، ولولا أن عاجله الموت لترك لنا في هذه الأغراض بدءاً وسبقاً، كما أن له مقطوعات حسية ووجدانية فيها «سبحات صوفية» وابتهالات إلى الله... نحس فيها حبه للحياة وأمله بالشفاء». وربما اختلطت أبعاده الشعرية بين النواحي القومية والنواحي السياسية وأشعار المدح وأشعار الرثاء، وربما كان لا يفصل بين أغراضه الشعرية، لأنه كان يحس بالتجربة من حوله فيوقعها شعراً، ومن هذه التجارب الشهيرة دعوته إلى التضامن والإخاء ونبذ الخلافات وتناسي الخصومات، وتوحيد الجهود والتخلق بالأخلاق الفاضلة، لأن شاعرنا بدأ حياته معلماً وانتهت حياته وهو معلم أيضاً، ونحن نعرف أن من مهام المعلم التربية، خاصة إذا كان في وطن تنهشه الذئاب ويتسلط المستعمر على رقاب الأبناء، وانظر هذه الأبيات وهي من قصيدة «رثاء الشيخ سعيد الكرمي»:

وإذا ما تجردوا للعداء وقفوا بالعداء عند حدود
ليت قومي تخلقوا بكرم الخلق هذا، عند الخصام الشديد
ما أشد افتقارنا لسمو الخلق في هذه الليالي السود
ما لكم بعضكم يمزق بعضاً أفرغتم من العدو اللدود
أذهبوا في البلاد طولاً وعرضاً وانظروا ما لخصمكم من جهود
هذه تجربة عالية، وكأنه يرى بأم عينه ما يحصل بين الناس من نعرات حزبية كانت على أشدها، لكنه يعي أن الناس ليسوا جهلاء وإنما يباعون ويشترون، فقام بينهم إلى مخاطر لا تحمد عقباها.

ولأنه شاب يتفهم حاجا الشباب، فقد بدأ بهم فدعاهم إلى التزود بالعلم والتسلح بالأخلاق وعدم التعلل بأعذار واهية، وقام يحفزهم ويدعوهم لمحاربة الوهم والتشاؤم، ولم يتركهم ضائعين، بل وضع لهم الحلول، وكان ذلك في محاضرة ألقاها أمام الحاضرين في كلية النجاح الوطنية في نابلس في نهاية العام الدراسي 1927/1928 مستنهضاً همهم:

أفنيـت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزن
وقعدت مكتوف اليدين تقول: حاربني الزمن
ما لم تقم بالعـبء أنت فمـن يقوم به إذن

هذا تحريض للشباب على بذل الجهد، وعدم التقاعس، لكنه في نفس الوقت يلوم أولئك الذين يكتفون بالتنظير دون العمل على إصلاح المجتمع الذين هم منه ويطلب منهم طرد التشاؤم لأن فيه هدم لأركان المجتمع فقال:

كم قلت أمراض البلاد وأنت ممن أمراضها
والشؤم علتها... فهل فتشت عن أعراضها
يا من حملت الفأس تهدمها على أنقاضها

بهذا الأسلوب الخطابي العميق المقنع، وبهذه الصراحة والوضوح، خاطب الشاعر الشباب، وكشف عن أمراضهم الاجتماعية، التي هيمنت على المجتمع في عصره، فراح يعالج بالتحليل نفسية المتشائم حتى يبين له سبب مرضه ووصفه بالغراب الذي لا يسكن إلا الحرب ولا ينق إلا على الأطلال.

مثل الغراب نعى الديار وأسمع الدنيا نعيه
تلك الحقيقة والمريض القلب تجرحه الحقيقة
ما ضاق عيشك لو سعت له، ولم تشك ضيقه

ولكن الشاعر أراد أن يرفع معنويات الشباب، وأنهم أمل الأمة، وأن الوطن لا يقوم إلا بهم، كما ويشر الوطن وهو يزف إليه السواعد، لأنه لا بد أن يعقد ثمرهم فقال:

حي الشباب وقل سلاماً، أنكم أمل الغد
صحت عزائمكم على دفع الأثيم المعتدي

والله مدد لكم يداً تعلو على أقوى يد
وطنني أذف لك الشباب، كأنه الزهر الندي
لا بد من ثمر له يوماً وإن لم يعقد
ثم نظر إبراهيم طوقان إلى مجتمعه فرأى من يتسلقون على ظهور غيرهم، ويتعالون
بغرورهم، فقام بنقدهم وتعريتهم وتعريفهم على حالهم، وكان في كل مرة يشخص المرض
ويعود إلى شد أزر من ينقدهم ويطالبهم بالعودة إلى دينهم وإلى أخلاقهم، فهم لم يخلقوا
هكذا، وإن خاتمهم الحتمية هي الحقيقة وهي حقيقتهم فقال يخاطبهم:

لا تحفلوا بالمرجفين فإن مطلبهم حقير
حب الظهور على ظهور الناس، منشأ الغرور
ما لم يكن فضل يزينك فالظهور هو الفجور
وبعد هذا التحليل النفسي، نراه يقارن بتوجيه أولئك فيقول:

سيروا بعين الله أنتم ذلك الأمل الكبير
سيروا فقد صفت الصدور تباركت تلك الصدور
سيروا فستكم خير بلادكم خير السنن
شدوا المودة والتآلف والتفاؤل في قرن
لا خوف إن قام البناء على الفضيلة وارتكن

ولو لاحظت ما سبق من أبيات فإنه يركز فيها على أمراض البلاد يشخصها ثم يضع
العلاج، وهذا يدل على ثقافته وفكره في وقت يسيطر على وطنه وعلى مجتمعه من يريده أن
يسير في ركب التخلف، وهذا ما شد أهل فلسطين خاصة وأبناء العروبة عامة لأخذ أفكار
إبراهيم طوقان بجدة، ويعلن إلى الشباب بالتنادي إلى فض الخلافات وفي النهاية المطالبة
بحقوقهم أو ما نسميه اليوم حقوق الإنسان وحقوق المجتمعات والنزعات المدنية التي
أصبحت تُنظم لها قوانين في التنمية الاجتماعية التي نرى كثرة المنادين بها في وقتنا الحاضر.

ومن إبداعات إبراهيم طوقان في شعره الاجتماعي، حديثه عن الممرضات، وما
لدورهن من عمل إنساني واجتماعي، وهذا لم ينسأه في شعره، ونحن نعرف أن مرضه
صاحبه منذ طفولته وحتى نهاية حياته، وأنه كان يراجع الأطباء ويستعين بملائكة الرحمة

أدمع النساء والأطفال
بلد كان آمناً مطمئناً
هزة إثر هزة تركته
مادت الأرض ثم شبت وألقت
فإذا الدور وهي إما قبور
أرأيت الطيور تنفر ذعراً
وليالي الأعراس يالهف قلبي

ثم يستمر في وصف الدمار الذي لحق مدينة نابلس، وما حولها ويذكر عياله، وجرزيم ويشخصها بوصف دموع الثكلى بمعانٍ مقتبسة من معاني كتاب الله فيقول:

ربّ لطفاً! فقد أتاننا نذير
وبوءٍ من بعد هذا الويال
وجرادٌ وكل آتٍ قريب
أو بعد الإحمال من إحمال
رب إن الكروب تترى علينا
حسبنا كرب هجرة واحتلال

وهكذا يدعو شاعرنا بفطرته وثقافته الإسلامية، يدعو الله أن يطف بمدينة نابلس وأهلها، ثم يجمع الصورة بين الكروب التي أصابت مدينة الشاعر وقد صفتها وطبقت عليها بين الكروب. الدمار من الزلزال والجراد والأوبئة وبين كروب هجرة اليهود والاحتلال واستيلاء الصهاينة على البلاد والعباد، معادلة صعبة، ومفارقة شديدة، تقرن المصاعب والشدائد وفي آنٍ واحد.

كان إبراهيم طوقان يتعاطف بحسّه لكل ظاهرة اجتماعية، يتأثر لكل ما يراه أو يسمعه، فإذا ما شرع في وصف هذه الظاهرة أو تلك فإنه يصورها في شعره برسم لوحة فنية تشد القارئ فيتعاطف مع الشاعر في وصفه ومع الحدث في صورته، وما صورّه الشاعر بتفاعل حسه والتعاطف مع الألم ما جاشت به شاعريته في وصف «الحبشي الذبيح» فيقول:

برقت له مسنونة تتلهب
حزت فلا حدّ الحديد مخضب
وجرى يصبح مصفقاً حيناً فلا
أمضى من القدر المتاح وأغلب
بدم ولا نحر الذبيح مخضب
بصر يزوغ ولا خطى تتكعب

قالوا حلاوة روحه رقصت به فأجبتهم: ما كل رقص يطرب
 لقد ألم شاعرنا منظر هذا الطير وهو يترنج، فالقوي يقف بسكينه، والضعيف بين
 يديه يرتجف خوفاً وخشية، فهو يصور أمر هذا الديك كالأمة المغلوبة، وهذا منظر يتكرر
 في رأس كل سنة ميلادية، لإقامة الموائد التي تعلوها (الديكة الرومية) التي تُذبح على رنين
 الأجراس، لقد رأى إبراهيم منظر هذه الديكة المذبوحة في يوم رأس السنة عام 1931
 وكأنه راقب المنظر من بدايته، حين وُضعت السكين على رقبة الديك ويحز الجزار
 الرؤوس، فيسيل دمه وتتخضب السكين بالدم الأحمر، فيجري الديك الذبيح مصفقاً
 بجناحيه، يصيح من الألم، ويستمر الشاعر يراقب المنظر حتى يقع الديك هامداً.

لقد نظر إبراهيم طوقان إلى الحادثة من ناحية إنسانية واجتماعية صورة رحبة، صورة
 ربما تتكرر يومياً، نراها ونتعاش معها، لكن إحساسات الشاعر المرفهة تصورها بشكل
 يختلف عنا، فهذا إبراهيم طوقان يروعه استهتار القوي بروح الضعيف، وهذا يذكرنا
 بصورة رسمها أبو العلاء المعري حين عرضوا عليه في مرضه أن يأكل ديكاً فردد قائلاً:
 «استضعفوك فأكلوك».

فالديك عند طوقان يسمّن حين قدوم رأس السنة الميلادية، فيُذبح في موعده، ثم
 يُحشى ريشه في الوسائد، ويُحشى لحمه في البطون، ويتعاطف شاعرنا مع هذا الديك وهو
 يرى السكين وقد ضمخت بالدماء ليرسم لنا صورة رائعة، ديك مذبوح يجري مصفقاً
 لينام على جنبه مذبوحاً، بينما السكين تحولت من لونها الأبيض إلى خطوط حمراء، فلم
 يصبر أمام تلك اللوحة التي ضمت أولئك السعداء ليصفها صديق الشاعر: «ولا
 أستهجن هذه النزعة من الشاعر، وذلك لركة حسّه وتمرسه بالألم منذ الحادثة، فبدت
 صورة «الحبشي الذبيح» ناطقة معبرة عن ألوان صارخة بأداء حسي قام على الإشفاق
 والسخرية والتأمل، وقد انسابت فيه ألفاظ الشاعر في مواضعها حاملة فكرة (اجتماعية)
 بعيدة المرمى طالما اتجهت إليها خواطر... وهي مواجع المستضعفين والمستعبدين
 والمضطهدين، فكانت هذه الصورة بوحدتها الفنية وموضوعها المنتزع من صميم الواقع
 فياضة بالعطف والإحساس المرفه والتأمل».

والشاعر من خلال قصيدته ينتقل بين صور درامية، حين تَرَوُّرُ به الخطى بعد أن
 يسيل دمه ويجذبه العياء، فيرغمي على جنبه متعلقاً بدمائه فيقول:

هيهات دونكه قضي، فإذا به صَعَقُ يُشَرِّقُ تارة ويغربُّ

وإذا به يزورُ مختلف الخطى وزكية متورة تصب
متدفق بدماؤه، متقلب متعلق بدماؤه... متوثب
ثم ينتقل إلى صورة أخرى في لوحته حين يتحدث عن العذاب، عذاب الضعيف
أمام سكين القوي:

أعذابه يدعى: حلاوة روحه! كم منطلق فيه الحقيقة تقلب
إن الحلاوة: في فم متلمظ شرها ليشرب ما الضحية تسكب
ويكمل اللوحة ليضع مقارنته بين سعادة أصحاب العيد، وبين ألم الحياة لكن هذه
سنة الحياة في الأعياد وطيب الحياة فيها:

هي فرحة العيد التي قامت على ألم الحياة، وكل عيد طيب
هذه واحدة من صور الشاعر التي يصف فيها الحياة الاجتماعية في شعره المتدفق
بالحيوية أمام سعادة الناس في الأعياد.

وتتكتل الصور في ذهنه، لا يكاد يفرغ من لوحة حتى يضع أمامنا لوحة أخرى،
وهو يشير إلى «معاناة المعلم»، فهو أكثر الناس الذين يرون المجتمع ويتأثر به، نحن نعرف
أن شاعرنا عمل في مهنة التعليم في بداية حياته العملية، وقضى حياته وهو يعمل معلماً،
لقد بدت على شاعرنا متاعب مهنة التعليم وصعوبة العمل بها، وقد عارض شوقي وهو
يتحدث عن التعليم والمعلم، لكن شوقي لم يجرب هذه المهنة، بينما شاعرنا مارسها وعمل
بها لفترات، وقد شكّا من متاعب تصحيح الكرايس والأوراق التي تمتلئ بالأخطاء أو
الإجابات التي اعتبرها تافهة، وكثيراً ما كان يضيق بها لأنها كانت تضيع عليه فرص
الاطلاع على دواوين الشعر أو تحرمه من لقاء أصحابه، أضف إلى ذلك شغب الطلاب
وسنبت في معارضاته للشعراء القصيدة (المعلم) كاملة، ولكن نمثل الآن لما يراه شاعرنا
عن هذه المهنة وهو يوجه الخطاب إلى أحمد شوقي مصوراً ناحية اجتماعية واسعة:

اقعد فديتك - لا يكون مبعجلاً من كان للنشئ الصغار خليلاً
ويكاد «يفلقني» الأمير بقوله: «كاد المعلم أن يكون رسولا»

هذا وقد استطاع شاعرنا أن يوصل فكرته في معارضته باستعمال ألفاظ شائعة
متداولة بين أفراد المجتمع، لإثارة الفضول عند القارئ أو السامع بظرفه ودعابته مثل

حَسْبَ المعلم غمة وكآبة مرأى «الدفاتر» بكرة وأصيلا
ولو أن في «التصليح» نفعاً يرتجى وأبيك، لم أك بالعيون بخيلا
لكن أصلح غلطة نحوية مثلاً، وأتخذ «الكتاب» دليلا
وأكاد أبعث «سيبويه» من البلى وذويه من أهل القرون الأولى
فأرى «حماراً» بعد ذلك كله رفع «المضاف إليه» و«المفعولا»
لا تعجبوا إن صحت يوماً صحيحة ووقعت ما بين «البنوك» قتيلا

ورغم ما عاناه الشاعر لكنه أراد أن يعكس صورة مجتمعية لحياة المعلم ومعاناته بين الطلاب وكراريسهم، خاصة وأنه كان يدرس اللغة العربية، ورغم ذلك فقد أحبه طلابه، وكانوا ينشدون ما ينظمه داخل المدرسة وعندما يغادرون إلى بيوتهم وهي قصيدة «موطني» فهم قد حفظوها أثناء الحصة الصفية وكان ينشدها إبراهيم طوقان أمام طلابه:

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في ربـاك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هـواك
هل أراك

ومن شعره الاجتماعي ما نظمته الشاعر بعنوان «آل عبدالهادي» يشاركهم بمناسبة افتتاح ناديه في نابلس، وبعد أن تحدث عن تاريخ العائلة وكفاحها وجهادها وخاصة في معركة «عزون» وبسالة أبنائها أمام جيش نابليون قال:

كرمت نحيزتهم فهم نبلاء في أهـوائهم نبلاء في الأحقاد
قالوا أتمدح؟ قلت أهل فضائل وفواضل من آل عبدالهادي
أصفيتكم ودّي واعلم إنه ثقل على اللؤماء من حسادي
لم يبتهج قلبي كبهجته بكم لما تجمع شمل هذا «النادي»
شمخت بطارف مجدكم أركانه وتوطدت منكم بخير تلاد

ومن المشاهد الاجتماعية المأساوية، ما استوحاه شاعرنا من إحدى رقصات «مرغريتا» الإشبيلية، ومن قصيدة «البلبل والوردة» للشاعر الإنكليزي «أوسكار وايلد».

وهي قصيدته «مصرع بلبل» التي صيغت بحكاية رمزية تمثل واقع حياة المدن التي تشد الشباب القادمين بزخرفها وهوها وألوان عبثها وقد رمز بـ «البلبل» للشباب المخدوع الذي وقع في حبال ومزالق المدينة ورمز بـ «الوردة» لبائعات اللهو والعبث، كما رمز بـ «الروض» للحانات والملاهي التي شاعت بين أحياء المدينة، وقد لَوّن قصيدته بفنون متنوعة وخیالات جميلة، ومقاطع متعددة القوافي، غلب عليها الحوار:

قد رُ ساقه فأواه روضاً لم يكن طار فيه قبلاً وغنى
فاستوى فوق أيكة، ورمى عينيه فيما هنالك، يُسرى ويُمنى
ثم يكمل حكايته مع البلبل الذي كان ينتقل من غصن إلى غصن، ومع ذلك فإنه يحس بالوحشة والرعب:

ومضى الليل الغريب يطوف الروض حتى انزوى محيا النهار
راح يأوي إلى الغصون ولكن كيف يغفو مشرد الأفكار
فهذا البلبل يقضي ليلته وحيداً، تراءى له الأشباح وأيديها مخضبة الدماء، ولم يلبث الليل أن قضى فطلع فجر جديد على بلدنا المنكود، وأشرقت شمس يوم جديد، فهب البلبل مرحاً هاتفاً للشمس بالتحيات:

طلع الفجر باسمائى ليل دونه وحشة كهوف المنية
تتنزى أشباحه صاخبات عاريات أكفها دموية
ذاك ليل قضى على البلبل المنكود لولا يد تصدت عليه
أنقذته فهب يشدو شكوراً مرحاً، هاتفاً لها بالتحية
طلعت الشمس فابتهج البلبل، وراح يغني بتغريده في هذه الدوحة واقترب من الورود، لكن أشواكها صدّته من الوقوف عليها:

ألف الروض مغرداً وتولى عنه في دوحه شعور الغريب
وإذا «وردة» تفيض جمالاً تنهادى مع النسيم للعبوب
قد حتمها أشواكها مشرعات حولها دون عابث أو غصوب

ورغم هذه الأشواك فإن البلبل لم يتوانى حتى وقع في هوى تلك الوردة التي ملأت عليه حياته بعد أن اعتراه سقام مبرح من الحب، وأصبحت روحه تسيل نشيداً وهي تُظهر له الدلال والتهيه مما أثار اللوعة الحرّى:

صارت الوردة الخليعة للبلبل هماً، ومأرباً يشقيه
شفه السهد واعتراه من الحب سقام مبرح يـضنيه
من رأى روحه تسيل نشيداً لاهباً، لوعة الأسى تذكّيه
لكن شاعريته لم تستطع التوقف، فكشف الشاعر سر هذا البلبل، وكأنه لغز لا حل
له، حين أذكت «الوردة» نار الحب في قلب كل طير يقترب منها، بعد أن تغويه بصنوف
متنوعة من الإغراء، حتى إذا امتصت رحيق قلبه، انتقلت إلى غيره:

هل يرى في ظلال وردته الحمراء سرّاً بدا وكان خفياً؟
هل يرى للطيور فيها قلوباً نبذتهن يابساً وجنيّاً؟
ثم ينشد البلبل للوردة، فيرقص الغصون، ويشرب الندى، ويحلو له الجنون ويعلن
حبه:

انـشـدي يـا صـبـا وارقـصي يـا غـصـون
واسـقـني يـا نـدى بـين لـحـظ العـيـون
فـيـنـك يـا وـردـتي قـد حـلـا لي الجـنـون
كـان في أضـلـعي فـروثـه الجـفـون
اقـربـي مـن فـمـي فحـدـيثـي شـجـون

وهكذا مهد الشاعر لنهاية مشهده في حكايته، لترى بعدها مشهداً مأساوياً حين
غالب البلبل الصريع الموت عندما أطبقت عليه الوردة الخليعة بأوراقها الحمراء، ولم يكد
يفرح بالقرب حتى أوردته شوكة أنزفت قلبه، توردت وجنتها عافية لتترك ذلك المسكين
يلفظ زفرات الموت:

ضمها الطير مطبقاً بجناحيه وهمت بثغره شفتها
لم يمتع بنشوة الحب حتى أشرعت شوكة تلظى شباها
أوردتها قلباً إذا رفّ يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها
كرعت في الدم البريء فلما عكسته وهاجّة وجنتهاها
تنظر الطير نظرة أعقبتهها روحه طيّ شهقة معناها
وردة تبهر العيون ولكن كثرة الشمّ قد أضاعت شذاها

ومن شعره الاجتماعي ما ساقه لنا شعراً في المديح، الذي لم يكثر منه وإنما كان في أبيات قليلة، أثنى فيها على إخوانه الذين توسم فيهم الخير أو في قصيدة «آل عبد الهادي» وقد سبق الحديث عنها بمناسبة افتتاح ناديهم بنابلس.

ومن شعره الاجتماعي أيضاً ما ورد في قصيدة «دعاء» وقد وضعتها في الجانب الاجتماعي، لأنها أمنية للشاعر، بالدعاء إلى الله أن يرزقه غلاماً يكون مثل أبيه، باراً به، محسناً القول فيه:

رب أطمعني غلاماً شاعراً لدواعي الحسن مثلي مدعنا
وليكن مجنون ليل وليكن طيب القلب ظريفاً لسنا
وليكن مثل أبيه إننا لم نوفر غادة في شعرنا

وقد رزقه الله بولد اسمه جعفر، درس الهندسة، وبرع في عمله، رجل مضياف، حسن السريرة، يحب الأدب والأدباء، بارع في تحديد ما يرغب به، صاحب ثغر باسم، محب للأسفار العملية أنيق في هندامه، وفي مكتبته، هادئ في حديثه، وكأني به كما يقول المثل: «من شابه أباه فما ظلم»، فقد رأيته يشبه والده كثيراً ذواقاً للشعر محباً للشعراء مقدراً للأدباء.



الشعر الوجداني

«ما أشد الحياة في نابلس، إن الإنسان لا يكاد يعمل شيئاً حتى يعرف به كل إنسان». هكذا وصف إبراهيم الوضع في نابلس، فهو إذن متبرم من تلك القيود التي كانت تسود نابلس، فهو لم يكن يرى من الفتيات غير بنات أهله، وإذا مرّ في أزقة المدينة فكان يرى المحجبات، وهذا لا يوافق أصحاب المواهب.

وينتقل إبراهيم من مدينته «نابلس» إلى مدينة القدس، إلى معهد فيه السكن الداخلي، وكأن حياته بقيت على إغلاقها، وظل بعيداً عن تيارات الحب والهوى، وظل قلبه منغلقاً، فلا يرى ولا يختلط مع فتيات ولذلك لم يهف قلبه ولم يخفق، فالحياة بقيت كما كان في نابلس.

ثم انتقل إلى بيروت، إلى بيئة جديدة، بعيدة عن مدينة نابلس وعن القدس، فتنته المدينة بجمالها وسحر بحرّها، وتيسرت الحياة أمامه، ووجد الآن متنفساً له في ساحة الجامعة، وكما وصف الدكتور زكي المحاسني: «فعاش حياة لم يكن يتاح له مثلها في

نابلس، حيث كانت الفتاة تحاسب على الابتسامة البريئة والنظرة الخاطفة، فوجد الفتى متنفساً له في جنائن الجامعة ومشارفها حيث تطل أفواف الزهر على أثباج البحر برأس بيروت، وتنبسط مراتع الفتيات والفتيان». فانعق الشاب من قيده، بعد أن تهيأت له ظروف ذلك، فكان أول عهده بالحب والهوى فقد أصبح شاباً في الثانية والعشرين من عمره، يتحرك قلبه ويميل جسده كيف لا؟! وهو شاعر مرهف حساس يرى بعين مختلفة فتتحرك مشاعره فيقول نظماً:

أول عهدي بفنون الهوى «بيروت» أنعم بالهوى الأول
 قيل: وهل يرشد قلب غوى والرشد غي في الصَّبَا المقبل
 مددت - لما قلت قلبي ارتوى يدي، فردَّته عن المنهل
 «بيروت» لو شئت دفعتُ الهوى طوعاً ولم أهجرُك، فالويل لي

هذا حديث الشاعر عن بواكير غزله، وبالطبع بواكير حبه وهواه، وهنا في الجامعة الأميركية أخصبت الأيام وجادت عليه حين تعرّف على فتاة فلسطينية مسيحية من «كفر كنة» القريبة من الناصرة. فملأت عليه نفسه وقلبه، وشغلته، وأيقظت فهي ما كان مكبوتاً، بل مسّت أحاسيسه مسّاً شديداً عنيفاً. تورط إبراهيم بحبها فهزت سويداء قلبه، وأشعلت روحه، وأصبح حساساً أكثر من ذي قبل، حاضر العاطفة، ف وقعت في مصيدة هوى إبراهيم ويصفها الدكتور عمر فروخ في كتابه شاعران معاصران بقوله: «كانت فتاة فارعة الطول، سمراء مفصلة نواحي الوجه، تجول على وجهها ابتسامة خفيفة إذا كانت غافلة في مقعدها أو مسيرها، فإذا نهبتها أنفاس متأمل، أو نظرات متتبع، غاضت ابتسامتها وتجلت على وجهها نفرة، ثم بدأ النزق في حركاتها مشوباً بالدلال».

ومهما كان وصف الدكتور عمر فروخ، فإن إبراهيم طوقا فتن بالفتاة «ماريا صفوري» أعجبه قوامها الفارع، وهندامها الأنيق المرتب، فكان ينتظر ساعات وساعات على فتحة شباك غرفته التي تطل على مدخل الجامعة، فتمر فتاته في الصباح وهي تحمل كتبها فيخفق قلبه، وتزوغ عينه، يراقب حركاتها وخطواتها حتى نسمة أنفاسها فيلاحقها في مراقبته حتى تدخل إلى قاعة الدرس.

فيتابع نظراته لها، ولكنه ليس وحيداً في الساحة، وليس وحيداً في السكن الداخلي، ويلاحظ زملاؤه حركاته، وما يكابده الفتى في انتظار المحبوبة، ولهفته لرؤيتها، ويلاحظون دهشته إذا ما تأخرت، فيشرعون في مآزحه بالتعليق، لكن الشاعر لا ينتظر طويلاً،

فيخرج عن حالة صمته ليتقدم يوماً نحو الفتاة محياً ومحدّثاً، ويبدأ بالخروج من معاناته فيُفَصِّل قصيدة تليق بالمقام يعبر فيها عن مشاعره وذوقه ليعلن فيها حبه بقصيدة عنوانها «عند شباكي» ومن أبياتها:

بـكـوـري عـنـد شـبـاكي لـأـنـشـق طـيـب رـيـاك
و لا سـلـوى سـلـوى نـجـوى أـسـر هــا المـغـنـاك
تـمـر عـلـي سـاعـات أـشـيـعـها بـذـكـراك
وأخـشـى أن يـرـف الجـفـن يـجـر مـنـي مـحـيـاك
ثم يكمل أبياته الرقيقة معلناً أن أمره افتضح وأصبح معلوماً لمراقبيه فيقول:

طلعت، فما لقلبي شفاء يفـضـحني فـسـمـاك
صباح النور! مـن دنـف تنهـد، ثم حـيـاك
مررت، وقيل مـرّ النـاس؛ هل أبـصـرت إلـاك؟!
هكذا بدأ يصور الشاعر طول انتظاره لينعم بطلعة الحبيب، ممناً نفسه برؤياها، ويكشف عن حبه برقة متعطفة، ويعترف بأنه صار بعدها: «قوي الملاحظة، حاضر العاطفة، كثير المطالعة صياداً للمعاني، بسيط العبارات» فلم يستطع أن يرف جفنه خشية ضياع اللحظة التي يترقب فيها طلعة الفتاة القادمة من الباب الرئيسي للجامعة منذ الصباح الباكر، ويبقى هكذا حتى تختفي عن نظريه فيصور اللحظات التي حفرت في قلبه سعادة ثم تركته معذباً:

وداعاً يا معذبتني وعـين الله ترعـاك
وداع سـويعـة تمـضي عـلى جـمـر وألقـاك
شـكـرت الله أن الـدـرس يـجـمـعـنـي وإيـاك
وتلقـين الـسـؤال عـلي في أـمـر تـعـداك
وحـين أجـيب تمـنـحـني ابتـسـام الشـكـر عـيـاك

تلقت جريدة «الأحرار المصورة» القصيدة فحملها بعض الزملاء إلى فتاة الجامعة ببسمة خبيثة أثاروها بها، لكنها أثرت السكوت مخافة الفضيحة والتشهير. انفتحت عليه الأبواب، وتملك الحب قلبه، فراح يلاحق الفتاة على مقاعد الدرس، غير مكتفٍ

باختلاس نظرة من شباك غرفته، ويطيل النظر إليها في قاعة المكتبة، وهي تقلب الصفحات باحثه عن معلومة ما، فيستهويه جلوسها، ويستمرئ النظر إليها بقلبه وشاعريته، فيصورها بأحاسيسه وصدق عاطفته فيرسم لوحة رائعة تشد القارئ والسامع فينشد قصيدته المشهورة «في المكتبة» ومنها:

وغير مرة في المكتبة	بجها لها متنقبة
أبصرتها عند الصباح	الغض تشبه كوكبة
جلست لتقرأ أو لتكتب	ما المعلوم رتبته
فدنوت أسترق الخطا	حتى جلست بمقربة
وحبست حتى لا أرى	أنفاسي المتلهية
ونيت قلبي عن خفوق فاضح فتجنبه	

هكذا بدأ إبراهيم يرسم القصيدة، فكانت بالأمس الفتاة فأصبحت اليوم هي المعشوقة يصف جلوسها ومراجعتها للدرس الذي تلقته من المدرس، واسترق خطوه وسمعه، بل وزاد أن جلس بمقربة منها، ولكنه في المكتبة يحبس تنهاته وزفراته حتى لا ينكشف أمره فيفتضح سره ثم يسترق سمعه مرة أخرى فيسمع غمغيات تخرج من شفيتها أثناء المطالعة. فيستمر في تلوين لوحته بقوله:

وسمعت وهي تغغم	الكلمات نجوى مطربة
ورأيت في الفم بدعة	خلاصة مستعذبة
مثلومة من طرفها	لا تحسبها مثلبة

وكان في كلامها لثغة، وفي رأي العاشق هي حلية تتحلل بها تزيد من جلالها وغرامها. هكذا يراها، وهذه رؤية شاعر، يرى بقلبه وأحاسيسه ما لا يراه غيره، مراقب شديد وحساس.

هذه القصيدة أشعلت ضجة كبيرة بين أوساط طلاب الجامعة وطالباتها وانتقلت إلى المجلات والجرائد، فوصل الصدى إلى المحبوبة. فهاها هذا الصدى، وكبر عليها، أن الشاعر لم يبرح حرمة التقاليد، مما حملها على طلب النجدة من ابن عمها الذي استعدى إبراهيم، وقابل حينها عميد الكلية، وتشاء الصدف أن يجتمع الشاعر بحبيسته، ويبدأ العتاب وما سببته تلك القصيدة من إحراج لها، ويرد العتاب يعتاب على شكواها للعميد

وتتجلى الصورة بأن يسيرا معاً ليكملاً عتابها، فيصادفان قسيساً يتناول دفترأً ويقرأ قصيدة إبراهيم في تلك الفتاة، وهي تسمع، فحمرت وجنتاها وامتقع لونها.

ويستمر شاعرنا وقد انكشف المستور، ويستمر إبراهيم دون اكتراث لتهديد ابن عم فتاته، وينتهاز الفرص للقاء دون تحرج، حتى انقادت الفتاة لهواه، راجية إياه أن يداري حبه ويتكتم عليه. فينزل عند رغبته وكأنني به عنتره أو قيس ليل فيقول:

سلام عليك ولو شفني من الوجد واليأس ما شفني
أداري غرامك جهد الحليم فما يستريح ولا أثنسي
وقلبي كما يشتهي الهوى لغير جمالك لم يُذعن

وهنا نلاحظ غزل إبراهيم طوقان وهو يصور علاقته العاطفية المشبوبة بدقة، فهو صادق كما نحس لا يتكلف لغته أو أحاسيسه وعواطفه. وغزله متدفق لكنه مشبوب بالشكوى والحزن، وما زال يستغرق في عواطفه فيتغزل بقدر المحبوبة ويبهره - كما يذكر - ذكاؤها، فيحتار في شوقه ونبضات قلبه فيقول:

ما كنت أرغب أن أسمى قاسياً فأنفر الأحلام من عينيها
والشوق يدفعني إلى إيقاظها ويدي تحاذر أن تُمدَّ إليها
ويل لقلبي كيف لم يفتك به مرأى تطلبها على جنبها

هل كانت المعشوقة نائمة، أم كانت مستلقية، الشاعر في أبياته يدل على أنه شاهدا مستلقية نائمة، وشوقه يدفعه لإيقاظها، لكن لوعته وخشيته يمنعان يده أن يوقظها، لأن صراعاً عنيفاً يدور بينه وبين نفسه، بين شوقه وحذره، بين عشقه وأدبه، بين لهفته ولوعته، يصور نفسه وهو يُصعد ضلوعها ونهديا، ويكتفي بالنظر إلى هذه الصورة إلى صورة حمرة خديها والدم يتدفق إليهما، فتثير غيرته خاصة وهي تتوسد ذراعيها.

وتنهدت مما تُكنُّ ضلوعها يا شوق ويحك لا تُرغ نهديا
حسبي جوى أني نظرت لشعرها ينكب مرتشفاً ندى خديها
وأغار منه إذا اطمأن به الكرى ويشيرني متوسداً زنديها

ثم لا يلبث أن يصعد الصراع، ليكمل لوحته الفنية في حركة شعرية يزواج فيها بين وضع المحبوبة وهو يُعد أنفاسها المتصاعدة مرة والنازل مرة أخرى، وبين صراعه بصورة زاهية متماوجة:

أرنبو بلهفة عاشق لم يبق من صبر لذي وقد حنوت عليها
فبصدني أدبي، فأبعد هيلة وأود لو أجثو على قدميها
فالنفس بين تهب مما ترى وتلهب فاحترت في أمرها
ولعل أشواقي بلغن بي المدى فوقعت لا أصحو على شفيتها

ينظر الشاعر، لكنها نظرة عاشق، ويكاد صراعه ينتهي، انحنى عليها لكن عاداته
وتقاليد توقيه عند حد أدبه، فيرجع وإن كان يريد الجثو عند أقدامها، ويقف هنا بين
عقله وقلبه، ولعله يشكل في بيته الأخير الصحو والحلم، صحو العقل وحلم القلب
الذي يخفق مع كل شهقة وزفرة.

أما قصيدة «الحبيب الذاهل» فلها نمط آخر، فقد نظمها الشاعر على نمط عمر بن
أبي ربيعة، وقد قالها إبراهيم على لسان «المعشوقة»، وكأنه يحاور حبيبته ليكشف عما يحتفظ
به في صفحة درامية لجعل المحبوبة ناطقة في قصيدته هذه، بل يجعلها تتحدث لكنها لا
تسمع على مثل ما جرى في قصائده الأخرى:

قم حبيبي وأطفئ المصباحا قد أباح الهوى لنا ما أباحا
حبذا الاعتناق إن كانت الظلمة ستراً من دونه ووشاحا
هكذا يتطور شاعرنا، وهكذا يتسع الخيال لينطق المحبوبة، تطلب من عشيقها أن
يطفئ المصباح «قم حبيبي وأطفئ المصباحا».

ولم يقف الشاعر عند هذه الصورة، فالناس قد ركنوا إلى بيوتهم والكون سكن،
وبقيت عيون العاشقين ترقب.

رقد الكون غير تلك العيون في السماوات ساهرات الجفون
لكن الشاعر يعود إلى عاداته حتى لا يفتضح أمره وأمر محبوبته، أو يبعد سوء الظن
من يرى الابتسامات أو يلاحظ تغير لون صفحة الخد:

لا تحفها؛ فلن تبوح بسرٍّ وسواها يثير سوء الظنون
لا تحفها؛ وانظر لها باسماتٍ مبدياتٍ لنا وجوهاً وضاحا
وهذا تفاؤل، بل تظهر بسمه في «وجوهاً وضاحاً» لكن يعود إلى القول على لسان
«ماريا»: «قم حبيبي وأطفئ المصباحا» فالحبيبة خاضت تجربتها وهي تريد العتمة لتسرح
بخيالاتها الحاملة في صورة رومانسية حتى تصل:

فالتقينا؛ إن اللقاء قصير فانتهزه وخلّ عنك الذهولا
ولنودّع تلك الهموم اللواتي يتوثّن في السدجى أشباحا
هكذا أحببت العتمة، ففيها ستر للعشاق، وتبقى النجوم تحرسهم بصمت حتى إذا
كان اللقاء، تحته أن يبعد الدهول، فهما سعيدان بهذا اللقاء القصير، الذي بدد الهموم
وأبعد اللوعة، وكشف كل واحد منهما صفحته للآخر، في غفلة الناس ونعمة الحب، مع
تمنيات تكرار اللقاء تحت سكون الليل وصمت النجوم، لأن لحظات هذه السعادة قريباً ما
تنفصح بانبلاج الفجر «فلا تقل كيف لاح».

وهنا نصادف «المنولوج» في غزل إبراهيم طوقان، حيث وجد في غرامه الأول
«ماريا» مرتعاً كبيراً حتى وصل غزله إلى هيجان الحب، وكأن حبه في الجامعة سجلاً
لمشاعره وأحاسيسه التي يفرغ فيها كل ما أصابه بعد خروجه من نابلس ومن القدس،
فكانت بيروت مفجرة خلجات قلب الشاعر ونفسه في «الغرام الأول» حتى إذا عصفت
به الذكرى، يسرع لاستعادتها:

عهد غرامي الأول	هيهات ما ترجع لي
أنت ومهجتي معاً	أنت وحلّو الأمل
أنت وما أودعته	في يد ماضي مسبل
أنت وما أضاعته	بين شعاب الكرم بل

فالذكريات حاشدة، والأيام تتزاحم في مخيلته وهو لا يريد أن ينسى، ولكن هل
ترجع الأيام. يا له من شاعر، فهو يرتحل ويخف إلى كل مكان يسمع أن حبيبته انتقلت
إليه، فيهرع إلى ذلك المكان، لكن كثيراً من رحلاته هذه تفاجئه بمقالب الزملاء، فقد
ذهب إلى حيفا، إلى جبل الكرمل ليجد غرفة المعشوقة موصدة فيثير ذلك أشجانه. وبعد
كل هذه المعاناة، وبعد كل هذه القصائد لحبيبته، تصدمه فجأة أخبار في غير ما يتوقع
وتُزفّ الحبيبة إلى غيره، فيقف حائراً راثياً في قصيدة «مناجاة وردة» ليصل إلى أعماق
الإبداع الوجداني فيتهم حسنها وجالها بأنه هو الذي أذاقها العذاب مع زوج لن تسعد
معه، ويصف الموقف بأن هذا الفضل في الجمال هو الذي جنى عليها:

جنى عليك الحسن يا وردتي	وطيب ريباك فذقت العذاب
لولا همّ لم تُقطفي غصّة	بل لأنطوى في الروض عنك الشباب

وربما أعرضك عنك الندى وجازك الطير فما غردا
عُرفت بالفضل وكم فاضل جنى عليه الفضل «يا وردتي»
كثرت ذكريات إبراهيم طوقان، وذات يوم سمع في الناصرة غلاماً ينادي: «كفر كنة
يا رمان» «ناصرى يا رمان» فاستروحت نفس الشاعر وغمرته نغمت معطرة، وانتعش
قلبه فأنشأ يقول:

جزت بالحلي في العشيّ فهبتُ نفحةً أنعشت فؤادي المعنى
وإذا طيب جنى من الرممـان مثل النهود لو هي تُجنى
وافقت نظرتي نداءً غلام «ناصرى يا رمان» من «كفر كنة»
قلت أسرع به فدى لك مالى وترتم بذكره وتغنن
يا رسول الحبيب من حيث لم تد رِ لقد جئتني بما أتمنى
هكذا أحس الشاعر إبراهيم طوقان حين سمع الغلام ينادي، فأوحى له برسالة،
وكان الغلام كان رسول الحبيب بدون تكليف فأصاب قلب الشاعر الذي تمنى هذه
الرسالة من زمن، لتنعش هذه الرسالة فؤاده المعنى وكان هذه الصدفة كانت كالصدفة
التي جمعتها مع الحبيبة في بيروت.

ولم يقنع بل راح يدعو على أهل وادي الرمان لقسوتهم على حبيبته فأنشده حينها:

أيا وادي الرمان لا طببت وادياً إذا هي لم تنعم بظلك سرمداً
ويا وادي الرمان لأساغ طعمه إذا أنا لم أمدد لذاك الجنى يداً
ويا وادي الرمان واهأ عندهم حرام على المحزون أن يتنهدا
كأنى لم أنزل ديارك مرة ولم ألق في أهليك حباً ولا ندى
ولم تسقني كأس المدام حبيبة وردت ثناياها مع الكأس مورداً
ولم توح لي شعراً ولا قمت منشداً ولم يرو شتعري عندليك منشداً
هذه صورة شعرية جديدة، استحدثها طوقان في الشعر المعاصر وحمل ذنبه لوادي الرمان.

هذا وقد عرف الزملاء نقطة الغرام عند إبراهيم، فكانوا يغمزونه ويستفزونهم
بالتندر، لكن في رأي لسبيين، أحدهما عادة الشباب وغيرتهم أو حسدهم، وثانيهما

ليحفظوا زميلهم على قول الشعر وهذه أقوى. وأقول هذا لأن إبراهيم كان يقبل هذا الغمز وتلك النكات بل قل أنه أحب ذلك لأنه تذكير له بفتاة كفر كنة، المحبوبة الأولى.

وقد أعجبني ما قرأته عند البدوي المثلث، أن مجموعة من الأدباء اجتمعوا في أحد مقاهي القدس، كان منهم: إسعاف النشاشيبي، وخير الدين الزركلي وأبو سلمى، وإبراهيم طوقان، وبينما هم قامت فتاة أجنبية ترقص، فقال إسعاف النشاشيبي مرتجلاً:

يا فتاتي أنتِ فتنة

فأكمل إبراهيم:

أنت حورية جنة

فقال الزركلي:

كلها حان التفاتٌ منك كانت لي أنة

فقال أبو سلمى:

كدت يا حلوة تنسينا «صبايا كفر كنة»

فاحمر وجه إبراهيم طوقان، وعادته أشجانه وذكرياته، مما حرك شاعرية أبو سلمى فنظم أبياتاً ذيلها بتوقيع إبراهيم، ودفعها إلى جريدة «فلسطين اليافاوية» لنشرها في عدد الأحد الأسبوعي، وإبراهيم لا يعرف عن هذه الأبيات، ومما جاء فيها:

يا صبايا كفر كنة آه من أعينكنه

الهوى هجتن في قلبي ولا أتمكنه

حطمت كأس الصبا بات على أرجلكنه

يا شفيق الروح قل لي أين من تعبهنه

أين من يبعث نارا في الحشا من نورهنه

أين هن؟ أين هن؟ أين هن؟ أين هن؟

وتستمر الدعابة، فينشر الأستاذ (حنا سويدا) الموظف في جريدة فلسطين بيافا أبياتاً في نفس الصفحة التي نُشرت فيها الأبيات، ردّاً عليها بتوقيع (أبو خطاب) يقول فيها:

يا ابن طوقان أنسأل عن ظباء نافرات

وخـدود تتلظـى وشـفاه مغريـات
فـصباها كـفر كـنة لـعـيـاني بادـيـات
أـيـنـما كـنـا فـهـن فـي فـؤادـي عابـثـات

ويتناقل المتندرون أمر القصيدة والرد عليها، فبادر إبراهيم طوقان إلى دحض الحديث بقصيدة نشرتها «فلسطين» تحت عنوان «ذكرى عشية زهراء»:

احبس ذراعك يا أبا الخطاب قد حل بي ما لم يكن بحسابي
تلك القصيدة لم أقل أبياتها لكنها لزور... (نصاب)
هذا (أبو سلمى) فلا والله ما نكأ الجروح سواء من أصحابي
ثم يكمل:

هل «كفر كنة» مرجع لي ذكرها ما فاتني من عنفوان شبابي
أم من «صباياها» وفي «رمانها» ما بيعت المدفون من آرابي
لو تنفع الذكرى.. ذكرت عشية زهراء بين كواعب أتراب
فيهن أسرة القلوب بحسنها ودلها وحديثها الخلاب
«روح» أخفت من النسيم و«خاطر» كالبرق مقرون بحسن جواب
غير ثناياها وأشهد أنها ممزوجة وشفاتها بشراب
إلى أن يقول:

بتنا على صفو وخوف تفرق للعاشقين مهية الأسباب
«نيسان» هان علي حكمك بالنوى لما تحطمت المنى في «آب»

هذا حال الشباب وهذا حال الشعراء، لا يدعون فرصة للتحفيز إلا ونكثوا جرحاً قديماً، ومن هذا ما فعله «فكتور بشارة» من الناصرة و«مصباح كنعان» حين أرسلوا هدية لإبراهيم وهي عبارة عن سلة مملوءة بالرمان، ووضعوا مع الرمان رسالة كتبوا فيها: «هدية رمان من كفر كنة»، فتح إبراهيم الرسالة وقرأها، ففهم مغزاها فأنشأ يقول:

قد فهمنا من الهدية معنى غير معنى الرمان من كفر كنا
فأثارت ذكرى وهاجت جراح تركتني من الصبايات معنى

قريّة يقرن اسمها باسم «إبراهيم» مما تفيض حباً وحُسنًا
ملعب للصبا وقد كان يوحى كل يوم مهماً أفاض وأثنا
هذا رد إبراهيم وإن كان يدل على شيء، فإنما يدل على قوة شخصية إبراهيم فلم
يُجمل أن يرد وإن كانت حمرة الدم تعلو وجهه، وكان أيضاً وفيّاً مخلصاً، ولم يشأ أن يبعد
الذكرى عن روحه ونفسه وقلبه، وما قاله في «دير قديس» إلا معنى من معاني الوفاء إلى
تلك الحبيبة:

لم ألق بين ليالي التي سلفت كليلّة بتهها في دير قديس
ضمنت حسناء لم يخلق لها مثلٌ بين الحسان ولا حور الفراديس
ما عرش بلقيس في إبان دولتها ولا سليمان مزوفاً لبلقيس
يوماً بأعظم منا في السرير وقد دام العناق إلى قرع النواقيس
أحب إبراهيم فتاته، «وقد أحبته فتاته بمقدار ما أحبها»، لكن نهاية هذا الحب كان
مأساة «خلفت في قلب الشاعر جرحاً، كان لا يندمل حيناً، وتناكاه الذكرى حيناً آخر،
فينعكس ذلك كله في شعره، كما تنعكس صورة على صفحة المرأة المصقولة» وتكمل
فدوى طوقان بأن قصة ذلك الحب «كان له أكبر الأثر في إرهاف حسّه والسمو بشاعريته
إلى سماء الشعر الصادق الذي ينبثق من ذات النفس».

وظل إبراهيم على أمله باللقاء ويتمنى رؤيتها، فهي جنته، وهذا ما صرح به حين
أنشد قصيدته بعنوان «فرحتي»، ومنها:

فرحتي يوم أراها جنتي نار هواها
جنة الحسن لديها طيها وقف عليها
وردها في وجتيها ثمل من مقلتيها
هي ريحانة قلبي ليته كانت بقربي

ولم يتوف بل ظل يمني نفسه باللقاء، فجمع الورود لتقديمها هدية لكن ما تمناه
صار يتلاشى، وران على قلبه خفقان، خاصة عندما استيقن أن من أحبها قد وأدت حبه،
فثارت ثائرتة فقال:

وداعاً سأقتل هذا الهوى وأدفنه في ضلوع السنين
أرد رسائلك الباقيات فردي رسائل قلبي الحزين
ولكن تعالي ... ألم تغدري

وداعاً سأسحق تلك المنى وأنسفها بدمراً في الفضا
سأهزأ بالعشق والعاشقين وأذهب مستهتراً بالقضا
ولكن تعالي ... ألم تغدري

انقلبت أوضاع إبراهيم في ثورة غاضبة، وتوعد بقتل الهوى «حبه إلى ماريا»، فخرج بصورة بيانية عجيبة جميلة رائعة ليدفن حبه في ضلوع السنين ثم يعذر محبوبته فيقول بعد وصفها بأنها غادرة:

وداعاً ... وهيهات أن نلتقي فما أنا بعد المحب الحبيب
أطعني ذوبك بما يشتهون فإن لهم فوق حق الغريب
ولكن تعالي ... ألم تغدري؟!

ثم يعلن صرخة شديدة في وجه «الحبيبة» وأخبرها بصراحة:

هواك أصبح نسياً كلوعتي منسياً
قد كان شغلاً لقلبي فصار قلبي خليلاً
كأن حلوا الأماني والوصل لم يك شيئا
حتى يصل في قوله:

فما جفون استقرت جفونه؟ أو هل عاد الرقاد إلى نفسه؟
عاد الرقاد شهياً

لنسمع قوله:

لم تزل تهجرني منذ سنين ليتني أنعم يوماً برضاك
كنت في روض أنيق فإذا بحبيبين من الطير هناك
ليتنا يا هاجري مثلهما في تعايننا الهوى لكن أراك

ثم نراه يتراجع عن نعت حبيبته بالغدر، ويتوسل إليها أن تغفر له هفوته إذن هل كان يائساً؟ أم أنه ذاق قسوة الفراق فأفسد عليه تفكيره؟ لقد عرف الحقيقة، وأثبتت له أنها ما زالت تتنسم عبير ذلك الحب فأنشد:

اغفري لي إذ اهتمتك بالغدر فقد كنت غائباً عن صوابي
اغفري لي لعل ما كان مني صرخة الهول عند مرأى عذابي
اغفري لي ما قلته في جنوني وتعالني أشرح إليك مصابي

ويظل قلب إبراهيم متعلقاً بمحبوبته، وهو ليس وحيداً في هذا الكون، فكانت تجربة قيس بن ذريح سابقة عندما سكن حب لبنى في سويداء قلبه رغم أنها عاشت في كنف رجل آخر، وهذا إبراهيم طوقان، ما زال يردد اسم محبوبته وهي في بيت الزوجية مع رجل آخر، كسيرة الجناح ولكن هل تعود الأيام واللاليالي ويسترجع صورة المحبين أمثال جميل وبثينة، فليس هناك مستحيل ورغم شكه وتشاؤمه يقول:

رب طير مهاجر غاب عنا شاقه وكثره فعاد إلينا
كنت تبكين.. لو رأيت بكائي وقديماً أبكى جميل بثينا
غير أني ألفت همي وغمي فكلي واشربي وقري عينا

وهل سيعود شاعرنا مكسور الجناح أو أنه سيطارد خيطاً واهياً؟! فهو يصف حاله وما صارت إليه هذه الحالة فذكر البكاء لا يكون إلا من عاشق ولهان.

فقدتك فقدان الصبا وهل امرؤ تسولى صباه اليوم يرجعه غدا؟!
فقدتك لكنني فقدت ثلاثة سواك: فؤادي، والأمني، والهدى
وأبقيت لي غير القنوط ثلاثة هواك، وسقمي، والحنين المؤبدا

ومع كل هذا التشاؤم، فقد بقيت الذكرى وبقي الحنين إلى المحبوب الأول وإن ادعى الهجر، فهو يعترف بصراحة في قصيدة «خطرة في الهوى»:

أدعي الهجر كاذباً وغرامي في قرار من الفؤاد مكين
غيض دمعي وكان رياءً لروحي من غليل الأسى، فمن يرويني
يامعين الجمال أنبلت قلبي أنعشيني بنهله أنعشيني
يامعين الجمال، قطرة ماء أو أفيضي ابتساماً تحيينني

يقول د. عمر فروخ في كتابه شاعران معاصران «إذ هام إبراهيم برعيل لجب من الغواني الفاتنات وفي طليعتهن راقصة إسبانية من إشبيلية كانت له معها قصة» وعندما كان إبراهيم طوقان أستاذاً في الجامعة الأميركية سنة 1930، كان يتردد على مقهى النجار في ساحة البرج بوسط بيروت، وكان يلتقي في هذا المقهى مع أصحاب الأقلام المشهورين وعلى رأسهم بشارة الخوري، وأمين تقي الدين، والدكتور نقولا فياض، وعمر فروخ والياس أبو شبكة، وغيرهم من الأدباء والشعراء.

وأثناء زيارته لهذا المقهى حضرت الراقصة الإشبيلية، وسرعان ما ربطت بين إبراهيم والراقصة صلة حب قوية، وكانت اللقاءات بينهما كثيرة. وهام شاعرنا بالصبيبة خاصة وهي تؤدي حركاتها الراقصة على المسرح، وقد وصف المستشرق (نيكل هيام) إبراهيم في رسالة بعث بها إلى «فدوى طوقان» من كامبردج سنة 1947 يقول فيها: «وكانت الراقصة الأندلسية مولعة بإبراهيم، أما هو فكان مولعاً بها إلى غاية الهيمان».

وهذا ما أوحى إلى الشاعر إبراهيم طوقان قصيدته «غادة إشبيلية» حيث تخبرنا فدوى طوقان «وفي غادة إشبيلية أندلسية، كانت في بيروت، نظم إبراهيم فيما نظم من شعر غزلي في ذلك الحين، عدة قصائد وهو يعترف بأن انجذابه إلى هذه الغادة قد لا يكون بدافع جمالها، وخفة روحها، بمقدار ما كان يتقرّاه في خلقتها من الدم العربي، وما كان يلاحظه من الفن العربي في ثيابها ورقصاتها». وهذا إبراهيم يصف بنفسه هذه الغادة فقد صبا إليها وتعلق بها فقال:

أفدي بروحي غيد إشبيلية	وإن أذقن القلب صاب العذاب
علقت منهن بترب النهار	وجهاً وصنو الليل فرعاً وعين
في مثلها يخلع مثلي العذار	ولا يبالي كيف أمسى، وأين
أشرب من فيها وكأس العُقار	معاً فكيف الصحو من سكرتين

ثم تنتقل الراقصة المحبوبة إلى دمشق ويعترف الشاعر إبراهيم طوقان لصاحب جريدة البيرق البيروتية بشارة الخوري أن انجذابه إلى فتاة إشبيلية بها يحسه في مزاجها من الدم العربي، وما كان يجد في ثيابها ورقصاتها من الفن العربي الأصيل، ولكن انتقلها إلى دمشق أثار فيه شجون فقال:

لهفي عليها يوم شطّ المزار وساقها البين إلى «النيربين»
ودعتها، ومهجتي مُشفية لم يشفني رشفُ الثنايا العذاب

ثم يث هيامه وتصاويره الفنية فخلط وجدانياته بالبعد السياسي فقال:

يا أعصر الأندلس الخاليات قد فاز مَنْ عاش بتلك الربوع
أهكذا كانت هناك الحياة مترفة الأيام ملء الضلوع؟!
أهكذا الفتنة في الغانيات ونشوة الوصل، وحر الولوع
لئن مضى عهد ذوينا وفات ولم يعد من أمل في الرجوع

فهو يتمنى أن يسعفه الحظ لزيارة تلك الربوع التي عمرها العرب في سنين سابقة، وقد خرج منها العرب ولم يعد هناك أمل في الرجوع إليها.

وذات ليلة وبعد أن انتهت «مرغريتا» من رقصتها، جلس الشاعر طوقان ومرغريتا في ركن من أركان المقهى وأخذا يتنادمان ويعبان كؤوس المدام، وعلى نفس الطاولة، وفي نفس الوقت أنشد قصيدة «اشربي»:

اشربي أنت وحسبي نشوة من مقلتيك
اشربي أنت وحسبي نظيرة في وجنتيك
اشربي أنت ومالي وحياتي في يديك
اشربي أنت وحـدث أنت عنها يا شراب
ثم يقول أنشدني أطربيني بهوى الأندلس
أرسلني اللحن شجياً كالصبا في الغلس

تخطت نظرته إلى المحبوب بشكلها الظاهري إلى التصوير الوجداني، فدفع إلى صديقه «مصطفى فروخ» بصورة «مرغريتا» ليقوم بتكبيرها، واستطاع مصطفى أن يصور الفتاة، لكن الحركة والحيوية بقيت بين يدي الشاعر ليحققها في قصيدته «صورتها المكبرة»:

برّح بي الشوق فلما طغى فزعتُ للرسم فكبرته
ولم أجِد في الرسم أخلاقها جربتها حيناً وجربته

ثم يوضح أنه أعجب بالرسم، لكنه ناقص فينكره لأنه لا يعبر عن دلهما الذي عرفه وتذوقه:

عرفت للرسم إبداعه وعدت للرسم أنكرته
قد فاتته دُلُّ تعرفته فيها، ومطلُّ كم تذوقته

تتبع إبراهيم رقصات «مرغيتا» فأوحت له إحدى رقصاتها المؤثرة برسم مشهد اجتماعي فكانت قصيدة «مصرع بلبل» وهي حكاية رمزية تمثل الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخلها الشاب القادم من القرية الصغيرة، فيتأثر بالحياة الجديدة وصخب المدينة ومنها:

قدر ساقه فأواه روضاً لم يكن طار فيه قبلاً وغنى
فاستوى فوق أيكّة ورمى عينيه فيما هناك يُسرى ويعنى
ومضى البلبل الغريب يطوف الروض حتى انزوى محياً النهار:

راح يأوي إلى الغصون ولكن كيف يغفو مشردُّ الأفكار
هكذا وقع الشاب القروي في مزلق الضلال، وأسفرت الحياة عن وجه كالح:

ذاك ليل قضى على البلبل المنكود لولا يد تضدت عليّ
أنقذته فهب يشدو شكوراً مرحاً، هاتفاً لها بالتحية

وهناك صور وجدانية أخرى عند إبراهيم طوقان، فقد أولع بالحسنات وقال يتغزل بهن، فقد هام بفتاة لم يدر ما اسمها، وقد لقيها في الطريق، فهام بها رغماً عنه، وأنها حملت الوجد والهوى له دون غيره، وقد تخطف لون وجهه عندما تعرض لها وظن بها سوءاً ثم يعود ثانية عن سوء ظنه ويذم زعمه، وقد أعلن هذا في قصيدة «أعجب الهوى»:

تعلقها قلبي ولم أدر ما اسمها وفي عينها ما بي وما سمعت باسمي
وما كان إلا في الطريق لقاؤنا ولحظ - كباقي الناس - يرمي ولا يصمي
أما عجب - والأرض ملأى بمثلها - هيامي بها دون الحسان على رغمي
أراها فلم أملك تهالك واهن بجنبيّ مسلوب الجراءة والعزم
فيخطف لوني فرط ما أنا واجد بها وبما يلقي هواها على وهمي

ثم ننتقل إلى «ذات السوار» والتي عرف اسمها ولكنه تعمد عدم التصريح به، فقلبه
ما انفك يناجيها، ويأتي الليل فيبكيها الشوق:

هينني لا أسـميك ولا أظهـر حُبـيـك
وتلقني بيننا الحـجب فأحيـا لا ألقـيك
هبي ما شئت؛ إن القلب ما انفك يتلججك
ويرتاح إلى النجـوى وفي النجـوى يحـيـك
ويطفئ الليل والشـوق فيـدعوك وبـيـك

وهناك قصائد أخرى يصرح شاعرنا بأساء غوانيه، فيذكر اسم المحبوبة وأوصافها
وأخلاقها، وهذه واحدة منهن اسمها «نزيهة أدهم» علق إبراهيم بحبها فأنشد يقول في
«إليه»، إلى ذات المنديل:

نزيهة ليس للمنديل فيما بيننا حاجة
وإن سرك أن يبقـى فأنوارك وهـاجـه
فيما من تأمر الحسن فيلقـى دونـه لا تلجـه
لقد قطعت بالـدُّ عـرى قلبـي وأوهـاجـه
وهذه «فوز» التي يقول د. عمر فروخ في كتاب شاعران معاصران أنه التقطها في
«بحمدون» بينما كانت تصطاف، ففازت بنصيبها من غزل إبراهيم ووجدانياته:

يا فوز وبلي منك يا قاسية عذبتني ظلماً كفى ما يـبـه
أراك في اليوم ثلاثاً ولا أنال إلا النظرة الخافية
يا وردة ترسل أنوارها فيضاً على الكون من الرابية
يا ربة المنديل من تحته نبعثُ حسن ثروة صافية
ناشدتك الإسلام لا تقتلي أخاك في دينك يا قاسية

أما «بهية» جارتها في رام الله، فتاة ريفية جميلة، هام بها إبراهيم فوصف دلالها العقوي:

«بهـا» لم تقع العين على أبهى ولا أظـف
ولا أدنى إلى القلب ولا أشهى ولا أظـرف

شغقت بها ومن يُبَلِّغ غرائب دلهما يُشغف
لقد شغفت بتلك الغيداء، وفضلها عن سواها:

«يا جناة الحسن ويا كوثرُ الصافي
يا أفضّل بين الغيد ممن عشرة آلاف
قهي عتله أفضل الغيد، بل أفضل من عشرة آلاف من الفاتنات لما فيا من حُسن
وجمال طبيعي خاصة إذا لبست عصابتها الزرقاء ولَفَت بها شعرها المسترسل عن جبينها
وعينها اللكحولتين، فتظهر آية في الجمال الذي يفتك بالشعراء:

«روحي فداء عصابة زرقاء لمت شعور مليحة حسناء
ما زينتك، وإنما زيتها بجوارها لجينك الوضاء
ووتوها عن مقلّة مكحولة فنانة، فتاكّة، حوراء
إنّ الجمال إذا تجمع شمله فالويل كل الويل للشعراء

كان إبراهيم طوقان يقضي فترات كثيرة يراجع الأطباء في المستشفيات، وكان وهو
على سرير الشقاء يرى الحسناوات من المرضات، فيفهو قلبه هن، ولعل قصيدة «ملانة
الرحمة» اللقمة بالركة والحنان، تمتلئ بالشاعرية الملهمة والخيال المجنح فقد صور
المرضات في صور الحائم البيضاء، يسهرن على المرضى فيخفن من آلامهم، ولم تكن
هي القصيدة الوحيدة التي قالها في المرضات، فقد أعجب بمرضة اسمها «لولي» وهي
مربية لأولاد الدكتور «كرك شانك» الجراح في مستشفى الجامعة الأميركية، والتقى بها
صلته في زقاق من الأزقة فاعتراها الخجل فصور إبراهيم هذا اللقاء فقال:

أراها ظلم أملك تهالك واهن بجنبي مسلوب الجراءة والعزم
فيخطف لوني فرط ما أنا واجد بها وبما يلقي هواها على وهمي
يخيل لي: أنني دنوت فأعرضت فأصرف وجهي مثقل الصدر بالغم
وأقسم لو حدثتها وتكشفت سرائرنا ما شدّ فيّس إذن زعمي
إذا كان في دنيا الهوى مثلما أرى فأني عجيب في هوى العمي والصمّ

وفي نابلس التقى إبراهيم طوقان ممرضة روسية حسناء اسمها «كاترين» كانت تحقنه
بليبس لتخفيف ألم القرحة، فسحرتة بعينها الزرقاوين، وفتته أهدابها الطويلة، فنظم
مقطوعة تشرتها جريدة «فلسطين» مصوراً عينها ويدها الناعمة الشافية فيقول:

يا حلوة العينين يا قاسية
لئن شفى الطب ضنى عارضاً
وابرة الآسي على نفعها
تبعثها عيناك في أضلعي
وتطفئ النار التي حرّكت
إلى أن يقول:

هل كان نسيانك لي هفوة
أم خطّة أشراكها خافية
سيدتي ذنبك مهما يكن
تغفره أعذارك الواهية
وبينما كان إبراهيم يشق صفوف الغيد في «شارع يافا» بالقدس، مرّ بأسراب
الحسناءات، فاستثاره هذا المنظر وصوره شعراً:

اليوم يوم الأحد ومهرجانات البلد
الزهر في كل يد
حسلته واكبردي مثل طيور الغرد
بامرجاً بالأحد

هكذا وثقه البدوي المثلث، الغواني في شعر إبراهيم طوقان، لكن إبراهيم طوقان
كان فنّاناً يارحاً يرسم اللوحة غيوقة شعرأ فتخرج قصيدة غزلية، لكن خياله يلون هذه
الغزليات لتزهو بألوانها. فقد ناجى إبراهيم في غزلياته الجمال وهذا واضح في «معين
الجمال» التي تعبر عن توهج الحسن في وجدانيته، بالأسلوب رومانسي:

أوعديني بزورة أوعديني طال عهدي بلوعتي وحنيني
أدعي الحجر كاذباً وغرامي في قرار من الفؤاد مكن

هذا نمط من أنماط الصراحة في شعر إبراهيم طوقان، الذي يوضح النسب في
وجدانياته وغزلياته، لكنه ربما يكون حزينا أيضاً:

قطرات الندى عليها دموعي أنت الأخرى متي بما يكييني
ما أشدّ الهوى، وما أطول الليل، وما أبعث الكرى عن جفوني

بلا كرتيتينا تين نحو التين أجنيه واذرف الدمع من عيني وأسقيه
ألسندتقترألسي إلى فرع أناجيه فرجع الطير نوحى في أعاليه

ياتين ياتوت يارمان يا عنب

ههلى نظيرة للعصيد القلب مفتون هل نهلة من لماك العذب ترويني
ألوها ألبكي على من ليس يكييني يا من رأى نرجساً يكي على تين
حلللق الشللم، عين الله ترعاك ولا سرت نسمة إلا برياك
يا مرتع العررب الأتراب نعاك تفر عن مهجة الدنيا ثناياك
ياتين ياتوت يارمان يا عنب

وذلكتيريمم أرسل إبراهيم يسأل صديقه عمر فروخ عن صاحبة لهم افتقدها، فأجاب
عمر فروخ:

لفق للطارات إلى حلب قلوب شفها الوجد
فورد إبراهيم بقوله:

للفقيه الممن له حسن على الأكوان ممتد
كنور الشمس لا تخلو وهاد منه أو نجد
للفقيه الممن بدت أنفا سه الرياحان والنجد
لفق للبعقة فإن بعدت يزد في طيها البعد

ووأحب إبراهيم أن يعود إلى ذكرياته، فيتذكر «ليلي تين» الدمشقية، هذه الحسنة التي
رسمت ببسملها قلوب العاشقين، فأرسل إبراهيم مستفسراً من صديقه عمر فروخ عنها
وعن جمالها فقال متحسراً على الليالي التي خلت:

أليبن الليل على شوا طيء بيروت يا «عمر»؟
أليبن لهوى وشرقي والزمان الذي غبرا؟
حين لم أفتكر بهجر لا الهاجر أفتكر
ههكذا يذهب السرور سريعا إذا حضر

ووكثيراً ما اشتكى إبراهيم قلبه إلى زميله «وجيه بارودي» إذا مرّ به غزال أو نفر من
أهلهم نظلي:

لم تدر ماذا قد أصاب قلبي أصابه بعض شواظ الحب
رمته عن بُعد معاً وقرب إحدى غواني «جلق» وحسي
فراح خفاقاً شديد الضرب ينذر بالويل وطول الكرب
فجئت أستشير «أهل» الطب إن شاء يذكي ناره أو يخبي

ثم أنشأ إبراهيم قصيدة معنونة إلى «ل...» يقول فيها:

أيمن الرسالات والشوق؟ فالجواب تـأخـر
كم قلت «شوقي كثير» أظن شوقي أكثر
أسائل البدر حيران عنك إن هو أسفر
ذكرت وجهك فيه والشيء بالشيء يُذكر
كوني بـودك كالـبدر فهو يخفى ويظهر

وثمة إشارات صرح بها إبراهيم وزملاؤه لا أستطيع ذكرها في هذا الكتاب لإسرافها في العبث، عبث الشباب ومجونهم، مما اصطلاح عليه «الشعر الفاضح المكشوف»، ولعل قصيدة «شهر أيار» المشهورة تعد ذروة المجون، والتي حرفت إلى معان كثيرة وبأشكال ملونة، إلا أنها جاءت في بناء رائع، وصور جميلة، وعمل فني كبير مهما يكن مؤذياً كما أورد الدكتور عمر فروخ في «شاعران معاصران ص 100-103» وكان مطلعها:

ورد ومجن وغيد في البجامات يا شهر أيار يا شهر الكرامات
ورغم ما مرّ وما قرأنا، فقد استطاع إبراهيم أن يطلق أغاريدَه في فترة حياته غزلاً رقيقاً وأحياناً ماجنة، فإنه استطاع أن يعيد إلينا ما كان من مقطوعات غزلية لجميل بثينة، ومجنون ليلي، وكثير عزة، وما يقاس من شعر إبراهيم لما عرفناه في مناقشة الحبيبة والغيداء في شعر عمر بن أبي ربيعة وما كان في ذلك الشعر من صراحة أو ما كان من وجد وحرمان حين يبتعد عن المحبوبة، حتى إذا ما جاء هاتف من بعيد، نبض قلبه من جديد بذاك الزم من وهفاً إلى تلك السويغات التي قضاها شاعرنا مع حبيبته، فيعود إلى مناجاة الحبيب، وقد كانت بيروت هي الساحة المفتوحة أمام شاعرنا لينطلق في غزلياته ووجدانياته ويبدع بها أيها إبداع.



الدعابة والفكاهة والسخرية

الدعابة والفكاهة والسخرية، من دواعي الضحك، لكن لكل لون من الألوان الثلاثة نوع من الضحك، فالدعابة تضحك السامعين أو القارئ لحركة معينة وكلمة خطرت بالبال أضحكك، أما الفكاهة، فإنها تضحك ضحكات مقطعة، لشيء فيها تندر، أما السخرية فضحكها عابسة، أو يائسة. إذن هناك مفارقة بين الثلاث. فالدعابة بدأت مع إبراهيم طفلاً حين قلّد جدته في لكتتها وفي مشيتها ولكنها مداعبة محبة.

وكان إبراهيم طوقان شاعراً يمتلك السخرية كثيراً، وقد انعكست سخريته في شعره، فقد نظر إلى السامسة والزعماء الأعداء بسخرية مكشوفة فقال عن السامسة:

إِبْلِيسُ أَعْلَنَ صَاغِراً إِفْلَاسَهُ لَمَّا تَحَقَّقَ عِنْدَهُ إِغْرَاؤُهَا
هَمُّ أَهْلِ نَجْدَتِهَا وَإِنْ أَنْكَرْتَهُمْ وَهَمُّ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ زَعْمَاؤِهَا
هذه سخرية فيها استنكار، وفيها ضحك خشن ومواجهة مع هؤلاء، وهذا يكون مع الأعداء، أما مع أهله وأصحابه لا يستطيع أن يسخر ولكنه يداعب ويلطف وقصيدته الدم الخفيف مثلاً على دعاباته:

وَطِيبَ رَأْيٍ صَحِيفَةٍ وَجَهِي شَاحِباً لَوْنَهَا وَعُودِي نَحِيفاً
قَالَ لَا بَدَّ مِنْ دَمٍ، لَكَ نَعْطِيهِ نَقِيّاً مَلَأَ الْعُرُوقَ عَنِيفاً
لَكَ مَا شِئْتَ يَا طِيبَ وَلَكِنْ أَعْطِنِي مَنْ دَمٍ يَكُونُ خَفِيفاً

ومن دعاباته الجميلة أبيات قالها وهو في مدرسة المطران ومما جاء فيها:

عَدَسٌ عَدَسٌ عَدَسٌ عَدَسٌ وَبِهِ الْأَوْلَادُ قَدْ انْغَمَسُوا
قَامُوا قَعَدُوا فَرَزُوا قَمَزُوا لَمَّا أَطْعَمْنَاهُمْ «غُولاً»
سَتَتَيْنِ دَرَسْنَا فَرَنْسَاوِي «دِيكْتِيَه» مَعَ مِيسِيو «صِيدَاوِي»
وَالْآنَ زَهَقْنَا يَا وَي وَي وَي فَهَلُمَّ نَشْدِ الْأَرْحَالَ

وهذه دعابة تحمل فكاهة طالب ملّ نوع الطعام، وملّ مفردات متكررة أو يتحدث عن مجريات أحداث «غولا» أي احرزوا هدفاً، هذا إذا ما عرفنا فيما بعد عندما شكل مع بعض الطلبة الشعراء حلقة أدبية أطلقوا عليها «دار الندوة» واتخاذ كل واحد منهم اسم شاعر قديم، فكان إبراهيم طوقان: العباس بن الأحنف، ووجيه البارودي: ديك الجن

الحمصي، وحافظ جميل، أبا نواس، وعمر فروخ: صريع الغواني كما ذكرنا في موضوع سابق.

وقد وجد إبراهيم طوقان أن خير طريقة للتعبير عن أحزانه مما يرى ويشاهد بالسخرية والتهكم، وهو بهذا أصبح يعري المنحرفين، ويرد كيدهم إلى نحورهم ويضحك الناس عليهم لكن بضحكات متوترة.

أما مصدر سخرية إبراهيم فكان الواقع الموضوعي، كيف لا؟! وقد كانت فلسطين تعيش تغيرات سياسية واجتماعية، فمن انتداب إلى هجرة إلى أحزاب، إلى ثورات، وقد استطاع إبراهيم استيعاب كل هذه الحوادث والاضطرابات والتناقضات مع أنه لم ينضم إلى حزب كما صرح علانية «إن قلبي لبلادي لا لحزب أو زعيم». وقد لجأ شاعرنا إلى السخرية لما فيها من قوة التأثير في استثارة العقول، وقد استخدمها بلغة محكية مفهومة بسيطة كقوله في قصيدة «أنتم» ويقصد السامعة:

أنتم «المخلصون» للوطنية أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون من غير قول بارك الله في الزنود القوية
....

في يدنا بقية من بلاد... فاستريحوا كيلا تطير البقية
وقد تهكم إبراهيم، على الانتداب فقال:

قد شهدنا لعهدكم «بالعدالة» وختمننا لجنودكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقاً وفيّاً كيف ننسى انتدابه واحتلاله
وخجلنا من «لطفكم» يوم قلتم: وعد بلفور نافذ لا محالة
كل «أفضالكم» على الرأس والـ عين، وليس في حاجة لدلالة
وأي تهكم وسخرية أشد من ذلك، وهو يواجه بكلماته محتلاً ومستعمراً أو سمساراً خائناً.

وكما ترى فإن سخرية وتهكم إبراهيم طوقان انصبّت في معظمها على الجانب السياسي، أما الدعابة فجاءت جلّها في جانب النقد الاجتماعي أو في الظرف بينه وبين أصدقائه.

وقد يأتي التهكم بشكل العتاب، ويختلط مع الشعر السياسي حين يقول:

يا باكي الفحاء حين أبست تقسيم على الهوان
أرسلت عن بردى سلامك في لظى الحرب العوان
وهذا العتاب فيه إشارة إلى قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
وأنة لم يقل شيئاً عن مأساة شعب فلسطين الرازح تحت الاحتلال فيقول:

عرج على حطين واخشع يُشج قلبك ما شجاني
وانظر هنالك هل ترى آثار (يوسف) في المكان
جل المصاب (أبا علي) فابك هاتيك المغاني
في مصر يطمع أشعب وهنا تبأدى أشعبان
وهنا يبين طوقان تطلع شعب فلسطين إلى إخوانهم في مصر لأنهم يرزحون تحت
الاستعمار والصهيونية.

وقد تتجه الدعابة عند طوقان إلى نوع من الفكاهة التي تنم عن روح طاهرة كما
أوردها في دعابته «الدم الخفيف» حين تحدث عن الطبيب الذي كان يعالجه، وأعلمه
بحاجته إلى الدم فيداعبه إبراهيم رغم مرضه كما مرّ سابقاً.

ومثل هذا ما قام به من معارضة شوقي في قصيدته «المعلم»:

شوقي يقول وما درى بمصيتي «قم للمعلم وفه التبجيلا»
أقعد فديتك هل يكون مبجلاً من كان للنشء الصغار خليلاً
لا تعجبوا إن صحت يوماً صحيحة ووقعت ما بين «البنوك» قتيلاً
ومن هذا اللون خطابه لأبي سلمى:

كان هـزاراً طرباً بالحسن مُفَتَّنَا
فابتسم الحسبُ له فأحسن الظننا
ثم رمناه بالتي بُدِّل اللحننا

هذا وقد وجه إبراهيم رسالة إلى بعض الزعماء بعنوان «أنتم» فيها سخرية شديدة
وتهم صريح حين قال:

أنتم «المخلصون» للوطنية
أنتم العاملون من غير قول
«وبيان» منكم يعادل جيشاً
«واجتماع» منكم يرد علينا
في يدينا بقية من بلاد
وأنتم الحاملون عبء القضية
بارك الله في الزنود القوية
بمعدات زحفه الحربية
غابر المجد من فتوح أمية
فاستريحوا كيلا تطير البقية
ومنه ما خاطب به بائع البلاد إلى الأعداء:

فكر بموتك في أرض نشأت بها وأترك لقبرك أرضاً طولها باع
والمواقف في شعر إبراهيم عن السخرية والفكاهة والدعابة كثيرة، لكننا نضع هنا
نماذج منها لتبين مدى قدرته على نظم قصائد على مثل هذه الموضوعات.



نقائض ومعارضات

النقائض جمع نقيضة وهي قصيدة يرد بها شاعر على قصيدة شاعر آخر فينقض
معانيها فيقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه، وتكون النقيضة
من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها. وهذا فن عرفه العرب وقد شاع في العصر الأموي
خاصة بين الفرزدق وجريير وشاركهما في هذا الفن الأخطل.

وتعتبر النقائض مرآة صادقة للأحوال الاجتماعية، وقيل أنها حفظت اللغة من
الضياع وخاصة ما ورد على لسان الفرزدق، وهي حرب كلامية فنية فيها طرافة وتشويق
وإثراء لغوي للدارس.

وفي العصر الإسلامي عرف ما اصطلح على تسميته الهجاء الديني، وازداد خطر
هذا الشعر على الخطيئة الذي احترف الهجاء، وقد وضع «الدكتور محمد محمد حسين في
كتابه الهجاء والهجاءون» فقال: «ها رنين يوحى بالسخرية، ويستفز للمضحك في بعض
الأحيان». وقد عرف الشعراء الهجاء السياسي الذي يقوم على العصبية للوطن، حيث
يهاجم الشاعر أعداء وطنه، وقد حوت دواوين الشعراء صوراً كثيرة من الهجاء السياسي،
وركز شعراء الدولة الإسلامية على الهجاء الديني، وذلك بعد أن تعرضت آيات القرآن
الكريم إلى تسفيه آلهة المشركين، فشرع حسان بن ثابت وغيره من الشعراء يتعرضون إلى
الشعراء المشركين يردون عليهم ويسفهون أحلامهم.

أما المعارضة عند إبراهيم طوقان فإنها تركز على ذلك السجل الحافل من الأدب الهجائي منذ العصر الجاهلي، هذا إذا ما عرفنا سعة اطلاع إبراهيم طوقان على الأدب العربي القديم، وتلاوته القرآن الكريم تلاوة متأنية بما فيها الآيات التي تعرضت بالمشركون في مواضع كثيرة. هذا التراث الذي تأثر به شاعرنا جعله ينحو منحى الشعراء العظام في تاريخنا العربي الذين وظفوا شعرهم للدفاع عن وطنهم ومبادئهم.

وفي العصر الحديث دعا كثير من الشعراء إلى التجديد في الشكل والمضمون وعلى رأسهم شعراء مصر ابتداءً من البارودي إلى أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي الجارم إلى شعراء العراق كمعروف الرصافي والجواهري والزهاوي وكذلك بين شعراء سوريا كخير الدين الزركلي ومحمد الشريقي، وشعراء لبنان كالشيخ فؤاد الخطيب والشاعر وديع البستاني، وهكذا بين شعراء فلسطين مثل الشاعر إسكندر الخوري وإبراهيم طوقان والعبوشي وعبدالرحيم محمود أضف إلى ذلك شعراء الرومانسية في أوائل القرن العشرين وعلى رأسهم خليل مطران وميخائيل نعيمة وأحمد زكي أبو شادي، وعلي محمود طه.

وقد دعا هؤلاء جميعاً إلى الوحدة العضوية، وأن تكون مشاعرهم مستمدة من تجاربهم وبيئتهم، والابتعاد عن شعر المناسبات والمدايح وتمجيد السلطان، كما دعوا إلى إبراز قيمة الخيال على أنه ليس وهماً أو ضرباً من التخيل.

وقد ظهر هذا واضحاً في الشعر الفلسطيني في الربع الثاني من القرن العشرين. وعلى سبيل المثال فقد أعجب إبراهيم طوقان بشعر شوقي وهذا يظهر في قصيدة «حطين» التي نظمها عام 1928 عندما عزم شوقي على زيارة فلسطين، وفي قصيدته يعترف طوقان بإمارة الشعر لشوقي إذ يقول:

أهلاً برب المهرجان	أهلاً بنا بغيّة الزمان
ملك القلوب المستقل	بعرشها والصلو لجان
ومتوج حاليّت أشعة	تاجه دون العيان
أهلاً بشوقي شاعر	الفصحى ومعجزة البيان
يا فرقد الشعراء كم	من فرقد لعلاك ران

ورغم ما رأيناه في الأبيات، ورغم تمجيد شاعرنا لشوقي، حيث وصفه بنا بغيّة الزمان وصاحب الصولجان، وشاعر الفصحى ومعجزة البيان وأنه فرقد الشعراء، لكنه

عابَ عليه إغراقه في اقتفاء آثار القدماء وخاصة في المطالع الغزلية والوقوف على الأطلال، واستغراقه الكثير بالصور القديمة، ورغم ما بين الشاعرين من فارق واختلاف، إلا أننا نضع بين يديك صورة لكل شاعر حيث يقول شوقي في النخيل:

أرى شجراً في السماء احتجب وشق العنان بمراًى عجب
ماذن قامت هنا أو هناك ظواهرها درج من شذب
وليس يؤذن فيها الرجال ولكن تصيح عليها الغرب

هذا ما قاله شوقي عن النخيل، وقد علت كالمآذن، والأبيات صورة جميلة تكسب النخلة عمقاً حضارياً جميلاً، وقد رأى وليد صالح جرار في كتابه شاعران من جبل النار «أن الصورة... التي رسمها شوقي تقلل من قيمته وإن كان قد جاوز المألوف فيها».

ثم يتابع الأستاذ وليد: «لكن هذه الصورة لا تلبث أن تنقلب إلى ضدها حينما أراد الشاعر أن يستكمل أجزاءها، فوقع في الخطأ عندما وازن بين صوت الأذان العذب الذي ينطلق من المآذن وبين نعيق الغربان وصياحها على تلك الشجرة المباركة، ووضح ما بين هاتين الصورتين من تنافر وتضاد».

ولكن انظر إلى الصورة التي رسمها طوقان للمتشائمين في قصيدته «تفاؤل وأمل» وقد صور أحاديث هؤلاء المتشائمين والمنفرين بصياح الغراب الذي ينعى فوق الديار الخربة المهجورة:

أضحى التشاؤم في حديثك بالغريزة والسليقة
مثل الغراب نعى الديار وأسمع الدنيا نعيه

وقد اختلف طوقان مع شوقي أيضاً في الرؤيا والموضوع «التعليم والمعلم» ومع حبه لشوقي لكن الدكتور يحيى جبر في «الساخر والجسد» يقول: «لكن ألفاظ المهجاء والمعارضة انسحبت على معارضته لشوقي في قصيدة الشاعر المعلم، مع حبه للشاعر واعترازه به، فقد كان طوقان معجباً بشوقي». لم يكن متخيلاً طوقان أن يكون معلماً، ولم يكن يرغب بها لأن اعتقاده صرح به: «لأن المعلم لا يعيش طويلاً» و«حسب المعلم غمة وكآبة مرأى (الدفاتر) بكرة وأصيلاً». ومن ألفاظه التي قالها طوقان وتقف على النقيض من شوقي: «اقعد، فديتك، هل يكون مبعجلاً من كان للنشء الصغير خليلاً» و«يكاد يفلقني الأمير بقوله: كاد المعلم أن يكون رسولا» قال طوقان هذه الأبيات وهو يشير إلى أن شوقي لم يجرب التعليم «مهنة المتاعب والهموم».

وطوقان عارض شوقي في هذه القصيدة لأنه كان يحمل فكرة معينة هي التعليم كمهنة، وليس شخص شوقي على عادة الهجاء في الشعر العربي ولكن علينا أن لا ننسى أن شوقي ربما قال قصيدته تكريماً للمعلم الذي يؤدي وظيفة تربوية وتعليمية، وأن شوقي استطاع أن يتناول دور المعلم والتعليم، ولا أنجاز الحد إذا قلت أن شاعرنا طوقان كان موقفه انفعالياً سريعاً، فقد كان مريضاً من جهة وأحب مهنة الصحافة بينما كان راعياً عن مهنة التعليم، ولذلك نقصت قصيدة طوقان الموضوعية والعمق والدراية التي توفرت في قصيدة شوقي.

ومهما كان من أمر شاعرنا إبراهيم طوقان، فحسبه احتفاء شعراء السلام وأدبياتها بتكريمهم له ولشعره، وحسبنا أيضاً رأي الأمير «شكيب أرسلان» في قصيدة نشرها طوقان بعنوان «تحية مصر» في جريدة «الشورى» القاهرية وعندما اطلع عليها شوقي أرسل إلى جريدة «الشورى» مقالاً بليغاً يقرظ فيه القصيدة وطرب لها وهذا ما كتبه:

«كان الناس يظنون أن الشعر العربي في صدر الإسلام، وما يعلمه إلى زعمائهم العباسيين، أمد لا يدرك، وإن الأواخر عيال على أوائل يقلدونهم... ولكن تهضة الأدب العربي في هذا العصر، ونبوغ شوقي وحافظ ومن إليهما من هذه الطبقة العالية، قد أثبتا أن المحدثين يمكنهم أن يباروا الأولين ويلحقوا بشأوهم، وإننا رجال كما هم رجال! ...»

وما لذني بهذه الأيام شيء مثل أبيات إبراهيم طوقان قرأتها في «الشورى» فخلت نفسي أقرأ شعر «أبي نواس» أو «بشار» أو «البحري»...

تحيرت أي شيء أعذب فيها؟ أسهولتها مع المتعة؟ أم رفعتها مع المتانة؟ أم جزالتها مع النعمة؟ أم سداد نطقها مع العاطفة؟ - على حد قول مقلدة الإفرنج - أم مديحها مع الغمزة؟ أم مراميها السياسية البعيدة في معرض النزهة؟ أم قوله:

تحية لك يا مصر الفراعين ذوي المآثر من حي ملقون
بهذه الجلالة التي تليق بمصر أم المدينة ومآثرها الفخمة المحيرة للعقول أم قوله:

شقوا «القناة» عساها عنك تبعدي أني؟! ومن لغتي جسر سيلتي!!
وهذا البيت الذي يذوب رقة ويتوقد حمية، ويطوي خلاصة القرون ويكاد يكون في سعة معناه أو قوله:

أحب مصرأ، ولكن مصر راغبة عني فتعرض من حين إلى حين

والإن يبكت - لا يبكت هما - فقد علمت وأيقنت أن ذاك الهم يبكي
ألم هؤلاء في سكة الحديد:

تقتني من ينات النار زافرة تكتني وهجير اليد يصليني
تقضي على سنن الفولاذ جامحة وجذوة الشوق تزجيها وتزجيني
هنا بعض من رأي «شكيب أرسلان».

ويقول أكرم زعير أيضاً: «إن إبراهيم طوقان شاعر وجداني مطبوع ... وقد انطاع
لله اللقظ والنصاع، وأتاه جزلاً حين اقتضى فن الكلام أن يجيء جزلاً، ورقياً حين
استوجب الفن الرقيق، وعلى حالي الجزالة والرقّة فالقول فصيح مبن».

أما إشارة الخوري، فقد فتح صور صفحات جريدته «البرق» البيروتية لاستقبال
شعر إبراهيم ... «أعرف شيئاً عن البلاغة، تطلقها الشفاء الملهية دماً وناراً؟ تعرف إليها
إذاً في شعر طوقان.. حيث ترى العواطف الفياضة، والصور الشعرية البارة يلبسها
إبراهيم ألوانها الممتازة، للحزن لون، وللعنف لونه ...».

وهنا يخطر بالي سؤال حول المقارنة والمناظرة بين إبراهيم طوقان وأنداده وأشباه من
الشعراء المعاصرين، كيف كانت؟!.

لقد كانت المقارنة والمناظرة كثيرة ومتعددة، إذا ما عرفنا أسماء بعض الشعراء الذين
التقى بهم وعرفهم ومنهم «أبو القاسم الشابي» الشاعر التونسي حتى يلتقي شاعرنا معه في
وجوه عذبة من حياته وشعره وأصالة الفنية مع اختلاف المكان والبيئة الاجتماعية بينهما
والتي تركت بصمات مميزة في خصائص كل منهما الثقافية.

وأكثر نقاط التلاقي بينهما كانت الآلام الذاتية والوطنية، فقد عاش كل منهما مصاباً
بعلّة في جسمه، لكن إحساسه بوطنه المنكوب بالاستعمار كان أشد وطأة عليه من علته، مما
يجعله ينسيه آلامه في بعض الأحيان، فقد خاطب الشابي المستعمر وصوّر كفاح بلاده ضد
الظلم:

ألا أيها الظلم المصعر خذّه رويدك إن الدهر بيني ويهدم
أعزك أن الشعب يُفضى على قذى لك الويل من يوم به الشرق شمع
ألا إن أحلام البلاد فتية تجمجم في أعماقها ما تجمجم

فقال إبراهيم طوقان يخاطب بلده الكتيب بمناسبة وعد بلفور:

يا أيها البلد الكتيب	حيّاك منهمر سكوب
لا تبتئس بالظلم	إن غداً لناظره قريب
وَعَدُ عَصِيبٍ لَا يَسُرُّ	الظالمين، غَدُ عَصِيبٍ
أشرق بوجهك ضاحكاً	ولشمس شانك الغروب
ما بعد غمك غير يوم	تطمئن به القلوب

ويقول الشابي مستشرفاً أمله في التحرر من المستعمر:

أيّا تونس الجميلة في لجج	الهوى قد سجت أي سباحه
شرعتي حبك العميق وأني	قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي وإن أرقّت دمائي	خماء العشاق دوماً مباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن	سترّد الحياة يوماً وشاحه
ومن أجه التشابه بينهما أن كلاّ منهما	كان يستطلع الغيب فيرى مصيره ويرثي لذاته
ويشعر بدنو أجله، وفي ذلك يقول الشابي:	

نحن نلور رواية الكون للموت	ولكن ماذا ختام الرواية
هكذا قلت للرياح فقلت	سل ضمير الوجود كيف البداية؟
وزهو الحياة تهوى بصمت	محزن مضجر على قدما
جف سحر الحياة يا قلبي الباكي،	فهيا نجرب الموت هيا

ويقول إبراهيم طوقان:

يلذلي يا عين أن تسهدي	وتشتري الصفو بطيب الكرى
لي رقدة طويلة في غد	لله ما أعمقها في الثرى
ألم تـرى طـير الصـبا في	يدي أخشى مع الغفلة أن ينفرا
طال جناحاه وقد يهتدي	إلى أعالي دوحه مبكرا
أرى الثلاثين سـتـتـعد	به مغيرة أفراسها باقتراب
وبعد عشر يلتوي عوديه	وينضب الزيت ويخبو الشهاب

ومن خلال دراسة سريعة للشاعرين نجد أن الشابي وبمؤثرات الثقافة الفرنسية والشعر المهجري، تعدى بشعره وطنه للعطف على الإنسانية المعذبة في كل مكان يوجد فيه مستعمر، وقد ظهر هذا في اللمحات الصوفية والرمزية والفلسفية في شعره.

ومثل هذا التشابه كان بين إبراهيم والسياب إلى حد ما، تشابه في طول فترة المرض، والرحلات وجلسات الأصدقاء، أحاط طوقان بالأدب القديم ووعاه وتمثله، فأصبح يجمع بين القديم في سبكه وبين الحديث في أناقته وأدائه، وقد كان تعلقه بوطنه وتخوفه من مؤامرات الصهيونية أكثر واقعية في التعبير عن هموم نفسه ومعاناة شعبه من الأمراض التي لم تكن تترك له مجالاً لأية سبحات صوفية أو تأملية، مما دفعه إلى اتخاذ الصراحة أداة للتعبير بعيداً عن التهوريات الفلسفية.

ومن معارضات طوقان المشهورة ردّه على شاعر اليهود «ريثوفيني»:

لقد دحض طوقان ادعاءات شاعر اليهود في أرض «إسرائيل» الكبرى التاريخية، وقد هجاه وعيّرهُ مذكراً إياه بتاجر البندقية لشكسبير وخيانات اليهود وجبنهم من خلال شخصية «شيلوخ» التي ذهبت مثلاً بين الناس.

عرفنا أن إبراهيم طوقان درس الأدب العربي وتراثه بوعي ووقف عند روائعه، كما ورد عن الدكتور زكي المحاسني «فبدت الجزالة في شعره كما بدت الجلدة والسلاسة أحياناً، إذ كان يجمع بين روعة القديم في سبكه وحوكه وبين أناقة الحديث في التعبير والأداء».

وقد تهباً لإبراهيم طوقان إمكانية الهجاء والرد والمعارضة عندما درس شعر المتنبي، فكتب «مرايح الخلود» وكانت القصيدة بادرة في التنويع والابتكار وهي محاولة تصويرية سابقة في التجديد الذي دخل على أدبنا المعاصر.

وبهذا فقد استطاع أن يوقع الشاعر اليهودي «ريثوفيني» في فخ ليسيطه بقصيدة ساخنة تشفي غليله منه، وتصدى لادعاءات خرقاء كاذبة.

وقد ساق إبراهيم طوقان تعابير هجائية في قصيدته، فعدد صفات اليهود ورد ما ادعى الشاعر اليهودي من مزايا لليهود.

فقال:

هاجر أمنّا ولود رؤوم لا حسود ولا عجز عقيم
نسب لم يضع ولا فرقته بابل أيها اللقيط اللئيم

أي رثوين غطّ وجهك حتى
يا يهودي كيف علمك بالتو
بين أسفارها خلائق عنكم
يوسف باعه أبوكم يودا
أي رثوين أين ألواح موسى
أي رثوين هل قرأت شكسير
شعبكم كالنّباب في كل أرض
لا يُرى الأنف أنه مهشوم
راق، قل لي، أم قاتلك التعليم
متلداها ومتهاها تميم
إن حبّ اللّيتار فيكم قليل
والوصايا فكلهن قويم
بلي، أتت شاعر مشؤوم
منه شيء على القتلور محوم

وقد جاءت هذه القصيدة رد على قصيدة رثوين - حرب القلّس - «أنشودة النصر»، وأتى فيها الشاعر اليهودي على الحوادث بين العرب واليهود عام 1928 وأشاد بذكر اليهود وشجاعتهم في الطعن والضرب ووصف العرب بأنهم للصوح وقطّاع طرق وأهل خيانة وغدر يعتدون على الأطفال والشيوخ والنساء.

وعندما قرأ إبراهيم طوقان القصيدة، رد عليها ومما جاء في رده: «وقد نظمت هذه القصيدة رداً على أنشودة النصر غير معترض كثيراً إلى الحوادث يقلدر اعتراضه إلى تاريخ اليهود وثوراتهم ما عرفوا به من قبل، وما هم عليه اليوم من الادعاء والغدر وتكرار الجميل، مما يناقض كل ما ادعاه الشاعر رثوين وما وصف به قومه من اللّزايا والأخلاق».

وقد أورد الدكتور يحيى جبر ترجمة قصيدة رثوين الشاعر اليهودي في كتابه «الساخر والجسد» ص 151.

وهذه لم تكن القصيدة الوحيدة التي ردّ عليها طوقان، لكن لسانه وشعره كلنا بالمرصاد لادعاءات شعراء اليهود للدحض كذب هؤلاء الصهاينة وتحرّصاتهم، فقد ردّ أيضاً على الشاعر «كوهين» الذي تخيل أن فلسطين أصبحت أرض «إسرائيل الكبرى» وقد مزاعمه، وكان رد شاعرنا عنيفاً، موضحاً الحقيقة التاريخية والسياسية وملاحقاً عن وطنه وأرضه فقال:

سمعت بأبيات لكوهين ملؤها
يقول: لإسرائيل كانت بلادكم
أحق لإسرائيل ما تسلبونه
أكاذيب من سيف الحقيقة تهرع
فروحوا ارحلوا عنها ليدخل يوشع
خستم فحق العرب أقوى وأنصح

قلسطين يا مهد الديانات ما الذي
أجيبى للذا أنت واجهة أسى
يللى إته والله قد يكشف اليبلا
يبيء غريب الدار يطرد أهلها
ويدخل شريعاً ويأتي «مهرىاً»
هم التكية الكبرى على كل كائن
يقول هتا القلاح وهو مشرد
إذا كان حقي عند «كوهين» ضائعاً
ستضرب حتى تسترد حقوقنا

أصابك قولي ما لعينك تدمع
وقولي لم الإضراب؟ هل هو ينفع
فتلفت الدنيا إليها فتسمع
ويلعب فيها كيف شاء ويرتع
ومامعه إلا السلاح المفرقع
هم الخطر المنصب والشر أجمع
عن الأرض قولوا كيف أعنوا وأخضع
فحقي لدى «جون بول» يا قوم أضيع
ما شتموا بالمضرين هنا اصنعوا

هذا هو إبراهيم طوقان في نماذج لمعارضاته الإبداعية، صحيح أنه تأثر بغيره من الشعراء كالمتي والعري وحافظ إبراهيم وشوقي، وغيرهم من الشعراء إلا أن شخصيته الشعرية قد بدت واضحة محافظاً على حضوره في قدرته الفنية واللغوية ومواكبته كل جليل، شعره يصدر عن تجربته الصادقة وواقعيته، وهو في كل ذلك مجدداً في مضامين قصائده، وفي تقس الوقت ظل مشدوداً إلى تقليد فن المعارضة في المهجاء القديم، يأخذ بشكل القصيدة الكلاسيكية، فقد كان يلتقط الفكرة ويتقضاها أو يعارضها، مسيراً فكرته بلغة مختلفة وأسلوب معاكس للنص الأول، وكان يضع فكرته في قالب أكثر معاصرة في تقريره للحادث الجاري في واقعه وفي وطنه.



نظرة إبراهيم طوقان للشعر

الشاعر يشكل عام يتلدى إلى موضوعه بذوقه وإحساسه، موضحاً الفروق الأدبية والبيانية فيما يتظم، ويستدل بقطعه ودكاته إلى مناهج مفصلة يبنى عليها أحكامه في دقة وعمق وروعة.

والألقاظ على عموميتها هي رموز لمعانيها، رموز للأفكار والتجارب والعواطف ويقول أرسطو: «إن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير، وأن الكلمات رموز للمعاني». ويقول «لاسلى آيركرومى» أستاذ النقد الإنكليزي: «على الأديب أن يجعل ألقاظه محاكية لتجاربه ورمزاً لتلك التجارب».

ويوضح عبدالقاهر الجرجاني رأيه في الشكل والصورة: «موطن البلاغة، وهي ما عبر عنه بالنظم، وما يعبر عنه النقاد بالشكل والصورة» ويذهب النقاد المحدثون إلى أن اللغة عندهم حين يستعملها الشاعر تصبح لغة شعرية لا لأنها في ذاتها لها هذه الخاصية ولكن لأنها خضعت للتجربة الشعرية في نفس الشاعر .. والشاعر يريد إنتاج تركيب معين من خلال اللغة ذات الطبيعة التحليلية، وإحداث الأثر التركيبي من خلال أداة تحليلية يمثل أعظم نجاح للشاعر. والآن أين إبراهيم طوقان من كل هذا؟! .

يكاد يجمع بعض النقاد المعاصرين، على أن إبراهيم طوقان أكبر شاعر أنجبته فلسطين حتى أواخر العقد الرابع من القرن العشرين. وقد صرح بذلك الأستاذ أكرم زعيتر الذي نشر كما قال بواكير روائع إبراهيم طوقان والذي أهله لذلك فلسطيناته، وصيته الذي طار بين العرب.

وقد قسى إبراهيم على شعره، وكان يتردد قبل أن ينشر قصيدة من قصائده فقد كان يقف موقف «الناقد الهادم» على حد تعبيره يحطم شعره بيده إذا شعر بالتكلف حسبما أوردت أخته فدوى، وقد فرض على شعره معيارين نقديين:

أولهما: ما عبر عنه بقوله: «الشعر نكتة قد يحسن الشاعر قولها، وقد لا يحسن، وقد يلتقطها القارئ أو السامع، وقد تفوتها».

وثانيهما: هو إيمانه بأن «الشعر هو عبارات نثرية موزونة لا أثر «للكد» الخاطر عليها، بل اتفق لها أن تكون موزونة».

وهذا يذكرنا بالشكل والمضمون، فإبراهيم في معياره أن الشعر هو شكل من الكلام ومضمونه موضوع يحصل من تجربة الشاعر وهذا ما ينطبق مع قول البارودي: «الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر» ولذلك فإن شاعرنا عندما جمع ديوانه قد اختار قصائد ديوانه بعد مرحلتين من الانتقاد والتخير من مجموع ما كان قد نظم، كما ذكر أحمد طوقان حين قدم لديوان أخيه إبراهيم «وإنك لتجد بين مخلفاته دفاتر متعددة كُتبت في مناسبات متفاوتة في القَدَم، فهذه قصيدة أثبتت في المجموعة الأولى، فمرّ عليها قلمه في مناسبة أخرى فحذفها وكتب عليها: قصيدة مفككة الأوصال باردة العاطفة، وتلك قصيدة أخرى حذفها بدون تعليق لاعتقاده أن المناسبة التي قيلت فيها لم تكن بالمناسبة التي تستحق الخلود، ثم نقل - رحمه الله - تلك المجموعة المنقحة مرة أخرى، ولم تنجْ هذه المجموعة الثانية أيضاً من قلمه، بل أعمله فيها فحذف ما حذف وأثبت ما أثبت».

إذن كان إبراهيم قد تفحص شعره ونقّحه قبل إثباته في ديوانه الذي طبعه في حياته وقبل أن يفارق الحياة. هذا وقد تأثر شاعرنا بالمدارس الشعرية الغربية مما زاد من ثقافته، فقد نهل من الثقافة العربية ومن الثقافة الغربية خاصة بعد أن التحق بالجامعة الأميركية في بيروت وخاصة المدرسة الشعرية الإنكليزية، التي شنت حرباً على الأسلوب القديم وآثرت الألفاظ الشعبية المتداولة التي تعبر تعبيراً صادقاً عن روح العصر وهذا ما ظهر في قصائد طوقان «تفاؤل وأمل» و«إلى بائعي البلاد» و«اشترُوا الأرض تشتريكم من الضيم»، «يا رجال البلاد» وغير هذه القصائد أيضاً، وهذا يدل على نظرة طوقان للشعر التي كانت خطوة عفوية لا مجال للتكلف والتصنع فيها. وما كان يقصد في استعماله لكلمة «نكتة» في تصويره للشعر إلا من باب الفكاهة أو التندر في بناء القصيدة الكلي.

ومن تأثره بالأدب الإنكليزي وبالحركات الشعرية الحديثة قصيدته «مصرع بلبل» التي نظمها متأثراً بقصة «البلبل والوردة» لأوسكار وايلد.

لقد شغف إبراهيم بالأدب الإنكليزي وقد أفاد مما قرأه لشعرائهم الإبداعيين وهذا واضح في قول محمد خلف الله: «الشاعر إنسان يتكلم إلى عامة الناس.. والشاعر يتميز عن بقية الناس بسرعة تفكيره وفطنته، وقوة لمحبه بلا تنبيه عاجل مباشر، وبقدرة أكبر على التعبير عن الأفكار والأحاسيس».

ولهذا فقد جاء شعر إبراهيم سهلاً، قريباً من لغة الشعب وهذا واضح في شعره الوطني الذي كشف به عن الأوضاع السياسية والاجتماعية، إضافة لما جاء في بعده القومي وهو يتحدث عن الشعب العربي، ويتمثل ذلك في تهكمه اللاذع عن مشكلة الزعامة والسياسة والأحزاب، ويظهر هذا في شعره الذي نظمته بحلول عام 1935 فإذا جمعت قصائده التهكمية والتي تحدثنا عنها سابقاً فإنك تشكل لوحة كاملة وكأنها قصيدة واحدة، وكأنه كان يمهّد إلى قصائده الخالدة وخاصة ملحمة الصغيرة «الثلاثاء الحمراء»، وهذا ما قصده في مقدمة السطور التي شكّلت ذروة الشكل والمضمون.

وإذا كان في بداية شاعريته قد «قرزم» الشعر، فإنه ما لبث أن نسج درراً جعلته في مقدمة الشعراء، وفي صفوف نوابغ الشعر الذين شهد لهم تاريخ الأدب بمذهباتهم مع فارق الزمن وفارق المفردات بين القديم والمعاصرة.



الصورة الشعرية عند إبراهيم طوقان

الصورة الشعرية ركن أساسي من أركان القصيدة، وهي من أهم مميزات فن الشعر، وقد طلب ابن رشد وابن سينا من الشاعر احتذاء المصور في عمله «فكما أن المصور الحاذق يصور الشيء بحسب ما هو عليه في الوجود... كذلك يجب أن يكون الشاعر في محاكاته يصور كل شيء بحسب ما هو عليه حتى يحاكي الأخلاق وأحوال النفس». ومن هنا تهدف الصورة الشعرية إلى تمكين المعنى وإظهار مدى تأثيره.

والشعر في حقيقته يعتمد على الإيحاء والتصوير وإذا تجرد منهما فقد رَوّحه وأصبح نظماً وليس شعراً. وتختلف الصورة من شاعر إلى آخر، لأنها تخضع لعدة عوامل منها نفسية الشاعر وقدرته على التخيل وسعة الثقافة، ومنها ما يتعلق باللغة التي تصاغ منها الصورة، ومنها ظروف الشاعر الخاصة والعامة.

ولعل أهم عنصر من عناصر الأدب في إبداع الصورة الشعرية هو ملكة الخيال والتي تعتبر القوة السحرية التركيبية التي تقوم بعملية الربط والتنسيق بين المعاني والصور الكثيرة المخترنة في الذاكرة لتنتج في النهاية صوراً ومعاني معبرة عن انفعالات صاحبها.

وعلى هذا فالخيال ليس وهماً، وهو لا ينفصل عن العواطف، فكلما كانت العواطف قوية صادقة، احتاجت إلى خيال قوي يعين عليها. والخيال لا يقتصر على الوصف والتشبيهات، وإنما يشمل روح القصيدة وموضوعها. والشاعر يعتمد في تشكيل صوره على اللغة التي هي أداة الخيال والصور الشعرية.

أما طوقان فلم تكن الأخيالة والصور الشعرية مقتصرة على التشبيهات والمجازات فحسب، وإنما اشتملت روح القصيدة وخواطرها مما حوّل القصيدة إلى لوحات فنية رائعة، تجعل القارئ يتأثر بها وتنقله إلى ما خطط له.

ومن الأمثلة على ذلك عنده قصيدة «أعجب الهوى» حيث صوّر فيها عنصر المفاجأة عندما التقى بحبيته على غير ميعاد في زقاق من أزقة بيروت:

أراها فلم أملك تهالك واهن	بجنبي مسلوب الجرأة والعزم
فيخطف لوني فرط ما أنا واجد	بها، وبما يلقي هواها علي وهي
يخيل لي أني دنوت فأعرضت	فأصرف وجهي مثقل الصدر بالغم

وكما تلاحظ، فإن هذه الأبيات الوجدانية لوحة تعبيرية لما تركته صدفة اللقاء على نفس الشاعر، ولما خلفه الذهول من خطف لونه وامتناع وجهه، وربما كانت مفاجأة الصدفة غير المتوقعة، فيجبرنا الشاعر أن نكون مشاركين له أمام هذه الصورة الواقعية التي لا تكلف فيها، خاصة عندما يجد الحبيبين نفسيهما في زقاق ضيق لا يكاد يتسع لأكثر من اثنين.

ومن صور الشعرية أيضاً ما أنشدته في قصيدة «بهاء» صاحبة الشاعر:

لئن أشغلها عني طيور حولها تُعلِفُ
فبين جوانحي طير على أيكتها رُفرف

لقد برع الشاعر في تصوير لوحته لتلك الغادة الفلاحة التي شغلته بنثر العلف لطيورها، بينما هو يقف مشدوهاً يراقبها، وكأن قلبه في صورته يرفرف كأنه طير من طيور المحبوبة التي تجري وراء علفها.

وهناك صور وجدانية كثيرة عند طوقان كصورة صاحبة «العصابة الزرقاء» وصورة «ماريا» في قصيدة «اغفري لي» وصورة رسمها الشاعر لحبيته وقد ضمتهما «دير قديس» في ليلة من ليالي الشتاء لوحة حسية تمور بالحياة والحركة:

لم ألق بين ليالي التي سلفت كليلته بتهاف في «دير قديس»
ضممت حسناء لم يخلق لها مثل بين الحسان ولا حور الفراديس
ما عرش «بلقيس» في إبان دولتها ولا «سليمان» مزفواً لبلقيس
يوماً بأعظم منا في السرير وقد بات العناق إلى قرع النواقيس

وقد اشترك في رسم هذه اللوحة أكثر من عامل، وأهم هذه العوامل الخيال حيث يتغلغل في أعماق المعاني والصور لتخرج لنا عملاً مؤثراً، وهو لا يقوم على التشبيهات والمجازات فحسب وإنما شمل خواطر وعواطف، وقد استطاع إبراهيم إشاعة الحركة العفوية فجاءت الأبيات تمثل لوحة ناطقة تحمل تجربة صادقة لانفعالاته.

ومن الصور الجميلة التي سكبها ما جاء في قصيدة «الفدائي» الذي صورّه كأنه الصخر في صمته، وبالنار وبالدم:

عيس الخطيب فابتسم وطفى الهول فاقحم

رابط الجأش والنهي ثابت القلب والقدم
فالخطب رجل عابس، وهذه صورة مستجدة عفوية لا تكلف فيها، وجاءت من
خلال إحساس الشاعر بما يقع حوله، ومن تجربة صادقة.

ومثل هذه الصورة ما قاله في رثاء «نافع العبوشي» إذ صور الشاعر ما كان عليه
الرجل من وطنية صادقة، وحب خالص لبلاده جعل الثرى يجذب على رفاته ويضمها بين
أضلاعه بعطف ورقة:

لهفي على «نافع» لو كان ينفعه لهفي، هيهات ما في الموت نفاع
قد شيعوه إلى قبر يحف به من المهابة: أتباع وأشياع
حوته أوطانه في جوفها فغدا كأنها هو قلب وهي أضلاع

ولو تتبعنا شعر إبراهيم طوقان فإننا نجد كثيراً من الصور والأخيلة قد غطت أغلب
قصائده ومقطوعاته الوجدانية والوطنية، ومن اللوحات الرائعة والجميلة صورة «الحبشي
الذبيح» وهي من بواكير أعماله، حيث قام إبراهيم برسم صورة نابضة بدفقات الحياة،
تلمح من خلالها «الديك الرومي» وهو يُذبح في رأس السنة ويوضع على الموائد وهذه
صورة نحر الأمم المغلوبة على مذبح الدول القوية، وقد أوحى له شاعريته أن السرور لا
يقوم إلا على حساب الألم:

برقت له مسنونة تتلهب أمضى من القدر المتاح وأغلب
حزت فلا حد الحديد مخضب بدم ولا نحر الذبيح مخضب
وجرى يصيح مصفقاً حيناً فلا بصر يزوغ ولا خطى تتكعب

وبهذه الصورة الرائعة استطاع الشاعر أن ينقلنا بخياله المبدع الخلاق الذي لا يعرف
الحدود، فقد يرى العاشق في الأبيات غزلاً، وقد يراها الوطني حماساً، ويراهما الاجتماعي
إصلاحاً.

وانظر هذه اللوحة بما فيها من جمال وروعة رغم مأساة الحدث وهي «كارثة نابلس»
على أثر الزلزال الذي شرد أهل نابلس يقول فيها:

أدموع النساء والأطفال تجرح القلب أم دموع الرجال
بلد كان آمناً مطمئناً فرماه القضاء بالزلزال

هززة إثر هززة تركته طلالاً دارساً من الأطلال
مادت الأرض ثم شبت وألقت ما على ظهرها من الأثقال
هذه هي صورة المدينة المنكوبة مدينة نابلس الذي هزها الزلزال بغتة جعلت
الأرض تميد وتلقي ما على ظهرها من أثقال، وقد اقتبس شاعرنا هذه الصورة من القرآن
الكريم «سورة الزلزلة» وما سوف يجري يوم القيامة:

فإذا الدور وهي إما قبور تحتها أهلها وإما خوال
وأرق النسيم لومرّ بالقائم منها لدكّه فهو بّسال
وهذه صورة البيوت «الدور» والجدران المتصدعة، والتي يكاد النسيم الخفيف
يهدمها ويدكّها لفرط ضعفها وعدم تماسكها.

ومما لا شك فيه أن طوقان لا بد وأنه اطلع على قصيدة حافظ إبراهيم في وصف
«مسينا» عام 1909 واستفاد في رسمه لمظاهر الدمار الذي ألحقه «زلزال نابلس»
بالأطفال والنساء بما قاله حافظ إبراهيم:

ما لمسينا عوجلّت في صباها ودعاها من الردى داعيان
إلى أن يقول:

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض، ينادي: أمي! أبي! أدركاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجمر تعاني من حرّه ما تعاني
وأب ذاهل إلى النار يمشي مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه، لا هوناج من لظاها، ولا اللظى منه وان
ومثل هذه الصورة الكثيرة التي تثير الحزن والعطف يقول طوقان:

من وحيد لأمه وأبيه جمعوه مفرق الأوصال
ومكب على بنيه بوجه خلط الدمع بالثرى المنهال
وفتاة لا ذت بحقوى أبيها جزعاً وهو ضارع بابتهاال
هاهننا نسوة جيعا بلا مأوى، سترن الجسوم بالأسمال

ها هنا أسرة تهاجر والغم بدليل الأثاث فوق الرحال
ويكمل الصورة، بصورة أخرى للطوفان الذي طغى على المدينة وضواحيها عام
1935، والذي وفق فيها إبراهيم بين الخيال المعتمد على التشبيهات والخيال الذي يعتمد
على روح الشاعر وخواطره النفسية وانفعالاته حين يقول:

من كان ينكر نوحاً في سفينته فإن نوحاً - بأمر الله - قد عادا
حل الوبال «بعبال» فمال به يا هيبة الله إبراقاً وإرعادا
في جارف كعجيج البحر طاغية أمواجه تحمل الأسواق إمدادا
ولا تزال من الزلزال باقية تذكراها يوقد الأكباد إيقادا

ومن صور إبراهيم طوقان الرائعة للبطولات والأجناد الإسلامية الفذة ما جاء في
قصيدته «حطين» التي استقى الشاعر معظمها من القرآن الكريم، وتأثر في غالبيتها
بالصور الشعرية الموروثة يقول:

أيقظ صلاح الدين رب التاج والسيف اليماني
بالعاديات لديه ضبحاً والأسنة في اللبـان
ترمي بآرجه دماً غير العجاجة من الدخان
حلقات أدرعهم قيود الموت في درك الطعان
وسيوفهم ماء الحميم على مضاربهن آن
والخيل طوع كمانها في النقع مرخات العنان

هذه صورة من الصور البدوية في الطعان والنزال، وهي صورة استعان الشاعر في
رسمها بألفاظ مقتبسة من الآي الحكيم في ﴿والعاديات ضبحاً﴾ و ﴿مارج من دخان﴾
و ﴿ماء الحميم﴾، وبألفاظ قديمة بدوية مثل «حلقات الأدرع» و «الكماة» و «العنان».

ومثل هذا ما قاله:

اليوم يشرب موطني كأس الهنا لكم دهاقاً
اقتباساً من معنى الآية الكريمة ﴿وكاس دهاقاً﴾ .

ومثل هذه الصور البدوية والخيال الموروث ما قدمه طوقان من صور رسمها في
قصيدة «تحية مصر» صور حسية مركبة من المجاز والتشبيه مع الخواطر النفسية والفكرية

للشاعر، حين يصف لنا قطار سكة الحديد وهو يمضي في الليل تحيط به «الأزبكية» بحديقته المشهورة استوحاها من الصور القديمة التي قدمها الشاعر لوصف الناقة التي كان لبيد يركبها يقطع بها الفيافي حتى يخلصوا ممدوحهم. ومثل هذه الصورة ما أورده في قصيدة رثاء «عبدالمحسن الكاظمي».

وقد تعددت الصور والأخيلة عند إبراهيم من خلال تجاربه الواقعية ومن ثقافته وسعة اطلاعه وتجدر الإشارة إلى أن قدرة الشاعر القوية تعود إلى تلك الملكة الخيالية التي يتمتع بها إبراهيم، وقد استطاع بذلك خلق لوحات طريفة، وقد استعان عليها بالوسائل المتاحة له من التشابه والاستعارات والتشخيص والرمز من أجل إبداع صور رائعة مؤثرة يزواج فيها بين القديم والحديث.



الموسيقى في شعره

إبراهيم شاعر موسيقى ذا قدرة عالية، يحتفي بها ويتقصد الجملة الموسيقية، وهو يتخير الأوزان والقوافي التي تحقق له غرضه من الموسيقى، ولذلك فقد اختار كما يظهر من قصائده أشكالاً فنية تساعده في إيجاد أنواع شعرية موسيقية، ولو نظرنا إلى «مصرع بلبل» فإننا سنجد الحركة الدرامية التي وفرت له مجالاً كبيراً لتنوع الإيقاع والارتفاع والانخفاض كما منحته قدرة هائلة على خلق إيقاعات داخلية. لاحظ هذا المقطع من قصيدة مصرع بلبل في المقطع «نشيد البلبل للوردة»:

انـشـدي يا صـبـا	وارقـصـي يا غـصـون
واسـقـني يا نـدى	بـسـين لحـظ العـيون
مـنـك يا وـرـدي	قـد حـلـا لي الجـنـون
أنا منـسي الهـوى	أنـت منـك الفـتـون

هذا مقطع كما ترى يَمُور بالحركة والاهتزاز، فهو مقطع مطرب نابع من انسياب مفعم بالحيوية، وقد استخدم القافية الساكنة المريحة على النون، واستطاع أن يجعلك تشاركه في ترديد الأبيات بصورة غنائية وبصوت عالٍ.

وانظر أيضاً في قصيدته «مرايح الخلود»:

وثلّم وحش فمه دامي الزبد في جيده جبل غليظ من مسد
قلت: ألا أسأل ما هذا الجسد قال: بلى هذا غريمنا الجسد
أرأيت كيف جاء بحرف الدال الساكن وخلق منه إيقاعاً متوافقاً، بينها نافر بين
السين والشين لتعميق صورة الجسد الذي تحول إلى وحش فمه دام مزبد.

وهو يتدرج بنا في صورته الموسيقية لنجده في قصيدته «أطلقني ذاك العيار» قد بدّل
فيها القافية بينها احتفظ بنفس اللازمة بهدف إيقاعي:

أطلقني ذاك العيارا قدك ضيماً واصطبارا
يطلب العز ابتداراً يدرك المجد اقتسارا
أطلقني ذاك العيارا
حطمي القيّد الثقيلًا واركبي الهول سبيلا
عاش يا نفس ذليلاً بل من كان بخيلا
أطلقني ذاك العيارا

ويتم إبراهيم قصيدته، لكنه استعمل تفعيلة رئيسية هي فاعلاتن وتفعيلتان ثانويتان
هما فعلاتن ومستعلن، ليخلص إلى التصريع بحرية أكبر في الحركة والتعبير، وهذا
الأسلوب أتاح لشاعرنا أن تكون جملته الشعرية جملة مألوفة قصيرة، وقد تأتي شعبية سهلة
متداولة عذبة مغناة وهذا ظاهر واضح في قصيدته «هواك جبار».

ومن القصائد التي استعمل فيها التصريع أيضاً قصيدة «فرحتي» ويقول فيها:

الهوى أبلى شبابي جاعني من كل باب
في صددود لعتاب من عذاب لعذاب

ومن مطالع القصائد التي استخدم فيها التصريع أيضاً:

- عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقتم
- لما تعرض نجمك المنحوس وترنحت بعري الجبال رؤوس
- لا تسلسل عن سلامته روحه فوق راحتته
- وغريرة في المكتبة بجهاها منتقبة

- بيض الحمايم حسبهن أني أردد سـ جمعهن

وهناك مفاتيح لقصائد إبراهيم كثيرة استخدم فيها التصريع. «ونستطيع القول إن إبراهيم استخدم البحور الشعرية السائدة الشائعة، وأن أكثر البحور التي استخدمها، الكامل فالخفيف فالرمل فالسريع فالبسيط فالطويل والمتقارب والوافر فالرجز. ولم ينوع في البحور جميعها أو معظمها، مما يشير إلى أنه لم يتصنع الكتابة أو خلق الأشكال، أو استعراض قدرات لا لزوم لها، كما يعني ذلك أنه مقل نسبياً في كتاباته الشعرية ولعل هذا راجع لموته المبكر نسبياً».

لقد شكلت الموسيقى في شعر إبراهيم طوقان ظاهرة واضحة تكاد تكون خاصة، وقد دفعه إلى ذلك ما كان يضح بين أضلاعه من إيقاع صادر يعبر عن نفسيته التي كان يضح كلماته في قالب إيقاع منتظم في أصوات متألّفة ذات وقع جميل على أذن القارئ. كما استطاع توظيف الصورة الشعرية والأخيلة لإظهار موسيقى رائعة تخدم غرضه الشعري التي عبرت عن قوة أحاسيس الشاعر وانفعالاته المفعمة بالمشاهدة والتجربة الواقعية. ولذلك نجد الموسيقى في غزلياته هادئة هامسة، بينها في وطنياته صاحبة عالية مجلجلة.

قصائد ورسائل

هذه قصائد ورسائل لم تُنشر في الديوان، بل نشرت في الجرائد والمجلات والصحف. وقد كانت فنوى طوقان تحتفظ بها في بيتها، وبعضها كان محفوظاً للتاريخ كما ذكر إبراهيم نفسه، ولم تُنشر إلا في كتاب «الكنوز» جزى الله مؤلفه خيراً الأستاذ الأديب المتوكل طه عام 1999 تحت عنوان «الكنوز ما لم يُعرف عن إبراهيم طوقان»، كما أخذت بعض الملاحظات والرسائل والتعليقات من المهندس جعفر طوقان عندما تشرفت بملقائه في مكبه أول مرة الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء 27/2/2007.

قصائد لج نشر في الديوان

هذه القصائد والرسائل التي أضعتها بين يديك في هذا الكتاب، هي بخط إبراهيم طوقان، وهي تشكل تاريخ حياة في عالمه الصغير الرائع، لكنها غنية بالمعلومات التي تكشف كثيراً من جوانب حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية والوطنية، وتبين مدى مرحه وفرحه ولهوه وعناؤه وتعبه وتهكمه ودعاباته، وتوضح علاقاته الخاصة والعامة بأهله وبأصدقائه، وخاصة أخته الأدبية الشاعرة فدوى طوقان.

هذه الأعمال الأدبية لشاعرنا جاء بعضها بلا عنوان، وبعضها قليل في مناسبة جلّت عند الشاعر، وهي في أغراض متنوعة، وكلها مذيّلة بتوقيع شاعرنا، تحت اسم «أبي جعفر» أو «الشاعر إبراهيم طوقان»، غير أنني لن أتمكن من إثباتها كلها وإنما سأختار بعضاً منها.

وفي نفس الوقت سأثبت في الكتاب بعض الرسائل التي وُجّهت للشاعر من الآخرين، كما وسوف أثبت أيضاً بعض الردود على قصائده ممن أحبوا الشاعر وقَدّروه وعنوا بأعماله، وسوف أثبت أيضاً بعض الموضوعات الثرية التي تثري الكتاب بأعمال إبراهيم طوقان الأدبية سواء كانت أحاديث إذاعية أو غيرها في تواريخ متدرجة من مرحلته الدراسية في القدس أو في الجامعة الأميركية أو كانت في رحلاته العلاجية أو في أماكن عمله، وما نشره في الجرائد سواء في فلسطين أو لبنان وسوف أثبتها كما هي دون زيادة أو نقصان، أما أشعاره التي في الديوان، فسوف أفرد لها فصلاً خاصاً في الكتاب، لتكتمل الفائدة لكل دارس وباحث حتى يمحسوا هذا التاريخ القصير من حياة شاعرنا، شاعر الوطن، التي لو طالّت لأنتج لنا بدائع وروائع كثيرة، ومع قصرها فإنها أبانت لنا الكثير من عقائل البيان من حدائق شعره وأدبه.



نشيد الربيع

نظم إبراهيم عبدالفتاح طوقان، نشيد الربيع فبدأ القصيدة بوصف أوائل أيام الربيع، وتحدث عن أثر الربيع على النفوس، ثم عرّج على حركات الطيور وفرحتها وهي

تقفز من شجرة إلى شجرة واختتم أبياته بتحريض أقرانه على قضاء وقت بين ورود
وأزاهير الربيع، وفيها يقول:

- 1 -

قد بدا الربيعُ
وصفا الزمانُ
هيا يا إخوانُ
نجمع الأزهار والأثمار في الوديانُ
طابت النفوسُ
عمّت الأفراخُ
زالت الأتراخُ
كل طير فوق غصنٍ - ينشد الألمان
كل لحن بعد لحن - يبعث الأشجان
فلتغن أعذب الألمان
بهجة القلوب
بلبل شادٍ
هام بالوادي
ذو حنين - كغريب - حنّ للأوطان
والأغاني - كالأماني - تؤنس الوهان
يا له من بلبل حيران
ذلك الغدير
ماؤه صافي (صافٍ)
ورده شافي (شافٍ)
من أتاه - يا هناء - رده نشوان
طاف يجري - بين زهر - ناعس الأجفان
وتدلت فوقه الأغصان

- 2 -

هيا يا إخوان
إنه الربيع

بهجة الجميع

فاض نوراً - وسروراً - فاتن الألوان
قم لصفو - فز بلهو - واطرح الأحزان
ولنحي سيد الأزمان

- 3 -

توكيد الذكرى

هذه نفحة (البحيرة) هبت	سحراً أم هناك نفثه ساجز
تلك ذكرى سويعة شملتني	فأرتني شمائل الشيخ طاهر
قد جباني بمدحه وهو أهل	أن يغني بمدحه كل شاعر
لي طوقان منك رحت أباهي	بهما الدهر سيدي وأفاخر
حول عنقي من جوهر الشكر طوق	ولقلبي طوق من الود أسر



القدس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

وهذه قصيدة أيضاً قالها عن طالبة مصرية كانت معه في الجامعة الأميركية في بيروت، وقد ذكر «العروسة» ويقصد بها مجلة مصرية، كما جاء على ذكر الهريسة، ومعروف أن نابلس مشهورة بصناعة الحلويات ومنها الهريسة، وبعضها باللهجة المصرية:

يامن رآها في العروسة	مثل الصنوبر في الهريسة ⁽¹⁾
سفرت فكانت سفرة	تحوي الأكيات النفيسة
من أجلها رخص المدام	فأهرق السواس سوسة
فطامها وشرابها	فول وبفتاك وكوسة
وكانها ما بدت	شمع تلالاً في الكنييسة
نظارتان ومقلتان	كدر جهار عليه دوسه ⁽²⁾

(1) العروسة: اسم مدينة مصرية، والهريسة: نوع من الحلويات.

(2) أرقام في لعبة الزهر.

ولها فم مستقبح
هي ساعة رقاصـة
هي في المواطن حثـة
هي فتنـة يغني إذا
هي غادة عريـة
قامت كده وأنت كده
قد ألفت بالفلسفات
عاشرتهم سـتين
فلو أنها نفخت على لبنان
وإذا أُنـبـل⁽¹⁾ مـشى
فحذار منها يا شـفير⁽²⁾
يا ويحها سراقـة
نسي البرجي عندها
يا للخلاعة والشناعة
وتبص تلقى زوجها
وتبص تلقى بهنسي
وتبص تلقى النسي
وتبص تلقى جسمها
وتخاف بطش الأنبياء

ما ينبغي لك أن تبوسه
دقت مدى سنة كبوسه
تُنسى حميد الدين طوسه
طلعت نسي الراجل دروسه
إزاي صارت لي جـسوسة
ومشت كده زي العروسة
فمرجـاً بالـفيلفـوسة
ما ألفتها إلا عبوسة
كـادت أن تمـسـه
خفنا عليه أن تدوسه
إذا مشـت بطريق شوسه
سـرقت من المفتي عطوسه
سـوال صـنعتـه وكيـسه
والخدعة والـدسيـسة
قد خلصت منه فلوسه
قد قلعت ضروسه
بشاي غدا بمخلبها فريسة
يعني كده حنة جوسه
سوى كلـيم الله موسـى

والقصيدة كما ترى، فقد استخدم الشاعر العامية، وهي من باب قصائد الدعابات التي كان ينظمها أمام زملائه، وربما قد ارتجلها وهو ينظر إلى زميلته أو أن يكون قد نظمها للمرح والفكاهة.

(1) أنبل: مركبة صغيرة.

(2) شفير: سائق.

وهذه قصيدة أخرى بلا عنوان، ويبدو أن القصيدة جهادية، وفيها تهكم على قرارات عصبة الأمم، لازدواجية القرارات الصادرة عنها، ثم ينهض في الموسيقى لأن العرب لن يرضوا على الإهانة ويحرض على شنّ الحرب والانتقام من الأعداء:

قم للجهاد ونبه راقدا المهمم
أعصبة تتولى الأمر في زمن
الله أكبر هذا لا يطاق ولا
وأنت أعلى مقاماً أن تنام على
عجبت من عصبة قامت وما طلبت
تدبر الحكم لا تخشى عواقبه
التفتزانية الغراء غاضبة
قامت فذللت التيجان قاطبة
مستعمرات لها في الكون عامرة
نبتون والمشتري في كفها كرة
فكيف نغضى ونرضى عن إهانتها
لا يسلم الملك في أيدي العدو إذا
ولا يدون لنا ملك نعززه
فسارعوا لجهاد أو يحل بنا

وسير الجيوش ترهب عصبة الأمم
أصبحت فيه رئيس العرب والعجم
يرضاه إلا مليك غير محترم
ضيم وحولك هذا الشعب لم ينم
إذنأ، ولو شئت لم توجد ولم تقم
بدون رأي الرئيس الفرد والحكم
حقوقها بين مغصوب ومهتضم
وصيرت دول الدنيا من الخدم
فازت بها عنوة بالسيف والقلم
وهذه الأرض والمريخ كاللحم⁽¹⁾
فلنعلن الحرب شعواء وننتقم
لم نعمد المرففات البيض في القمم
ما لم تحضّب ديار المعتدي بدم
ما حلّ بالملك من عادٍ ومن إرم



ثقلاء الثقلين صقعاء الخافقين

القصيدة فيها مدح وفيها عتاب وفيها هجاء، وقد جاء الشاعر على ذكر بعض العائلات في القدس ونابلس وصفد وعكا وغيرها في لبنان أيضاً ويقول فيها:

باسم آل الخياط أبدأ شكواي وذكر جمعيّة الششبان

(1) نبتون والمشتري والمريخ: أسماء كواكب.

باسم عكا، باسم صور وصيدا
وإذا ما وزناتهم خلفتهم
أو ليس البرادعي فتاهها
أو ما أنجبت سمير بن شما
ونصوحاً ومن دَرَى من نصوح
وفتقى ينتمي إلى النحو
والذين ادعوا أمية والعباس
واحد مبرم فكيف بجمع

* * *

باسم وخرشيد والجليد المقفى
كل بيت من شعره بيت ماء
وعزيز علي ألا أرى اليك
وأبـارزق (...) المـصـفى
وتذكر بأن آل كمال
والحسيب النسب فيهم جميعاً
يوم قالوا زُفَّت إليه ثرياً
لا تطيق النفوس من جمع الدائين

إن في القدس أغلظ الناس طراً!!

وضهور الشوير من لبنان
صفد شائلين في الميزان
ذاك من فضلها على البلدان
لتباري به ذرى كنعان
لا تسلني وأصحه بضع ثوان
كالنحو بغيض لمعشر الصبيان
فيها وسائر الإخوان
بل تأمل إذا التقى الجمعان

* * *

منذ قحطان إلى عدنان
لم يُعزَل مجراه منذ زمان
نعيماً في زمرة الأقران
فهو لا ريب ذو مقام وشان
نقباء في كل حال وآن
أكرم وهو سيد العرسان
قلت أرخ - تناكح الفرقدان
دائمي غلاظـة وأحـمان

ومن هذه المجموعة قصيدة بلا عنوان، ويبدو أنها في ذكرى أبي الطيب المتنبي ويقول فيها:

-1-

يا ضفاف القويق في الشهباء
ذكرينا بأحمد المتنبي
ذكرينا بآل حمدان بالفضل
بالمملوك الكرام بالأنجم الزهر
حديثنا بطيب الأنبياء
ذكرينا بسيد الشعراء
بأهل الندى، بأهل الوفاء
على الأرض بالشموس الوضاء

كل مدح لولاهم لم أجده
يا الذكرى العلى وذكرى المآي
طأطئ الرأس باحترام وطالع
وكان القويق منها نجيع
أيها القوم خلدوا خير ذكرى
لأبي الطيب العظيم الإباء

خلدوه بالشعر والنثر والنحت ولوح التصوير بل الغناء

خلدوه في مصر والشام وبيروت وأرض الحجاز والزوراء

وفلسطين والجزائر أيضاً
ثم في تونس وفي صنعاء
وكأنني به قد احتج غيظاً
حين سموا به دروب البغاء
ألف عام مرت على المتنبى
كان فيها الشعر رمز البقاء

-2-

ألف عام ولا أرى ألف عام
غير يوم في العالم اللانهائي
ألف عام ولم يزل شعرك السائر
فينا للعقل خير غداء
وهذه إحدى محاولات إبراهيم طوقان الشعرية التي وردت بدون عنوان، يقول فيها:

مُرَّ عَلَى مُسَلِّمٍ وَسَلِّمَ
وقل له سلام لم تكلم
وقل له أصبحت يا معلمي
تلميذ صواف الخليل المكرم
يقدر الإنسان بالتقدم
لا بالنزول عن أعالي السلم
لا تعبسن في الفحص بل تبسم
من كان عباساً فذاك أعجمي
وانظر إلى الأشياء بارداً الدم
مثل أبي سعيد المعظم
وانظر أبي الرضى المفخم
يدفع خير المال للمقدم
شاردة من الكلام المبهم
فحش منيعاً في علاك وأسلم
مشقلح، مقرر، مبرطم
شنشنة نعرفها من أخرم

ومن هذه المجموعة قصيدة أخرى وبدون عنوان أيضاً يقول فيها:

أنت يا أستاذ أدهشت الأناما
أنت يا أستاذ طوقت الحماما

إنه نهر الكلب يا نهر اليتامى
وقفة عندك تشفي المستهما
فتذكر إن للذكرى مقاما
نزلت في القلب برداً وسلاما
جعلوا من «جنة العلم» ختاماً
أنت قد فرجت لي باباً وماماً
ثم قاموا عندما الأستاذ قاما
عندما الساعة قد دقت تماماً
أنهم لن يجدوا ثمّ تراما

* * *

عمي الأستاذ عنا أم تعامى
ملأوا القاعة لغواً وكلاماً
فرأينا أكثر الناس نياماً
زهر الليمون أو نفح الخزامى
نفر البوليس خلفاً وأماماً
عنه قالوا: إنه مات غراماً
فرووها مثلما جاءت تماماً
من نهر الكلب نثراً ونظاماً

إيه نهر الكلب يا برد الحشا
وقفة عندك تشفي كبدي
لست أنساك خطيباً قاصفاً
يا لذكراك وما أبردها
حفلة بالشكر زانوها وقد
أنت قد علمتني عشرين عاماً
قعدوا لما الأغاني قعدت
ومشوا ثم أتوا وانصرفوا
ركبوا التكسيات لما علموا

كيف لم يعط بطاقات لنا
سامح الله ذوي العلم الألى
قد تسلقنا على شباكها
وشربنا «لِمُنَادَا» نفحها
وهربنا بعدما طاردنا
واحدٌ غاب فلما سُئلوا
والذي مات أتت أقواله
نسمة النيل سلاماً عاطراً

وهذه «مشروع» قصيدة «بعض الأبيات مكررة، والبعض الآخر مشطوب، نستخلص منها الأبيات الواضحة التالية، القصيدة تبدو هزلية وهي بدون عنوان»:

مرحباً بالرئيس شيخ الشباب
مليك الزمان والأحقاب
مثل النعاج يوم الضراب
بل كفوت ترن فوق الرقاب
ذاك شأن المعاند الكذاب

مرحباً بالرئيس بعد الغياب
منشئ التفتزان ذي المجد والشان
صاحب التاج - ضارب الخصم بالكرايج -
ومبيد الألوف لا بسيف
قد دعاه الأعداء باسم أفندي

لعنوا - إنه لبيك وباشا
وهو خالي وتاج رأسي وروحي
أنا محسوبه ومحسوب محسو
ذاب شوقاً إليه لبي وقلبي
إن ما بي يكاد يزهق روحي
كل خصم بغى عليك فكسر

الكريم الأحساب والأنساب
وحبيبي ونعمتي وعذابي
ب رئيسي هذا ليوم الحساب
ويح لبي وويح قلبي المذاب
وقليل والله نحوك ما بي
رأسه بالكالوش والققباب

ملاحظة: هذه المجموعة وما بعدها من شعر ونثر لإبراهيم طوقان اقتبستها من كتاب الكنوز للأستاذ المتوكل طه.

وهناك قصائد نشرها الشاعر إبراهيم طوقان في جريدة فلسطين، ومنها قصيدة ألقاها في الحفلة الكبرى التي أقامتها الجمعية الإسلامية المسيحية في رام الله لوفود الدول العربية، وهي بدون عنوان وكان شكل الصفحة:

جريدة فلسطين

1930/7/20

لجنة إثر لجنة إثر لجنة
ولجان تلي وأخرى تولى
حسبنا من خصالهم أن عرفنا
غير أن المكروه يأتيك أحياناً
مثلما تقصف الرياح ولا تنفك
مرحباً بالوفود شكر ألقوم
نحن لولا الخطوب ما جمعنا

كلفوا الخاصر الكريم بهدنة
هكذا يبدع السياسي فنة
أي هذا الخداع أنك مهنه
بخير كالخير يأتي بمحنة
حتى تسوق للجذب مزنه
جمعتهم خطوبنا المرجحنة
بعد طول الأعمار إلا الجنة

ومن القصائد التي نُشرت عام 1930 أيضاً قصيدة بعنوان «في وديان رام الله» أثناء نزول الشاعر في فندق «حرب بلاس هوتيل» وهي موقعة باسم إبراهيم طوقان:

فلسطين 1930/8/5

في «وديان» رام الله

لا تعبأن بطيف الهم إن طافا واقصد مصايف رام الله مصطفىا

وانزل بفندق حرب إن نزلت تجد
لكل حسن نصيب من بدائعه
غرائب الحسن آتى شئت ماثلة

* * *

نزلت فندق حرب فأنثنت هرباً
ذكرت فيه لأذار فواضله
قصرٌ أطلّ على «الوديان» مرتفعاً
تخاله وهو رأس في قواعده
لي ليلة من ليالي الأنس واحدة
شهدت فيها وجوه البشر باسمه
والغيد لؤلؤة في جنب لؤلؤة
برزن بعد طواف الكأس مترعة
وهب للرقص فتيان فلست ترى

* * *

أقبل على كل مشروع رأيت به
والمال ما دام للأوطان مرجعه

إبراهيم طوقان

ونشرت جريدة «فلسطين» بتاريخ 28/8/1932 قصيدة بذكرى يوم حطين وقد ألقاها نيابة عن الشاعر السيد يوسف طوقان وهي مثبتة في القسم الأخير من الكتاب بين قصائد الديوان، ومطلعها:

عرج على حطين واخشع بشجي فؤادك ما شجاني

ومن قصائده التي نشرت في جريدة «فلسطين» بتاريخ 26/4/1933 بعنوان إلى الكاتب الأديب أبي الخطاب ذكرى عشية زهراء، وقد أثبتتها كاملة بين قصائد الديوان في آخر الكتاب، وفي الديوان جاءت القصيدة مستثنى منها الأبيات الخمسة التالية:

احبس يراعك يا أبا الخطاب قد حلّ بي ما لم يقع بحسابي

تلك القصيدة لم أقل أبياتها
 هذا أبو سلمى ولا والله ما
 لكنهما المزور نصاب
 نكأ الجروح سواء من أصحابي
 قلب، بلا باب ولا بواب
 ويثير أشواقني إلى أحبائي
 وهناك أبيات شاردة تحت عنوان «في الليل» وقد نشرت في جريدة فلسطين 4 أيار
 1933 في العدد 64-2329 ص 5:

في الليل

في الليل يا حسناء يهفو الجنان
 عيناك لي في جنحه كوكبان
 ويستفيض الخنـان
 إلى الهوى يهـديان
 في الليل حسناء هل تسمعين
 همس فؤاد نضوب دفين
 تنعشه ذكراك في كل حين
 أودى به فرط الهوى والحنين
 فهو طول الليل باك حزين
 كما نشرت جريدة فلسطين قصيدة «مناجاة وردة» بتاريخ 16/6/1933،
 والقصيدة مثبتة بين قصائد الديوان في القسم الأخير من الكتاب ومطلعها:
 جنى عليك الحسن يا وردتي
 وطيب رياك فذقت العذاب
 ومن القصائد التي نُشرت في جريدة فلسطين بتاريخ 3/7/1933 في العدد 111-
 2376 ص 3 بعنوان «إعلان الشعراء» وقد نشرت على صفحة الجريدة

فلسطين 3/7/1993م
 العدد 111-2376 ص 3

إعلان الشعراء

أنشدنا إبراهيم طوقان في المعرض العربي بجانب «الصابون العجيب» وهذا يوضح
 اندماج الشاعر بين أهله وفي مجتمعه وفي الإعلان يقول:

صابوننا يا عذاري
 حيّى الهوى والديارا
 شتى الضروب يحاكي
 زهر الربى والشملا
 يا من رأى التين في الروض عائق الجنارا⁽¹⁾

(1) الجنار: زهر الرمان.

طيب القرنفل عندي يا ناس بل طيب ليلى
فمن تنشق منه يمل إلى العشق ميلا
يهدى القلوب نهارة ويرسل النور ليلا

* * *

أباشفـيق⁽¹⁾ تقـدم قم والتمس طلباتك
لولاك يا نور عيني لا لم أبـع وحياتك
إني سأقصر طرفي فنادي ظبياتك

* * *

لم يبق لي من غرامي إلا المنى يا صبايا
قد ذبت غير بقايا فلا تذبن البقايا
قدري⁽²⁾ أعني عليهن يارفيق صبايا

وكذلك نشرت فلسطين قصيدة «عهد الجدود» بتاريخ 1/ 9/ 1933 العدد 16-2435 ص 4 وهي مثبتة بين قصائد الديوان ومطلعها:

عهد الجدود سقاك صوب عهد ورجعت للأحفاذ بالإسعاد
لكن البيتـين التالين غير مثبتين في القصيدة وهما:

فإلى الأمام بني الكرام تقدموا وابنوا حصون المجد كالأجداد
والعزّ في ناديكـم ما زلتم متضامين لكم علاه ينادي
إبراهيم طوقان

كما ونشرت جريدة فلسطين «نسر الملوك» وهي مثبتة أيضاً بين القصائد، وقد نشرت بتاريخ 9/ 10/ 1933 ومطلعها:

شيعي الليل وقومي استقبلي طلعة الشمس وراء الكرمـل

(1) أباشفيق: أبو سلمى.

(2) قدرى: طوقان ابن عم الشاعر وهو عالم فلسطيني معروف.

ونشرت جريدة فلسطين بتاريخ 22/4/1934، وقد نظم الشاعر هذه القصيدة بمناسبة حفلة تكريم شاعر سوريا (الزركلي) في نابلس قبل سفره إلى مصر وهي بعنوان:

«سرياً أبا الغيث»

فراقك في المطلب الطيب فشرّق إذا شئت أو غرب
وسرياً أبا الغيث عن منزل رحب إلى منزل أرحب
وماذا يضرّك ألا يكون دمشق وعصفورة النيرب
فلسطين بعض دمشق الشام ووادي الكنانة من يثرب
ولكن فراقك أشجى المحب وشق الوداع على المعجب

ومن القصائد التي نشرتها جريدة فلسطين أيضاً بتاريخ 19/10/1934 قصيدة «فلسطين مهد الشهداء» التي ألّفها الشاعر في حفلة افتتاح النادي الفلسطيني في بيروت، وهي مثبتة بين القصائد في الكتاب ومطلعها:

إخواننا أهل الوفاء أهل المودة والولاء
ومن قصائد إبراهيم طوقان التي نُشرت في جريدة الدفاع ووردت في الديوان وهي مرتبة حسب التاريخ وأثبتت في الكتاب ومنها:

- قصيدة «ورد يغيض» نُشرت 6/5/1934 وهي مرثية في حفلة تأبين موسى كاظم الحسيني.
- قصيدة «أطلقني ذاك العيار» ونُشرت بتاريخ 11/6/1934.
- قصيدة «الشهيد» ونُشرت بتاريخ 18/6/1934.
- قصيدة «الإيمان الوطني» ونُشرت بتاريخ 13/1/1935.
- قصيدة «يا قوم» ونُشرت بتاريخ 18/1/1935.
- قصيدة «الشيخ المظفر» ونُشرت بتاريخ 18/1/1935.
- قصيدة «السامسة» ونُشرت بتاريخ 1/2/1935.
- قصيدة «أيها لأقوياء» ونُشرت بتاريخ 3/2/1935.
- قصيدة «زيادة الطين» ونُشرت بتاريخ 10/2/1935.
- قصيدة «إلى ثقيل» ونُشرت بتاريخ 17/2/1935.
- قصيدة «تعزية مرفوعة على مقام البيت الهاشمي» ونُشرت بتاريخ 19/2/1935.
- قصيدة «غاييتي» ونُشرت بتاريخ 25/2/1935.

- قصيدة «مناهج» ونُشرت بتاريخ 1935 / 3 / 3.
- وقصيدة «أنتم» ونُشرت بتاريخ 1935 / 3 / 10.
- قصيدة «لن الربيع» ونُشرت بتاريخ 1935 / 3 / 16.
- وقصيدة «يا حسرتاه» ونُشرت بتاريخ 1935 / 3 / 22.
- قصيدة «1000» ونُشرت بتاريخ 1935 / 3 / 27.
- وقصيدة «نعمة» ونُشرت بتاريخ 1935 / 4 / 11.
- قصيدة «أيتها الحكومة» ونُشرت بتاريخ 1935 / 4 / 25.
- قصيدة «رثاء» ونُشرت بتاريخ 1935 / 4 / 30.
- قصيدة «القدس» ونُشرت بتاريخ 1935 / 5 / 10.
- قصيدة «شريعة الاستقلال» ونُشرت بتاريخ 1935 / 6 / 16.
- قصيدة «رثاء أبي المكارم» وألقيت في حفل تأبين الشاعر عبدالمحسن الكاظمي ونُشرت بتاريخ 1935 / 6 / 17.

هذا وقد نشرت جريدة الدفاع أبياتاً من نظم إبراهيم طوقان ضمن مقال استخدمها كاتب المقال في معرض ردّه على شاعر صهيوني يتخيل بأن فلسطين أصبحت «أرض إسرائيل» فلما قرأ إبراهيم طوقان قصيدة «كوهين» انتفض وردّ عليه بهذه الأبيات ونشرت يوم السبت 1939 / 4 / 25.

<p>أكاذيب من سيف الحقيقة تصرع فروحوا ارحلوا عنها ليدخل يوسع خستّم فحق العرب أقوى وأنصع أصابك قولي ما لعينك تدمع وقولي لم الإضراب؟ هل هو ينفع فتلتف الدنيا إليهما فتسمع ويلعب فيها كيف شاء ويرتع وما معه إلا السلاح المفرقع هم الخطر المنصب والشر أجمع على الأرض قولوا كيف أعنوا وأخضع</p>	<p>سمعت بأبيات لكوهين ملؤها يقول: لإسرائيل كانت بلادكم أحق لإسرائيل ما تسلبونه فلسطين يا مهد الديانات ما الذي أجيبني لماذا أنت واجهة أسى بلى إنه والله قد يكشف البلاء يجيء غريب الدار، يطرد أهلها ويدخل شرعيّاً ويأتي (مُهرَّباً) هم النكبة الكبرى على كل كائن يقول هنا الفلاح وهو مشرد</p>
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

إذا كان حقي عند «كوهين» ضائعاً فحقي لدى «جون بول» يا قوم أضيع
سنضرب حتى نسترد حقوقنا وما شئتموا بالمضربين هنا اصنعوا
إبراهيم طوقان / نابلس



تعليقات وملاحظات لإبراهيم

ومن تعليقات إبراهيم طوقان، التي تحدث فيها ولم تُنشر، بل وُجدت في بيته وبين أوراقيه، ونشرها الأستاذ المتوكل طه في كتابه (الكنوز ما لم يُعرف عن إبراهيم طوقان) وقد نُشر الكتاب عام 1999 وكان المقال بعنوان:

كلام، كلام، كلام!!

ما أكثره مكتوباً، وما أكثره مطبوعاً!! .

الكلام هو عملة الأدب المتداولة تهبط قيمتها بتضخمها، وقد هبطت قيمة المارك والروبل بعد الحرب لكثرة ما أخرجت مطابع ألمانيا وروسيا منهما.

وقبل أن تعمل المطبعة على تضخم عملة الأدب كان للأدب شيء أشبه بالتداول على قاعدة الذهب.

لقد أضاع الكتاب فن الإيجاز القديم وأصبحوا يخشونه، وبسبب هذا التضخم في عملة المطبوعات لم يعد في إمكان كاتب - مهما عظم شأنه - أن يؤثر اليوم على قارئه تأثير من تقدمه بمئة وخمسين سنة.

النابعون الحقيقيون، إلى هؤلاء الذين يجب أن يتكلموا هم وحدهم يستقبلون العمل الشاق ويحيون، سيضطر هؤلاء إلى حذف الفضول، سوف لا نرى تلك الروايات اللامتناهية فيخبرنا الكاتب عن أثاث الغرفة وملابس أهل المنزل ومظاهرهم الخارجية وكيف قضوا دراستهم وفتوتهم، وما هي حوادثهم الغرامية، وكيف بذلوا فيها آخر قطرة من عواطفهم.

كل من يتحمل منا تلك الدقائق التي يوردونها عن بعض «المردة» أمثال نابليون، وهل هي إلا تلال من الألفاظ تتراكم حول شخصية خيالية عادية؟ وماذا وراء هذه الكتب اللهم إلا أن نعثر فيها أحياناً على فكرة قد نأتي بمثلها.

هيهات أن يكون في قولي ما يرجع التداول الأدبي إلا مجراه، ولكن سيأتي ذلك عفواً بحكم الضرورة، إن الغابات التي يُصنع الورق من أخشابها لا تزال تحتطب بسرعة ولا يمضي مئة سنة حتى يصبح الورق قِيباً فلا يستخدم إلا لحفظ الأفكار القيمة.

بودي لو أعيش إلى المستقبل الذي تنبأت عنه لعي أضع مقالي هذا في جملة واحدة.

* * *

هذا وقد اخترت من ملاحظاته، هذه الرسالة لأخيه أحمد وأخته فدوى، وكانت بتاريخ 6 مارس (آذار) سنة 1936.

أخانا أحمد وأختنا فدوى:

أمس يا سيد ويا سيدة وصلت راجعاً من القاهرة بعد إقامة 14 يوماً، وهأنا اليوم في نابلس أعيدّ على أهل الدار وكلهم مبسوطون، وكلهم كالعادة أول ما (يتحدثوا) للراجع من السفر يتحدثون عن (الي) ماتوا، فأول الأخبار كانت أن شَصَفَا ماتت وأظن أنها ماتت من بشاعة اسمها عليها رحمة الله، أقول لفدوى أنني في مصر تعرفت على سهير القلماوي وأبلا وزوزو وكلتاها من فضيلات السيدات الراقيات علماً وأدباً وأخلاقاً.

مصر في هذه الأيام جميلة جداً طقساً ومعرضاً وعيداً.

فلم وداد الذي بطلته أم كلثوم هو بشهادة كل من رآه أحسن من الوردة البيضاء لعبد الوهاب..

(إلى هنا انقطعت الرسالة).

* * *

ومن خلال ملاحظاته ومقالاته وتعليقاته، هذه أبيات كتبها إبراهيم على ظهر صورة (فوتوغرافية) له، وبجانبه صديقه «إبراهيم مطر» وكانا زميلين في مدرسة المطران في القدس، ومع الأبيات هذه المقدمة:

«نظم هذه الأبيات قلب مملوء بالإخلاص والمحبة الطاهرة».

لعمرك إن جـار الزمان وفـرقا	وهذا زمان غـدره ليس يتقى
فيا رسم كن ضد الزمان وغـدره	بضمك جسمينا فإن لك البقا
كلانا صديق والفؤادان واحد	ولو كان دينٌ عن أخيه تفرقا

وأدعى كما أدعى، وأشقى شقاءه ويشقى شقائي إن ألم بي الشقا
ستجمعنا هذي الوريقة إن قضت علينا النوا في الأرض أن نتفرقا
إبراهيم طوقان
يناير سنة 1923

* * *

وهذا نموذج من ملاحظات إبراهيم - رحمه الله - على كتاب الروضتين في أخبار الدولتين:

ما برح المسلمون في كل أدوارهم، حاكمين ومحكومين، علتهم واحدة لم تغيرها الأيام، ولم تهذب أخلاقهم غير الدهر وعبر الزمان، وهذه العلة هي فقدان الهدف الأسمى أو المبدأ العام الذي تحمي الأمم بالمحافظة عليه والذود عنه، الإسلام مبدأ وبحفظه حفظهم، ولكنهم كثيراً ما أهملوه في سبيل التافه من الأمور، وشد ما أغفلوه في التوصل إلى هدف زائل، وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على ذلك، وما عليك إلا أن تقرأ الصفحات التالية لفتح القدس، وترى الفتور في العزائم، والتفكك عند العظام وعدم المبالاة بالخطر الداهم.

وإنك اليوم، والحكم للإفرنج في هذا العصر، لتستفيد من قراءة هذا الكتاب أشياء تدلك على أن القوم هم الآن كما كانوا في سالف الزمان: صليبيون بالأمس وصليبيون اليوم، يخفرون العهد ولا يرعون الذمام، يغدرون عند الأمان وينقضون الميثاق عند الصلح، والمعروف عندهم ضائع والمعونة منسيّة، والمأطلة خلق والطمع سجيّة، كما أن اليد القوية عندهم مرهوبة والشدة عليهم تقودهم إلى الخضوع والإذعان، ولا وطن ولا مروءة ولا حمية، ناهيك بأمة تفضل الإفرنجي الكافر على المسلم فتخطب وده وتطلب حكمه وتمنحه الامتيازات في بلادها - في ذلك العهد كالיום: - وتمكن جنوده من احتلال البلاد (ج 1 ص 143) وناهيك بأمة تقوم بفتنة ضد الحكم الإسلامي في حالة ائتلاف قلوب المسلمين في العالم أجمع واحتشادهم لفتح القدس وخلاصها من الإفرنج، في هذه الفترة يقوم المصريون بفتنة !! فسبحان الله العظيم.

مات نور الدين وصلاح الدين فرجعت الفوضى إلى ما كانت عليه، وتفرقت القلوب، واندفعت المطامع في الصدور، ولا يزال المسلمون يقومون بواحد ويقعدون بموته، ولا يزال مجدهم القومي رهين تمخض الزمان عن القوي العظيم، وميلاد الحدثان للمنقذ الأمين قرب الله عهده ونصر جنده آمين.

وفي المجموعة أيضاً وجدت ملاحظات بعنوان «رأي في أدباء ذلك العصر» ومقال «بينه وبين المتنبي» ثم مقال «البحثري والرفاء».



رسائل إبراهيم

وهذه مجموعة من رسائل إبراهيم طوقان، وكانت إما رداً على رسائل تصله وإما استفساراً عن أمر أراد جواباً عليه أو كانت رسائل عائلية أسرية وهي كثيرة، سنختار منها ما يفي بغرض الكتاب، وما يوضح طريقة كتاباته التي جاءت متنوعة في غرضها وأسلوبها. ويبدو أن أغلب رسائله كانت لشقيقته فدوى التي كان يقدّرها ويحترمها كثيراً ويرعاها في شؤونها الدراسية والأدبية والشعرية، ومن هذه الرسائل:

هذه رسالة من الشاعر لأخته يوضح لها بعض الأخطاء النحوية وقد أرسلها لشقيقته من بيروت بتاريخ 14 تشرين أول سنة 1930. وقد لفتت نظري لأنني اعتبرها رسالة تعليمية أولاً وشخصية ثانياً، ومداعبة ثالثاً وأخيراً نقداً للطلاب أثناء الدراسة. ويقدم في الرسالة نصائح وأنني أثبتها كما هي:

أختي العزيزة والدرة المكنونة، القائمة من الجونة، والقاعدة على أذنيها.

بعد تقبيل وجنتيك الخضراوين، أخذت تحريرك الذي كتبته بمداد الشوق، وقد نزلت إلى السوق وسألت عن هذا الخبر لأكتب لك به أيضاً ولكن لم أجده أبداً، فأرجوك إذا كان موجوداً منه عند «الحجاوي» أن ترسلي إليّ زجاجة وأنا أدفع ثمنها.

يوجد في مكتوبك أغلاط يجب أن تتجنبها في المكتوب التالي:

1 - «مضى زمناً طويلاً» غلط.

«مضى زمنٌ طويلٌ» صح. لأن الذي (مضى) هو الزمن فهو فاعل، والزمن هذا وصفه أنه طويل، والوصف يكون مثل ما قبله في الإعراب.

2 - «ولكن القريحة لم تجود» غلط.

«ولكن القريحة لم تجد» صح بدون واو، مثل قولك: «ذكرى تلك الأيام لم تُنح» فحذفت الألف المقصورة وهذا صح، لأن «لم» تحزم الفعل المضارع.

«أحتاج إلى كثير من التفكير «حتى» أحفظه أو لكي أحفظه أو كي أحفظه».

لا يوجد غير هذه الأخطاء وهذا جيد جداً وأنا مسرور كل السرور بإنشائك واعتقد أن في الصف الثاني العلمي شباناً يغلطون أكثر منك في أقل من صحيفة.

بس شوفي مش يكبر رأسك؟ يجب أن تقرأي في الكتب الطيبة دائماً، ويجب أن تواظبي على حفظ القرآن والشعر، وفوق هذا كله يجب أن تكتبي ثراً وشعراً حتى تمرني على الكتابة، وإياك أن تهمل القواعد النحوية فهي مهمة.

إذا لم يساعدك أحد في كتابة المكتوب فأنا أهنتك على إنشائك الجميل، اكتبي وأنا دائماً مستعد لأصلح لك الأغلاط ولكي تدرسي هذا التصليح يجب أن تحفظي نسخة من التحرير الذي ترسلينه لتقابلني فيها الأغلاط، أنا الآن أعطيك موضوعاً لتكتبي عنه وترسلينه في التحرير القادم وهو «ما هي فكاهاات نبيهة ونزبية وحنان في يوم».

هذا هو الموضوع فراقبيهن جيداً، واحفظي فكاهااتهن ثم رتيهاا للإنشاء، وأرسلها في تحرير.

أهنتكم على الفوتوغراف، أنا منذ سافرت إلى هذا اليوم لم أسمع شيئاً، قولي «الله يصبرك ويدبرك» ولكن أنا أرقى منكم اليوم، أنا أحضر السينما الناطقة كل يوم سبت، وقد حضرت «موريس شوفاليه» وسمعته يغني أغنية إنكليزية أسطوانتها موجودة عندكم وهي جميلة جداً جداً، عندي مئة وتسعون تلميذاً كلهم صاروا يحبون الشعر كثيراً، مئة وثلاثون منهم يدرسون الشعر القديم كامرئ القيس وعنترة والخنساء، والستون الباقون منهم خمس بنات يدرسون (يدرسن) الشعر العباسي هؤلاء البنات هن: ماري ديب، سلوى خوري، وداد خوري، صبيحة مقدادي، ميليا مالك. وإنشاء (إن شاء) الله بعد كم سنة نصير نذكر بينهن فدوى طوقان قولي «الله كريم».

سألتني عن أجنّت لك الورد وأجنيتك الورد، الاثنان صحيحتان والبيت:

أجنّت لك الورد أغصانٌ وكثبانٌ فيهن نوعان: تفاح ورمّان

معناه: إن النساء الجميلات اللواتي قاماتهن كالأغصان والسمينات اللينات كتلال الرمل جعلنك تجني الورد «أي: تقطفه» من التفاح «وهو الخدود» ومن الرمان «وهو النهود» المرة القادمة اكتبي لي الأبيات التي لم تفهمي معناها، وإذا كان عندك قصيدة

جديدة أرسلها، يلزم لك قاموس وإنشاء (إن شاء) الله سأرسل لك واحداً، الآن مشغول انتظري حتى أنفضى فأنزل إلى السوق وأشتريه. وصيتي لك: احفظي، أقرأي تمرني على الكتابة نشرأ وشعراً.

قولي للوالدة إنني مشتاق لها كثيراً، أشكري «نجلة» على لساني لأنها تعلمك، قولي «لرحمي» إنني سأكتب لأحمد عن مسألته: لأنه لا يوجد في بيروت ولا مطبعة يشتغل فيها ناس أوادم، كيف أخبار نمر؟ خبريني عنه.

سلامات: تقبيل أيادي العممة المحترمة الشيخة كريمة، السيدة المحترمة أم داود، الخالة العزيزة أم عبدالله، أم علي، أم موسى، سعادة الوالدة المحترمة، تقبيل وجنات أديبة، نبيهة، حنان، نزيهة، سلامات إلى آسية، ونجلاء وبندر وفتايا، يخرب بيتكم ما أكثركم لا أدري كم واحدة نسيت منكم، وبالختام وفقك الله ودمت لأخيك المشتاق.

إبراهيم

* * *

ملاحظة: ما بين الأقواس تصويب للكلمات التي قبلها وخاصة (إن شاء الله) التي جاءت في الرسالة (إنشاء الله).

وهناك رسائل تعليمية كثيرة أرسلها الشاعر إبراهيم طوقان لشقيقته فدوى بعضها تصحيح لقصيدة شعرية وبعضها في النحو والإعراب وبعضها في الصرف. ومن رسائل إبراهيم إلى أخته:

بيروت - الجامعة الأميركية

24 آذار 1932

يا عروس الشاعرات:

اشتياقي إليك كثير، ولكن حالت الضرورة دون المجيء إلى نابلس في هذه الفرصة فحرمت من مشاهدتكم جميعاً والتمتع بصفرتك التي تزرني بصفرة الليمون. وأكثر ما شعرت به من الشوق ناشئ عن سفر التلاميذ كل إلى أهله وأنا وحدي هنا، ولو أن ابن العم بهاء الدين بن علاء الدين بن عبدالرحمن بن عبدالرزاق طوقان موجود هنا ولم يسافر لهربُ من الشغل وجئت إلى نابلس سعياً على الأقدام، فهذا يسليني وأقضي أوقات فراغي معه.

انتقاده على قصيدة سارة كان في موضعه، ولا أظن أنه يوجد أظهر في هذه الانتقادات سوى بعض الضعف الشامل على القصيدة عموماً، وهذا يزول بكثرة المطالعة والنظم والتفرغ للعمل والتفكير به دائماً، ولا أظن أن السيدة سارة قادرة على ذلك. (مليح منها).

قصيدتك في سرّة جميلة، وقد أعجبتني فيها أشياء كثيرة أذكر لك منها قولك:

قبس الآمال يهدي اليائسين فكأن الليل والفجر المبين
فهذا تشبيه جميل جداً وتركيبه قوي لأنك جمعت في بيت واحد بين الليل وما يلائمه وهو اليأس وبين الفجر وما يلائمه وهو قبس الأول «وهذا يسمونه التشبيه المركب» وفيه شيء آخر يسمونه «الطي والنشر» ولكي أدلك عليه وضعت الخططين بقلم الرصاص وسأقدم لك مثلاً آخر، قال أبو نواس:

يمت ويحيي بالوصال وبالهجر: لاحظي الموت مع الهجر، والحياة مع الوصال، فكأنه وكأنك أخذتما البقعة التي تذهب بها أمك إلى حمام الجديدة ووضعتما فيها قميص ولباس وطويتها ثم فتحتهما وإذا فيها تنورة وبلوز، الأولى قميص والثاني لباس، وتلاحظين أنني عكستُ فيجب أن تكون التنورة مع اللباس والبلوز مع القميص، حتى يكون الطي والنشر من النوع التام، ولكن هذا ما جرى مع أبي نواس ومعك وهو النوع المعكوس، ومن الأبيات الجميلة قولك:

شادن لو رمت إملاء البصر منه لاستعطف كي تغضي النظر
وقولك:

إنه ريم بلبنان أقام يا كناس الريم حياك الغرام
انتقادات: وهي قليلة، أولاً سارة لها خطية عند الله بدليل أنك وقعت في غلطتها عند قولك «ونضت عنها ثياب الكسل» فوقفت على هذه الكلمة «الكسل» بحركة مع أنك قلت في غيرها «خجلاً عاطراً ساعداً» ولم تجعل هذه الكلمات على وزن «الكسل» بعبارة أوضح يجب أن تتبعي طريقة واحدة، إما عدم التقيد بقافية الشطر مثل الكلمات الثلاثة أو تنقيدي بقافية الشطر وهي اللام في «الكسل» هذه هي العادة في الموشحات فانتبهي.

ثم إن هناك البيت الذي ترين أنه ضعيف وهو «تعلمي شوقي العظيم وتبتلي» وهذا ليس ضعيفاً فقط، وإنما هو مكسور ويصح حين تقولين: «تعلمي شوقي وحبي تبتلي»

لديك غلطة في النثر وهي تنوين كلمة «قصائد» فإنها لا يجوز أن تنون، فيقال قرأت قصائد بفتحة واحدة فقط وكذلك كل اسم مجموع على وزنها أعني على وزن «فواعل ومفاعل» وكذلك «مفاعيل» أمثلة: «قصائد جرائد ضمائر جاذر» «محاكم مكاتب مساجد مراجع» «مصاييح مفاتيح مساكين ومعاميد» الأحسن أن تراجع في كتب النحو والصرف باب الممنوع من الصرف، تقول لك سارة في قصيدتها: «بيروت مثواي فيها والحي حي المنارة» فهذا عنوانها فاكتبي إليها رأساً.

بيروت - المنارة

حضرة الفاضلة الأدبية السيدة سارة الخطيب دام بقاءها، وستكون مسرورة جداً بمكاتبتك كما أنك ستسرين بمكاتبتها وتكون لك صديقة تراحين إلى محادثتها ومناجاتها بالتحارير عندما تسأمين من حكايات دار حسن آغا البايحة وخرطات بنات البيك.

كنت كتبتُ إليك أنني ابتدأت بنظم قصيدة لسارة شكراً لها على مديحي في أبياتك وقد كتبت بضعة أبيات (مش عاطلين) وقدمتها لها وجاوبتني عليها وهذه هي أبياتها:

يا كوثر الظرف النمير ومصدر اللطف الغزير وأهل كل ثناء	هل يستحق المدح منك شويعر
مثلثي وأنت أميرة الشعراء	القرب منك إمارة وكفى به
شرفاً أتيه به على الأمراء	ما زرتكم إلا وفزت بغبطة
ورجعت أحمل أجمل النعماء	فالسّمع من سحر الحديث بمعزل
عن كل ذات صوادح غُتاء	والعين من بشر الوجوه غنية
عن كل بدرٍ مشرق وذكاء (الشمس)	القلب أطرب ما يكون خفوقه
لزيارة في أهلـه ولقاء	فلكل جارحة لدي نصيبها
في داركم من هذه الآلاء (النعم)	وشمائل لو كنت أبلغ غاية
من عدّها لعددت في البلغاء	جُمع التليد إلى الطريف بها فما
زان البنين تراره في الأباء	المجد منها والمروءة والندي
وغريب حسن في عجيب ذكاء	

وكان جواب سارة هذه الأبيات:

يا واصفي بأمية الشعراء	عفواً فإني لست بالخنساء
وتقول عنك شويعر هذا كما	لو قيل عن سحبان بالفأفاء

إني وحقك لا أشك بأنني في بحرك الطامي كنقطة ماء
لا يخذعك بيت شعر قلته لأحسن فيه سوى جمال ثنائي
وسيكون لي رد على هذه الأبيات أيضاً أكتبه إليك في حينه، ليس من الضروري أن
تتبعي وزننا وقافيتنا بل اجعلي قصيدتك مستقلة.

يصلك مع بريد هذا التحرير رواية شوقي «قمبيز» (فاقرأها) على مهل وتفهميها
جيداً واحفظي ما شئت من قطعها الجميلة، ظهرت رواية جديدة له أيضاً وهي رواية «علي
بك الكبير» وقد قرأتها مرة واحدة فقط، سأرسلها إليك بعد قراءتها مرة ثانية.
أختم تحريري بالسلام على الجميع كباراً وصغاراً.

أخوك المشتاق / بهرهم

* * *

وهذه رسالة أخرى أرسلها إبراهيم لأخته:

القدس 15 نيسان 1939

أختي فدوى، دفع الله عنها الكرب والبلوى.

أصبحت اليوم فخاطبت محل بولس سعيد بالتلفون، وطلبت منه أن يبعث إليك
بديوان الشاعر إسماعيل باشا صبري (وهو غير صبري حسن آغا).

الديوان صغير، ولكنه أفضل من ثلاثمئة ديوان صدرت حتى اليوم، ومن مميزاته أنه
صافي الديباجة، لا يمكن أن تجدي فيه كلمة واحدة في غير موضعها، كما أن الشاعر لم
يكن ينظم لنشر ولكن ليرضي شاعريته العظيمة وكانوا يسمونه شيخ الأدباء، وفي الحقيقة
أن كلاً من شوقي وحافظ (وخصوصاً شوقي) كان يتأثر بأدب صبري وشاعريته، وأذكر
أنني أنا وأحمد لم نكن فيما مضى نقع على قصيدة أو أبيات للباشا إلا حفظناها عن ظهر
قلب لحلاوة شعره وخفته على القلب.

وهذا هو الديوان بين يديك يصل إليك مع هذا الكتاب أو بعده بقليل فاقرأه،
وأطيلي النظر فيه، واحفظي منه ما استطعت فإنه جليل الفائدة كثير العائدة والسلام.

أخوك أبو جعفر

قبلات يد وخذ للسيدة الوالدة. والسلام على أهل الدار جميعاً الصغير منهم والكبير
والمقمط بالسرير.. سلامي وتحياتي للجميع.

أعتقد أن هذه النماذج من رسائل إبراهيم لأخته فدوى كافية، ولنتنقل إلى نماذج أخرى من رسائله.

* * *

هذه رسالة بعث بها شاعرنا إبراهيم طوقان عام 1932 إلى الأستاذ قدري طوقان، وكان إبراهيم حينذاك في بيروت، والرسالة توضع في باب الدعابة، وجاءت على النحو التالي:

الجامعة الأميركية - بيروت

6 أيار سنة 1932

مقلق راحتي ومزعج وداوش رأسي ومغلبّي قدري:

لا أدري بأي الشتائم واللعنات أتقدم إلى الخوارزمي والبيروني والخيّام وغيرهم، من هؤلاء الرياضيين الذين سلطك الله عليهم تزعجهم في قبورهم وتزعجني أنا أيضاً بسببهم، لا حول ولا قوة إلا بالله، يا أخي الدكتور سارطون سافر، وكتابه لا أعلم عنه إلا كما أعلم كيف تخرجون الجذر التكعيبي للعدد، ولعل الرجل يظن أن كتابه طبّقت شهرته الخافقين وسارت مسيرة القمرين، فراح يقول لي أن الكتاب موجود في كل المكاتب.

والظاهر أنه هو وكتابه نكرة، وسأسال عنه في الجامعة لعلهم يعرفونه.

الذي أريد أن أناقشك فيه الآن هو محاولتك مسّ مادّياتي مع علمك بأن هذه الناحية مني دقيقة الإحساس لدرجة متناهية، كيف تجرؤ على القول أن أشتري لك الكتاب، وهل يعقل أن أدين أحداً من الناس، هل تذكر في حياتك التي قضيتها معي أنك ظفرت بقرش مني، وعلى فرض أنك نلت بغيتك ألا تظن أنك عرضت للقصف رقبتي، ما أغناك عن الوقوع في الدّين معي، قد يخطر في بالك أنني أزعجك بالإلحاح لتسديد هذا الدّين ولكن ليت القضية تقف عند هذا الحد، ذلك لأنني على يقين من تكليفك دفع أضعاف ما يكون عليك وتصبح ذمة في عنقك يعلم الله وحده كيف تتخلص منها، ولقد جربتني مستديناً، فهل تريد أن تجربني دائناً، سأشتري لك الكتاب إذا وجدته هنا، ولكن قد أعذر من أنذر.

ابتدأت بنظم النشيد الآتي لدائرة المعارف التي أوشك أن أصبح من أقراصها وخشبة من صحاحيها.

عنوان النشيد هو:

البقة والبرغوث (الموضوع مبتكر)

البقة:

نحن بنات الخشب نـشرب دم العـرب
(هذه وحدها كافية لأن تجعلني مفتشاً)
نمشي ببطء عجب نقرص مثل العقرب
البرغوث:

نحن الذين نقفز مكاننا معزز
بيننا تراننا نخر حتى تراننا نزهـر
(الكلمة يفسرها لك جلال)
كلاهما:

عشنا على الأبدان في سالف الأزمان
لو كان في الإمكان عشنا على الأوطان
الجنة الطازجة/ إبراهيم

* * *

وهذه رسالة أخرى بعث بها إبراهيم لوالده، يحدثه فيها عن رحلته إلى بيروت وعلى الجملة فالرسالة شخصية من ولد إلى والده يطمئنه عن وصوله إلى المكان الذي سافر إليه وجاءت على النحو التالي:

بيروت: الجامعة الأميركية

1934/10/19

سيدي الوالد حفظه الله:

أقبل أيديكم وأطلب رضاكم ودعاكم، وبعد فقد وصلت إلى بيروت مساء اليوم الذي سافرت فيه من طرفكم، وكنت قابلت أخي أحمد في طولكرم وحدثته عن أحوالي فاستصوب رأي الإقامة في بيروت كثيراً، وفي القطار ركبت إلى حيفا وكان فيه راغب النشاشيبي وفخري وأبو سلمى لحضور جنازة رئيس بلدية عكا.

ومن ظريف ما جرى أن فخري النشاشيبي سألني: لماذا أرسل والدك تلغراف تهنئة للدكتور حسين الخالدي؟! فأجبت: إنني لا علم لي بتلغراف ولكن ذهبت مع الوالد

للقدس خصوصي وهنأنا الدكتور حسين بفوزه والسبب يا فخري بك هو النسب والقرابة التي بيننا، والدوق الي مش لازم يكون مفقود من هذه الدرجة!! فسكت وكان «راغب بك» يسمع فطنش أيضاً، وكلام فخري وسؤاله هو من النوع الذي تسمونه «حكي شرطي صريح!».

في بيروت كما كنت أتوقع انقطع مني المغيص ومشت معي حركة الأمعاء منظومة مضبوطة، أما فقر الدم فإنني واجهت الدكتور خياط وحدثته بالحكاية من الأول إلى الآخر فأظهر عجبه من عملية الدكتور كميلن وشهد له بالقدرة الفائقة، وبعد الفحص سألتني عن مدة إقامتي فأخبرته أنها تحت تصرفي من اليوم إلى غاية شهر ونصف فأجاب إذا كان الأمر كذلك فأنا أفضل أن تدخل المستشفى يومين أو ثلاثة نكرر في أثنائها الفحص للدم والبول والغائط فربما كان هناك شيء مغطى بقشة فننشه ونعالج على نور، فوافقته، وسأدخل المستشفى صباح الاثنين وأخرج ظهر الأربعاء إن شاء الله وتكون النتائج حسنة، مسألة الشغل الذي بحثت معكم فيه يظهر أنه صار له مقدّمات في الجامعة وأن الطبخة تنطبخ، قابلت الدكتور حبيب كوراني وهو الرجل الذي شق معي النغم في نابلس فكان أول حديث له بعد السلام والسلامات سؤاله: هل قابلت الأستاذ أنيس؟ فقلت له: كلا. قال لازم تقابله من كل بد! ثم قال: وأنا لي معك حديث مهم!

ثم رأيت الأستاذ أنيس فقال لي إنه يريد أن يراني في جلسة طويلة! ثم إن عمر فروخ كلّفه أنيس من مدة ليستغل في الجامعة فرفض لأن المقاصد الخيرية سترسله بعثة لألمانيا على حسابها. إذا ربطنا هذه بعضها ببعض يمكن القول إن في الجو شيء (شيئاً) لعله خير.

استأجرتُ غرفة في الجامعة كاملة المعدات الطبية الموقع بأجرة يومية قدرها 50 قرشاً سورياً في اليوم أو ما يعادل نحو جنيه فلسطيني في الأسبوع وسعر الفلسطيني اليوم 370 غ سوري، أما الأكل فلا أريد أن أتقيد به الآن حتى نرى نتائج الفحص وما يقتضي عمله لئلا يكون مطعم الكلية غير مستعد لطبخات خصوصية مثلاً.

وبالختام السلامة للجميع وأقبل أباي الوالدة المحترمة وسلامات لأبي حافظ وعائلته ولخليل وللعلم أبو غالب ودمتم كما رمتم.

ولدكم/ إبراهيم طوقان

إذا جاءني مكاتيب فحولوها باسمي
إلى (الجامعة الأميركية)
(وست هول)

وهذه رسالة بعث بها الشاعر إبراهيم طوقان إلى رئيس تحرير جريدة فلسطين عام 1934، وفيها يظهر إعجابه بقصيدة لأخته فدوى «صدي الماضي».

1934 / 12 / 6

حضرة الفاضل رئيس تحرير جريدة فلسطين الغراء المحترم:

سلام وتحية: وبعد فقد اطلعت في عدد الأحد الأخير على قصيدة بعنوان «صدي الماضي» من نظم شقيقتي فدوى طوقان، وقد عجبت كل العجب لهذا التبديل والتحوير الذي طرأ على القصيدة مما جعلها ذات بحور مختلفة، فضلاً عن العبث بكلمات شعرية متقاة يعرف قيمتها أهل هذه الصناعة الدقيقة.

وبمقدار ما أسفت لهذا التشويه، وبمقدار ما خامرني الشك في مقدرة (مصحح) القصيدة فقد سرّني من شقيقتي أنها أصبحت موسيقية الأذن في الشعر تميّز بين أشد الأوزان تقارباً، الأمر الذي أشكل على المصحح فورّطه في خطأ فاضح، ولو سلّمنا جدلاً بوجود أخطاء في القصيدة فقد كان من المنتظر أن تُنشر على علائها وكما خطّتها يد صاحبها ما دامت هي المسؤولة عنها، وما دام الانتقاد واقعاً عليها لا على الجريدة.

لذلك أرجوكم أن تنشروا كتابي هذا بأسرع مناسبة وإعادة نشر القصيدة كما وصلت إليكم وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

المخلص / إبراهيم طوقان

* * *

كما بعث إبراهيم رسالة إلى صديق له يعمل في جريدة فلسطين ولكنها (لم تُرسل) وكان الشاعر يقيم في نابلس بتاريخ 1934 / 12 / 2، وفيها يعتب على صديقه لما جرى من عبث على رسالة أخته إلى الجريدة وخاصة في عروض القصيدة والقصيدة هي «صدي الماضي» التي أوردناها في رسالة إبراهيم السابقة.

وهناك رسالة أخرى إلى الأمير شبيب أرسلان من نابلس بتاريخ 4 أيار 1935 ولكنه لم يرسلها، وأبقاها «حفظاً للتاريخ»، والرسالة كانت بمناسبة حفلة الأربعين لوفاة المرحوم الشيخ سعيد الكرمي ورأيت من الواجب أن أضع ما يهم شاعرنا منها: «بعثت إليكم بكتاب ولم يصلني جواباً عليه - حتى رددت الوثيقة الخطيرة لصاحبها وقلت له: إذا أردتم أن تحفظوا هذه الوثيقة الفاضحة للقائمين بتلفيقها، إن الأمير شبيب لا يقع في

هذه الغلطة النحوية». ثم يتابع: «إن الذي ادعى بأنه أتى بهما كاذب كبير ونصاب خطير على ما يظهر طمع منكم بهال... سيدي الأمير: في هذه الوثيقة إذا نشرت قضاء مبرماً على المزورين الأفاقين، وإذا كنتم وجدتم ثلاثين مأخذاً لإثبات التزوير في الأول فإن كل كلمة في هذه الثانية حجة وبرهان على بطلانها وتلفيقها».

وقد أوردت هذه العبارات لأثبت قدرته على دحض المواقف بصراحة وجرأة الأديب والشاعر.

* * *

وهذه رسالة هامة من رسائل الشاعر إبراهيم طوقان على ما أظن، وهي موجهة إلى حسن رحي طوقان، وموضوع الرسالة، ضيف جديد على هذه الأرض هو «المهندس جعفر» وجاء شكل الرسالة على النحو التالي:

حُرِّرَ في البيت بحضور: جعفر وأمه وإبراهيم وأمه وأديبة
إبراهيم عبدالفتاح طوقان
الإذاعة اللاسلكية
القدس في 2 شباط 1938

حضرة أختنا العزيز الحاج حسن رحي طوقان المحترم:

بعد تقبيل لحياتكم المزمزمة والسؤال عن شريف خاطركم نبدي أننا يا أخونا الحاج مجتمعون حول النار في ليلة شديدة الأمطار والبرق والرياح وقد استلمنا كتابكم المرسل إلى أديبة من المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأتم الصلاة، فسرنا أنكم جميعاً بخير، واشتهينا أن يكون قد قُسمَ لنا هذا النصيب في زيارة النبي الحبيب، فهنيئاً لكم هذه الفرصة السعيدة والزيارة المحمودة، والحج المبرور والتجارة التي لن تبور «يعني مش مثل تجارة أخيك يوسف» والمفروض الآن أن نكتب بالتفصيل ما كتبناه لسيدي الوالد باختصار عن ولادة جعفر حرسه الله ورعاه بعين عنايته آمين فنقول:

في ليلة اشتدت زوابعها وهطلت أمطارها رجعت من سهرة ساهرة كانت في بيت جلال هاشم حضرها لفيف من الإخوان بينهم يحيى السعودي ومحمد عبدالكريم البزق ومحمد عبدالمطلب، وكانت الساعة الواحدة بعد نصف الليل، وعندنا مع أم جعفر في البيت كل من الأنسة فتايا والسيد يوسف والكل نائم ما عدا أم جعفر، فقالت أنها تتوجع من بطنها وظهرها، فطلبنا سيارة نقلتنا في الحال إلى مستشفى الحكومة - قسم التوليد -

وجاءها المخاض إلى طَبَّون السيارة تارة وإلى رجل التخت تارة أخرى ومنها إلى الحائط أو الخزانة، حتى جاءت الممرضة وقالت هذا أمر يطول حتى الصباح فخير لك أن تنام في بيتك وتعطينا نمرّة تلفونك، ولم أكد أستريح في الفراش «ولم أشلح لأكون على استعداد لأول نداء» حتى ضرب التلفون وإذا بالممرضة تقول أن الست تريد أختها فطلبت سيارة وطلعت إلى دار روجي بك الساعة الثالثة بعد نصف الليل فنقرت الباب على غرفة الست عفت ففتحت، ما سمعت بالمسألة حتى تعقدت يداها ولم تعد تعرف الذي تريد أن تلبسه من الذي تشلحه، قول يا سيد بلا طول سيرة نزلنا من الدار ودخلنا غرفة سامية فوجدناها في حالة المخاض الأليم ورافقناها إلى الساعة السادسة صباحاً نمت خلالها على كرسي هناك ساعة من الزمان لشدة ما استولى عليّ من النعاس وتركتها وعدت إلى البيت، ولم أبق حتى الساعة العاشرة إلا الربع وأخذت التلفون وسألت الممرضة فقالت: «بعد عشر دقائق إن شاء الله» ولم تمض المدة حتى جاء التلفون من عفت فبادرتها بالسؤال عن سامية فقالت قامت «سالمّة» ثم سألت «جعفر» أو «جعفرة» فقالت بلهجة باردة نعسانة: «صبي» ولم أصدق وظننت أنها تريد أن تطرد الفشل، قول يا سيد بلا طول سيرة نزلت للمستشفى لفين؟؟؟ للمستشفى أيوه! وإذا عفت في حالة يُرثى لها من التعب والسهرة والبكاء، وإذا في السرير الصغير إلى جانب تحت الوالدة قطعة من اللحم لها رأس طويل مثل القادوس، وأنف مثل أنف مهاوش والحاصل هيئة خيفة، ثم أحضرت الأم من غرفة الولادة ووضعت في التخت بجانب ولدها وهنا انتهى الفصل الأول وأدرك شهرزاد الصباح وسكنت عن الكلام المباح.

اليوم الثاني والثالث والرابع لا شيء يُذكر سوى أن الرأس القادوس تغير وأخذ طبيعته، والوجه راق وظهert معانيه فمن قائل أنه يشبه أباه ومن قائل: لع يشبه أمه، وآخر لع يشبه خاله، لع خالته، لع سيده، لع عمه، لع عمته، لع ابن عمه، والحاصل كلما نظرت في وجهه هالصبي رأيته يشبه واحداً ثم يشبه الآخر، والذي رأيته أنا فيه أن رأسي مركّب عليه وجه سامية يساوي جعفر، أه اسمع فُتْك بحكي، ولادة جعفر كانت كما يلي: الجورة سنطور، مصران الصرة وترعود، صوت بكائه ناي توفيق جوهريّة، القابلة القانونية ماري عكاوي التمرجي تيسير فيض الله جابر، المكاغي محمد عطية، وأدرك شهر زاد الصباح وسكنت عن الكلام المباح.

وفي اليوم الخامس أيها الحاج سعيد قلنا للدكتور حجّار أن يطهره على سنّة الله ورسوله، فلم تمض ساعة من الزمان حتى صرخ صوت سيكاه وآخر نهاوند، وقضي الأمر

ومضى ثلاثة أو أربعة أيام وإذا بها على أحسن ما يُرام، واستراح من هذه الغلبة وأراحنا معه، وهذا كان عين الصواب وأنف الحكمة، ولا نشك في أنّ سيدي الوالد يسّرهُ هذا الخبر جيداً.

وفي اليوم التاسع خرجت أم جعفر وولدها معها وهي والحمد لله تعالى على أحسن حال وأنعم بال، وكنا قد خابرنّا أبا حافظ في نابلس فأرسل لنا الوالدة وهي لا تزال مقيمة عندنا، وعند وصولنا باب البيت وجدنا سيارة قد أقبلت من نابلس وفيها أم حافظ وحافظ ووائل ونبهة ونزيهة، وحنان وفدوى وأديبة وفتايا أتى بهم يوسف ووصلت السيارتان معاً وطلع جعفر إلى دار أمه وأبيه محاطاً بقبيلة أو عشيرة من أهله الأقربين، وها هو اليوم بحمد الله يرضع وينام ويرضع، حليبه فيه بركة وعافية ونومه هنيء وطعامه هنيء يبيكي على الوقت ويرضع على الوقت وينام على الوقت ويفيق على الوقت فهو على حد قول عمته أديبة ابن إذاعة و 24 قيراط.

أخبار متفرقة :

1- جاءت الأخبار إلى نابلس بولادة جعفر فنهض فاروق على رجله ومشى لليوم الأول بعد زحفه الطويل.

2- بكت أم داوود فرحاً بقدوم ولدنا جعفر فمسحت (نجلة) دموعها.

3- جاء تلغراف وصولكم إلى المدينة يوم ولادة جعفر.

4- جاء تلغراف رجوعكم إلى مكة يوم خرج جعفر ووالدته في المستشفى.

المطلوب منكم يا حجاج:

أولاً: عند الطواف وعند الصلاة وعند بثر زمزم وعلى جبل عرفات وفي كل الأماكن التي تتمون بها حجكم المطلوب منكم جميعاً جدّه وعمه وعمّة أبيه وابنة عمّة أبيه أن يدعو له الدعوات الصالحة ولنا بالمعيّة.

ثانياً: هدية طاسة حمام وعطر ورد وتمر لأمه منشان الحليب وكحل للعينين مع مكحلة لطيفة وميل، ولأبيه طاقية ومسبحة عقيق.

ثالثاً: السلامات لجميع الموجودين معكم من النابلسية مع تقبيل أيادي العمّة كريمة وسيدي الوالد - كاتبه إبراهيم طوقان الحضور فوزية، سامية، أديبة، يوسف نايم وبشخر، جعفر شرحة نايم.

ملاحظة: إحياء لذكرى جدي أبو الوالدة وخال الوالد قررنا أن نضيف اسمه إلى اسم جعفر فصار جعفر أمين طوقان.

إبراهيم طوقان

* * *

وهذه رسالة غير مؤرخة لرجل يدعى أبو عفان، وهي رسالة غرضها إنساني، تنم عن نظرة إنسانية تمد يد العون، وتتم عن قلب طيب متسامح (كما ذكر ابنه جعفر) وجاءت الرسالة على النحو التالي:

أخونا أبو عفان، حفظه الله آمين:

قرأت المقامة الفتائية، ووصفك المسهب لما حدث لك وللقطط في الدار من جرّاء الجوع، وأرجو وقد عادت السيدة العسقولة إلى نابلس أن تكون قد بلغت مرادك، وضربت على يدها البخيلة بيد من حديد ذكرتنا بسقف الحيط، فجددنا البكاء عليه وابتدأنا برثائه فقلنا:

أواه يا صديق سقّف الحيط قد كنت في دنيّاك رُفّع الحيط
ثم غلب علينا النحيب فلم نستطع تتميم المراثية، ولعل فدوى تسعفنا بشاعريتها ولعلك تسعفنا بشاعريتك فنوفي الفقيده حقه في الرثاء.

الباب الثاني:

لم يزعجني ما جاء في كتابك من أقاويل بشأن تقرير مصيرك فأنا أتوقع مثل هذه الترهات دائماً، فلا تبتس بها كانوا يصنعون، كتبت للوالد تفصيلاً هذا الصباح وأرسلت الكتاب مع يوسف ليودعه البريد.

ثم أن جميل علي بلغنا رسالتك أنا وأحمد وكلانا معك ومن رأي واحد، وما دمت عازماً على إتمام تحصيلك للطب، فجامعة بيروت الأميركية، لا يوجد اليوم أقوى منها في هذا الفرع، وأنا أعلم أنها أضعفت سائر الفروع في سبيل ترقية كلية الطب فيها، والتمرين الذي يتاح للطلاب هناك لا يتاح لأي طالب في أعظم جامعات أوروبا.

بقيت مسألة فساد الأخلاق، طبعاً هناك أدلة عليهما، وهي أدلة حية منها: أنا وأحمد وقدري... وكل منا كما يشهد الجميع قطاع طرق وفُسّاق وفجرة! ضاعت أخلاقنا وتقاليدنا الدينية بسبب الجامعات.. أنا أقمت تسع سنين في بيروت.. وأحمد وقدري كل

خمس سنين وهذه مدة كافية لتغير أخلاق الأنبياء وتفسدها والعياذ بالله، تطلب رأيي في المسألة هذا هو:

أرسل إليّ صورتين لجواز السفر وشهادة ميلادك، أو ما يقابلها (شهادة من مختار الحارة) ولا لزوم لأن تسأل بعد ذلك عن شيء، ولا تستطلع رأي أحد، لا يزعجك أحد بأفكاره المتعفة.

هذا هو المختصر المفيد، وفقك الله، فأنا أشد الناس حاجة إلى طبيب من العائلة يُطبِّبني بالمجان.

أخوك/ أبو جعفر



ملاحظات حول رسائل الشاعر إبراهيم طوقان

تعليقي على هذه الرسائل، لا يقصد به فحوى الرسائل، وإنما أعني به نواح تدور حول الرسائل نفسها.

فقد جاءت تمثل نموذجاً للرسائل الإخوانية، فهي إما لأخته أو والده أو بعض أقاربه أو بعض أصحابه، وقد جاءت موضوعاتها متنوعة بتنوع أسلوب كاتبها، فإلى جانب الناحية الشخصية التي تتمثل فيها جميع الرسائل إلا أنها كانت تحمل مناج أخرى.

فالرسائل التي أرسلت إلى أخته، لاحظت أنها كانت تعليمية، فقد أرسلت فدوى لأخيها رسائل عدة تأخذ رأيها في أعمالها الأدبية الأولية، وكان يبين لها الأخطاء الأسلوبية أو النحوية أو الصرفية، ثم يصوبها لها، ويردها إليها «بمكاتيب» برسائل تحمل الصواب لكل المسائل التي سألت عنها، ثم يكلفها بعمل أدبي حتى تتدرب على كتابة أعمال متنوعة فيها تجديد، وقد بدأ هذا منذ مرحلة الدراسة في المدرسة الثانوية كما بدا ذلك في إحدى ردوده على رسائل أخته هذا وقد ضمنها نصائح بالجد والاجتهاد والبحث في الكتب.

ومن ناحية أخرى فقد لاحظت أن بعض رسائله كانت نقدية حول موضوعات وصلته أو قرأها في الجرائد أو على صفحات الورق وكان يرد عليها بصراحة وجرأة وهذا ما كان لرئيس تحرير جريدة فلسطين أو لصديقه الذي كان يعمل في نفس الجريدة ومعاتبته على عدم نشر بعض الأعمال لأخته أو تغيير بعض العبارات.

ومن الرسائل ما كان موضوعها إنسانياً بحثاً، لأنه كان متواصلاً مع أهل مدينته وأصحابه.

هذا وقد طغى على رسائله النزعة الدينية التي كانت واضحة في عباراته، بل فيها اقتباس من معاني القرآن الكريم، وقد جاءت بلغة محكية أحياناً أو ضمن رسائله بعض المفردات بلهجة عامية تتناسب مع غرض الرسالة الأساسي، فكان في رسائله إلى أخته تبين النصائح التي كان يسديها إليها عند قيامها بعمل أدبي لكن لغته الفصحى كانت ظاهرة واضحة في رسائله الجدية التي تكاد أن تكون عملاً أدبياً. وكان يستخدم أحياناً أسلوب الحكاية أو القصة، لكن لم تخل هذه الرسائل من الثقافة الواسعة والاطلاع الجيد ويظهر هذا في رسالته إلى الحاج حسن رحي حين استخدم أسلوب حكاية شهر زاد لإنهاء بعض الفقرات، ليبدأ بفقرة جديدة وكان يضمن بعض رسائله شعراً من أشعاره، وعلى الإجمال فقد استخدم العامية والفصحى بأسلوب سهل بسيط ليفهمه الجميع دون فذلكة في الكلام ليطبق أسلوب الرسائل الإخوانية.

أحاديث إذاعية

قدّم إبراهيم طوقان عدداً كبيراً من الأحاديث الإذاعية في موضوعات متنوعة ومختلفة، وجاء معظمها في أبواب أدبية ودينية وسياسية وأحاديث نقدية وتحليلية، وقد اخترت مجموعة من هذه الأحاديث تمثل نماذج مما كان يذيعه على الهواء إبان عمله في الإذاعة الفلسطينية. وإنني أنقل هذه الأحاديث كما هي تاركاً التعليق عليها للقارئ.

حديث أخلاقي

قراءة مختارة من كتاب أدب الدنيا والدين
لأبي الحسن البصري

ص 142-152

قال إبراهيم بن العباس، مثل الإخوان كالنار، قلبها متاع وكثيرها بوار وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد	فلا تستكثر من أصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير	يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات	وتلقى الري في النطف العذاب

والإخوان أربعة أقسام:

منهم من يعين ويستعين.

ومنهم من لا يعين ولا يستعين.

ومنهم من يستعين ولا يعين.

ومنهم من يعين ولا يستعين.

فأما المعين المستعين فمَنْصَف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له. فهو كالمقرض عند الحاجة ويستر عند استغناء وهو مشكور في معونته، معذور في استعانتة فهذا أعدل الإخوان.

وأما من لا يعين ولا يستعين فمتروك قد مُنِعَ خيره، وقُفِعَ شرّه. وهو كالصورة الممثلة يروقك حسننها ويخونك نفعها فلا هو مزعوم ولا هو مشكور وإن كان باللوم أجدر.

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كلّ، ومهين مستذلّ. فلا خيره يُرجى ولا شرّه يؤمن فليس لمثله في الإخاء خطر، ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم ومن سمّهم لا من غذائهم.

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع، مشكور الصنيع. قد حاز فضيلتي
الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقیلاً في نائبة ولا يقعد عن نهضة في معونة. فهذا أشرف
الإخوان نفساً، وأكرمهم طبعاً فينبغي لمن أوجده له الزمان مثله «وهو الدر اليتيم» أن يثني
عليه خنصره ويعض عليه بناجذه، ويكون به أشد ضماً منه بنفائس أمواله وسني ذخائره.

وإذا صفت للإنسان أخلاق من جرّبه، وتمهدت لديه أحوال من خبره، وأقدم على
اصطفائه أخاً، وعلى اتخاذه خدناً، لزمته حينئذ حقوقه، ووجبت عليه حرمانه. قال عمرو
ابن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق. وقال بعض الحكماء من جاد لك
بمودته فقد جعلك عدیل نفسه. فأول حقوقه اعتقاد مودته، ثم إيناسه بالانبساط إليه في
غير محرم، ثم نصحه في السر والعلانية. ثم تخفيف الأثقال عنه، ثم معاونته فيما ينوبه من
حادثه أو يناله من نكبة. فإن مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم. وقد روي عن
النبي ﷺ أنه قال: خير أصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوق يومه
وقيل: يا رسول الله! أيّ الأصحاب خير؟ قال: الذي إذا ذكرت أعانك وواساك وخير
منه من إذا نسيت ذكرك. وكان أبو هريرة يقول: اللهم إني أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص
مودتي إلا بموافقة شهواتي. ومن ساعدني على سرور ساعتني ولا يفكر في حوادث غدي!
وقال بعض البلغاء: عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة وما ودك من أهمل ودك، ولا
أحبك من أبغض حبك. وقال الشاعر:

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الإخوان عند الشدائد
وقال آخر:

شر الأيلاء من كانت مودته مع الزمان إذا ما خاف أو رغبنا
إذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبنا
إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وثبنا

وينبغي للإنسان أن يتوقى الإفراط في محبته فإن الإفراط داع إلى التقصير، قال ﷺ:
«أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى
أن يكون حبيبك يوماً ما». وقال عمر رضي الله عنه: «لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً».

وقال أبو الأسود الدؤلي:

وكن معدناً للخير واصفح عن الأذى فإنك راء ما عملت وسامع

وأحببت إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع
وابغض إذا أبغضت غير مباين فإنك لا تدري متى أنت راجع
وإنما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما من
الحق فليس في ذلك إفراط وإن تناهى ولا مجاوزة حد وإن أكثر وأوفى فتستوي حالتهما في
المغيب والمشهد لا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى.

قال بعض الشعراء:

عليّ لإخواني رقيب من الصفا تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيبي ومشهدي فسيان منهم غائب وشهيد
وإني لأستحيي أخي أن أبرّه قريباً وإن أجفوه وهو بعيد
ولي قصد المرء في زيارة صديقه وغشيانه غير مقلل ولا مكثّر. فإن تقليل الزيارة
داعية المهجران وكثرتها سبب الملل. وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة زر
غداً تزدد حباً».

وبحسب ذلك فليكن في عتابه. فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل
على قلة الاكتراث بأمر الصديق. قال بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
فعض واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم، من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم وتستتر زلتهم. لأن من رام بريئاً من الهفوات
سلمياً من الزلات رام أمراً معوزاً واقترح وصفاً معجزاً وقد قالت الحكماء: أي عالم لا
يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو، ومن حاول صديقاً يأمن زلته كان كضال
الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بعداً. وقيل لخالد بن صفوان: أي
إخوانك أحب إليك؟ قال: من غفر زللي، وقطع عليي، وبلغني أمني.

وحكي عن بنت عبدالله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن
عوف، وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قوماً ألام من إخوانك. قال: مه، ولم ذلك؟
قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك وإذا أعسرت تركوك. قال: هذا والله من كرمهم، يأتوننا

في حال القوة عليهم، ويتركونا في حال الضعف بنا عنهم! فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسناً وظاهر غدرهم وفاء. وهذا محض الكرم ولباب الفضل. قال الشاعر:

إذا ما بدت من صاحب لك زلة فكأن أنت محتالاً لزلته عذرا
أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيراً ولا قائل هجرا
والداعي إلى هذا التأويل شيثان: التغافل الحادث عن الفطنة، والتآلف الصادر عن الوفاء، قال أبو تمام:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



فوز وعباس

في شعر العباس بن الأحنف شاعر بلاط الرشيد ميزتان اثنتان إحداهما تخصصه بالغزل دون سائر أغراض الشعر مع انقطاعه إلى حبّ واحد والثانية فضله على الشعراء بانتقال معانيه إلى الغرب بأوزان أهل الأندلس بواسطة الشعراء المتقلين المعروفين بالتروبادورز ونشوء الشعر الغربي المعروف بالوجداني بتأثير هذا الانتقال.

أما الميزة الأولى فغرابتها في أن ابن الأحنف لم يتأثر بمحيطه كما تأثر به غيره من الشعراء وبحسبنا أن نرجع إلى دواوينهم فنقرأ لأبي نواس مثلاً غزلاً في جنان وعنان ومكنون ورحمة وعريب وغيرهن مما يتجاوز العشر عدداً. وفي لقب الشاعر مسلم بن الوليد بـ «صريع الغواني» برهان على ما نذهب إليه وكذلك في لقب الحسين بن الضحاك بـ «الخليع». فبينما أترابه ينتقلون بقلوبهم من حب إلى حبّ وتتنزه أعينهم بين وجه حسناء وقامة هيفاء كان ابن الأحنف ثابت القلب على حب واحد قرير العين بحسناء واحدة. وبينما إخوانه يتسابقون على أبواب الخلفاء والأمراء يمتدحونهم ويستدرون جودهم كان ابن الأحنف مكرماً منعماً عند الخليفة الرشيد غير مطالب بمديح ولا متقدم برثاء وإنما اكتفى الخليفة بأن يقرب منه شاعر غزل فصيح يقول الشعر لنفسه لا لغيره ويحيا لهواه لا لهوى سواه.

201 هاديت اذاعية
وبينما زملاؤه يجمعون عن الدخول في غمار الحزبية القحطانية والعدنانية يضرمون وقودها بالسنة الهجاء والتعصب ويشقون بها نفيًا وتعذيباً وحرماناً كان ابن الأحنف في معزل عن ذلك كله له من حبه شاغل يشغله عن كل ما حوله.

أما الميزة الثانية أعني انتقال معانيه إلى الغرب فنظرية حديثة صاحبها المستشرق الألماني الدكتور يوسف هل. وقد كنا أذعنا له حديثاً من هذا الميكروفون أثبت الدكتور فيه أن الأدب الغربي قد تأثر بالشعر العربي وأسند العربي الفخر والفضل في ذلك لشاعرنا العباس بن الأحنف وكفى بذلك للشاعر مِيزة وفخراً وفصلاً على أقرانه الشعراء. وقد تخصص الدكتور يوسف هل بدراسة العباس بن الأحنف وكتب عنه رسالة بعنوان «العباس بن الأحنف في ظل الرشيد» نشرتها مجلة أسلامكا الألمانية ألم فيها الدكتور بحياة الشاعر وتطوراتها إلاماً لا متمع ببعده لكاتب.

هذا هو الشاعر الفريد العباس بن الأحنف أما حبيته فهي فوز جارية محمد بن منصور أحد أشراف بغداد.

وليس لدينا مرجع للتعرف بفوز حبيبة العباس غير ديوانه الذي وقف شعره عليه وخصّه بها. قال:

يا من يسائل عن فوز وصورتها إن كنت لم ترها فانظر إلى القمر
كأنما كان في الفردوس مسكنها فجاءت الناس بالآيات والعبر
ويرى الشاعر أن كل حسن تقع العين عليه إنما هو من فضل حُسْنها فيقول:

إن نفسي مطيعة لهواها لهجت بالهوى فقد أشقاها
أتقي سخطها فراراً من الهجر وإن أذنبت طلبت رضاها
بت حذراً أخشى العيون عليها أكمل الله خلقها إذ براها
أين لا أين مثلها إنما بحسن من فضل حسننها من سواها
ويصفها الشاعر وهي طفلة صغيرة فيقول:

وكانت جارة للحوور في فردوس أحقابها
فأمتت وهي في الدنيا وماتت ألف أترابها
لها لعب مصففة تلقى بهن ألقابها...

تنادي كلهما ريعت من العزة «يا بابا»

وما رأيت أسخف من ناقد معاصر لابن الأحنف يتهمه من أجل هذه الأبيات بالسخف ويجد فيها ليناً ورخاوة.. فكأن الناقد «غفر الله له» كان ينتظر من الشاعر أن يقول عن حبيبته وهي في سن الطفولة أنها تفصل الثياب وتغشي مجالس العلم والأدب وتنظم الشعر الرائع وتقوم بتدبير المنزل. فضلاً عن تفقهها في الحب والمغازلة وخبرتها بتأثير الهجران والنفور على قلب عاشقها. أترى الناقد أراد هذا أم كبر عنده أن يتدنى الشاعر إلى ذكر اللعب التي كانت فوز تلهو بها وتطلق على كل لعبة من لعبها لقباً وكيف رضي الشاعر لنفسه أن يأتي بكلمة «بابا» على لسان فوز. كل ذلك يراه الناقد سخيفاً ولكنني أراه في حدود البلاغة وهل البلاغة إلا الإتيان بالقول بحسب ما يقتضيه المقام فالشاعر يتكلم عن فوز الطفلة وهذه هي أعمال الطفولة وكلماتها ولكل مقام مقال.

واستمعوا الآن إلى العاطفة الصادقة تتكلم وإلى الوفاء الأكيد ينطق وإلى النفس الشاعرة تنظر بين جوانبها فتخرج روائع الصور وتنفضها على لسانه سحراً حلالاً وحكمة بالغة وعلماً بأحوال النفس الإنسانية واسعاً قال العباس بن الأحنف:

يا فوز يا منية عبّاس	قلبي يفدي قلبك القاسي
أسأت إذا أحسنت ظني بكم	والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق فآتيكم	والقلب مملوء من اليأس
أعطيت قلبي فيكم سؤله	فعاد أعطاني على رأسي

وقال:

إن الهوى لو كان ينفذ فيه حكمي أو قضائي
 لطلبتَه وجمعتَه من كل أرض أو سماء
 فقسمته بيني وبين حبيب قلبي بالسواء
 فنعيش ما عشنا على محض المودة والصفاء
 حتى إذا متنا جميعاً والأممور إلى فناء
 مات الهوى من بعدنا أو عاش في أهل الوفاء
 وهذه أمنية خالصة ولكنها بعيدة المنال مع الأسف وقال:

رأت رغبة مني فأبدت زهادة
أريد لأدعو غيرها فيجبرني
ولو كان قلبي يستطيع تكلّماً
لقد قال داعي الحب «هل من مجاب»
ألا ربّ محروم من الناس راغب
لساني إليها باسمها كالمغالب
لحدثكم عني بكل العجائب
فأقبلت أسعى قبل كلّ مجاب

فتأملوا في هذه السهولة التي في نظمه وفي هذه الطريقة المبتكرة التي يتناول بها موضوع الحب والتنويع الكثير الذي يودعه كل مقطوعة من مقطوعاته مع العلم بأن ميدان الغزل أضيق من ميادين المديح والرثاء والعثرة فيه دانية ولكن ابن الأحنف شاعر زاهر الشعاعية مطلع واسع الاطلاع عالم بفنون الكلام وأساليبه.

وإليك هذه المغالطة الرشيقة يدفع بها عن نفسه تهمة الهوى وعن حبيبته فوز شبهة الناس وربيتهم في علاقاتها به قال:

أبكي على الشرق إن كانت منازلها
أقول في الخد خال حين انتعها
ومن لطيف ما يروى عنه أنه ضرب غلاماً له وحلف أن يبيعه - وكان في خلق الشاعر شدة - فمضى الغلام إلى فوز فاستشفع بها عليه فكتبت إليه فيه وطلبت إليه العدول عن فكرته فقال:

يا من أتاننا بالشفاعات
من عند من فيها لججاتي
إن كنت مولاك فإن التي
قد شفعت فيك لمولاتي
إرسالها فيك إلينا لنا
كرامة فوق الكرامات
ورضي عنه ووصله وأعتقه. جزى الله الشعراء عن طيب قلوبهم وحسن موداتهم خيراً.

ومن نوادرها معه أنها وعدته بقاء في مساء اليوم التالي فلما أتى الوعد هياً نفسه وتطيّب ولبس أفخر ثيابه، فلما بلغ المنزل وجد من يخبره أنها رحلت في الصباح الباكر. فقال في ذلك في قصيدة:

همو كتموني سيرهم يوم أزمعوا
وقالوا أتعذنا للرواح وبكروا
وقد أشد المأمون هذا البيت فقال «لقد سخروا بأبي الفضل!» وأبو الفضل كنية العباس بن الأحنف.

واجتمع أبو نواس مع العباس بن أحنف في مجلس فقام العباس لشغل فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: هو أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم. ثم عاد العباس وانتهاز الحضور غيبة من أبي نواس فسألوا العباس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: إنه لأقرّ للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس، ورجع أبو نواس ودارت كؤوس الشراب فتناول أبو نواس قدحاً وقال:

أبا الفضل - اشربن ذا الكاس إني شارب كاسي.
فقال العباس - نعم يا أوجد الناس على العينين والراس.
فقال أبو نواس - فقد حفّ لنا المجلس بالنسرين والآس.
فقال العباس - وإخوان غطاريف سداة سادة الناس.
فقال أبو نواس - وخود لذة المسموع مثل الغصن الكاسي.
فقال العباس - وقد ألبسها الرحمن من أحسن الباس.
فقال أبو نواس - وقد زينت بإكليل يواقيت على الراس.
واستمرت المساجلة فكان ما نسي منها أكثر مما حُفظ.

وقد مات الشاعر بتأثير هواه فوز كما مات من قبله مثله من شعراء الحبّ العفيف الصادق. مرض وهو في الحجاز بعيد عن بغداد مقر حبيبته ولما أضناه السقام وتحامل عليه اليأس والفراق ففاضت روحه وهو ينشد:

يا بعيد الدار عن سكنه مفرداً يبكي على شجنه
كلما جدّ الفراق به دبّت الأسقام في بدنّه
ولقد زاد الفؤاد شجاً طائر يبكي على فننه
شفه ما شفني فبكي كلنا يبكي على وطنه

رحم الله العباس بن الأحنف وغفر الله لحبيبته فوز ما جنته بدلاها وجمالها عليه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إبراهيم طوقان 1937 / 1 / 27



ذكرى المولد النبوي

السلام عليكم يا رسول الله، يا خاتم أنبيائه الأكرمين. دينك، الحقّ الذي أظهره الله على الدين كله، وكتابك كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

السلام عليك يا رسول الله، لقد اصطفاك ربك بشيراً ونذيراً للعالمين، فأظهر لمولذك المعجزات، وخصّ طفولتك بالخير والبركة، وأحاط شبابتك بالصدق والأمانة والعفاف. ثم كانت سن النبوة: سن الأربعين، وإذا بوحى الله يهبط عليك في الغار ويهيب بك: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5] وحسبك النبوة مقاماً وكفى بالرسالة شرفاً.

السلام عليك يا رسول الله، أشرف الأمم أمتك، وأعزّ قبيلة فيها قبيلتك، وأظهر أب في قريش، عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم.

السلام عليك يا رسول الله، عناً وعن ملايين يدينون بدينك، ويرفعون رؤوسهم بين الأمم باسمك، وما زالوا ولن يزالوا يعتزّون بمخلد مجدهم الأسمى، محمد ﷺ، وهامهم اليوم - ولو كره أعداؤهم - يحتفلون بذكرى مولدك الأقدس، ذكرى ذلك اليوم الذي انبثق فجره ليكون نوراً خالداً على الدهور، وبشيراً بوحدة عربية يظل لؤلؤها ما بين الأندلس والصين. ولئن أضاعوا هذا الملك الكبير الذي وطدت أركانه على اسم الله، ولئن دالت تلك الدولة التي من رجالها الخلفاء العظام، والقواد الغطاريف، فإن في كلمتي: «الله أكبر» ترددهما الأجيال، وتهتف بهما العصور، لخير داع إلى تسوية الصفوف، ويقظة الهمم؛ وإن في القرآن الأزلي، لدستور العرب والعربية، لمن ينشدون الحرية والمجد والسلطان.

أيها الشاب المسلم، المحتفل اليوم بمولد النبي الكريم، أيكون آخر عهدك بالقرآن يوماً زينت فيه كرسي ختمك؟ وابتهج فيه بك أهلك؟ ارجع إلى قرآنك - يرحمك الله - كأني برسول الله ﷺ ينظر إليك عاتباً لما رأى من إهمالك كتابه المبين ثم أخذ ذلك الكتاب بيديه، وهو يحدثك بحديثه الشريف مشيراً إليه: فيقول - أصدق من قال - : «القرآن له ظاهر وباطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، والتفكر فيه حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور».

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم
لها معانٍ كموج البحر في مدد وفوق جتوهره في الحسن والقيم
قوت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بجبل الله فاعتصم

أيها الشاب المسلم، إن وراء هذا الابتهاج بمولد النبي الأعظم ﷺ، لغاية هي أسمى من هذه المظاهر، وروحاً أعلى شأنًا من زخرف المهرجان هنالك علم بعد جهل،

وعدل بعد ظلم، وحضارة بعد بدائة، ونظام بعد فوضى. كل ذلك يذكرّك به مولد النبي العربي، ويذكرّك بما كان عليه العرب قبله، وما وصلوا إليه بعده - فهل عاهدت نفسك على تدبر قرآنه الكريم، واتباع صراطه المستقيم؟ على ذلك عاهد نفسك، في هذا اليوم، تنل ما تصبو إليه، وتنعم في ظل الكرامة، ويتحقق أملك المنشود.

والسلام.



الطبيب الشاعر

تذاع مساء الأربعاء في 17 آب سنة 1938

الساعة 7:00

عرفته طالباً في الجامعة، موكلاً بالوجوه الحسان والقودود الهيفاء يتبعها فيتصيد من ذلك الجمال لشاعريته عذوبة ورونقاً وسحراً، ويقتنص منه معاني يوقعها أنغاماً مجنحة رقيقة الألفاظ شجيّة القوافي. وكان له من حفظه للشعر الرصين ومعرفته بأساليب الفصاحة، ذخيرة تجعل في شعره ما يذكرّك بعشاق بني عذرة المعاميد وشعرائها المدلهين.

ولم تكن الجامعة لتبخل على شاعرنا بما يوحى إليه بالقصيدة، وبالمقطع إثر المقطع فموقعها فوق الهضبة ورواحن كأسراب الأطباء، كذلك كان غذاء لشاعريته فاطرد نموها وازدهرت وآت جناها شعراً عالياً.

وكان بحكم تخصصه بالطب، على صلة بمستشفيات الجامعة، ولا مندوحة له عن التعرف إلى الأوانس المرضات والتحدث إليهن في الشؤون الطبية بادئ الأمر... ثم في شؤون شتى... ثم الاستقرار عند إحداهن بسلام وكلام.. فموعد فلقاء.

ولن أنسى هيئته وقد دخل عليّ يوماً في غرفتي وهو يضرب كفّاً بكف ويتأوه ندامة وحسرة... وأسأله عما دهاه فيقول: «أتعرف من هو أغبى مني؟ فارقتها يوم أمس على موعد لقاء في الساعة الحادية عشرة، ولم أدر ما أصابنا.. إذ لم يظن أحدنا إلى تعيين مكان اللقاء...!» قلت دعني من قولك هذا وهات ما عندك فأنشدي:

ألا بأبي غانية: بها للهوى ما به	نظرت لها نظرة الذليل إلى الطاغية
وقلت ألا هل أراك في الليلة التالية	فقالتي إلى ملتقائك في الساعة الحادية
وطارت بنا نشوة: فلم نذكر الناحية	فيا من رآها إليّ رائحة غادية...

وحمت على دارها: وحامت على دارية فلا أنا حاظ بها: ولا هي بي حاظية
فعادت بأحزانها وعدت بأحزانية

ومرت تلك السنة وقد صرفه هواه هذا خلاها عن التنقل من زهرة إلى زهرة...
وتقلبت شاعريته في أكناف ذلك الحب الواحد فلم تكد تتعداه وكان من أجل ما ناجاها
به شكوى حملها إليها مع طائر وأنطقه بها. قال:

ولي جار على فنن رطيب
تحمل من عليل الحب شكوى
رأك فظل في الأصاح يشدو
تعالى فالحيب يذوب شوقاً
تعالى فالصبا حلم ويمضي
تعالى علّيه بكوثر
فلو أبصرته والقلب دام
إذن لأقلت عثرته وأضحى
وقوله على لسان الحبيبة من قصيدة:

واعدته حتى إذا وافيته
وإن الهوى سباق ميعاد الهوى
أهوى عليّ يضمني وينال من
فضمته نشوى وملت ومال بي
يا حبذا ولع الحبيب وحبذا
حتى إذا ما الفجر صاح نذيره
قلت الوداع فراح يقعدني الهوى
ورجعت أدراجي وبى لو تنشي
هيهات ما تم الوصال لعاشق

ثم، مرّ به دور أياسه منها، وعقبه فراق لم يكن بعده لقاء فقال ولم يكن قوله إلا تعلقة
الآيس الملهوف:

أصـبـحت، لا حـيـيـب لي وغيـض ورد الأمل
 أنام ملء جفني الرقاد والبال خلي
 شفيت بالياس حزازات الهوى المشتعل
 ورحلت لا تعمل في قلبي سهام المقل
 لا درّ دري إن صـبـوت للزـمـان الأول
 اليأس، إن اليأس أحياني، وأفنى علي

وضرب الدهر ضرباته، فإذا الشاعر يوشك أن يتخرج طبيباً. وقد كان تفوقه على أقرانه موضع عجب. فما صرفه الشعر عن الطب، ولم يقو الطب على العبث بشاعريته. وكان ينظم أحياناً الأراجيز يودعها الاصطلاحات الطبية، وأسماء الأمراض والعقاقير فيقبل زملاؤه على نسخها لما في حفظها منظومة من السهولة. وكان يحيطها بألوان من الفكاهة فيجعل من جفائها طلاوة تسرع بها إلى الرسوخ في الذاكرة. وبينما تراه يناقش رفاق صفه في بعض نظريات الجراحة أو يناظرهم في أعراض بعض الأدوية إذا بالذاكرة تنقلب إلى مطارحة شعرية وإذا به خير بطب البيان خبرته بطب الأبدان ويكون قبل لحظة في غرفة التشريح مقبلاً على عمله بين القروح والجراح بلذة ونهم للمعرفة فإذا سمع بيت شعر رديء آذاه، ورأيته يسدّ منه أنفه فأعجب لهذا التناقض...!

وكان همه بعد يأسه من ذلك الهوى أن يخرج من الجامعة بشهادة وعروس أو بخطبة على الأقل. ولم يطل به المدى حتى كان يفاوض في أمر شريكة حياته.. وأوشك أن يتم ذلك بعد أن رأى الفتاة ووقعت من نفسه موقع الإلهام، وكانت على جمالها الممتاز قصيرة القامة فحبّب إلينا شعره فيها قصر القامة، فذلك حيث يقول:

وأهوى القصيرة في الحسان فإنها أبداً تظل صغيرة الجثمان
 تربي على الستين وهي كأنها ست خلّت من عمرها وثمان
 فإذا ضمت جمعتها في ضمة وإذا لثمت فخذاها لك دان

ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي سفينة.. إذ أغلى أهلها المهر، وأصرّ هو ألا ينفق في سبيل عقد الزواج درهماً وحجته أنه طبيب رأس ماله سماعه وورقة وقلم. وأن تقاليد الزواج اليوم لم يفرضها قرآن ولا جاء بها حديث فهي مفسدة للحياة الزوجية واتباعها يؤدي إلى الفقر ويطرح بالزواج تحت عبء ثقل من الهموم والديون. وأصر أهلها على

العمل بالتقاليد وأصر هو على فلسفته في الزواج. قال لي: لقد كانت جلسة حامية الوطيس خرجت منها غير آسف وضربت بقلبي وحيي عرض الحائط.

ولم يمض شهر وبعض شهر على هذا الحادث حتى كان الشاعر يقضي الشهور الأخيرة من حياته المدرسية مستعداً لامتحان الشهادة وكنت تراه يروح ويغدو وإلى جانبه ابنة خاله فقد تزوج منها وأتى بها معه إلى الجامعة. فتم له الفوز بالشهادة والعروس.

عاد الشاعر إلى بلده طبيياً. وكانت أخبار تفوقه قد سبقته ممهدة سبيل النجاح والتوفيق وتضمن له الإقبال الدائم. وخاض معترك الحياة فلم يجده من هذه الناحية عسيراً. ورزق المال والبنين فتمت له بكليهما زينة الحياة الدنيا.

ولكن قلبه كان في معزل عن ذلك كله. لقد كان خفوقه مستمداً من عالم هواه المخدول، هوى الخطيبة ذات المهر الغالي، وأتيح له بها لقاء هياها مرضها فكان سبباً لتجديد العهود. لكن ذلك لم يطل فخطبت وزوجت.

فاستمع إليه يروي الحادثة في قصيدة أو ملحمة قصصية - على حد تعبيره - هي قصة قلب في شعر عذب أترك لك الحكم لها أو عليها:

قالوا حبيبتك التي عاهدتها	نكثت عهدك بعد طول ثبات
يا لهف روعي أذنت بأفولها	أسفاً عليها وانطوت مأساتي
يا طيب ذياك الأسى لو دام لي	وبقيت في البلوى وفي الحسرات
لهفي على تلك البشاشة والرضا	لهفي على أنفاسها العطرات
كنا بقلبيننا معاً آنسى غدت	وغدوت رغم تفرق وشتات
خفيت رسائلها وكنّ كوكباً	يطلع عن أو يغربن في ميعات
في كل إصباح كتاب ذاهب	وبكل إمساء كتاب آت
نتبادل الشكوى ونعتب كلما	عدنا إلى ذكرى الزمان العاتي
أيام في حلب وقفت مهتداً	صلب العزيمة ما تلين قناتي
المهر حبّ صادق وتلائم	لا أشترى بالمال قلب فتاة
المبدأ الأسمى اعتصمت بحبله	وسدى يحاول أهلها مرضاتي
فأتوا بقاضي الحب يحكم بيننا	وشكوا وجئت بحجتي وشكاتي

وطلبت سنة أحمد حكماً لنا
فتمردوا وتمردت نفسي فلم
فهجرتها هجر البغيض وفاتني
حطمت آمالي وقلت سخيقة
ووجدت في مغنى النطاسة متعة
العام أثر العام أعمل جاهداً
فأبحتها حسناء تم لها الصبا
أملت فيها عصمة عن حب من
وحسبني أسلو وأنعم خالياً
أصبحت أن ذكر الهوى عاد الأسي
في كل يوم لوعة، يا ليتني
فرضيت بالغبن الصريح وليتني
لكن نفسي للحقيقة تنبري

* * *

ولقيتها يوماً فصادف طرفها
فكأننا احتشدت مشاهد حبنا
حال من الذكرى وحب صامت
في النظرة العجلى على رغم الجفا
آمنت أن ندامة تجتاحها
وانتابها داء، فروع أهلها
وتأوهت ألماً فقالوا ليتنا
ذكروا لها اسمي فازدهت فترددوا
لكنهم ثابوا إلي فعهدتها
بعد السهاد المر مالت للكرى
أنا برؤها مما تكابد وهي لي

وأبوا بغير توارث العادات
تأبى لما يطغى من النزعات
أني سأبكي الحب بعد فوات
وبرئت من نصبي ومن علاقي
فدأبت في مستقبل حياتي
حتى دنت بقطوفها ثمراتي
تزهو بحلو شمائل وصفات
أصبحت أحسبها صميم عداقي
وجهلت طيب أو اصري وصلاتي
كأشده وتحذرت عبراتي
لما تخاصمنا ملكت أناتي
أهفو وأغضي الطرف عن هفواتي
سعيًا ولو سارت على الجمرات

* * *

طرفي، وبادل لحظها لحظاتي
وبدت كلمح العين في مرآة
تسمو معانيه عن الكلمات
مهدت أعواماً من العقبات
آثارها ارتسمت على القسائم
تلك الكآبة موضع البسمات
نأتي بمن يشفي من الآهات
هيهات لا نرضى به هيهات
عجلان والإبلال في خطواتي
بلذيذ أحلام وطيب سنات
برؤ من الأشواق والحرقات

وثابة وتوثقت عرواتي
غلاتهم وأظّل في غلاتي
وتعلنني من ريقها بفترات
غر الأماني والهوى ملهاتي
في إثره فوضى من القبلات
ونعالج الزفرات بالزفرات
اختال بين حواسدي ووشاتي
وأنا قير العين في غلاتي
لا تستطاع على الزمان نجاتي

* * *

عادت محبتنا كسالف عهدا
وخشيت أن يرد الظماء فترتوي
حلفت ل تمنع كل صاد وردھا
أنا في رياض الخلد ارتع لاهياً
إن عاتبتني فالعتاب لبانة
تبادل الأنفاس وهي لوافح
واعتادني زهو فرحت معربداً
هم يرمون إلى المكاييد خلصة
ألفت نفسي في قرارة هوة

لهفي على أزهارك العبقات
تهفو إلى أفائك الخضلات
أخشى عليك غوائل الفلوات
فأنا السجين شجية رناتي
يصغي برقته إلى النغمات
والأهل إن ظلموا ليف جناة

يا جنة أنشأتها لم أجنها
أبدأ يحرقني هواك ومهجتي
يا بلبلأ غنى وطار على الفلا
خلفت لي قفصي وطرت مغرداً
هيهات لن تلقى سواي متيماً
الأهل إن عدلوا ملائك رحمة

كأنني بالمستمع يود الآن لو أصرح باسم الطبيب الشاعر. ولكن لا، وأستميحه
عذراً ولندع العاشق في بلواه هائم القلب على ضفاف العاصي يقتبس من نواعير الدهشة
أنينها وشكواها فيودعها أناشيد الخالدة. وينقل عن رياض حماة شذاها فتفقد شاعريته
بياناً خلاّباً وسحراً حلالاً. والسلام عليكم.

إبراهيم طوقان



مناظرة بين شاعر ونائر

أيهما أبعد أثراً الشعر أم النثر؟

الشاعر: طال بنا الحديث أمس يا صديقي النائر في أمر الشعر والثر وأيهما أبعد أثراً
في المجتمع وها أنا نزولاً عند رغبتك نستأنف المناظرة أمام الميكروفون على مسمع من

جمهور مستمعي الراديو فيقدم كل منا حجته ويأتي ببرهانه تاركين للمستمعين أمر التحكيم عسى أن تأتينا أجوبتهم بالآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۚ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۚ﴾ [الشعراء: 224-226] صدق الله العظيم، وليس لي إلا أن أذكرك بالقصة المشهورة عمن تلا قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ﴾ وسكت عن بقية الآية ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ [الماعون: 4-5] وأنا أنزهك أيها الصديق عن الإتيان بهذه الآية حجة تستند إليها دون أن تتم الآية حين استثنى الله تعالى قوماً من الشعراء بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرٍ ۚ وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۚ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۚ﴾ [الشعراء: 227] فالآية كما تعلم قد نزلت في أولئك الشعراء الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ بهجائهم والاستثناء فيها فيمن انتصروا للنبي ووقفوا ألسنتهم ونتائج قرائحهم على الذود عنه ومظاهرتة. ولولا أن النبي ﷺ قد عرف ما للشعر من بعيد الأثر في الجماعات وما للشعراء من سلطان على العواطف لما أبه لهم ولا جعل لقصيدهم وزناً.

النائر: لقد أشار النبي الكريم إلى الشعراء باستعمال تلك الأداة فاستعملوها في أمر دنيوي وترفع هو نفسه عن استعمالها.

ولكن لنبدأ حيث يجب الابتداء ولنعرف الشعر فترى الفرق بينه وبين النثر لنعرف موضع الجدل. أليس القول الموزون المقفى. وكفاه منقصة أن مراعاة الوزن قد تقتضي حذفاً أو زيادة تخرج بالمعنى عن موضعه كما تقتضي القافية استعمال كلمة لا لسبب سوى أنها تصلح للقافية وماذا ترى في هذين البيتين:

تعينت معشراً وإني شاطر وتراني أزكى من جميع رفاقي
وما أخطأ المتصرف في تعييني وأنا اسمي جميل القرفاقي

مهلاً مهلاً ليس هذا من الشعر ولا أحسبه إلا من البحر الأطلنكي أو من بعض المستنقعات. وليس الشعر كلاماً موزوناً مقفى فحسب ولو كان الأمر كذلك، لكان نثرهم كلاماً لا تعريف له مطلقاً ونظلم معاشر الشعراء متميزين عنكم بشيئين اثنين على الأقل هما الوزن والقافية ولكل جماله الموسيقي ووقعه في النفس. هناك يا صاحبي تخير الألفاظ ولو كنت تمارس صناعة الشعر لعلمت أن لفظة واحدة في البيت تجعل الفكرة صورة ناطقة وكياناً حياً خذ قول شوقي مثلاً في مطلع قصيدته عن زحلة:

شيعت أحلامي بقلب باكٍ ولمت من طرق الملاح شبكي
فلعلك ترى معي أن لفظة «لمت» هي واسطة هذا العقد وأنها لا يقوم مقامها أية
لفظة غيرها ولو لمت كل ما أتى به الناثرون من كلمات في معناها. وإن الشاعر حين ينظم
البيت ويعز عليه وجود الكلمة المختارة ليشعر أنها تراوغة وتماطلة وتدانيه وتباعده حتى
إذا هبطت في مكانها الذي اختاره لها تنفس الصعداء ومشى في قصيدته مضاعف النشاط،
الشعر إذن هو الجمل مقتنصاً الألفاظ.

مهلاً يا أخي فليس تخير الألفاظ من اختصاص الشعر وحده وإليك أمثلة من رائع
النثر قل لي بالله أية كلمة فيها يمكنك استبدالها بأخرى وأي وضع يمكنك رصفها فيه
أجمل وأكمل من وضعها الحاضر. في قول ابن المقفع:

من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه. فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه
محاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرفه ولن ينال محاسن غيره.
أو قول الفتح بن خاقان:

حملك في طي الجوامح ثابت وإن نرحت الدار وعيانتك في إحناء الضلوع بادٍ وإن
شحط المزار فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تتمتع من
لقائك بظفر اللحظ.

الشاعر: أنا أسلم معك جداً بأننا نتفق في اختيار الألفاظ ومراعاة التناسق ولكن
هذا قائم في الشعر بطبيعته وجزء من كيانه. وهو مكتسب في النثر اكتساباً ليدنيه من مرتبة
الشعر الذي هو أرقى مراتب الأدب؛ والمختص بالحفاوة في كل مكان وزمان. بقي عليك
أن تراعي الموسيقى التي يشيع أثرها في النفس عند تلاوة القصيدة أو الموشح هذه
الموسيقى الناشئة عن الأوزان وأنه عندكم يشال شيلاً. وإننا نتقيد بأصول وإنكم تتركونه
هملاً كالسوام. ثم ما لكم يا صديقي تمدون أيديكم إلى ما هو من اختصاصنا عن القافية.
ما بالكم خلقتُم لأنفسكم شيئاً سميتوه السجع وذهبتُم كلفين بجعل آخر الفقرتين من
قافية واحدة. ثم حدثني عن الغناء هذا الفن الذي لم تستغن عنه أمة من الأمم هل كان
الغناء في يوم من الأيام نثراً وقل لي كيف يكون موقفك من مغنٍ يرفع عقيرته مغنياً مقالة
افتتاحية في إحدى الجرائد، ألا تصفعه ناشدتك الله.

الناثر: لست أتردد في الاعتراف بأن ما في الشعر وما في النثر المسجوع من موسيقى
وقافية يسهلان الحفظ ويساعدان في الخلود ولكنهما لا يخرجان عن كونهما تصنعاً وتكلفاً

ألم تر إلى بعض الشعراء حين يأنفون من هذا التكلف يعمدون إلى قصائدهم فيرسلونها خالية من القافية مقلدين بذلك النثر.

الشاعر: لا أخالك يا صديقي مسجلاً علينا شيئاً حاوله المرحوم الزهاوي محاولة كانت فاشلة من أولها وردّها الشعر أنفة منها وترفعاً عنها وضناً بشاعرية الزهاوي السامية هذا ما كان من أمر الشعراء الذين حاولوا الانطلاق من القافية وأما كُتّاب السجع فهم طبقة معدودة عندكم وهم قوم أحبوا أن يكونوا شعراء وتطلعوا إلى سماء الشعر فلما وجدوه صعباً وطويلاً سلّمه قالوا - لنعد إلى النثر. فلما عادوا إليه إذا بهم قد فسدت ملكتهم الأدبية فخسروا الأولى والآخرة وتعزوا بقصة الغراب مقلد الطاووس.

الناثر: ولكن ألا توافق معي على أن سجع الساجعين لم يخلد منه إلا القليل وإن ذاك القليل خلد لا لأنه سجع بل بالرغم من ذلك. فأين المقامات كلها من صفحة من كليلة ودمنة. وعلى ذكر هذا الكنز النفيس أذكرك أن القصة طالت أم قصرت تجد لها في النثر مرعى خصيباً بينما الشعر محروم منها. وإليك هذه القصة التي تظهر فيها شهامة صلاح الدين:

كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منها الرجال. وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر وساروا به حتى أتوا إلى خيمة السلطان وعرضوه عليه. ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم. فقالوا: إنه رحيم القلب وقد أذنا لك بالخروج فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك. فخرجت إلى السلطان فلقيته وهو راكب وفي خدمته خلق عظيم. فبكت بكاءً شديداً ومرغت وجهها في التراب. فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه. ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها. فأرضعته ساعة ثم أمر لها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها.

الشاعر: القصة من اختصاص النثر لا أنكر ذلك عليك وإن كان الشعر العربي غير خالٍ من عناصرها. وليس للشعر أن يفصل ويبعث في الدقائق. وما من قصة طويلة إلا وأنت قادر على إجمالها بصحيفة أو اثنتين حين تحذف ذيولها وحواشيها. فما لي وما لطاولة في غرفة يصفها الكاتب في خمس صفحات من قصته ولو أراد الشاعر أن يصفها لاكتفى بكناية أو تشبيه أو استعارة وترك لخيالك أن يذهب حيث يشاء في أمرها. فهو أبداً يخاطب منك الحس ولا يسيء الظن بإدراكك وقوة تصورك.

النثر: والنثر ممثلاً في بعض الآيات والأحاديث والحكم والأمثال والتوقعات والرسائل، قد يوجز إلى حد يحار الإنسان عنده كيف يمكن لذلك اللفظ القليل أن يحوي كل ما فيه من المعنى.

انظر بالله كم من المعنى تنطوي عليه الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: 179]. أو رسالة النبي إلى هرقل التي جاء فيها:

«سلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين». أو توصية عبد الحميد بشخص حين يقول:

حق موصل كتابي عليك كحقه عليّ إذ جعلك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته وقد أنجزت حاجة فصدق أمله. أو في التوقعات:

حين وقع هارون الرشيد في قصة لأحد البرامكة أنبتت الطاعة وحصدته المعصية.

ووقع جعفر في رجل شكاه بعض عُمّاله «لقد كثر شاكوك وقلّ شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت». أو في الأمثال: جوع كلبك يتبعك. رب أكلة تمنع أكالات. قد ضل من كانت العميان تهديه. والحكم: من سلك الجدد أمن العثار. المرء كثير بأخيه. شر الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً.

الشاعر: هل أفهم منك أن النثر محاولة شعرية يعتمد فيها الكاتب إلى الكمال عن طريق الإيجاز وحُسن الوصف. وهو كذلك فيما أرى. بدليل أن القطع التي اخترتها لا تخلو من فقرات موزونة على بحور معلومة من بحور الشعر. وأراكم تزينون نثركم بشواهد من الشعر فتبثونها في أثنائه وما رأيت شاعراً يستشهد في قصيدة له بقطعة منثورة. وعلى الجملة فإن النثر - كما أستفيد من قولك - يعظم شأنه ويقوى أثره في النفس كلما دنا من الشعر واتصل به وتزلف إليه.

النثر: أرانا لا نفرق بين الشعر والنثر فلنعد إلى التعريف. لقد قلت إن الشعر كلام موزون مقفى فلم ترصّ ثم قلت إنه حُسن اختيار للفظ وحُسن إيقاع في الموسيقى فأريتكم أن في النثر من ذلك آيات باهرات فهل لديك على التعريف من مزيد.

الشاعر: كنت أريد لك أنك تمارس صناعة الشعر لتعرف من أسرارهِ وخفائهِ ما نعرفه معاشر الشعراء كما نمارس نحن صناعتكم ونجد من تمام أدواتنا أن نطلع على أسرارها ونعمل على إتقانها. فهناك الخيال وإليك ما يوقعه المتنبي في قلبك من الروعة حين يحملك على جناح شاعريته ويطوف بك فوق حصن الحديث وهو يقول لك:

أَتُوكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّمَا
خَمِيسَ بَشْرُقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لَيْسَنٍ وَأَمَّةٍ
تَقْطَعُ مَا لَا يَقْطَعُ الدَّرْعُ وَالْقَنَا
وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ
تَمْرِبُكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةٍ
النَّاتِرُ: نَعَمْ إِنْ فِي هَذَا لَخَيَالًا قَوِيًّا وَلَكِنْ اصْنَعْ إِلَى مَا فِي هَذَا مِنَ الْخَيَالِ وَاحْكَمْ
لِنَفْسِكَ:

«الْغَدُ بَحْرُ خَضَمٍ زَاغِرٍ يَعْجَبُ عِبَابُهُ وَتَصْطَخِبُ أَمْوَاجُهُ فَمَا يَدْرِكُ إِنْ كَانَ يَحْمِلُ فِي
جَوْفِهِ الدَّرَّ وَالْجَوْهَرَ أَوْ الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ.

الْغَدُ صَدْرٌ مَمْلُوءٌ بِالْأَسْرَارِ الْغَزَارِ تَحُومُ حَوْلَهُ الْبَصَائِرُ وَتَتَسْقَطُهُ الْعُقُولُ وَتَسْتَدْرِجُهُ
الْأَنْظَارُ فَلَا يَبُوحُ بِسَرٍّ مِنْ أَسْرَارِهِ إِلَّا إِذَا جَادَتِ الصَّخْرَةُ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ.

أَيُّهَا الشَّبَحُ الْمَلْتَمُ بِلْتَامِ الْغَيْبِ هَلْ لَكَ أَنْ تَرْفَعَ عَنْ وَجْهِكَ هَذَا اللَّثَامَ قَلِيلًا لَنَرَى
صَفْحَةً وَاحِدَةً مِنْ صَفْحَاتِ وَجْهِكَ الْجَمِيلِ. أَوْ لَا فَاقْتَرِبْ مِنَّا قَلِيلًا عَلَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ
نَسْتَشْفِ خَيَالَكَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا اللَّثَامِ الْمَسْبُلِ دُونِنَا فَقَدْ طَارَتْ قُلُوبُنَا شَوْقًا إِلَيْكَ وَذَابَتْ
أَكْبَادُنَا وَجَدًّا عَلَيْكَ».

وَقَوْلُ جَبْرَانَ: «أَنْتُمْ الْأَقْوَاسُ وَأَوْلَادُكُمْ سَهَامٌ حَيَّةٌ قَدْ رَمَتْ بِهَا الْحَيَاةَ عَنْ أَقْوَاسِكُمْ
فَإِنْ رَامِيَ السَّهَامُ يَنْظُرُ الْعَلَامَةُ الْمَنْصُوبَةُ عَلَى طَرِيقِ اللَّانِهَايَةِ فَيَلْوِيكُمْ لَكِي تَكُونَ سَهَامَهُ
سَرِيعَةً بَعِيدَةً الْمَدَى».

الشَّاعِرُ: وَهَنَّاكَ الْعَاطِفَةُ فَمَا عَسَاكَ أَنْ تَقُولَ فِي دَالِيَةِ ابْنِ الرَّومِيِّ الَّتِي يَرِثِي بِهَا أَوْسَطَ
بَنِيهِ:

تَوَخَّى هَمَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيئَتِي
طَوَاهِ الرَّدَى عَنِّي فَأُضْحِي مَزَارَهُ
فَلَلَهُ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعَقْدِ
بَعِيدًا عَلَى قَرَبٍ قَرِيبًا عَلَى بَعْدِ
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضَمَّ فِي اللَّحْدِ
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللَّحْدِ لَبْثُهُ

هذا من تعدونه يا معشر الشعراء شاعراً كبيراً ولكن بينكم من هانت عليه القافية لأن ذاكرته تعي حروف الهجاء كاملة ولكن شق عليه الوزن فراح يقيس أبياته بالمسطرة وإليك مثلاً قول القائل:

نرجوك يا عبد الوحيد المجيد الودود أن ترسل لنا سكة الحديد بالبريد وإليك أمثلة من النثر تفيض فيها العاطفة:

«أيها الناس أين المفر. البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنا عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاعة القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلك بعدة فقد كفيت أمره ولم يعزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلك قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه. واحملوا أنفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله».

وإليك خطاب مدحت باشا قبل إعدامه:

أيها الحكام استحلفكم بالله تعالى وباسم الحقيقة ألم يأتكم خطاب علوي عندما وقعتم على قرار إعدام المظلومين ألم يتحرك وجدانكم وترتجف أيديكم حينما حركتم الأقلام. أنتم في تلك الدقيقة وكلاء رب الموت. تفكروا جيداً هل شعرتم بإضراب في أفئدتكم. ألم يخطر لكم ما يحل بأهلكم وعيالكم من عواقب الظلم. ألم تعلموا أن حكمكم بالإعدام سيكون نقطة سوداء في بطون التواريخ يتلى جيلاً بعد جيل.

فإذن أيها الجلاد لا تخف أمامك من لا يهيم الموت في سبيل الدفاع عن الوطن - اقترب مني وضع جبل الإعدام في عنقي - وأنتم أيها الحكام سوف ترون عاقبة ظلمكم وسنلتقي بكم إن شاء الله أمام محكمة العدل الكبرى. اقترب أيها الجلاد اقترب ونفذ ما أمرت به فالحكم لله.

ثم اسمع إلى زياد يخطب: إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بها صلح به أوله - لين في غير ضعف وشدة في غير عنف وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حين يلقي الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم فئاتكم.

219 ولكن اعذرني حين لا تبلغ أمثلي حد الطغيان في العاطفة لأن الشر أداة العقل أولاً والعقل لا يسمح له بالشطط. والشر فوق ذلك يجمع بين الخيال والعاطفة كما في هذا:

فَإِذَا
بَدَأَ
فِي

«نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع». «نفسي طافحة بخمرها فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي». «ألا ليتني كنت شجرة لا تزهر ولا تثمر فألم الخصب أمر». «من ألم العقم وأوجاع ميسور لا يؤخذ منه لأكثر هولاً من قنوط فقير لا يرزق».

ليتني كنت بئراً جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من أن أكون ينبوع ماء حي والظالمون يجتازونني ولا يسقون. ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من أن أكون قيثارة فضية الأوتار في منزل ربه مبتور الأصابع وأهله طرشان.

ولكن تذكر يا صديقي أن الخيال مع جماله ضد الواقع وأن العاطفة مع نبلها تناقض العقل أحياناً وأن الإنسان عاقلاً خيراً منه مندفعاً وما أعظمه حين يبشر بعقيدة فيقنع وحين يقبس علماً فينير السبيل وحين ينقل خبراً فيوضح أمراً غامضاً. وإليك هذا المثل على الإقناع:

قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ويذل بعد الامتناع ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب تعبت به أيدي الأجانب من كل جانب. فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية. ولم نرَ منهم من صدق في دعواه بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه.

وها هو ابن مالك حاول نقل العلم في ألفيته كما كتب غيره الحساب والطب شعراء فيأله من شعر ما أبدعه.

الشاعر: أراد ابن مالك أن يسهل حفظها على الناس فلم يجد وسيلة خيراً من النظم وكذلك كانوا يفعلون في العلوم الرياضية والطبية وهذا ليس شعراً وإنما هو نظم لأنه لا يشتمل على ميزات الشعر التي قدمناها وهل يعقل أن تضع أبيات ابن مالك عن المتعدي واللازم والصحيح والمعتل والنواصب والجوازم في مرتبة قول أبي نواس مثلاً في الكأس والراح حين يقول:

تدور علينا الراح في عسجدية	حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها	مها تدرى بالقسي الفسوارس

فللراح ما زرت عليه جيوبهم وللهماء ما دارت عليه القلانس
 النائر: الكأس قبلتكم والكأس بدنكم وبنت العنب وأمثالها مثلكم العليا يا معشر
 الشعراء ولكن للنائرين مثلاً علياً أخرى منها قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
 تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]. وقول النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب
 لنفسه، أذ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك. وقول الحكيم: ينبغي أن تستنبط لزلة
 أخيك سبعين عذراً فإن لم يقبله قلبك فقل لقلبك ما أفساك.

الشاعر: وعندما المتنبي والمعري وشوقي قد حفظوا للإنسانية مثلها العليا بأوجز لفظ
 وأجل قالب وأبعده أثراً في النفوس. أما القول على القرآن والحديث فلسنا في مجال التناظر
 فيها لأنها فوق الشعر والنثر معاً ولأنها من كلام الوحي والنبوة لا الشعراء والكُتّاب.
 النائر: والآن إذا كنت لا تزال مصراً على تفضيل الشعر فهات تناظر كل منا بها
 ينتصر له أنا بشري وأنت بشعرك ليطم لك الفوز.

الشاعر: نترك ذلك للمستمعين وأدعو لك الله ألا يكون بينهم شاعر تستنفره الحمية
 للشعر فيسلط لسانه على النائرين بهجاء يدور مع الدهور ويخلد على العصور.



أبو العلاء المعري

هذه تذكاة عن تاريخ حياة المعري

وُلد أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان في المعرة من أبوين عريقين في المجد
 والعروبة وكانت ولادته سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للمسيح. ولما بلغ الرابعة من عمره
 أصيب بالجدري ففقد بصره.

وكان أهله ذوي علم وأدب واشتهر عدد منهم بالقضاء، فلم يهمل أمر صاحب
 الترجمة بل اعتنى به أبوه فعلمه. ثم ذهب إلى حلب إلى مقر أخواله آل سبيكة فدرس السنة
 هناك وكان لا يزال حدثاً إلا أنه كان فطناً ذكياً عجيب الذاكرة ويروى عنه من ذلك
 روايات لا تكاد تصدق؛ ولم يبلغ سن الرشد حتى خرج لغوياً أديباً، وشاعراً وكاتباً.

وفقد المعري أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره فكان أثر ذلك عظيماً في نفسه لما
 كان يراه من حذبه عليه وعنايته به. ورثاه يومئذ بقصيدته النونية التي يقول في مطلعها:

نقمت الرضى حتى ضاحك المزن فلا جادني إلا عبوس من الدجن
وفي هذه القصيدة تفلسف يدلنا على نزعة الشك والتشاؤم التي صحبتها في شبابه
وشيوخته ووسمته بتلك السمة الظاهرة.

وأتيح لأبي العلاء أن ينتقل في مدن سوريا ويتصل بمكاتبها المشهورة يومئذ فدرس
ما وقع عليه من الكتب في مكتبة أنطاكية واللاذقية وطرابلس ودرس اليهودية والنصرانية
وسمع آراء الفلاسفة ثم عاد إلى المعرة وقد بلغ العشرين من عمره فكان واسع الاطلاع
وافر التحصيل.

إلا أن التفاؤل في الدنيا - على ما لقيه من العمى وفقد أبيه - كان لا يزال في نفسه
شيء منه مما حمله على طلب الشهرة ببغداد فرحل إليها.

أبو العلاء في بغداد - الحالة في بغداد وسوريا

كانت الدولة العباسية في دورها الثالث، وهو الدور الذي كان الحكم فيه لبني بويه
في العراق ولبني مرداس في سوريا، وقد يتخيل إلينا أنه دور انحطاط عام وليس الأمر
كذلك: كان الانحطاط في سياسة الدولة فقد خرجت الحكومة من أيدي العرب إلى خليط
من الفرس والديلم. وجليّ ألا يكون لهؤلاء عطف على محكوميه فجاروا واستبدوا.
والنص على هذه السياسة في اللزوميات صريح جريء. وناهيك بما يتبع سوء الحالة
السياسية من رزايا على اقتصاديات البلاد واجتماعياتها وفي مثل هذا المحيط الفاسد المتبلد
بالرياء والكذب عاش أبو العلاء.

أما الحالة العلمية فكانت لا تزال زاهرة في مختلف الأقطار العربية: كانت سوريا
تتمتع بالنهضة التي قام بها سيف الدولة وكانت بغداد حافلة بالعلم ورجاله.

نزل أبو العلاء بغداد وهي غضة نضرة بما تشتهيه نفسه فغشى الجامعات العلمية ومنها
مجمع الشريف الرضى وأخيه الشريف المرتضى ومجمع محمد بن عبد السلام المصري ومجمع
الوزير سابور بن اردشير ومكتبة الحكمة التي أسسها الرشيد ولم يمض غير قليل حتى
طار صيته في الآفاق وكثر أصحابه وعارفوه.

وود أبو العلاء لو بقي ببغداد لو لم يكثر فضله حاسديه فيها. فقد قام من بين
الطبقات الراقية رجال ينالون منه ويغضون من قدره ولو استطاع أن يحتمل لما كان ذلك
بضائره شيئاً، ولكن فضل الرحيل عنها فرحل وفي نفسه شوق إليها ونقمة على أهلها وفيها

هو في طريقه إلى المعرفة نعتت إليه أمه فكان ذلك ضغناً على أباله عزم معه على الانقطاع عن الدنيا وطلب العزلة ليقضي ما بقي من عمره يقلب صفحات تذكاراته وتجاربه. هذه هي ناصية الطريق في حياة المعري التي وقف عندها ودار على شأله يستقبل ناحية السواد ولا يرى سواه.

عزله : هل كان فيلسوفاً؟

ونفذ أبو العلاء خطته الجديدة بدقة تامة فصرف وجهه عن متاع الدنيا زاهداً في طعامه وشرابه ولباسه. إلا أنه لم يكن في استطاعته ان يدفع عنه الناس ويعتزلهم فقد كانوا يغشونه في داره الحقيرة يأخذون عنه اللغة والأدب ويقتبسون من حكمته وآرائه الفلسفية.

نقف قليلاً لننظر فيما قاله طه حسين في كتابه «ذكرى أبي العلاء» مجيباً على السؤال: «هل كان المعري فيلسوفاً؟» يرى طه حسين أن تعريف الفيلسوف ينطبق على أبي العلاء ما دام الفيلسوف هو من كان له نظريات في الحياة يطبق عليها أعماله. ولا ننكر على طه حسين أن النظرة القديمة للفيلسوف كانت كذلك إلا أننا لو نظرنا إلى شروط الفيلسوف اليوم لرأينا أن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً لما يقتضيه ذلك من وجود نظام فلسفي ثابت لديه، يسير عليه نظرياً وعملياً والمعري لم يكن له ذلك بل جَلَّ ما حاوله أن يجمع بين ما اقتبسه من درس الفلاسفة والاطلاع على آراء الحكماء والعلماء ليؤلف لنفسه نظاماً فلسفياً جديداً فأخفق. فهو إذن مفكر حكيم، لا فيلسوف.

وفاته وأثاره

توفي أبو العلاء سنة ألف وثمان وخمسين وكان له من العمر خمس وثمانون سنة. وترك آثاراً قيّمة كثيرة لم يصل إلينا منها غير ثلاثة وهي: سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران وهناك بعض رسائل قصيرة كان يجررها إلى أهله وأصحابه في أثناء أسفاره.

شعره

مقابلة بين اللزوميات وسقط الزند،

المعري رجلاً: شاعر يتدفق عاطفة ومفكر ليس لقلبه سلطان على فكره إلا أنه فيما اعتقد قويت فيه ملكة النظم إلى حد هان معه أن ينظم العاطفة الصميمة والفكرة المجردة على السواء دون أن يكلفه ذلك كبير عناء. هو شاعر في سقط الزند، نظام في اللزوميات ولم يخل شعره في الأول من نظم متكلف كما أنه لم يتجرد من العاطفة في بعض ما التزم.

وأكد أنهم نفسي أحياناً بالجور في حكمي هذا على الرجل لعلمي ان الفلسفة شيء يقصر باعي عن تناوله وأن الحكمة وهي ضالة المؤمن لم أهد إليها بعد حتى التقطها حيث أجدّها ولكن سرعان ما أعود إلى الثقة بنفسي حين أقرأ لأبي العلاء رثاءه في الفقيه الحنفي ورثاءه في جعفر بن علي بن المهذب (وهاتان من سقط الزند) فيستخفني الطرب لما فيهما من فلسفة وحكمة!! لا أراي إذا قرأت قوله:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
قادراً على تفضيل هذين البيتين عليه:

لو أن كل نفوس الناس رائثة كراي نفسي تناهت عن خزاياها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها
أين الثريا من الثرى وأين الطبع من التكلف بل أين الإيجاز الخلاب من الإطناب
المتحمل الممل؟! .

«تعب كلها الحياة» كلمات ثلاث تغنينا عن أول البيتين برمته لا بل تستوقفنا رأساً لنفكر في الحياة وتعبها ثم تذهب بنا في سلسلة متصلة من العبر والتجارب تربط ماضيها بحاضرها فيأخذ كل امرئ منا على قدر ما ابتلاه من دهره حتى نعود إلى أنفسنا قائلين: «ما كان أحدٌ بصّر هذا الأعمى...!!» .

بينما في الحالة الثانية نقف لا لنفكر بل لنحل ألغازاً نحوية وأحاجي صرفية كأن نبحث عن خبر «إن» ونعلق الإضافات المتوالية والمجرورات بمتعلقاتها. فإذا تم لنا ذلك نقلنا البيت الأول على محك البلاغة والفصاحة فنفيها عنه الأولى لغموضه، والثانية لهذا القلق الظاهر في «رائية» وذلك الحشو في قوله «راي نفسي» بدلاً من «راي». ثم نأتي إلى البيت الثاني فنرى كلماته الكثيرة ليست بأكثر من معنى «الرغبة في الازدياد» فنترحم على أبي العلاء ونقول: الآن فهمنا، أراد أن يقول:

تعب كلها الحياة..... الخ

ويا ليتّه جمع في البيتين ما جمعه في البيت الواحد! فقد خسرنا ذلك التأثير البليغ الذي لا ينكر في قوله: «فما أعجب» وهذا العجب مفقود في بيتي اللزوميات.

لعلّي أظلم أبا العلاء في تدقيقي هذا ولكن ما الحيلة وقد وقعت له في مرثيته هاتين على كثير من آرائه الفلسفية في الموت والولادة والفناء والخلود فرأيتها - لما هي عليه من

الوضوح والبساطة والقصد إلى المعنى - أدعى إلى التفكير وأبلغ أثراً في النفس من ثلثي ما ورد في لزومياته عن تلك المواضيع حين عثاها وأشكلها وتكلف فيها تكلفاً ما كان أغناه عنه وما كان أقدره على اجتنابه.

من هنا نشأ نفوري من فلسفة أبي العلاء وحكمته في لزومياته ولعله السر في نفور الكثيرين من الفئة المتأدبة.

مبدأه

مبدأ أبي العلاء ديني، وفي لزومياته وغيرها قصائد ومقطوعات تدل على أن الرجل لم يتردد لحظة في الاعتقاد بوجود قوة غير منظورة تدبر هذا الكون. إلا أنه لم يشأ أن يعتقد بالنبوات والكتب السماوية؛ فتدبُّثُه فلسفي، خليط من (ما وراثية) أبيقور وأفلاطون وغيرهما. وكان يناقضهم في بعض آرائهم ويتبع البعض الآخر. هذا من حيث المعتقد النظري. أما القسم العملي من مبدئه فكان يقر ويعترف بترك الصلاة والحج وحمل حملة شعواء على رجال الدين أجمع وطعن في الفرق الإسلامية كالباطنية والإمامية والخوارج وغيرهم. وأراه أشبه بالشاعر الإنكليزي شلي في مبادئه. فقد كان هذا متديناً إلا أنه كان يرى الدين الحقيقي أعظم وأعلى من أن تحيط به سخافات الإكليروس وطقوسهم.

ومن هنا رمي أبو العلاء بالإلحاد وكذلك شلي. ولو أنصف القوم ما اتهموه لأنه متين في دينه ولكنه فرق ما بينه وبينهم أنه لم يسترح إلى معرفة الله حتى أشغل فكره بالبحث عنها والوصول إليها، وأما الآخرون فرضوا بها بلغة سائغة ألقموها دون أن تكلفهم شيئاً.

ولأبي العلاء في نقد الدين طريقتان: التلميح والمجابهة. أما التلميح فكان تلميح مقتدر شاك غير مجترئ على التصريح - لأنه أكثر ما اتبع هذه الطريقة في انتقاد النبوات والكتب والطقوس الدينية وبعبارة أصرح نقول أنه كان يلوح تلميحاً خفياً حين يهاجم أصول الدين الأساسية. وفي هذه الطريقة سخرية لازعة موجعة. وأما المجابهة فآثر ما نال بها الساسة والأئمة والزعماء وأصحاب الفرق فطعن عليهم وحاجهم وآلمهم.

والحياة عند أبي العلاء لا قيمة لها. وإن من كان يرى حياته مصيبة لجدير به أن يعجب من تعلق غيره بها، والرغبة في الازدياد منها. ونظرتة هذه ناشئة عن طبيعة التشاؤم التي تجسمت فيه أثر عودته من بغداد ولزومه بيته. ونتيجة هذه الطبيعة مبثوثة في شعر أبي العلاء كله. فقد هجا نفسه وتمنى الموت مراراً لوجوده في هذه الدنيا. ونعى على أبيه جنايته

التي ارتكبتها وهي أنه كان سبب وجوده. وقد زين للناس تجنب الزواج والاستكثار من متاع الدنيا ما جره إلى تحييد الرهبانية فقال: «ويعجبني عيش الذين ترهبوا».

والذي أراه أن أبا العلاء تجاوز حدوده وأخطأ لأن الشر ليس في التناسل والاستكثار ولكن في سوء التصرف الذي ليس بالصعب تلافيه إذا عمل الرجل والمرأة على تحصيل السعادة الدنيوية وعنيا بتربية نسلهما.

وأكثر ما نرى التردد في طبيعة أبي العلاء عند ذكر الموت والبعث والفناء. فقد كان يقف عند هذه الأمور واجماً. وهو أحياناً يذهب مذهب فلاسفة اليونان في أن الروح إذا فارقت الجسد تلاشت كما يتلاشى نور المصباح عند إطفائه. وهذا مذهب الماديين القائلين بأن الروح نار يخمدتها الموت. وتارة يذهب مذهب أفلاطون القائل بمفارقة الروح إلى عالم تلقى فيه النعيم أو العذاب. ولكننا نراه يشك في البعث مما يدلنا على ميله إلى الرأي الأول. ثم نراه لا يدري ما مصير الروح فيقول:

والروح أرضية في رأي طائفة وعند قوم ترقى في السماوات
وهو في صدر البيت يشير إلى القائلين بتقمص الأرواح.

أما العقل فقد كان أبو العلاء يعول عليه في كل شيء. وهو عنده مقياس، ما ثبت عليه كان حقاً وما تردد فيه كان باطلاً وهو يرى الناس يخادعون أنفسهم حين يقبلون كل ما قيل وما يقال وهم عنده اثنان «ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له».

الفرق بين التفاؤل والتشاؤم

الأحياء متفاوتون في الطبائع متباينون في الأمزجة. وكل حي يرى الحياة بحسب ما طبع عليه من الخير أو الشر. وبحسب ما ركب منه جسمه من حيث الصحة والاختلال. ومن هنا نشأت فكرة التفاؤل والتشاؤم.

كلنا رأى الناس وخالطهم ولحقته تجارب في حياته بين أثناءها الصالح والفاسد. إلا أن بيننا من يرى بالإمكان أن يجعل من الفاسد صالحاً إذا لم يرَ بالإمكان درءه. ويذهب إلى القول بأن الدنيا ملأى بالسعادة والهناء باسمه للجميع. فإذا ما عبست في وجهه يوماً وقعد به الحظ لم ينكر ذلك بل يعزوه إلى سوء تصرف من عنده أو إهمال نشأ عنه ما لحق به من الأذى فهو جاهد في تلافيه وتجنبه. هذا هو الرجل المتفائل الذي ينظر إلى الوجه المنير من الحياة.

غير أن هنالك من أساء الظن بالحياة ورآها زائفة ملأى بالشروخ خلاصة البروق ولم يعد يفكر في سبيل لإصلاحها لأن فسادها، على ما يعتقد، جوهري متأصل وليس بعرضي فاستحال الإصلاح ولا خير في البحث عنه. هذا هو الرجل المتشائم الذي ينظر إلى الوجه المظلم من الحياة.

أما الحياة نفسها فواحدة ثابتة منذ كانت إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

كاتبه/ إبراهيم طوقان



حديث إذاعي

كان عدد «هنا القدس» الخاص بمدينة نابلس قد صدر وتداولته أيدي القراء. فلقيني صديق ظريف فقال - ما أراكم صنعتم شيئاً حين عرضتم مدينة نابلس في مجلتكم ولم تشيروا فيها إلى ميزتين بارزتين من مزايا هذا البلد - قلت: عجيب... وما عسى أن نكون أغفلنا. قال: لقد أغفلتم الكنافة النابلسية فلم يرد لها ذكر؛ فخرج العدد تنقصه اللذة والحلاوة.. ولم تخصوا الطائفة السامرية بكلمة أو رسم فكان العدد خلوا من الطرافة والطلاوة.. قلت: هذا حق. أرجو أن أعوض على القراء بملحق لمجلة «هنا القدس» يأتيهم عن طريق الأذان بإذاعة خاصة فتتلافى هذا النقص الظاهر - قال صديقي - وأفضل من ذلك بعد أن يكون الملحق عن طريق الأفواه فالكنافة النابلسية لم تنل شهرتها بمجرد التحدث عنها أو وصفها كما أن الطائفة السامرية لا سبيل إلى معرفتها تمام المعرفة إلا بمقابلة خاصة مع رئيسها والتمتع بحلو حديثه وأنس مجلسه وأخذ المعلومات عن طائفته من فمه. وهكذا لم يكن بد من ذهابي إلى نابلس في زيارة خاصة حققت فيها الغائتين معاً فأكلت ما تيسر من كنافتها بالنيابة عن جميع المستمعين. ونقلت إليهم؛ حديثاً من رئيس الطائفة السامرية الكاهن توفيق أفندي. وبينني وبين الكاهن توفيق معرفة سابقة وكنت قد حضرت له مجالس كان فيها محور الظرف والأدب خصوصاً عندما كانت تنجلي عن مداعبات شعرية بريئة بينه وبين أحد الشعراء من مشايخ نابلس الظرفاء. وحسب المستمع من ذلك أن يعرف ما بين أهل نابلس وبين السامريين من المودة والامتزاج ورفع الكلفة. وفي الحق أن عادات السامريين الاجتماعية وتقاليدهم - بقطع النظر عن الشؤون الدينية طبعاً - فهم يتعاطون التجارة والصناعة كباقي الأفراد ويشتركون في أفراحهم وأتراحهم ويتهادون الهدايا ويتبادلون الزيارات وفيما عدا أهل السلك الكهنوتي منهم فهم

وأهل البلد سواء في ملابسهم وفي غدوهم ورواحهم لا يفرق الغريب بين أحد منهم كما أن المرأة السامرية تلبس الملاء وتلزم الحجاب أما ما يتميز به الكهنة فهو شعرهم الطويل المجدول معقوصاً تحت عمامة حمراء وهذه من الأزياء التي بقيت لهم من عهد العباسيين حين ميّزوهم كفريق من أهل الذمة بلون العمامة الأحمر.

لقيت الكاهن توفيق في دكان لأحد أفراد طائفته فبادلنا التحية وقلت له إنني في زيارتي هذه لنابلس لا قصد لي سواك. قال: خيراً إن شاء الله. قلت: خير أريد لمستمعينا حديثاً منك أطلعهم فيه على ما تروقه معرفته عن تاريخ السامريين وأحوالهم. قال: تفضل إلى منزلي حيث نشرب فنجان قهوة وأطلعك على بعض المخطوطات وتدون ما شئت تدوينه.

حي الياسانية في نابلس أيها المستمع الكريم حي لا يمت بأقل صلة لهذه الزهرة الجميلة العطرة التي يُنسب إليها. لعله سمي كذلك من باب تسمية الشيء بضده فهو عريق في قدمه تنفذ منه إلى طرق ضيقة وأزقة تنبعث منها الرطوبة ثقيلة مؤذية. ولعل بعضها لا يصح أن يطبق عليها نظام إطفاء الأنوار فهي في ظلام دامس بطبيعتها لا ينفذ إليها في رابعة النهار بصيص من أشعة الشمس. ولا تدع الرطوبة جدرانها وتكاثر أبخرتها سبيلاً إلى ضوء القنديل الضئيل أن يبرد من تلك الظلمات المتكاثفة.

في حي الياسانية هذا وبين تلك الأزقة والأحواش تقع منازل السامريين وفيها كنيستهم حيث تحفظ أقدم مخطوطة للتوراة عرفت إلى الآن. أما أنا حين ذهبت مع الكاهن إلى منزله فلم أكن غريباً عن تلك المنعطفات بل كنت أسير فيها وأنا أعلم تماماً كيف أنقل خطواتي وأين أضع قدمي. ومرت بي خطرة من خطرات الطفولة العابثة حين مررت بفاخورة فذكرت كيف كنت أمر وبعض أترابي فنرى الأباريق الطينية مصفوفة على جانبي الحوش قد أخرجها الصانع لتهويتها قبل وضعها في فرن الفاخورة فكنا نتخطف زعايب الأباريق الطرية ننزعها من مواضعها ونهرب بها تحت وابل من لعنات صاحب الفاخورة وشتائمه وأحجاره يقذفنا بكل ذلك جميعاً.

دخلنا المنزل صاعدين في درج قصير إلى ساحة سماوية وجلسنا في غرفة تحتوي على مكتبة فيها كتب مختلفة منها المخطوط ومنها المطبوع فعمد أحد أبناء الكاهن توفيق إلى بعض الكتب والدفاتر وأخذ يقرأ عليّ بعض صفحات من التاريخ السامري. فكان مما اطلعت عليه أن يعقوب عليه السلام اختار نابلس لسكانه ثم خصّ بها أعزّ أولاده يوسف عليه السلام

ونقل إليها رفاتة من مصر ولا يزال قبره فيها إلى الآن. والسامريون في نابلس يتحدثون من صلب أفرام بن يوسف عليه السلام أما الكهنة فهم من سبط أخيه لاوي.

وللسامريين في نابلس آثار كثيرة فمنها العمود الذي نُقش عليه عهد الملوك في زمن يشوع بن نون ولا تزال آثار الدرج الموصل بين العمود والهيكल الذي على جبل جرزيم ظاهرة.

وفي عهد الملك الظاهر بيبرس تحولت كنيسة السامريين إلى مسجد المعروف اليوم بـ «الخضرة» وفيه الغرفة التي خلا فيها يعقوب يبيكي ولده يوسف عليه السلام.

والسامريون اليوم في نابلس لا بل في جميع أنحاء المعمورة لا يزيد عددهم على مائتين وثلثين نفساً ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً. ولا سبيل إلى تزايد هذا العدد إذا لم نقل أنه يُخشى عليه من النقص. فالسامريون لا تجيز لهم شريعتهم الزواج من غيرهم حتى ولا من اليهود فأصبح النسل ضعيف البنية وإذا علمت أن السامريين لعدة أجيال خلت كانوا يعمرن كثيراً من قرى نابلس كعورتا وأماتين وبيت فوريك وسالم وروجيب وفرعطة وقيسارية وأن منهم جموعاً كبيرة كانت في غزة ودمشق وفي العراق وإذا علمت ذلك وعلمت أنهم تقلص ظلهم حتى أصبحوا يضمهم كلهم حي واحد صغير في نابلس أدركت ما يهدد هذه الطائفة من خطر الزوال والانقراض. ولقد ذكر تاريخ الدول الإسلامية أسماء بعض السامريين الذين شغلوا بعض المناصب منهم يوسف بن سعيد السامري وصدقة بن منجي ويعقوب بن غنايم وكانوا أطباء درس الأول منهم صناعة الطب على تاج الدين بن أبي اليمن الكندي وشرح الأخير كتاب الكليات لابن سينا.

حدثني الكاهن توفيق قال لم تفت الحكومة البريطانية عن مساعدة الطائفة السامرية والعطف عليها فقد حدث عندما أرادوا أن يجددوا بناء كنيستهم الحالية أن وجدوا بعض الصعوبة فأوصت جلالة الملكة فكتوريا الدولة العثمانية يومئذ بمساعدتهم وقدمت لهم منحة مالية لبنائها. واليوم وقد اضطروا إلى خروجهم من حيمهم القديم إلى ظاهر المدينة وذلك على أثر الأضرار التي لحقت بمنازلهم في حي الياسمينية بسبب الزلزال سنة 1927 وأصبحوا يخشون على توراتهم الأثرية الثمينة من التلف والضياع. وعندهم ما يثبت أن هذه النسخة من التوراة يرجع عهدها إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانٍ وسبعين سنة وأنها كتبت في جبل جرزيم بقلم أيشوع بن بنحاس بن العازر بن هارون أخي سيدنا موسى الكليم عليه السلام. ولغتها عندهم هي اللغة العبرانية الأصلية التي نزلت بها الألواح وتشتمل على الأسفار الخمسة الأولى وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية

وأكبر أعياد السامريين عيد الفصح وعيد الصوم يليه عيد العرش ولكل عيد طقوس دينية خاصة لها تراتيل بموسيقى متنوعة كما أن للأفراح والمآتم موسيقى خاصة بها وهي ليست مسجلة ولكنها تتناقلها الأفواه ويتوارثها الخلف من السلف.

«قدمت بين يدي هذا التأليف رحلة قمت بها من ست سنوات في أكثر أنحاء إسبانيا لأقرن الرواية بالرؤية وأجعل القدم نداءً للعلم ونويت أن أجعل الرحلة أساس الكلام وواسطة النظام وأن أضم التاريخ إليها. وأفرع التخطيط عليها».



حديث إذا عجي

هذه فقرة من مقدمة الكتاب الذي نراجعه هذه الليلة لمؤلفه عطوفة الأمير شكيب أرسلان عضو المجمع العلمي بدمشق وهو كتاب الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية وآثارها لم تزل مهوى فؤاد المؤلف منذ الصغر وفي شروح هذا الكتاب ومنتنه ما يدل على ذلك ويؤيده. وإن من يدأب على الاتصال بفرع من الفروع ويوسعه درساً وتنقيباً مدة تزيد على أربعين سنة ثم يتبع ذلك برحلة يتوثق بها من معلوماته ويحيل نظريه في آثاره الباقية وتتقرى يده رسومه العافية مثل هذا جدير بأن يعتبر تأليفه مرجعاً موثقاً ومصدراً يؤمن معه العثار والشطط.

وفي كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الضخم - وهي قريبة من الألف - أثر من الجهد الكبير الذي بذله المؤلف في وضعه والعناية العظمى التي أنفقها في تحقيقه وضبطه، فالكتاب «معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود» وما قال عنه المؤلفون قديماً وحديثاً عرباً وإفرنج.

تقع مقدمة هذا الكتاب في أربع عشرة صحيفة يفتتحها بديباجة بليغة يحمد فيها الله تعالى قبلة الكلام ويصلي على رسوله الذي جنب بني آدم عبادة الأصنام وسنمهم من التوحيد نعمة دائمة لا تريم وذروة عالية لا ترام ويذكر آله وأصحابه نجوم الهدى وبدور التهام الذين طلوعوا بخيل الله على المشرق والمغرب بسيف غير كهام ففتحوا عذارى الممالك وأدركوا غرر الأمانى بشدة الحزم لا بشدة الحزام.

ويرى المؤلف أن كل أمة من الأمم تجعل تاريخ سلفها هو العلم المقدم والدرس المقدس لما في ذلك من وصل حديث بقديم.. فإن كان الحاضر ماثلاً للماضي فمغزى

التاريخ هو حفظ التسلسل ومنع التخلف وإن كان الحالي مقصراً عن الحالي وقد عادت الدور أهله وذهب المجد إلا أقله كان درس تاريخ السلف أفضل حوافز الاستباق إلى الكمال ليقال للناسي - هكذا كان أباًؤك فأين إياؤك. وهذا ما فعله أجدادك فأين جهادك أيرضي أصحاب النفوس الأبية أن يقعدوا مع الخوالب وقد كان أوائلهم من السابقين الأول. أو أن يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين. وأية أمة أجدر بمدارسة هذا العلم من هذه الأمة العربية ذات التاريخ الأجد، والعز الأفعس، والعرق الأنجب، واللسان الأذرب، والجهاد الذي شرق وغرب، أيام ملأت من الدهر مسمعيه، وضربت كل جبار على أخدعيه، وفرضت الذلة على جماجم الأكاسرة، وأطارت النعرة من معاطس القياصرة..

وأنت ترى أيها المستمع الكريم أن الأمير المؤلف قد قام في مقدمة كتابه خطيب منبر وقائد عسكري، ببيان ساحر تفيض البلاغة من أسلوبه وتنهل الفصاحة من ألفاظه.

هذا ولم يدع المؤلف مرجعاً - عربياً كان أم إفرنجياً - إلا نقل ما قدر أن يعثر عليه فيه من الفصول المتعلقة بالأندلس. منهم المسعودي وابن حوقل والمقدسي والشريف الإدريسي وابن الأثير وياقوت ولسان الدين بن الخطيب والمقري والقلقشندي. ومن الإفرنج المستشرق دوزي الهولندي ورينو الإفرنسي وكوسيه وأصحاب الإنسيكلوبيديه الإسلامية وبعض علماء الإسبان عازياً الروايات إلى أصحابها مع التعليق عليها في الحواشي بما يعن له مخالفاً أو موافقاً.

وإنمالم للفائدة رأى تزيين هذا الكتاب بأطالس جغرافية ورصعه بتصاوير لم يسبق أن اطلع عليها العرب. وقد قسمه إلى قسمين - جغرافية وتاريخ - ولم يجب أن يملأ الكتاب بالأرقام وإحصائيات مما قد تمل النفس مطالعته.

ولندلّ المستمع على ما بذله الأمير المؤلف من الجهد في التنقيب عن الغامض من الروايات نورد هذه الفقرة التي علق فيها على قول المؤرخ الإدريسي حين ذكر أن شنت ماريا والفنت مدينتان كانتا في الإسلام منازل القواطم. علق الأمير شكيب على ذلك بقوله:

«غريب جداً ذكر الإدريسي هؤلاء القواطم بدون التعريف عنهم بشيء ولذلك لم يفهم هذه اللفظة أحد من مترجي كلام الإدريسي ومفسريه ونحن أشكل علينا أيضاً فهما ولم يذهب فكرنا إلى أنها القواطم بالفاء (بدل القاف) فالعلامة الدرزي يظن أنها

محرفة عن القواسم لأنه كان في الفنت فخذ يقال لهم بنو قاسم ولا يزال هذا الاسم يُطلق على مكان شرقي الفنت إلى اليوم فيجوز أن يكون قيل فيها بعد القواسم. ثم تحرفت القواسم هذه بطول الزمن إلى قواطم.. ثم يقول الأمير المؤلف وأنا أظن أن القواطم غير محرفة عن القواسم بل محرفة عن القواطن (بالنون) وذلك نسبة إلى عبد الملك بن قطن الفهري أمير الأندلس المشهور الذي كان قبل بني أمية. وأما انقلاب نون قواطن إلى ميم فإن بين الحرفين تبادلاً كثيراً كما لا يخفى فهذا وجه خطر ببالنا عن هذه اللفظة والله أعلم.

وفي هذا الكتاب عدا المعلومات الجغرافية المفيدة وتراجم الرجال الذين نبغوا في بلاد الأندلس وتحقيق الأسماء الإفرنجية وردّها إلى العربية عدا ذلك كله وثائق قيمة من صكوك البيوع والقروض وفداء الرقيق وتحريرهم مقابل أعمال يقومون بها عند مواليهم. وإليكم نموذجاً منها ولتطلعوا على كيفية التعامل عند أهل الأندلس.

جاء في صفحة 403 من الجزء الأول:

«قاطعت الجليلة دونة قلنبة ابنة الوزير الأجل دون غطار فرنندس أدام الله عزتها مع يعيش الخياط بن أحمد الغرناطي على حرية أسيرتها أم الهدى الجلياقية بهائي مثقال فنشيه وثمانية مثاقيل ونصف صرف خمسة عشر ديناراً كل مثقال ليبتني يعيش المذكور بأم الهدى المذكورة ويتخذها زوجته ويخدمان بطليطة في الذي يليق بهما دون رقيب عليهما ولا ثقاف. ويأخذان لأنفسهما فائدهما وعائدهما قل أو كثر ويؤديان الفدية المذكورة وذلك مثقالين اثنين كل شهر. وإن لم يتكمل كل ذلك بتمام الشهر الثالث حاشا مرض يّين يمنعهما عن الخدمة أو هربا جميعا أو خالطا قوماً سوا أو باتا بخارج طليطة بغير أمرها أو شرب يعيش المذكور خمرأ يخسران ما يتقدم لهما مدفوعاً. وترجع أم الهدى للأسر كما كانت أولاً.

ويؤدي يعيش الفدية على التنجيم (على التقسيط) وإن عجز على التأدية فقد فوّض للجليلة دونه قلنبة التقبض على جسمه ولا تسرحه إلا إذا أنصفها وعليه أن يهدي لها كلّ عيد من ثلاثة أعيادها هدية دون عذر ولا تأخير وأن يخطط لها بدون أجره لنفسها خاصة دون غيرها وتاريخ هذا الصك ديمبر عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف».

وللكتاب فهارس عديدة مختلفة. تقع في نحو تسعين صحيفة وتشتمل على مواضيع الكتاب وأسماء الأعلام وأسماء الأماكن من بلاد قرى وحصون وقلاع وأنهار وخلصجان وجبال وأودية بالفاظها العربية القديمة مع العلم بأن مقابل الإفرنجي وارد في هوامش الكتاب عند ذكرها محقق تحقيقاً دقيقاً.

وقد طبع الكتاب بمصر وتولت نشره دار الطبع والنشر بالمغرب. وهو على الجملة مشروع جليل سامي الغاية جزيل الفائدة وهو في الحقيقة «معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن الأندلس ذلك الفردوس الغربي المفقود».

وفي الأسبوع القادم (مساء الاثنين) نقدم للمستمعين نأذج طريقة مما اشتمل عليه الكتاب من الروايات والقصص وبعض تراجم الرجال والأشعار والأخبار وكلها لذيذ ممتع فإلى اللقاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



مراجعة كتاب عبقر

«قصيدة للشاعر شفيق المعلوف»

صدر حديثاً كتاب عنوانه «عبقر» وهي قصيدة تقع في نحو من 130 صحيفة من نظم الشاعر شفيق المعلوف. وفي الكتاب مقدمة بقلم والد الشاعر المؤرخ المعروف الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف نستطيع أن نعتبرها مرجعاً موثقاً لما قاله الكتاب والمؤرخون والشعراء في لفظة «عبقر» وما يتعلق بها من الكهانة والعرافة والسحر.

ويقول الأستاذ المؤرخ أن «عبقر» (اليوم لا نعرف عنها شيئاً إلا النسبة إليها في كل ما هو جيد.. حتى الظلم. إذ قيل فيه «ظلم عبقرى» وفي موضع آخر يقول في رؤية الجن).

من مزاعمهم أنهم كان يرون الجن ويظاهرونهم ويخاطبونهم فقال سمير بن الحارس الضبي يصف جنّاً نزلوا به وهو يوقد ناراً لطعامه فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه مما يدل على عدم أكلهم.

فقال: أتوا ناري فقلت منون قالوا - سراة الجن - عموا ظلاماً
وقلت إلى الطعام: فقال منهم زعيم: نحسد الإنس الطعاماً
لقد فضلتهم بالأكل فينا ولكن ذاك يعقبكم سقاماً

وفي الكتاب صور فنية للرسام الإيطالي فرنكو شيني وهي صور رمزية موفقة كل التوفيق ملائمة لمواقف القصيدة المختلفة نشير منها - بصورة خاصة - إلى رسم البلد

المرصود وعرافة عبقر. وهناك صورة فاتنة تمثل «أميرة الجن» عند الماء مستقبلة البدر بجسمها الذي تستره غلالة شفافة تصف جسمها وتنم على محاسنه الكاملة وأجزائه الياينة.

وحق لنا أن نفخر اليوم بما بلغه فن الطباعة العربية من إتقان في إخراج الكتب يتجلى لنا ذلك في كتاب عبقر إتقاناً ونظافة وحُسن ترتيب ووضوح حرف. على أننا لا نستطيع أن نكتب أسفنا من وجود جدول لبيان الخطأ والصواب في آخر كتاب صغير الحجم كعبقر. ولا ندري متى تتبرأ الكتب العربية من هذا العيب. ونتقدم الآن إلى القصيدة فنقول إنها تلخص في رؤيا رآها الشاعر في يقظته - وكل ما في يقظائه روى - أقبل فيها عليها شيطان شعره يسير تحت غمامة. وكان الشيطان:

في فمه من سقر جذوة منها يطير الشرر الثائر
ووجهه مججمة راعني أنيابها والمحجر الغائر
كأنها محجرها كوة يطلّ منها الزمن الغابر

ويطير به شيطانه والشاعر متعلق بفقار ظهره إلى عبقر حيث العرافة التي ولّاه الشعر شياطينه وإذا بها أمام مدينة عامرة:

غمائم زرق على متنها منازل جدرانها تسطع
جهاتها الأربع مرصودة تحرسها الزعازع الأربع

ورأى الشاعر عفاريت هذه المدينة وهي تدرج كالنمل على أصناف المطايا:

فمن يرايبع ومن أنعم إلى ديوك وعظايات
من كل قزم لا يمس الثرى برجله الصغرى المدلاة
نشابة القنفذ مزراقية وترسه ظهر السلحفاة

وهذا المشهد يذكرنا بمشهد مثله في رواية مجنون ليلى لأمير الشعراء حين يكون المجنون هائماً على وجهه فيصل قرية الجن ويرى فيها هؤلاء الأقزام والعفاريت تمتطي الزواحف.

ونعود إلى الرؤيا فنقول - مثل الشاعر أمام عرافة عبقر وهي عجوز شمطاء طواها

الكبر - :

تلفّ ثعباناً على وسطها يكمن في نابيه كيد القدر
ينبعث الدخان من شعرها ويلتظي في مقلية الشرر
فلما رأته دمدمت سخطاً لأنها لا تطيق مرأى البشر وقالت له:

وددت يا غادر لو أنني أطلقت ثعباني لا ينشني
عنك فيرديك ولكنني أخشى على الثعبان من غدرك
فليس هذا الصل بالأفعوان بل أنت يا إنسان
جعلت نفسك أعلى في الأرض ممن ربك
مادام حبّ الذات ينخرر في قلبك

ولا يخفى الشاعر خلافه من الموقف فيطلب إلى شيطانه أن ينتقل به من حفرة
العرافة فقد شعر - وحق له أن يشعر - أن:

للنفس في أوطانها حرمة ضائعة في غير أوطانها
ويعطف شيطانه عليه فيذهب روعه بزيارة أميرة الجن الحسناء الفاتنة:

حلتها كالضوء شفافة عن بشرة تزيد إشعاعها
كأنها الشمس التي كورت من حلقات النور أضلاعها
وقد سمعها الشاعر تغني نشيداً عذباً يفيض بها يكتنه صدرها من العواطف فتقول:

من لي بحب نوره ينبلج من شرر محتدم في المقل
من لي بثغر لاهب تنفرج ثغرتيه عن شعلات القبل
من لي بذئ قلب خفوق الج في صدره وإن يكن يختلج
لعاصف الموت اختلاج الشعل

ما نفع روح خالد عشت فيه إن كنت لم أحضن ولم أحتضن
يا حامل الجسم ألا أعطينيه وخذ إذا شئت خلودي ثمن
روحي لا تبلى فمن يرتضيه احمل ما في نفسه من شجن
وشاحي الناري من يشتريه فلإنني أبيع به بالكفن

وينصرف الشاعر مع شيطانه وهو في حيرة مما سمع ورأى ولسان حاله يقول -
أنشد نحن البشر الخلود. وها إن عالم الأرواح يتبرم أهله بخلودهم ويتمنون لو يكونون

رهن الفناء ويظل في حيرته حتى يمثل في حضرة الكاهنين سطيح وشق فيجد سطيحاً كما وصفه المؤرخون القدماء:

مخلّع جرّد من عظمه منذريه قال له كن فكان
رخو لو التف على نفسه لخلته فوق الثرى أفعوان
وأما الكاهن شق:

قد شقّ من أعلى إلى أسفل ولم يزل حيّاً بشطر الجسد
ويأنس بهما الشاعر ويتنزه الفرصة لينقل عنهما حكمة يعود بها إلى عالمه فيقول:
يا كاهني عبقّر هل حكمة أعدها للغد بين العدد
فيقول له سطيح:

هيهات أن يردعك الزاجر إن لم يك الزاجر من حكمتك
ثم يجدئه عن نفسه واختباره في الحياة ومصارعته للدهر حتى اكتفى كل منهما من
مصارعة الآخر وكانت النتيجة التي اكتسبها بالاختبار هي:

الحكمة الحكمة في بسمه تمخض الهزء بها في الشفاه
ويتحدث الكاهن شق عن نفسه وحياته ويرى أن نصف خلقته كافٍ له لاعتقاده أنه
لا حاجة للمرء بيدين اثنتين إحداهما تبني والأخرى تهدم - وأنه:

هيهات أن تستنير عين بعين إن لم تكن إحداهما مغلقة
وأما كونه بنصف لسان فقد أفاده السكوت والسكوت أفاده الحكمة وأما كونه
بنصف قلب فقد أقنعه ذلك لظفره بالنصف النير:

ولا كان قلب نـصفه أسود

وذا النصف المبتور من جسده إنما هو الأغصان الفاسدة أو هو مصادر الشر والله
وحده الكمال.

وينتقل الشاعر إلى غابة الحور فإذا منهن أشباح قد ذقن الهوى يحملن كؤوساً وهاجة
لا خمر فيها. هؤلاء هنّ بنات الهوى في العالم الفاني قد ألقاهن الله في الجحيم - كما قال له
شيطانه - «وسامهنّ الخسف والهوانا» .

يلغن في الجمر ويغيبنه غباً ويرشقن الشياطينا
أبر من أهل النار حتى إذا عجوا بباب الله شاكينا
زج بهم الله في عبقـر يلبوهم العقرينا

وقد سمعن الشاعر ينشدن في عذابهن فيقلن:

كان لنا شعاع أحداقنا فأقبل الليل وأطفاه
والجسد البض تركناه تدوسه أقدام عشاقنا

* * *

جلاسنا مضوا وأعراسنا حجبها الموت وغشاها
تفرقوا وانحطمت كأسنا والكأس - يا صاح - شربناها

ويجد الشاعر نفسه بعد ذلك وسط صحراء في عقر ملأى بالجهام والرمم البالية
ويخبره شيطانها أنها رفات الشعراء العباقره فإذا مات الشاعر منهم نقله شيطانه إلى هذه
الصحراء. ويرى (لشدة ذهوله) هذه الأرواح تغلغل صاحبه في الهياكل العظمية وتعيش
فيها بذكرى أحلامهم العذاب ويسمعها تحتج على ما يصنعه الأحياء بعدها من تخليد
ذكراهم في الهياكل الحجرية والأنصاب وتقول للشاعر:

قل لئلى يزخرف اللحد أزيمى لـ حـقـارهم
أرواحنا تبني قباب الخلود بغير أحجارهم
وتحـدج الوجـود بغير أبصارهم

كل ذلك لا يسر العباقره ولا يرضيهم وإنما الذي يهز رفاتهم ويرون كل أمانى الحياة
تفت في ثغره:

ولا تستطيب النجوم غـير تهاليلـه
وليس تبكي الغيوم من غير منديلـه
إنما هو «الحب» هذا هو هناء الأرض:

والأرض إن كانت جحيماً له وكان فيها تنها الأرض
بهذا الختام يخرج الشاعر من قصيدته العبقريه موقفاً ظافراً، موقفاً في أسلوبه وتنويع
قوافيه وأوزانه، ظافراً بإبراز فكرته كما أراد لها أن تكون. فكتاب عبقـر وناظمه الشاعر
شفيق المعلوم كلاهما نفحة من عبقـر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



ديوان ابن الساعاني

عني بنشره الأستاذ أنيس المقدسي

للجامعة الأميركية في بيروت أفضل كثيرة في نشر الثقافة عموماً، والعربية منها خصوصاً، تتجلى في نواح مختلفة من أعمالها. فهي فضلاً عما يتخرج فيها كل سنة من الأطباء والصيادلة وحملّة البكالوريا في مختلف العلوم والفنون، لا تنفك تجاري تطور الحركة العلمية والأدبية بما تخرجه هيأتها الثقافية من الكتب القديمة والمخطوطات القيّمة والمؤلفات فتحبي التراث العربي وتغني المكتبة العربية بما تقدمه إليها بطريق البحث والتحقيق والطبع الأنيق. ويبدو أثر هذه الحركة المباركة جلياً في ثلاث دوائر في الجامعة تجاري في هذا السبيل - اثنتان منها تفرغت للعلوم الطبية والعلوم الاجتماعية، تستمدان المساعدات المالية لأعمالهما من هبات سخية تردها من الخارج. وأما الثالثة فهي دائرة العلوم الشرقية تعتمد على قليل من المال - مع الأسف - تخصصه الجامعة لها من سنة إلى سنة. من أجل ذلك نرى أكثر ما تنشره هذه الدائرة إنما يقوم به الأساتذة في أوقات فراغهم. بينما ترى في دائرة العلوم الطبية ودائرة العلوم الاجتماعية أن قسماً من منهاج الأساتذة يخصص للبحث والنشر في دائرة العلوم الشرقية أن الأساتذة يقومون بالبحث والنشر مضافاً إلى منهاج التدريس الكامل... وعلى بعد ما بين تينك الدائرتين وهذه الدائرة من مجال التفرغ للعمل والإنتاج تجده هذه الدائرة الأخيرة بفضل نشاطها وحميتها ومحبتها لأن تخدم العلم لوجه العلم لم يقل خصيتها وإنتاجها عن أختها. فقد أخرجت حتى اليوم عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة فضلاً عما أخرجته بواسطة وقفية ثيودر في الجامعة من كتب تعتمد للدراسة في الصفوف العليا نخص بالذكر منها كتابي «أمراء الشعر العباسي» و«تطور الأساليب النثرية»، وكلاهما للأستاذ أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي في الجامعة.

هذا وقد خرج من الدوائر المذكورة ونشر مباحث شتى في الطب والكيمياء والاجتماع والتاريخ والأدب. فأنت ترى أن الغاية نبيلة ترمي إلى أن يكون لأساتذة الجامعة سهم في تعميم البحث العلمي والتنقيب عن الحقائق وخدمة العمل خدمة تتعدى نطاق الصفوف وكتب التدريس.

وإننا على اغتباطنا بما نراه من نشاط الباحثين اليوم في الجامعة وسواها وانتشار الروح الثقافية بين الطبقات المتعلمة في كافة الأقطار العربية، أقول أنه لا بد من أن تمد

حكومات هذه الأقطار يدها بالمساعدة فتكون أكثر حذباً على العلماء والباحثين، فإن الحكومات أقدر دائماً على التنشيط من الأفراد والجماعات وأجدر أن تعدهم بالمساعدات المادية والمعنوية.

هذه كلمة لم نجد بداً من إيرادها قبل أن نراجع ديوان ابن الساعاتي، أحد نتائج هذه الجهود الطيبة والحركة الثقافية المباركة.

كان الشاعر ابن الساعاتي في عصر شهد حالة لعلها أعنف ما تمخضت عنه العصور الإسلامية عن عاطفة الدين ووعي السياسة، في مزيج لم يكن من الهين حله إلى عناصره الرئيسية. فقد كان عصر النزاع بين الشرق والغرب وعهد وقائع فاصلة بين أن يصبح هذا الشرق وهو كله تحت سيطرة الغرب وبين أن يحتفظ بشرقيته وعروبه وإسلاميته.

لقد كان عصر الدولتين - دولة نور الدين محمود الشهيد ودولة خلفه صلاح الدين يوسف المشهور الأيوبي. بدأ هذا الانتباه الممتزج بالدين والسياسة، وأخذ يعنف ويشدد حتى بلغ الأوج الأعلى وأسفر عن وجه النصر المبين.

وتبعاً لهذا الانتباه واشتداده ونتائجه السياسية كان الإنتاج الأدبي يقوى وينشط ويكثر، وانفسح المجال لنبوغ الكتّاب والشعراء الممتازين بالجملة. فغير صاحبنا ابن الساعاتي لمع نجم ابن منير الطرابلسي وسبط ابن التعاويذي وعمارة اليميني. ومن الكتّاب القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني والإخوة الثلاثة أبناء الأثير - صاحب التاريخ الكامل، وصاحب جامع الأصول في أحاديث الرسول، وصاحب المثل السائر - وغيرهم. ودون أسامة بن منقذ في هذا العصر مذكراته في كتاب الاعتبار، وسجل ابن شداد القاضي سيرة بطله ومولاه صلاح الدين. فأنت ترى كيف يمتاز هذا العصر برجاله الكبار وآثاره القيّمة.

وتعليل هذا الامتياز يتضح عند استعراض بين سقوط بيت المقدس بأيدي الإفرنج سنة 487 هجرية إلى أن استردها صلاح الدين سنة 583. وهي فترة مئة سنة تقريباً.

كان سقوط بيت المقدس بأيدي الإفرنج بدء الانتباه. ثم تلتها أحداث جددت الآمال وأحيت العزائم ودعت إلى وحدة الصفوف والجهود، وأهم هذه الأحداث فتح الرها، معقل الإفرنج في الأناضول على يد عماد الدين زنكي. ثم فتح حلب وتشكيل دولة دمشق على يد ولده نور الدين محمود الشهيد، وتلا ذلك انتهاء الدولة الفاطمية ورد مصر إلى حظيرة الخلافة الإسلامية وكان من ذلك كله أن توحدت القوى المبعثرة توحيداً امتد

من أقصى العراق إلى أقصى مصر حتى لقد أوشك أن ينتظم بلاد المغرب، ومن سوريا شمالاً إلى اليمن جنوباً. وبنتيجة ذلك تحققت الغاية المنشودة من استرداد بيت المقدس، وكانت الكرة للشرق على الغرب ودحر النفوذ الغربي، إلا في موضعين أو ثلاثة، متخذاً سبيله في البحر سرياً.. في هذا الموجز مواطن لنشوة الاعتزاز بالظفر وميدان فسيح لازدهار الأدب بشقيه - من شعر ونثر - وخروجه حياً نقياً قوياً...

وابن الساعاتي من ثمرات ذلك العهد الخصيب، وهو ربيب الفتوح والعواطف المضطربة ونهضة أدبية لها طابعها الممتاز وألوانها الخاصة. فإذا قدم الأستاذ المقدسي الشاعر وديوانه إلينا فهو إنما يقدم لنا صفحة ذلك العهد في ديوان شاعر يمثل أدب عصره وحياته ومجتمعه، وكفى بذلك للأستاذ المقدسي فخراً وفضلاً.

بين يدينا الجزء الأول، وهو ما طبع إلى الآن من جزئي ديوان ابن الساعاتي. وقد افتتحه الأستاذ المقدسي بقائمة المصادر التي اعتمدها في دراسة الشاعر. وكنا نود أن نرى بينها كتاب «الروضتين» في أخبار الدولتين «لشهاب الدين أبي شامة» (وهو مقدسي أيضاً). وتظهر قيمة هذا الكتاب كمصدر حين يعرض الأستاذ في دراسته لذكر من مدحهم الشاعر ومناسبات المديح. ويلاحظ أن في الروضتين أبياتاً سقطت في الديوان، ولكننا نرجو أن تكون هذه الناحية مستوفاة في الجزء الثاني.

وبلي قائمة المصادر وصف شامل للمخطوطات الأربع التي اعتمدها الأستاذ في إخراج الديوان وتحقيقه. وفي هذا الوصف تتجلى روح العلم الصحيح والجلد على البحث والتنقيب والمقابلة. ولعل هذه الناحية أشق ما يعترض أمناء العلم في طريقهم إلى تأدية أماناتهم العلمية. ثم خص الأستاذ المقدسي الشاعر وديوانه بدراسة استوفاه في نحو ثلاثين صفحة كبيرة جاء فيها على نشأته وشخصيته ومزايا شعره، وهي دراسة تكاد تكون أدبية محضة تتناول حياة الشاعر بكثير من الحيلة والحذر لقلة ما بين يدي الأستاذ الباحث من المصادر التي تعنى بخصوصيات الشاعر ولاعتماده على استخراج صورة للشاعر من ديوانه وهذه الطريقة لا بد فيها من التأني بالحذر - على حد قول الأستاذ المقدسي - لئلا نرسم للشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليه تمام الانطباق. فإذا عرض لشعره، أخذ الأستاذ في عرضه على دواوين الشعراء الذين سبقوه فيراه شبيهاً بهم في أغراضه الشعرية «من مديح وفخر، وهجاء وثناء، ووصف ومجون» كما أنه «على جودة طبعه لم يأت بروائع توقد الشعور العالي وتملأ النفس بجلال الحياة». وإنما «قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية». ويستشهد على جميع ذلك بقطع يقتطفها من هنا ومن هناك... أقول،

من الإنصاف للشاعر ألا يحكم عليه هذا الحكم القاسي ما لم نقدم بين يدي هذا الحكم دراسة - إن لم تكن مفصلة، فمجملة - للنزاع الذي كان قائماً بين الشرق والغرب، وأي أثر ترك هذا النزاع في الناحية الأدبية. ثم نعرض قصائد الشاعر على ضوء هذه الدراسة فنحكم لها أو عليها بمقدار تمثيلها لذلك العهد قوة وضعفاً. وقد سبق للأستاذ أن اتبع هذه الطريقة في استعراض أمراء الشعر العباسي فقدم بين يدي دراستهم الخاصة بمباحث جليلة الفوائد، صور فيها عصورهم وما يتعلق بها من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية - عدا الناحية الأدبية.

وإنما للفائدة نورد لابن الساعاتي قطعتين تصوّران شاعريته مادحاً ومتغزلاً - فمن شعره يمدح الخليفة الناصر العباسي قوله:

لقد خلف المبعوث خير خليفة	قؤول لما يرضي الإله فعول
تذل له الأيام وهي عزيزة	وتصغر حيث الخطب وهو جليل
إذا سار سد الأفق والأفق واسع	رماح وبيض عصابة، وخيول
صقور جياذ والمواضي مخالب	لها وأسود والذوايل غيل
ومن كان نور الوحي فوق جبينه	ثنى كل طرف عنه وهو كليل
له شرف البيت العتيق وزمزم	وما ساقه حاد إليه عجول
لقد كان يوم الفتح للدهر غرة	ومنه شياه جمّة وحجول
كفيل برد الحق من مستعيره	له الله في كل الأمور كفيل
وقد يتداعى الظلم بعد انتشاره	ويعظم أمر الحق وهو ضئيل

ومن شعره في الغزل قوله:

حال في الحب عهدته وسلّوي ووعدته
 إن قسا قلبه عليّ لفقد لان قسده
 جاحد في الهوى دمعي وبه نمّ خده
 يا عذولي إن شفت جفني دمعي وسهده
 لي جسمي وسقمه وفؤادي ووجده
 لا تسلمي عن الهوى بي ما لا أحده
 وإذا كان هزله قاتلاً، كيف جدّه

هذا، وقد طبع ديوان ابن الساعاتي في بيروت طبعاً جميلاً نقياً، وشكّلت أبياته تشكيلاً قليلاً لضرورة الضبط - وجاء في هوامش الصفحات تحقيقات لرواية كثير من الأبيات بالمقابلة بين نسخ الديوان الأربع. أخذ الله بيد العلماء العاملين، وجزى الله الأستاذ المقدسي عن الأدب والعلم خيراً.

في 1 آذار سنة 1939

مختارات من مقالات إبراهيم طوقان

نُشرت في:

- جريدة الدفاع.
 - الجامعة الإسلامية / يافا.
 - جريدة كوكب الشرق / مصر.
 - جريدة الأضاحي.
 - جريدتي المعرض والقبس
- وفي هذا الفصل رسائل وردت إلى الشاعر
أو كانت إهداء لإبراهيم طوقان من شعراء
آخرين أحبوه وأحبوا أدبه.

جريدة الدفاع

يوم الجمعة العدد الأول 20 نيسان 1934

الصحافة المثلى

بقلم الأستاذ الشاعر إبراهيم طوقان

«تمجيد اللغة العربية أم الحضارة الإسلامية الزاهرة»...

هذا طرف من الرسالة التي تحمل «الدفاع» عبء بلاغها إلى الناس، وقبل أن أخوض في التعليق على هذه الفقرة أورد هنا فقرتين إحداهما للدكتور طه حسين من مقدمة كتابه الجليل (على هامش السيرة) قال:

«إذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعاً قيمياً خصباً لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما بل للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص فأنا سعيد موفق إلى بعض ما لدينا، وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم.. فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد».

وأما الفقرة الثانية فهي من مقال جريء نشرته مجلة الرسالة للأديب المرتيني من حلب. وفي المقال حملة نزيهة، صادقة على ديوان «النبوغ» للدكتور أبي شادي. جاء في هذا المقال:

«أنا أؤمن إيماناً واثقاً أن كلمات الشعر يجب أن تكون كالكلام المنزل، لو رفعت كلمة من بيت فلن تجد في اللغة بأجمعها كلمة تحل مكانها وتؤدي المعنى الذي كانت تؤديه الأولى...».

لم يكن لي بد من إطالة التمهيد بالاستشهاد لأنني أود أن ألفت النظر إلى أن أصحاب «الدفاع»، والدكتور طه حسين، والناقد الحلبي، قد اتفقوا على شيء واحد

ورموا هدفاً واحداً. وإنما اختلفت طرقهم في الرماية وضربوا الهدف كل من ناحيته: لقد أجمع الصحفي والأديب والناقد على أمر واحد وهو ضرورة الرجوع إلى القديم، والاهتمام بأسلوبه وإحياء تقاليده.

وقد يخال أن وراء ذلك شيئاً من الرجعية، وقد يكون هنالك من يعجب لفتور تلك الحركة الأدبية الهدامة التي كانت بالأمس القريب تحمل على المقلدين وتطلب التجديد في كل نواحي الأدب تفكيراً وأسلوباً، حتى بلغ (الحماس) ببعضهم إلى نبذ النحو والصرف.. فما عدا مما بدا؟! .

وفي الحق أن ليس في الأمر رجعية وما يحسب فتوراً إنما هو كبج لتجديد شيء فهمه فكان السير فيه إلى أبعد مدى وعلى غير هدى، حتى أصبح أمر الأدب العربي فوضى، وارتبكت أخلاط الآداب مختلفة العناصر، متسافحة الأساليب، متزندقة الآراء...

تقرأ لبعض الشعراء اليوم فتعجب لهم كيف يرضون لأنفسهم إذاعة هذا الشعر على الناس، وتعجب للصحافة كيف ترضاه لقارئها. وأنكى من ذلك بعد، أن يكون الموضوع تافهاً فيسمى ذلك بساطة... وترى فيه تخنثاً فينعت بالركة.. وتجد ثقل الدم في سائر أبيات القصيدة فيسمى متانة وبلاغة؟! .

فإذا أراد ذلك الشاعر أن يذكر وطنه أكثر من العويل كأنها ذلك عنده مقياس الشعر الوطني، وإذا أراد أن يتوجع لكارثة صب نقمته على الدهر وألقى التبعة على عاتق الزمان.. يا هذا، إذا كنت شاعراً فأين الصرخة الحافزة؟! أين النار؟! .

من واجب الصحافة أن تعنى كل العناية فيما تقدمه إلى قرائها وأن تتقي الله فيهم. إن الصحافة التي تعرف مثلها الأعلى تعلم أنها أمينة على جمهور قرائها، وأن في يديها شعوره وذوقه وروحه الوطني. الصحافة المثل لا ينبغي لها أن تنزل عن رغائب الجمهور وشهواته في كل حين، بل وجب عليها أن تكون مثل ذلك الطبيب الذي يعود المريض فيجده - وقد ضعفت نفسه - يطلب من ألوان الطعام أضرها به فيأمر له به ابتغاء مرضاته وهو يعلم أن المريض هذا إلى الجرعة المرة والحمية الصارمة أحوج منه إلى أي شيء آخر.

أقول ذلك وأنا على يقين من أن «الدفاع» ستكون شديدة الرقابة على ما يقدم إليها للنشر مبلغة لرسالتها في «تمجيد اللغة العربية» على خير ما يكون بلاغ الرسول الأمين.

نابلس/ إبراهيم عبدالفتاح طوقان



من كنوز الأدب القديم

بقلم الأستاذ إبراهيم طوقان

لم يختلف الرواة في تقديم امرئ القيس على سواه من شعراء الجاهلية كما أنهم لم يمنحوه لقب ملك الشعر إلا عن فضل في شاعريته يميزه بين الشعراء. والفضل واضح كل الوضوح حين تعرض لشعر امرئ القيس بألفاظه ومعانيه وإليك مثالين اثنين أحدهما للدلالة على أن الرجل كان بعيد المعنى دقيقه والآخر للدلالة على أن للكلمة في شعره وزناً إذا لم يكن العبقرية بعينها فإنه حجتها وبرهانها.

جاء في المعلقة «قفا نبك» قوله أنه هام بحب فتاة عزيزة الجانب لا يرام خباؤها فتمتع بزيارتها على مهل متجاوزاً الحراس الذين لا يألون جهداً في السعي لقتله وقد توصل إلى هذه الفتاة في حين تعرضت الثريا في السماء وذلك حيث يقول:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
وما زلت أحسب أن هذا البيت من أبيات الوصف العادية حتى اضطرت مرة إلى البحث والتعمق في أغراض القصيدة فرجعت مقرأً لامرئ القيس بملكيتيه في الشعر بمعنى «التوسط» وهو غير معنى «الطلوع والظهور» الذي يضعه الشراح لهذه اللفظة. ورجعت إلى خارطة فلكية أبحث عن «الثريا» فوجدت أن هذه المجموعة من النجوم تكون «متوسطة» في السماء في فصل الشتاء عند منتصف الليل، وفي وسع القارئ الآن أن يفسر البيت في أفق أوسع وعلى نور أسطع فيقول:

إن امرأ القيس قد وصف نفسه بالمغامرة وشدة الوجد، وهل أدلّ على هاتين الصفتين من قصده لحبيته مقتحماً كل عقبة حتى يصل إليها في منتصف الليل، في فصل الشتاء وناهيك بليالي الشتاء في الصحراء..! إنها لمغامرة حقاً وأنه لوجد شديد! وإنه لمعنى أخاذ وأما طول باعه في اختيار الألفاظ فإليك مثلاً منه، قال في المعلقة حين التقى بالحبيبة الأنفة الذكر:

هصرت بفودي رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ربا المخلخل
وقال في قصيدة أخرى:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ مئيل

والمقصود في البيتين لفظة (هصرت) والهصر هو التناول للأخذ بغصن الشجرة العالية لتناول ثمرها. فأصبحت الكلمة تفيد عدة أشياء:

1 - أن حبيبة امرئ القيس طويلة القامة.

2 - أنها لينة الأعطاف كالغصن.

3 - أنها ممتنعة ليست قريبة المنال.

وهذه معانٍ لا يمكن أن تفيدها إلا هذه اللفظة (هصرت)، فتأمل.

من هنا جاء قول الراجز: «الشعر صعب وطويل سلمه»، ومن هنا مصدر الدعوة إلى القديم، فإن فيه أسراراً ومحاسن لا سبيل إلى بلوغها والنسج على منوالها إلا عن طريق العناية بالأدب القديم.

نابلس / إبراهيم طوقان



جريدة الدفاع

1935 / 5 / 6

غذاء إن

عند أديب العربية

ما أشبه الليلة بالبارحة

كانت المحاولة الأثيمة لاغتيال الملك ابن السعود - حفظه الله - وأعجوبة نجاته منها، حديث الناس، وكنا في ضيافة طراز الأدب الأستاذ النشاشيبي. فقص علينا - بالمناسبة - حادثة شبيهة بها وقعت لبطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي:

كان صلاح الدين في إحدى حروبه ضد الصليبيين في شمال سوريا، وفي ذات يوم، بينما كانت المعركة حامية الوطيس، والملك البطل جمرتها، وقطب رحاها، انقض عليه فارس، طلع عليه من المقاتلين معه، يريد قتله، فحاد صلاح الدين عن ضربته، ولم يكذب يتيها حتى انقض عليه أربعة آخرون وفي أيديهم السيوف، ولو لم يكن بعض الجنود أسرع من المنايا إلى تفدية أميرهم لمزقه المقتالون بسيوفهم...!

ألقي القبض على المتآمرين وجرى التحقيق، وإذا بهم جماعة من الإسماعيليين قد دخلوا جيش صلاح الدين متنكرين بملابس جنوده وانتهزوا فرصة اشتداد المعركة

واشتغال الجند بالأعداء فأحاطوا بصلاح الدين فلم ينكر عليهم أحد فعلهم، فلما قاموا بتنفيذ خطتهم الهائلة ردّ الله كيدهم في نحورهم وحفظ للإسلام بطله الخالد صلاح الدين.

وحادثة أخرى:

قال أديب العربية حفظه الله: وثمة حادثة أخرى، أفاق صلاح الدين من فراشه ذات صباح وإذا عند رأسه خنجر قد غار في الأرض إلى نصابه، وقد نفذ نصله من صحيفة كتب عليها عبارة إنذار وتهديد من يكون الفاعل؟ كيف تجاوز المعسكر إلى خيمة الملك؟ كيف صار إلى فراشه وحوله من الحراس أيقظهم عيناً وأشدّهم جناناً؟!

لقد كان لهؤلاء الإسماعيلية من الوسائل والأساليب ما لا يقل دهاء ومغامرة عما لرجال دائرة الاستخبارات عند القوم..! وكان راشد الدين رأس الإسماعيلية عظيم النفوذ، واسع السطوة، شديد البأس يحالف الصليبيين على المسلمين خيفة صلاح الدين وحرصاً على سيادته أن تزول..! ومع ذلك فقد كان لصلاح الدين من بطولته الفذة وإخلاصه لدينه ولبلاده ما كفل له نصراً خالداً ومجداً مؤبداً، وبه حفظ الله الإسلام في أشدّ عهوده حرجاً وانقساماً. وما مسلمو هذه البلاد اليوم إلا بقية من نعمة أنعم الله بها على صلاح الدين جزاء جهاده في سبيله ودفاعاً عن دينه.

ثالثة الأثافي

ومن أعجب ما رواه لنا حفظه الله أن صلاح الدين كان في مجلسه وقد غص بالوزراء والقواد والحاشية، فاستأذن الحاجب لرسول راشد الدين يفاوض صلاح الدين في بعض الشؤون، فأذن له.

قال الرسول: لو شاء مولانا فصرف القوم لأن مهمتي خاصة فانصرف بعض من في المجلس وبقي صلاح الدين في وزرائه: قال الرسول: رسالتي تتعلق بالملك خاصة لا أبلغها سواه! قال صلاح الدين: ولكن هؤلاء رجالي وأهل مشورتي وبهم أقطع أمري.

وألح الرسول بطلب الخلوة فكان له ذلك، وخرج الوزراء ولم يبق غير الحارسين القائمين عند رأس صلاح الدين. قال الرسول: ولا هذان! قال صلاح الدين: لا! هذان هما حرسى الخاص لا يفارقاني في ليل ولا في نهار، هذا ومهما كان السر فهما مؤتمنان عليه قال: أو أائق أنت منها؟! قال: لا ريب عندي في ذلك، وما كنت لأرتاب في أحدهما لحظة واحدة في يوم من الأيام!!

التفت الرسول إلى الحارسين وخاطبهما قائلاً: «لو أمركما مولاي راشد الدين أن تقتلا صلاح الدين فماذا تفعلان؟!» فاستل كل منهما خنجره وصوبه بين كتفي مولاه صلاح الدين!! .

لقد كان كلاهما مستعداً لتنفيذ أمر راشد الدين!! .

بهت صلاح الدين لهذه المفاجأة المدهشة يفاجئه بها أخلص رجاله وأوسعهم اطلاعاً على أسرارهم، ولم يكن منه إلا أن يصرف الحاجبين ليسمع ما يمليه راشد الدين على لسان هذا الرسول.

وإذا علم القارئ ما كان لصلاح الدين من الهيبة في القلوب ومن المحبة في نفوس رجاله وأعوانه استطاع من هذه الحادثة أن يقدر ما كان عليه هؤلاء الإسماعيلية من الكيد والدهاء، وأن يعلم أن صلاح الدين كان يحارب الشياطين إلى جانب الصليبيين!! ولكنها «يد الله مدت وهو فيها المهند!!» .

كان الأستاذ الكبير يحدثنا بقلبه وجوارحه فيذهلنا عن بطون تنتظر مائدته الأنيقة وألوانها الشهية. وعند الأستاذ النشاشيبي فقط، تبطل الحكمة القائلة: «عند البطون ضاعت العقول». ولكننا لم نلبث أن وجدنا عنده عقولنا وبطوننا فظفرنا بالغذائين معاً.

أبو جعفر



جريدة فلسطين

11 حزيران سنة 1933

خواطر مريض

كلمة سياسية ...

لا أدري والله متى تنقطع هذه العلائق الودية غير المرغوب فيها بيني وبين الأطباء والمستشفيات. ولئن كانت هنالك «معاهدة صلح» بيني وبين معدتي فإنها لم تعقد إلا بعد إشهار السلاح وإراقة الدماء رغم المساعي الطبية التي بذلها الدكتور كميلين الجراح الألماني العظيم وطبيب المستشفى الألماني في القدس وقد كان بود الدكتور الجراح أن يسوي الخلاف بيننا على أساس «نزع السلاح»... ولكن تأبى المعدة إلا أن تكون مع الدول الكبرى على قدم المساواة حتى اضطرها ذلك العنت أخيراً إلى الإذعان وقبول ما فرضه عليها السلاح من تحويل في أوضاعها الجغرافية الأصلية.

وقد شاءت الظروف وكلها قاسية في هذه الأيام أن أدخل المستشفى المذكور مرة ثانية لمدة خمسة أيام. والسبب وعكة «في الأمعاء هذه المرة؟» نشأت عن مفاجآت لهذا الطقس المذبذب.. وقد كان لهذه المفاجآت الجوية، من برد وحر وهواء جاف ورطب، أثر على كثير غيري وإنما الأمزجة كما يعلم القارئ بعضها «خشن» يقوى على الاحتمال وبعضها «رقيق» جداً - ولا مؤاخذه لا تنجع فيه إلا عناية المستشفى...

في المستشفى ..

حان اليوم الذي أغادر فيه المستشفى متمتعاً بكامل الصحة والعافية والحمد لله. فأفقت في الساعة الرابعة صباحاً من نومة ابتدأت الساعة السادسة ونصفاً من مساء أمس..؟ وماذا عسى أن يصنع المريض غير الإخلاء إلى الراحة والنوم؟ ولعل في الفراش المعد للنوم دائماً وفي بقاءه تحت النظر مجلبة للنعاس المستمر.

للجرائد فضل على المريض لا يحجد، فهي خير تسلية له في تلك الساعات الطويلة المملة، تناولت عدد الأحد من جريدة فلسطين «وهو أحبها إليّ لأن فيه صحيفة أدبية..» فقرأته كله حتى إعلانات دائرة الإجراء وحفظت من عباراتها التركية «شمالاً تراً، شرقاً بودخي...» وتفرجت على الصور حتى إعلان البودرة توكالون، وصورة الكلب المصنعي إلى جرامافون «وكلام بسرك» اطلعت على التحرير «الشخصي» المرسل إلى أميل بخصوص الراديو.

من هنا يعلم القارئ مبلغ السامة المستولية علي وأنا وحدي في الغرفة أجيل بصري فأرى إبريق الماء الزجاجي فوق الطاولة الصغيرة وإلى جانبه صحن صغير فيه حبوب سوداء أمد يدي كل نصف ساعة فأتناول منها حبة «وأصرفها» بجرعة من الماء.

وهناك مرآة فوق المغسلة أمشي إليها متثاقلاً آونة وأخرى أقف أمامها متشاغلاً بالنظر إلى أسناني ولساني. وفي الغرفة صورة كبيرة في إطار وقفت أمامها مراراً ولا أعلم أنني فكرت دقيقة واحدة بها اشتملت عليه تلك الصورة ولو كان فيها ما يجلب الانتباه.. لحدثت القارئ عنه.

أكبر ما شعرت به من الضجر يوم قال لي الطبيب: «غداً تغادر المستشفى..» وفي المستشفى غد لناظره «غير» قريب..!

لذة النهوض المبكر

أتبج لي أيام إقامتي في المستشفى أن أستيقظ باكراً قبل شروق الشمس. كنت أستيقظ كل صباح على تحية الممرضة بلغة ألمانية عذبة، وسؤال رقيق فيه عطف وحنان عن

حالة نومي في تلك الليلة، وأية لغة مهما خشنت.. فإنها ناعمة ساحرة حين تنظم كلماتها شفاه وردية ساحرة، وأرد التحية بمثلها، وأجيب على السؤال شاكراً بلغة ألمانية كذلك، ولكن.. أين أذنك يا «غوتة» تنقل عني سحر البيان الألماني...!

النهوض الباكر متعة من متع الحياة لا يعرفه أهل الحواضر كالقدس ويافا، وآسف أن هذه المتعة لا تيسر لنا ما دمنا لا نعرف النوم الباكر بل أكثر ما تكون الحركة في الحاضرة عند المساء وتستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، نتردد بين سينما، وقهوة، وبار ونعود إلى نوم (كثيف) نستيقظ منه متثاقلين إلى العمل. نستيقظ والجسم لم يأخذ حظه من الراحة رغم النهوض المتأخر من الفراش، هي نتيجة السهر في الهواء الفاسد أو في الهواء الطلق المثقل بالندى..

في القرآن الكريم قسمٌ يشتمل على استعارة عجيبة وهي ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير:18]. استعارة «التنفس» للصبح لا يُقدر جمالها، فإنك لا تكاد ترى مخلوقاً من حيوان ونبات إلا وقد دبّت فيه الحياة وسرى فيه الانتعاش وإن الجهاد ليكاد يغمره المرح والانشرح حين يتسم له وجه الصباح.

من خلال الشباك

شباك الغرفة يطل على حديقة فسيحة الأرجاء تبيت على مناكب أشجارها الباسقة عصائب من الطير مختلفة الأشكال والألوان ولا يكاد النور يلامس أهدابها حتى تهب وتختلط أصواتها بعضها ببعض فمن هدير يجاوبه صفير إلى صرصر حادة يعقبها نقيق جاف عميق. وترى هذه الطيور تنتفض من ندى الليل حيناً وتنشئ ريشها بمناقيرها تارة فيتطاير في مهب النسيم الهادئ.

وأجل ما شاهدته في هذه البكرة طير السنونو الخفيف يصعد بجناحيه المضطربين محلقاً في الفضاء حتى يشرف على الشمس وهي لم تظهر من وراء الأفق بعد، فتعرف أنه شارفها حين تضربه بشعاعها تحت جناحيه فيتألق ريشها بذلك الشعاع وينعكس للناظر ذهبياً ساحراً. ثم يتخطف هذا الطير نفسه تارات لا تعد بين تحليق وإسفاف متقلباً على جسمه الضئيل بين ذلك، أو باسطاً جناحين كأنهما خنجران انحناؤ وتحديداً.

جناية عصر الغازولين

الحاضرة، ضجيج مستمر، وغبار لا ينجلي مشرب الذرات برائحة بنزين السيارات وزيتوها، وأنها رائحة كريهة حقاً ولكن العادة أنشأت بين هذه الرائحة وبين أنوفنا ألفة

وكونت في صدورنا مناعة قاهرة ضد الغبار وكدنا لا نعيش إلا في الضوضاء؟ فقدنا نعمة الصفاء والهدوء في عصر الغازولين وأفقدتنا «سرعته» الجنونية نعمة التأمل فيها يحيط بنا من فتنه الكون وسحر جماله ونعمة التفكير بما تقع عليه العيون من صنع الله وجلاله.

كنت في العام الماضي أساعد المستشرق الكبير الدكتور نيكل في الشغل في كتاب الزهرة وهو كتاب مخطوط يرجع عهده إلى زمن الخليفة المتوكل يشتمل على عدة آلاف من أبيات الشعر الغزلي مبوبة بحسب أبواب الحب وحالاته ودرجاته وبينما نحن نعد الكتاب للطبع بالقراءة والمقابلة مرّ بنا بيت لأحد الشعراء فيه لفظة «الحبوة» وكانت غريبة على الدكتور فشرحت له أنها كانت تُطلق على رباط يشده الجالس حول ركبتيه المنتصبين ليتمكن من جلسته وذلك حين يتوي إطالة الحديث على سامعيه. واشتقوا منها فعل «احتبى» لمن يجلس هذه الجلسة عاقداً الحبوة وتوقف الدكتور فترة كأنها يصور لنفسه هيئة الحبوة والمحتمي وما وراء ذلك من معنى الهدوء والتأمل وكأنها أخذ يقارن بين تلك الأيام البعيدة وما فيها من صفاء وسكون وبين أيامنا هذه وما فيها من كدر وضوضاء لا حد لهما. توقف الدكتور فترة ثم هز رأسه الأسمط وقال بلغة عربية فصحي: «ما أحوالنا في هذه الأيام إلى تلك الحبوة!».

مرت بي هذه الخواطر وأنا أمام الشباك أطل منه ساهم البال على الحديقة الفسيحة وقد ملك علي صفاء الجو وهدوء الصباح جميع حواسي.

ولم تمض ساعة حتى استيقظت القدس تعكر بسياراتها ذلك الصفاء وتخرق حرمة ذلك الهدوء وليست السيارة بالجناية الفريدة على الصفاء والهدوء فكم للمدينة عليها وعلينا من جنايات!.

نابلس/ إبراهيم طوقان



جريدة فلسطين

1936/1/12

حقائق مجهولة في حياة المنبجي

للشاعر الكبير الأستاذ إبراهيم طوقان

صدر عدد يناير من مجلة المقتطف الشهيرة وهو «يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا فهو في موضوع واحد ولكاتب واحد. أما الموضوع فأبو الطيب

المتنبي وأما الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر» ولا أظن المناسبة خافية على القارئ. فإن ذكرى الشاعر لمرور ألف سنة على وفاته كانت أهم الحوادث الأدبية التي سجلها عام 1935 وكان الشاعر فيها هو بعينه ذلك الرجل الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس».

المتنبي عند مؤرخيه شاعر يتعاضم وليس بعظيم ويتظاهر بالقوة والشجاعة وهو الضعيف الجبان ويشكو لوعة الحب وتباريح الشوق ويبكي على فراق الأحباب وما هو بعاشق وما دموعه إلا دموع التماسيح... هذا هو المتنبي عند مؤرخيه منذ كان وإلى يومنا هذا حتى طلع علينا الأديب المحقق والعالم المدقق والأستاذ محمود محمد شاكر فإذا المؤرخون إما متخرص حسود، أو خصم لدود، أو جاهل مدع، أو ناقل عن أحد هؤلاء من غير تمحيص ولا تحقيق... جاء الأستاذ محمود فأنقذ المتنبي من هؤلاء جميعاً ورفعاه إلى مقامه بين أشراف الناس ودهاة الرجال وعباقره الأدب. ولم يكن الكشف عن حقيقة المتنبي بالأمر الهين، بل كان لا بد للباحث أن يكون شاعراً، عليمًا بأسرار اللغة وبلاغتها، كامل الاطلاع على تاريخ العصر الذي نشأ فيه أبو الطيب محيطاً بحوادثه ومشكلاته السياسية ونزعاته الحزبية، حتى إذا قام ينقض ما قرره المؤرخون منذ ألف سنة تناوله بيد الجبار من أساسه، ثم أخذه بمعوله أخذ عزيز مقتدر... بهذه العدة المستكملة تقدم الأستاذ محمود محمد شاكر يؤرخ المتنبي من جديد، وهذه الثقة بالنفس أخرج إلينا الكاتب النابغة حياة المتنبي في أصدق ألوانها وأسطع حقائقها.

وإليك حقائق أربع كانت مجهولة في حياة المتنبي فأنكشفت وأثبتها الكاتب بما لا سبيل إلى دفعه من البيئات والبراهين.

أولاً: المتنبي شريف من أشراف العلوية «العربية» وليس ابن سقاء مغمور النسب كما اشتهر عنه:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظم
وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

ثانياً: ادعائه النبوة إنما نبز به نبزاً، ولم يكن حبسه من أجله بل من أجل دعوى العلوية تلك - وهي حق له ولجدته نشأ على المطالبة به والسعي لاسترداده. وكان القبض عليه وحبسه سنة 322 ولكنه لم يلقب بالمتنبي إلا بعد سنة 325 وكان حاسدوه قد كثروا ورأوا كوكبه لا يزال صاعداً.

ثالثاً: المتنبي داعية سياسي اشترك في العمل لإنقاذ العرب من العجم والترك والديلم، وإقامة دولة عربية «علوية» خالصة ولم يكن ممدوحاه بدر بن عمار، وأبو العشائر

الحمداني إلا بعض من آنس بهم هذه النزعة ورأى عندهم هذا الأمل ولم تكن صلته بسيف الدولة صلة مادم بممدوح فحسب وإنما كانت صلة سياسية أيضاً وراءها خطة انقلابية تترقب الفرص لتنفيذها. هذا، ويكاد يكون قتله تخلصاً منه كداعية سياسي خطير، لا كشاعر هجاء.

رابعاً: المتنبي عاش صادق الوجد واللوعة. «وما من مؤرخ إلا نفى عنه صفة العشق...» أما معشوقته فهي خولة أخت سيف الدولة الحمداني وكان يرجو أن يتزوج بها عن رضى أخيها. وكان هذا العشق سبباً لما لحقه من الاضطهاد والتعرض للقتل من قِبَل أبي العشائر وأبي فراس الحمدانيين:

متى تزر قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والأسل
مما أدى إلى هجر بلاط سيف الدولة ورحيله إلى مصر:

رحلت، فكم باكٍ بأجفان شادن علي، وكم باكٍ بأجفان ضيغم
وماربة القرط المليح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمم
فلو كان ما بي من حبيب مقنع عذرت، ولكن من حبيب معمم
رمى وأتقى رميي ومن دون ما أتقى هوى كاسركفي وقوسي وأسهمي
وماتت خولة وهو في العراق بعيد عنها فانهارت صروح آماله بالزواج منها:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بأمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
هذه حقائق أربع في حياة المتنبي أثبتتها الأستاذ محمود محمد شاكر بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة. فغير بذلك وجه التاريخ في حياة شاعر العربية الأواحد وعلم الشعر المفرد.

«والذي يقرأ هذا البحث يقول الأستاذ صروف في مقدمته ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبي متدبراً تنكشف أمامه معاني شعره وصلتها بنفس صاحبها من ناحية، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى» وإذا كان الموت لم يمهل المتنبي حتى يتم له قوله:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التأموا مرد
فإن الأستاذ محمود قد طلب له ذلك الحق بعد ألف سنة وأدركه وظفر له به بالصبر على البحث والدأب في التحقيق فانهار ذلك الصرح المرمود من الأكاذيب التاريخية والتخرصات التي كانت ألحقت بحياة الرجل الكامل العظيم.

لم يأت الأستاذ محمود محمد شاكر في هذا العدد من المقتطف على كل ما لديه من الحقائق عن المتنبي وإنما أجل ذلك إجمالاً في (168) صحيفة «وليس هذا العدد الكامل إلا موجز سفر في المتنبي ينوي أن يجعله في أربعة مجلدات أو أكثر».

هذا فتح مبين في عالم الأدب العربي نهى عليه الأستاذ محمود محمد شاكر ونستقبله وما يليه بقلوب ملؤها الابتهاج والرجاء.

نابلس/ إبراهيم عبدالفتاح طوقان



جريدة فلسطين

العدد 284-3168

الأحد 2/2/1936

مسنشق

للشاعر الكبير الأستاذ إبراهيم طوقان

كنت مدرساً في جامعة بيروت الأميركية يوم قدمني أحد زملائي الأساتذة إلى المستشرق الدكتور «نيكل» وهو يقول: أرجو أن تجد عند صديقنا الشاعر ما يسرك من الاطلاع على الشعر الغربي ونوادير العشاق.. وصافحني الدكتور المستشرق وهو يرد على زميلي عبارات الشكر بلغة عربية فصيحة تنذبذب نبراتهما بين اللهجة المصرية والمغربية.. والتقينا في ذلك المساء على مائدة العشاء فعلمت أنه يشتغل في معهد شيكاغو الشرقي وأنه تخصص في الغزل العربي، فهو يتنقل بين عواصم الشرق والغرب باحثاً في مكاتبها الكبرى عن الكتب المتعلقة بموضوعه، وكان من نتيجة ذلك أن ترجم إلى اللغة الإنكليزية كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي نقلاً عن المخطوطة المحفوظة في «بترسبرغ» «لينغراد اليوم» والكتاب يبحث في الحب وأدواره والمحبين وأحوالهم، أما عمله الثاني فقد كان على نية الابتداء بتصحيح كتاب «الزهرة» لابن داود الأصفهاني وتعليق حواشيه وتنظيم فهرسه، وكتاب «الزهرة» هذا لم يجد منه غير نصفه الأول في نسخة فريدة محفوظة في دار الكتب المصرية، وعسى أن أحدثك عن هذا الكتاب في فرصة أخرى.

ولقد شوقني الدكتور المستشرق بحديثه عن كتاب الزهرة إلى الاطلاع عليه، فكان لي ذلك، رأيت عند الدكتور نسخة فوتوغرافية للكتاب وقد أخذت صورة واضحة لكل صفحة من صفحاته، ثم حبكت هذه الصفحات وجلدت كتاباً.. وكنت ألمح أخطاء نسخة هنا وهناك حين أخذت أتصفح الكتاب فأنبهه إلى صحيحها أو أرده إلى مرجع

ضبطها، ولم تمض بضعة دقائق حتى دعاني إلى العمل معه في تصحيح الكتاب وإخراجه باسمينا معاً، وبأشرنا بالعمل في اليوم الثاني وعدّل الدكتور برنامج رحلته الأدبية فأقام في بيروت سبعة أشهر بدلاً من أسبوعين، وكان مقدار ما نعمله يومياً لا يقل عن أربع ساعات.

كانت هذه المرة بصحبة الدكتور «نيكل» كافية لتعطيني صورة جلية عن المستشرق المخلص، المتفرغ لأعماله، الواقف حياته عليها، ورأيت من جلده على البحث والتنقيب والصبر على معرفة التفاهة والجليل من الأمور ما أدهش له وما يضايقني أحياناً، فربما قرأنا عشرات الكتب للتثبت من بيت الشعر الواحد وللوقوف على رواياته المختلفة ونسبته إلى قائله، فندوّن كل ذلك ونعلق على الحواشي المفيدة، وللدكتور في ذلك من الملاحظات الصائبة ما ليس يخطر على بال.

لم يكن عجباً عندي بعد الذي رأيته من صبر هذا المستشرق وجلده أن يتوصل إلى ما توصل إليه من النظريات القيّمة، فالقارئ الأديب يعرف النظرية القائلة بأن عرب الأندلس قد نقلوا فن التوشيح عن الإفرنج، ولكن الدكتور يقول بعكس ذلك ويرى أن أصل الشعر الإفرنجي يرجع إلى عرب الأندلس، فهم مبتكرو هذا التوشيح والبالغون فيه إلى ما نراه من اللطف والدوق، وفي مقدمة «طوق الحمامة» يعلن الدكتور رأيه هذا ويدعمه بالمقنع العجيب من البراهين ومقابلة الشعر بالشعر والأوزان بالأوزان!!.

وكان أغرب ما عرفته عن تفرغ المستشرقين وانصرافهم إلى فروع اختصاصهم أننا في أثناء عملنا في كتاب «الزهرة» افتقدنا صحيفة من صفحاته فلم نجد لها، ولم يترك الدكتور «نيكل» موضعاً بين كتبه وأمتعته إلا بحث فيه عنها وكأنها سهواً المجلد عنها فسقطت من الكتاب، فاقترحت عليه أن يكتب إلى دار الكتب المصرية في طلبها، وفي اليوم الثاني لم يكن الدكتور معنا على طعام الفطور وافتقدته كذلك على الغذاء والعشاء وكنت أسأل عنه زملائي الأساتذة فلا أجد بينهم من رآه، حتى كان اليوم الثالث فإذا به على المائدة، فقلت له: أطلت علينا الغيبة يا دكتور خيراً إن شاء الله - قال بلهجة الظافر: كل الخير، هذه هي الصفحة الضائعة.. فقلت هنيئاً لك أين وجدتها، قال: «ذهبت إلى القاهرة وأتيت بها من دار الكتب، وقد أخذت القطار أمس مساء فصبحت حيفاً وها أنذا!!!».

يقول ذلك كأنها ذهب من الجامعة إلى رأس بيروت، ولا تسل سيدي القارئ عما استولى عليّ وعلى إخواني من الدهشة والاستغراب.. لقد كان الدكتور «نيكل» في عمله

مثال الإخلاص الأعلى لعلمه وأدبه والغاية التي ما بعدها غاية في التفرغ إلى أبحاثه وناحية اختصاصه.

نابلس/ إبراهيم عبدالفتاح طوقان



الجامعة الإسلامية

عدد 257

19 أيار 1933

ففي سوق الكتب

كتاب الأغاني

قالوا - والعهد عليهم - إن كتاب الأغاني قد أغنى صاحب بن عباد عن ثلاثين حملاً من الكتب كان يصحبها في رحلاته!! وأنت بين أن تدفع هذا القول بتاتاً وبين أن تعلله فتقول: لعل أحماهم في القديم كانت صغيرة الحجم جداً. أو لعل كتبهم كانت كبيرة الحجم جداً حتى أن الدابة لا تستطيع أن تقوم بأكثر من كتابين! أو لعل القوم كانوا يحملون أثقالهم على الغنم والماعز.؟ وعندي أن ترفض هذا التعليل وتعتمد إلى الرواية فتبدل لفظة «حملاً» فتجعلها «كتاباً» وبالرغم من هذا المسخ فإن كتاب الأغاني وحده يظل مغنياً عن ثلاثين كتاباً وما هذا والله بقليل!.

وكتاب أدبي هذا غناؤه، ينبغي له أن يكون وافر المادة، متنوع الأسلوب والموضوع، جذاب الوضع، وينبغي أن يكون لصاحبه أبي الفرج الأصفهاني من الذوق أعلاه، ومن الجلد على البحث ما لا يدرك مدهاه. أضف إلى ذلك كله علماً غزيراً وتفهماً لمرامي القول والنكتة عجباً.

ونفهم من مقدمة الكتاب أن الخليفة هارون الرشيد قد أمر أن تشكل لجنة فنية برئاسة زعيم المغنين ونابغتهم الموصلي فتضع حداً لفوضى الغناء وتجعله فناً له أبواب وأصول يرجع إليها ويعتمد عليها، فيتم ذلك بأن اختارت اللجنة مئة صوت، ثم اختارت من هذه المئة عشرة أصوات ومن هذه العشرة ثلاثة فكانت اللجنة رأت هذه الأصوات «المئة المختارة» محيطة بكل الألحان المعروفة لعهدهم وأما ما عداها فتبع لها ومأخوذ عنها. ومهما أبدع المغنون وابتكر الملحنون فلا يحصى لهم عن دائرة هذه الأصوات.

وجاء أبو الفرج في أيام سيف الدولة الحمداني صاحب حلب فعمد إلى الأشعار التي اختاروها «لتقييد» الأصوات فترجم شعراءها وإلى المغنين فترجمهم كذلك ولم يدع

من أخبارهم شاردة ولا واردة إلا دونها ولا ترك حادثة أو مناسبة قبل ذلك الشعر بسببها إلا أتى عليها وإذا بمجال القول يتسع، وإذا بالكتاب دائرة معارف أدبية تاريخية، وإذا به دنيا تغمرها الحياة على اختلاف ألوانها... هنالك الجاهلية في خشونة عيشها وحميتها وصفاء ذهنها، وصدر الإسلام في بساطته وتقواه، وفي فتنه الداخلية وفتوحاته السريعة الباهرة، والأموية في عربيتها وعصبيتها وجبروتها، والعباسية في فارسيته، وترفها وفقرها ونظامها وفوضاها، وهنالك الحجاز وفيه الأبطح، ووادي القرى والعقيق والخيف ومنى.

ثم العراق وفيه المربد والرصافة والكرخ وهيت وعانات. وهنالك معبد والغريض الميلاد، نعم، وعمر بن أبي ربيعة وصاحب العجيب ابن أبي عتيق، وجريير وصاحباه، وجميل وكثير، والأحوص وقيس الرقيات ونصيب. وأذكر في الكتاب بشينة وعزة، وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة «فتنة عصرها جمالاً وكمالاً» والثريا، ونعم، وهند والرباب، وسواهن من الكواكب العرب الأتراب.

فإذا انتقلت إلى بني العباس استقبلك الموصل و ابنه، وزلزل وإبراهيم بن المهدي وأخته عليّة، هذا بطنوره وذاك بدفه أو عوده، وربما اعترضك أبو نواس تحيط به «عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم» بينهم الشعراء والشاعرات، والصالحون والصالحات... فإذا ساءك أن تكون بين أهل العبث والمجون فدونك الكسائي والنظام وابن سيرين والحسن البصري، ولا والله ما من أحد بين أولئك أو هؤلاء إلا له حديث طريف وخبر غريب، فمن حكمة بالغة إلى بيت ساحر إلى نادرة لطيفة، ومن مجلس معربد صاخب، إلى حلقة يحف بها الجد والوقار، ومن لقاء عفيف إلى خلوة لا يرضى عنها الأبرار وفي الكتاب سير أبطال وزعماء وقادة حركات وثورات وفيه سير اللصوص والمجانين وشذاذ الأفاق!

هذه لمحة تعكس عن كتاب الأغاني صورة ضئيلة أردت بها أن تكون مقدمة لمقتطفات نأخذها عنه في المستقبل، وقد يوحى إلينا بعضها بما نعلق عليه راجين أن نوافي قراء الجامعة الإسلامية تحت عنوان «في زوايا الأغاني» بكل طريف إن شاء الله.

أبو جعفر



في زوايا الأغاني

صدقة نادرة

بقلم: بلبل فلسطين الصداح وشاعرها

كان الثقفيون من أنبل أهل البصرة وأكرمهم، وأبعدهم نفوذاً، حتى قصدهم الناس ورحل إليهم الشعراء، وكان الشاب عبدالمجيد بن عبدالوهاب الثقفي من أجمل الناس

خلقاً وأكملهم خلقاً، شهماً أديباً يحب العلم ويكرم ذويه وكان الشاعر العالم، محمد بن أبي مناذر، من المقربين إليه فنشأت بين الشاب الثقافي وبين الشاعر مودة قوية متينة العرى حتى لم يعد لأحدهما صبر على فراق الآخر.

ومن لطيف ما يروى عن هذه الصداقة أن ابن أبي مناذر سهر ليلة عند عبدالمجيد فلما أراد الانصراف شيعه عبدالمجيد يحادثه حتى بلغا الدار ولما لم يكن الحديث قد انتهى رجع ابن مناذر يرافق عبدالمجيد إلى داره ثم رجع معه عبدالمجيد ولم يزالا كذلك، هذا يشيع رفيقه وذاك يرجع إلى منزله حتى طلع الفجر فانصرفا معاً إلى المسجد.

ومن دلائل التضحية في هذه الصداقة أن عبدالمجيد مرض مرضاً شديداً فكان ابن مناذر يخدمه ويتولى أمره بنفسه حتى لا يكاد يوكل به أحداً، وحدث بعض الثقفين قال: حضرت عند عبدالمجيد يوماً وقد أحضر ابن مناذر له ماءً غالياً واشتد الأمر بالمرضى فجعل يقول: آه بصوت ضعيف فغمس ابن مناذر يده في الماء الغالي وجعل يتأوه مع عبدالمجيد ويده تحترق حتى كادت تسقط! فجذبناها وقلنا له أنت مجنون؟ أترأه ينتفع بعملك هذا؟ فقال: أساعده في ألمه، وهذا جهد المقل!! .

وأراد الثقفيون أن يزوجوا ولدهم الشاب من إحدى بنات عمه فأقاموا الأفراح والولائم شهراً «يجتمع عندهم في كل يوم وجوه أهل البصر وأدباؤها وشعراؤها» وفي الليلة الأخيرة كان العريس بين أصدقائه وأهله على سطح الدار وكان يحيط السطح ستائر تحجب الرجال عن صحن الدار الغاص بالنساء فهبت ريح اقتلعت إحدى الستائر «فأكب عبدالمجيد ليشدها فتردى على رأسه، ومات من سقطته، ولم تر مصيبة قط كانت أفظع منها ولا أنكأ للقلوب!». .

انقلبت الولائم في ديار الثقفين إلى مآتم وأقيمت المناحات على عبدالمجيد أربعين يوماً، ورثاه محمد بن مناذر بقصيدة مطلعها:

كل حي لا قى الحمام فمودي مالحى مؤمل من خلود
والقصيدة من عيون الشعر في الرثاء قيل أنشدت للرشيد فلما سمع قوله:

إن عبدالمجيد يوم تولى هد ركناً ما كان بالمهدود
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود

قال: ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلا في رثاء خليفة أو ولي عهد، وكان بدء نظمها أن ابن مناذر سمع نساء الثقفين ذات يوم ينحن على عبدالمجيد نياحة لا حرارة

فيها، فنظم القصيدة ودعا صديقاً له فحفظها ووضعها لها لحناً ومرا بديار بني ثقيف وانتظرا حتى كانت سكتة من النائحات فاندفعا بالقصيدة ينوحان بها. فلما سمع النساء ذلك أقبلن يلطنن ويصحن وحميت المناحة حتى أشرف الناس من الأسطحة ووقفوا في الطرقات. وشاع الخبر في البصرة حتى نقل من مجلس إلى مجلس! .

ولما قال ابن مناذر فيها:

لأقيم مائماً كنجوم الليل زهراً
يلطمن حر الخدود
موجعات يبكين للكبد الحرى
عليه وللفؤاد العميد

قالت أم عبدالمجيد والله لأبرن يمينك يا ابن مناذر. فأقامت مع أخوات عبدالمجيد وجواريه مائماً دعت إليه أجمل فتيات البصرة وجعلت تصيح: «واه وياه وياه» فيقال إنها أول من فعل ذلك وقاله في الإسلام!! .

أما الشاعر ابن مناذر فلعله أصيب بمس من الجنون بعد موت صديقه عبدالمجيد إذ يروي صاحب الأغاني فيقول: «مات عبدالمجيد فتهتك ابن مناذر بعد ستره، وفتك بعد نسكه، وترامى به الأمر بعده إلى أن شتم الأعراض وأظهر البذاء، وقذف المحصنات ووجب عليه القصاص فهرب إلى مكة وأقام بها حتى مات» ولعمري أن في صورة موت عبدالمجيد ما يصدع الأكباد فكيف لا يجن ابن مناذر وقد رأيت من حبه وتضحيته لصديقه ما يكاد يبلغ مراتب الكمال.

نابلس/ إبراهيم طوقان



في زوايا الأغاني

الجامعة الإسلامية / يافا

22 حزيران 1933

الصديقان العدوان

بقلم شاعر فلسطين الأملعي صاحب التوقيع

في حلقة الدرس

استند الشيخ إلى سارية من ساريات المسجد الجامع في الكوفة، وأقبل الشبان من أبواب المسجد المتعددة يسلمون عليه ثم يجلسون حوله على الأرض في نصف دائرة وعلى غير ترتيب.

وافتح الشيخ الحلقة باسم الله والصلاة والسلام على نبيّه الكريم، ثم أخذ يلقي دروساً في اللغة مستشهداً بأفصح كلام العرب شعراً ونثراً، وقد ينبهه استشهاده إلى خبر من أخبار الجاهلية، أو حادث مشهورة، فيأخذ الشيخ في سردها على الشبان بلسان ذرب وفصاحة ساحرة وصوت له سلطان على سامعيه. ذلك الشيخ هو رؤية بن العجاج حجة أهل زمانه في لغة العرب وأوسعهم اطلاعاً على أسرارها وغريبها.

وكان في حلقة رؤية شاب قصد الكوفة قادماً من الشام رغبة في تلقي اللغة وفنونها، فكنت تراه يدون في دفتره كل شاردة وواردة، ولا يكاد يرفع القلم من الطرس إلا ريثما يستمد من دواة نحاسية، متصلة بصندوق صغير مستطيل تحفظ فيه الأقلام، وقد غاب هذا الصندوق في طيات زنار الشاب حتى لم يبد منه غير الدواة.. وهناك شاب آخر كوفي، إلى جانب الدمشقي، يقبل بجسمه وسائر حواسه على الشيخ يتلقف كل كلمة يفوه بها معتمداً على ذاكرته. وإنها لذاكرة قوية حقاً، لا يطرقها شيء إلا وعته، وربما أدته بعد أمد طويل كما ألقى عليها، لا تنقص منه حرفاً.

وكان الشبان يلتقيان كل يوم في حلقة رؤية. فنشأت بينهما مودة لم يعرف مثلها بين اثنين. هي صداقة أيام الدراسة يؤلفها الهدف الواحد، ويوثق عراها التفاهم الدائن، ويكشف اللقاء المستمر عن نواحي النفسين فيعرفهما إلى هذه النواحي فإذا هما لا يطيب لأحدهما عيش بدون الآخر، ولا يقل خير على أحدهما إلا ذكر عنده أخاه، ولا يمسسه شر إلا أسرع الآخر يشاطره أذاه.

وربما انفردا - قبل الدرس أو بعده - فانتحيا ناحية من المسجد وأخذا يتناشدان ما نظماه من الشعر، راضيين عما جادت به عليهما القريحة من شعر الشباب ونزوات الصبا، ناظرين إلى مستقبلهما المكنون في صدر الزمان بعين ملؤها الأمل والطموح.

شاعران كبيران

مضت الأيام، وتخبط الشبان في لجج الحياة السياسية، وإذا بهما كل واحد في حزب وإذا بهما لسانا حزيبهما المختلفين وكان عسيراً جداً أن يوفق بين هذه النزعات المتباينة موفق، أو أن يجمع بين تلك الغايات المتضاربة جامع. اللهم إلا ما اتفق فيها الحزبان من مناهضة حزب الحكومة - حزب بني أمية.. أما الشاب الأول، الدمشقي، فكان الطرماح ابن حكيم أحد فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم انخرط في حزب الشراة الأزارقة «من الخوارج» فكان له بمذهبههم أصح اعتقاد وأشدّه. وظل على ذلك طول الحياة.

وأما الشاب الثاني، الكوفي، فكان الكميت بن زيد صاحب القصائد المعروفة بالهاشميات. وهي أنفس ما قاله شاعر في مدح بني هاشم. وكان الطرماح قحطانياً، والكميت نزارياً، ولم يعرف خلاف وقع بين فريقين، في جاهلية أو إسلام، كان أطول مدى وأشد احتداماً من خلاف القحطانية والنزارية. ولا يزال هذا الخلاف له ذكر وأثر في قرى البلاد العربية فيتحدث أحدهم بشيء من الزهو عن انتمائه إلى القيسية أو اليمانية وكاتب هذا لسطور يعلم أنه يباي من جماعة الطرماح...

انظر إلى هذا التناقض في العصبتين ثم صور لنفسك ما عسى أن يكون موقف الشاعرين - أحدهما من الآخر - حين يقول الأول قصيدة ينصر بها فريقه على خصومهم، وينبري الثاني فيرد بقصيدة يدافع بها عن حربه ويظاھرهم في بلوغهم إلى تحقيق غاياتهم الحزبية. لا عجب إذا اصطدم الشاعران الصديقان في هذا المعترك الخطر فانقلبا عدوين لدودين.. ولكن شيئاً من ذلك لم يقع، وعاش الشاعران متفاهمين يفرقان بين الصداقة والخصومة السياسية، عالين حق العلم أن الصداقة شيء والمبدأ السياسي شيء آخر لا علاقة لهذا بتلك.

موطن عبرة

وإن في حياة هذين الشاعرين الكبيرين لموطن عبرة جديراً بالتفكير والاهتمام، وموضعاً للاقتداء لم يقف عليه المشتغلون في القضايا السياسية في مختلف الأقطار العربية عامة، وفي فلسطين خاصة. إذ لا تزال النزعات الحزبية ترتطم بالصداقات القديمة المتينة فتدكها إلى أساسها دكاً وتنزعها من الصدور انتزاعاً.

وتتعدى الخصومة السياسية حدودها فتتحول من خصومة في مبدأ عام إلى بغضاء شنيعة يظهر أثرها في كل مرافق العيش. وتمتد يدها الدامية إلى المشاريع الوطنية العامة فتفسدها، وربما ولجت البيوت الهادئة فألقت بذور الفتنة بين أفراد العائلة الواحدة.

ولست في موضع إقامة الدليل تأييداً لما أقول، فبحسب القارئ المنصف أن يفكر فيمن حوله على اختلاف أهوائهم السياسية فيقيم الأدلة الكافية لنفسه، ويرى صدق ما ذهب إليه، وأنتي لأرجو أن نبلغ من التهذيب السياسي في فلسطين ما يجعلنا نفهم معنى الخصومة الحزبية الشريفة، وما يجعلنا نميز بين العلائق السياسية والاجتماعية فلا نسمح للأولى بالنفاذ إلى الثانية، بل نستعين بالثانية على الأولى فنلطف بنسيم المودة حرور السياسة، ونتخذ من الألفة والاقتراب وسيلة تفاهم محمود يؤدي إلى النفع الشامل.

عند المهلب

وكانني بالشاعرين يلتقيان فإذا سألت أحدهما رفيقه عن حاله وجدته مثله لا يملك من حطام الدنيا إلى الشعر، وكانت تجارة رابحة تعود على الشاعر بالخير والبركة، فاتفقاً على أن ينظم كل منهما قصيدة في مديح الأمير مخلد بن يزيد المهلب.

وفعلًا ذلك وتوجها إليه. فلما دخلا عليه طلب إلى الطرماح أن ينشده قصيدته وأمره بالوقوف عند الإنشاد. فتأخذ الشاعر عزة وأنفة، ويعلن في إباء أنه لا ينشد قائماً فليس من قدر الشعر أن يقف له، وليس من شرط المديح أن يتزلف إليه الشاعر ببذل كرامته. ويعرض الأمير عن الطرماح ويطلب إلى الكيمت أن ينشد قائماً، فيقف وينشد، ويطرب ويعجب، ويهز أريجها الأمير فيأمر له - وحده طبعاً - بخمسين ألف درهم.

خرج الشاعران فالتفت الكيمت إلى صديقه الطرماح وقال له: أنت يا أبا ضبيبة أبعد همة وأنا ألطف حيلة، ثم أعطاه خمسة وعشرين ألفاً وانصرفا ينعمان في ظلال المودة ويشقيان في مناقضات السياسة فيا عجباً للصديقين العدوين.

نابلس / إبراهيم عبدالفتاح طوقان



ديك الجن الحمصي وماسانه

نقد وتحليل

«حذار يا سيدي، إياك والغيرة فإنها ذلك الوحش ذو العين الخضراء الذي يسخر من فريسته التي تغذيه». شكسبير: عطيل: فصل 3 ومشهد 3.

لـك نفـس مؤاتـيـه	والمنايا معاديـة
أيـهـا القـلـب لا تـعـد	لهـوـى البـيـض ثانيـة
لـيـس بـرق يـكـون أخـ	لـبـ مـن بـرق غانيـة
خـنـت سـري ولم أخـنـ	كـ فـمـوـتي علانيـة

حكمة بالغة، وموعظة حسنة، أمثلتها التجربة على الشاعر وأوحت إليه بهما الغيرة الأثيمة، لا بل إن في هذه الأبيات لمأساة تامة، على إيجازها وأنها لعاطفة نائرة جبارة، عاطفة اليأس التي طوحت بقلب صاحبها فجعلت من نوره ظلاماً ومن ابتساماته دموعاً. ذلك هو الشاعر المسكين عبدالسلام بن رغبان المعروف بديك الجن الحمصي.

روى صاحب الأغاني أن ديك الجن «شاعر مجيد من شعراء العباسيين وكان من ساكني حمص، ولم يرح نواحي الشام ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره متصدياً لأحد ولا منتفعاً بشعره.. وكانت له جارية يهاها فاتهمها بغلام فقتلها ثم استنفذ شعره في مرثيها» وروى ابن أخ لديك الجن قال: «كان عمي خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف واللهو، متلافماً لما ورث عن آبائه، واكتسب بشعره من أحمد وجعفر ابني علي الهاشميين، وكان له ابن عم يكنى بأبي الطيب يعظه وينهاه عما يفعله، ويحول بينه وبين ما يؤثره ويركبه من لذاته وربما هجم عليه وعنده قوم من السفهاء والمجان فيستخف به وبهم».

ونحصر بحثنا في هاتين الروایتين، بعد أن نمهد لأنفسنا السبيل بكلمة عن الحياة الأدبية في عصر ديك الجن. أما هذا العصر فهو عصر أبي نواس ورهطه من فحول الشعراء، وكان المديح فيه من أهم أغراض الشعر، يتنافس فيه الخلفاء والأمراء ويتبارى فيه الشعراء، بل كانوا يتكبدون السفر والغربة في سبيل التقرب من والٍ كريم نافذ يستدرون جوده، ويستظلون بجناح حمايته، ويستمدونه على مناوئتهم. وقد يأنس الممدوح بالشاعر ظرفاً وبديهة فيلحقه بندمائه وخاصته، أو علماً ورأياً فيرفع من شأنه بمنصب.

إلا أن وراء هذه الفوائد المادية فائدة لعلها عند بعضهم الغاية القصوى التي يرمي إلى بلوغها تلك هي الشهرة وحب غريزي في الإنسان، ولن تجد فرداً أنعم الله عليه بفضل إلا وأحس بدافع داخلي يدفعه إلى إظهاره والتنويه به، ليعرف عنه. والشهرة، على ما فيها من احتمال المكروه حيناً والتضحية حيناً، لم تزل من ألد الغايات المنشودة، وإن هي إلا نتيجة حب الخلود وتعلل الإنسان ببقاء أثره «على الأقل» لما كان على يقين من الفناء.

اتسع ميدان الشهرة في ذلك العصر للشعراء، فهم بتهافتهم زرافات على أبواب ذوي الشأن يتعرف بعضهم إلى بعض، ويتطارحون فنون الأدب، ناهيك بما يتخلل هذه المطارحات من ملح ونوادر وأخبار ووقائع تتناولها العامة والخاصة فتطير عنهم في الآفاق.

نكتفي بهذا المقدار ونعود إلى ديك الجن وما نقلناه عنه من الأخبار في صدر المقال، فنجد نقاطاً أربعاً نعوّل عليها في البحث:

- 1- التكسب بالشعر.
- 2- الانهماك في الملذات.
- 3- بقاءه في نواحي الشام.

4- حادثته الغرامية - وسماها إذا شئت مشكلته العائلية. وهذه نقاط يتفق الشاعر في أولها والثانية مع معاصريه، ويختلف عنهم في الثالثة والرابعة ولا أزعج أن اتفاق الشاعر واختلافه موقوفان عليه ولكن هذه القسمة محمولة على مقدار أن تلك النقاط في حياته مما يفرده عن باقي الشعراء.

أما تكسبه في الشعر، وانهماكه في الملذات فلم يكونا أظهر ما فيه فيعرف بهما، فمدحه عادي ولا يخوله التفوق على أقرانه، لا بل لم يكن فيه من التفنن مثل ما نعرف لأبي نواس وصریح الغواني، ولا من الحضرية العباسية ما يجريه على الألسن. قال يعزي جعفر الهاشمي ويمدحه:

نغفل والأيام لا تغفل	ولا لنا من زمن مؤئل
والدهر لا يسلم من صرفه	أعصم في القنة مستوعل
كأنه بين شناظيرها	بارقة تكمن أو تمثّل
ولا حباب صلتان السري	أرقم لا يعرف ما يجهل
نضناض فيفاء يرى أنه	بالرمل عان وهو المرمّل
يطلب من فاجئه معقلاً	وهو لما يطلب لا يعقل
والدهر لا يسلم من صرفه	مسربل بالسرد مستبسل

ويذهب في تكرار «والدهر لا يسلم». على نحو ما ذهب أبو ذؤيب الهذلي في تكرار «والدهر لا يبقى على حدثانه» في عينيته المشهورة حتى يقول لممدوحه:

أنت أبا العباس عباسها	إذا استطار الحدث المعضل
وأنت علام غيوب الثنا	يوماً إذا تسأل أو تسئل

«هذا وليس في خلاعة الرجل ومجونه ما يضعه في صف مطيع بن إياس وابن الضحاك الخليع وأبي نواس فلدينا من شعره في هذا الباب ما لا نعتبره شيئاً يُذكر بالنسبة إلى مجون هؤلاء ديدنه ولا الخلاعة ملهاته»، ولكن قيض به ابن عمه أبو الطيب الذي كان يباغته في أوقات سروره مع أصحابه «ليستخف به وبهم» وليعمل من حبه قبة.. وإن ابن عم كهذا يورطه في مشكلة عائلية، ويكون سبباً في اندفاعه إلى جنابة كبرى - كما سنرى - ليهون عليه أن ييسط لسانه في تشويه سمعته وتضخيم نقائصه.

ومن هنا نخرج إلى نقطتي الاختلاف. أي بقاؤه في وطنه، ومشكلته العائلية الأولى، فيما نرى، نتيجة الثانية.

اشتهر ديك الجن بجارية من أهل حمص اسمها ورد وذهبت به، وكانت نصرانية فدعاها إلى الإسلام ليتزوج بها فأجابته لعلمها برغبته فيها وأسلمت على يده فتزوجها. ثم رحل إلى الهاشميين وأقام مدة طويلة يمدحها، وكان ابن عمه يبغضه فأخذ يشيع الإشاعات الشائنة على ورد حتى بلغ ديك الجن فاستأذن في الرجوع إلى حمص بقصيدة يمدح فيها أحمد الهاشمي ويعلمه بخبر المرأة، منها:

إن ريب الزمان طال انتكائه كم رمتني بحادث أحداثه
ظبي إنس قلبي مقليل ضحاه وفؤادي بريـره وكبانـه
خيفة أن يخون عهدي وإن يضر حي لغيري حجولة ورعانه

وعاد إلى حمص ففر ابن عمه بعد أن أرصد له قوماً يعنفونه على تمسكه بهذه المرأة الفاسدة... ولم يكتف بذلك بل دسّ إلى ديك الجن رجلاً رضي لنفسه أن يكون المتهم بالمرأة، وأوعز إليه أن يقوم بعمل أفضح مما ذكرنا، وهو أن ينتظر حتى يرى الشاعر قد دخل منزله ثم يطرق الباب كأنه لم يعلم بقدمه وينادي باسم ورد فإذا قيل: من؟ أجاب: أنا فلان. فيتصل طرفا المكيدة. نزل عبدالسلام «ديك الجن» منزله وألقى ثيابه ثم أخذ يسأل زوجته عن الخبر ويغلظ عليها وهي تجيبه جواب من لم يعرف من القصة شيئاً. ويقرق الباب فتقول: من هذا؟ فيقول الطارق: أنا فلان. فخيّل لديك الجن أن الخبر صحيح وأن الطارق عشيقها، فاخترط سيفه وأهوى به عليها حتى قتلها.

ها هو ديك الجن في غيرة عطيل وابن عمه في مكراياجو وورد في براءة دزدمونا أشخاص شكسبير البارزين في (رواية عطيل).

وبلغه الخبر بعد حين على صحته واستيقنه فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم به رمقه.

نقف قليلاً عند هذه المأساة الدائمة ونعود إلى نقطة بقائه في وطنه فنقول: ربما كان الشاعر قبل هذه الحادثة يتشوق إلى الرحيل عن الشام ليلتحق بشعراء العراق وأمرائها فهو يمهد السبيل لنفسه عند الهاشميين إلى أن يشتهر أمره ويرتفع شأنه، إلا أنه في هذه الآونة أصيب بما أصيب به فانقلب نظام حياته وتقطع نياط آماله فكان ذلك سبباً من أهم الأسباب التي قعدت به عن براح وطنه.

ها نحن الآن أمام شاعر مسكين تفتسه ذكريات الماضي، أيام كان واسع الآمال،
ناعم البال تبسم في وجهه دنيا الهوى فيقبل عليها منشداً:

انظر إلى شمس القصور وبدرها وإلى خزامها وهجّة زهرها
لم تبك عينك أبيضاً في أسود جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات، يختبر اسمها من طيبها، من لا يحيط بخبرها
وتمايلت فضحكت من أردافها عجباً ولكني بكيت لخصرها
تسقيك كأس مدامة من كفها وردية، ومدامة من ثغرها
وفيها أيضاً أبياته المشهورة باستعارتها:

لما نظرت إلي عن حديق المهيا وبسّمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت وجهي في الثرى لك طائعاً وعزمت فيك على دخول النار
لم يدر - رحمه الله - أن سيعفر وجهه في الثرى حقيقة لا مجازاً ولم يدر في خلدّه يوماً
أن سيكون في حالة هي أشد عليه من دخول النار، حتى طلع علينا بمأساته فصولاً أولها
الغيرة فالجريمة وآخرها الندامة واليأس.

وانظر إلى ما يقوله فيها على أثر الجناية:

ليتني لم أكن لعطفك نلت وإلى ذلك الوصال وصلت
قال ذو الجهل قد حلمت ولا أعلم أي حلمت حتى جهلت
لأنم لي بجهله ولمّا إذا أنا وحدي أحبيت ثم قتلت
سوف آسي طول الحياة وأبكيك على ما فعلت لا ما فعلت

هكذا يبرر الشاعر عمله ولا يزال يبرره فبينا هو في سورة الغضب يتحدثك بما صنع
وأنه على حق من صنيعه، لا يملك نفسه من الحنين إلى ما كان فيه من الهناء ويصور لك
ذلك الموقف الرهيب الذي لم يكن لينزع من فؤاده عاطفة الهوى والرأفة فيقول:

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتي من شفيتها

ومدامعي تجري على خديها
شيء أعز لدي من نعلها
أبكي إذا وقع الغبار عليها
وأنفث من نظر الحسود إليها

قد بات سيفي في مجال وشاحها
فوحق نعلها وما وطئ الثرى
ما كان قتلها لأنني لم أكن
لكن ضننت على العيون بحسنها
ومثل هذا قوله:

أو ابتلى بعد الوصال بهجره
لبليتني وجلوته من خدره
ملء الحشى وله الفؤاد بأسره

أشفقت أن يرد الزمان بغدره
قمر أنا استخرجته من دجته
فقتلته وبه علي كرامة

وما أمر تلك الذكرى حين قال: «قمر أنا استخرجته من دجته» وما ألطف تلميحته فيه
إلى ذلك العهد الذي كان يدعوها فيه إلى الإسلام وما تم له ذلك حتى جلاها عروساً لنفسه.

خمدت نار الغيرة، وأخذ يشعر بجرمه وأيقن ألا مرد لما فقد، فحق له أن يقول:

والحزن يسفح عبرتي في نحره
بالحي حل، بكى له في قبره
وتكاد تخرج قلبه من صدره

عهدي به ميتاً كأحسن نائم
لو كان يدري الميت ماذا بعده
غصص تكاد تغيط منها نفسه

ومما يقوله حين بلغه الخبر على وجهه الصحيح وأنها بريئة:

كأنني مبتلى بالحزن وحدي
وتبكيها بكاء ليس يجدي
عليها وهو يذبحها بجد

ويعذلني السفه على بكائي
يقول قَتَلْتَهَا سفهاً وجهلاً
كصياد الطيور له انتحاب

وفي هذا يقول أيضاً:

وسترت وجهك بالتراب الأعفر
ورجعت عينك صبرت أو لم أصبر
لتركك وجهك ضاحياً لم يقبر

بأبي نبذتك بالعراء المقفر
بأبي، بذلتك «بعد صون» للبلى
لو كنت أقدر أن أرى أثر البلى

ومرّ بديك الجن ذلك الدور الذي يحدثنا به علماء النفس وهو دور الأحلام فيقولون
إنها خيالات أمان يكلف بها المرء فلا تبرح حتى يصورها له عقله الباطن في رقاده.

قال ديك الجن:

جاءت تزور فراشي بعدما قبرت فظللست ألثم نحرأ زانه الجيد
فقلت: قرة عيني، قد بعثت لنا فكيف ذا وطريق القبر مسدود
قالت هناك عظامي فيه مودعة تعيث فيها بنات الأرض والدود
وهذه الروح قد جاءتك زائرة هذي زيارة من في القبر ملحود

وظل هذا البائس يهذي بورد وما جنى به عليها حتى أعياه الأمر ونظر إلى الدنيا
فراها غادرة وإلى مسراتها فراها زائلة فرجع إلى الله الذي لا يبقى سواه ولا مرجع إلا إليه
عند انقطاع الرجاء فقال:

ما لامرئ بيد الدهر الخؤون يد ولا على جلد الدنيا له جلد
طوبى لأحباب أقوام، أصلبهم من قبل أن عشقوا موت فقد سعدوا
وحقهم أنه حق أضن به لا ينفدن لهمو دمعي كما نفدوا
يا دهرانك مسقي بكاسهم ووارد ذلك الحوض الذي وردوا
والخلق ماضون والأيام تتبعهم تفنى ولم يبق إلا الواحد الصمد

إبراهيم طوقان

ويداكنم الأسرار لكن أتمها ولا أدع الأسرار تغلي على قلبي
وإن أحق الناس بالسخف لا مرؤ تقلبه الأسرار جنباً إلى جنب
في الكامل



نُشرت في الأضاحي

1929

نهج البلاغة

إذا أدمنت النظر في كتاب وأكثر من قراءته أخذت تشعر به كأنه جزء منك تكاد
لا تفتح صحيفة منه حتى تستعيد ذاكرتك بما فيها فأنت وما اشتمل عليه ذلك الكتاب
أشبه بصديقين حميمين لا يقع نظر أحدهما على الآخر حتى يتبينه ويقرأ في عينيه سروراً أو
حزناً وطمأنينة أو ارتباكاً وكلما زدت معرفة بالكتاب زادك روح صاحبه علماً وركز في

مخيلتك صورة له وتنجلي لعينيك أكثر وضوحاً ما دمت ذا علاقة بالكتاب ولعل هذه الصورة المتخيلة أصدق الصور لشخص لم تره إذ لا يزال الأدب مرآة الأديب التي تنعكس عليها أخلاقه وميوله وطباعه ولو أتيح لك أن ترى ذلك الشخص لما استطعت أن تعرف نفسيته وعقليته معرفتك لها من أدبه الذي قرأته في مؤلفاته وهذا القول يصدق على الأديب الحقيقي فإن كل الأدب لا يصور ناحية من نواحي الإنسانية أو علاقة من علاقاتها بهذا الكون تصوراً صادقاً فعبثاً يستهوي النفوس ويستفز العواطف وعبثاً ينتظر هؤلاء الأدباء استحساناً أو إقبالاً.

وبعد فنهج البلاغة كتاب قيم في آدابنا العربية لا تضارعه في لغة إلا لغة الوحي وحسبك أن يكون صاحبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبلغ الناطقين بالضاد بعد رسول الله ﷺ وأفصحهم. والكتاب يشتمل على خطبه كرم الله وجهه ورسائله وحكمه، جمعه الشريف الرضي الشاعر المشهور وتتداول اليوم تلك المجموعة مشروحة بقلم الأستاذ الشيخ محمد عبده. ونهج البلاغة من هذه الكتب التي هي أشبه بمجموعة صور مختلفة الأشكال والمواقف، يظهر فيها الإمام علي خاصة وتمثل حياة العرب السياسية والاجتماعية عامة وكأنني بالإمام عليه السلام قد وقف نفسه على تدوين حوادث تلك الأيام فأودعها خطبه ورسائله فجاءت تاريخاً صادقاً يوثق بمصدره ويعتمد على أخباره وكأنني بنهج البلاغة رواية وعلي بطلها فهنالك علي الأمر الناهي والواعظ المرشد والفارس المغوار والقائد الخبير بفنون الحرب وهنالك علي الأديب والواصف المبدع وهنالك علي المظلوم والمغلوب على أمره يعاكسه الزمان وتناكده الأيام وهو لا يزداد عن الدنيا إلا نفوراً ويولي وجهه عنها «كرم الله وجهه» ويقول: «اغربي عني يا دنيا فجبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك وأقلت من حباتك».

وكان علي شاعراً إلا أنه في مواطن كثيرة من نهج البلاغة يرى ناثراً أشعر منه ناظماً. قف مع الإمام على قبر فاطمة الزهراء واصغ إليه يرثيها ويث لوعته إلى أبيها النبي فيقول «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة إلى جوارك السريعة اللحاق بك قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي... أما حزني فسرمد وأما ليلى فمسهدي إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضايف أمتك على هضمها فاحفها السؤال واستخبرها الحال... والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملاله وإن أقام فلا عن سوء ظن بها وعد الله الصابرين».

أليس هذا القول شعراً لا ينقصه إلا الوزن والقافية؟ أما فيه من بث الشكوى وتوثب العواطف ما يستنزف من الأعين دموعها ويغلغل في القلوب فيصيب مواضع الأسى...؟.

وهناك الخطب الحربية وأن في كلماتها لصليل السيوف وهي تدير كؤوس الختوف أو تقصف عوالي المران في صدور الفرسان وأي بلاغة تتوثب، بل أي جذوة تتلهب في قوله لابنه وصاحب لوائه يوم الجمل «محمد بن الحنفية»: «تزول الجبال ولا تزل عَصَّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك - تد في الأرض قدمك. ارم ببصرك أقصى القدم وغصَّ ببصرك. واعلم أن النصر من عند الله سبحانه».

ولا أطيل فما زال الكتاب أنس وحشتي وروضة أغشاها لأرّوح بها عن نفسي اقتطف من أزاهيرها الخالدة فانشق طيب الإمام واجتلي روحه تسيل من كلمة عزاء ورحمة رحم الله الإمام ورضي عنه.

متأدب



القبس 538

1934 / 10 / 23

راي بين الاراء ودلو بين الدلاء

لا بد من أن يكون اتفاق لك الجلوس منفرداً عند باب حانوت فرقت أفواج الناس يمرون بك ذهاباً وإياباً في الشارع، ولا بد أن تكون وجدت في مقهى حاشد فأخذت تطرد وحشة الانفراد عن نفسك بتقليب الوجوه التي حولك وأصحابها بين منهمك في اللعب أو القراءة أو في جدال عنيف حول موضوع خطير أو سخيف! أقول، لا بد من أن يكون اتفاق لك ذلك يا سيدي القارئ فكان لي أن أنبهك عندئذ إلى شعور خفي هو تقلب عواطف الميل والنفور بينك وبين هؤلاء المارين - سواء عرفتهم أو لم تعرفهم - أو هؤلاء الجالسين دون أن تكون هنالك أية صلة بينك وبين أي أحد منهم.. وأعجب من ذلك بعد أن تقيّم نفسك حكماً بين هؤلاء جميعاً فتحكم بثقل الدم على هذا، وبخفة الروح على ذاك... وتقرأ سواد الطوية أو يياضها في وجه من الوجوه، والبشر أو الفظاظ في وجه آخر، كل ذلك وأنت في مكانك تحلع ما تشاء من الصفات حسنة وسيئة على من تشاء

وكل ذلك بينك وبين نفسك لا يعارضك فيه معارض ولا يجادل في وجهة نظرك مجادل حتى إذا جاهرت بشيء منه وأعلنت رأيك وجدت من ينكر عليك حكمك ومن يقرك عليه، وبمقدار ما يكتسب «المتهم» من أصوات الاتفاق «له أو عليه» يكون فوزه أو فشله. وإذا وضحنا هذا الرأي على نور الحديث الشريف قلنا له أنه بمقدار ما يكون التعارف والتناكر بين تلك الروح وبين أرواح المحكمين فيها يكون التألف والتنافر.

وتستطيع أن تطبق هذا «الاستعراض» على ما يمر بك من شعر ونثر في المجالات والجرائد، وأنت اليوم في طوفان زاخر منها.. فتقرأ قصيدة الشاعر ومقال الكاتب فتتصّب نفسك قاضياً وتحكم للشاعر أو عليه. وقد يروقك المقال فتقصّه وتحتفظ به وقد لا يروقك فتطرح الجريدة من يدك وأنت تقول: «قاتله الله ما أنقله!» وهذا الأثر الأدبي الذي حكمت له «ودخل ذوقك» فاحتفظت به، قد يكون نصيبه الحكم عليه والاطراح عند سواك. وبمقدار ما يكسب الأديب من «أصوات» الجمهور القارئ يروج أدبه ويتسع نطاق شهرته.

ولا عجب، فإن الأدب نتاج عواطف الأديب وصورة ثقافته ومرآة شئائه. وإن ما يبغضه إلى الناس كفرد في هذا المجتمع أو يحبه إليهم خليف بأن يكون واضحاً في آثاره الأدبية.

ولا أزال أذكر يوماً نشب فيه الخلاف بيني وبين أخي حول شاعرية شوقي رحمه الله على أثر فراغنا من قراءة كتاب «الديوان» للعقاد: خرج أخي من تلك المقالات مسلوب الإيمان لا يرى لشوقي حسنة «وهذا ما يريده العقاد من قراء كتابه» وخرجت أنا لا أجد في الكتاب غير التحامل والهدم عن سابق قصد وإصرار.. فلم يزدني ذلك إلا إيماناً بشوقي على إيماني، وانتصاراً له على انتصاري. وفق لي الجدال تلك الفكرة في الأدب التي قدمتها بين يدي القارئ وأخذت الأيام تعمل في صقلها وتجولو لي صدقها حتى أصبحت عندي رأياً في الأدب يشتمل فيما أعتقد - على كثير من الإنصاف للأدباء وآثارهم وإليك هو:

القطعة الأدبية «كائن حي» تنجذب إليه قلوب وتنفر منه أخرى وقيمة هذه القطعة ترتفع وتهبط بكثرة ما تلاقي من المعجبين وقتلهم... وعلى هذا أرى من العبث أن تحملني على اتباع ذوقك في هذا الشعر وذاك المقال فقد يكون ثقيلاً عندك خفيفاً ظريفاً عندي وقد تراه ضحلاً غير مفهوم، ووراءه عندي قرار بعيد، ومعنى جليل مبين، فإذا استندت إلى شيعتك في رأيك فكأن واثقاً من أن لي شيعتي في خلافه.

وبعد، فما هذه الضجة التي يثيرها خصوم «المجمع الأدبي» حوله؟ وما هذه الجعجة التي نسمعها منهم ولا نرى معها طحناً؟ إن أعضاء «المجمع الأدبي» ليتمتعون بالأكثرية الساحقة من إعجاب جماهير القراء لآثارهم، وما من هؤلاء الأعضاء إلا كل قوي بأدبه، ممتاز بثقافته، متين بخلقه وشخصيته، وكفى بذلك ما يجذب إليه الناس ويدنيه من القلوب.

أما أنور العطار فله من الشاعرية ما لو طرح للتصويت لكان فوزه بين أنصاره والمقرين بنبوغه مما يذكر بفوز هتلر الأخير في ألمانيا النازية!! .

أخي أنور! قل لهؤلاء ما قاله أبو نواس لخصومه:

لو كان لومك نصحاً كنت أسمعك لكن لومك محمول على الحسد
وهنيئاً لك جيش المعجيين بك، المتطلعين لنفحات شعرك ولا قرّت عيون الحاسدين.
من «المجمع الأدبي» أبو جعفر



فلسطين 20 / 5 / 1934

تعليق لأبي سلمى على الدولة النسائية

من أبي سلمى إلى إبراهيم طوقان
حول مقال «دولة نسائية»

أخي إبراهيم!

الدولة النسائية اعتزت بمقاتلك ولا ريب، وإني لأكاد أرى ابتساماتهن تلمع على الشفاه الغالية من وراء الحدود... أما تفتح قلبك، الذي ظلمه العاذلون ولاموه على الخفوق، واستقبل النور؟ أو ما سمعت همساتهن في عالم الغيب فعدت إلى الهوى القديم واستسلمت للماضي..؟ لا أكتمك أنني أمسكت بقلبي حين رأيت دولتك النسائية، وأنت تعلم أنه قلب ضعيف لا يقوى على أية مقاومة وصممت على أن أقف بجانبك إذا تمت حركة تطويقهن عند زحفهن الأخير.

وما رأيك إذا كانت جيوش الرجال المحشودة لمحاربة النساء تحت إمرتنا؟ إننا سنقودهم إلى الهزيمة طبعاً ويرفع كلانا راية بيضاء يطلب الانضمام إلى صفوف بنات كليوباترة.. وسنعرض على أميرة الجيش قلبي لم يخفقا إلا للحسن والحسان فتغفر الذنب وتلحقنا بالجيش وتعيّنك أنت مستشاراً فنياً للفرقة الزاحفة على الناصرة وكفر كنة لتحمي الرمان والغزلان أما أنا فسأرضى برتبة شاويش في الفرقة الزاحفة على عكا من جهة

البحر.. وأين أنت يا نابليون لترى كيف تُفتح حصون عكا «تلك التي أعيتك وصدّتك..» أمام العيون والسحر ورحم الله زميلنا جيلاً فقد كان أول من تنبه إلى هذه المعدات الحربية حين قال:

بشينة من صنف يقلبن أيدي الرماة وما يحملن قوساً ولا نبلاً
ولكنها يظفرن بالصيد كلما جلون الثنايا الغرّ والأعين النجلاً

وسوف لا أطلب إلا ذلك الشخص الذي اقترح أن تلقى الغواي في البحر وسأفتن في تعذيبه تفنتاً عجيباً وسأطلب بعد التعذيب من مندوبة عكا قائدة الشمال وهي فاتنة سمراء تحجل سمر الرماح وأؤكد لك أنها لو اهتزت في الحجاز لاستلمت بلاد اليمن كلها، أقول سأطلب منها أن تصوب على هذا المخلوق عينين هما من آيات الله حتى يغير لونه الهوى الشمالي ويرتمي صريعاً جزاء عناده وكفره ثم تكون بطون الحيتان مقره الأخير.

... تمت الغلبة ورفعت رايات النصر على دوائر الحكومة في كل مكان وسرت في الجو نفحات الهوى وأنفاس العذارى واجتمعت المندوبات في المؤتمر لانتخاب أركان الدولة النسائية العتيدة أطال الله أيامها وكانت مندوبات الشمال أكثرهن قوة وفتنة، فنالت أصوات الرئاسة مندوبة عكا ونيابة الرئاسة حازتها مندوبة كفر كنا، وقد أحرزت الثقة وزارة صاحبة الدولة الرئيسة مندوبة القدس لأنها اختارت وزيراتها من جميع الأحزاب وقد جرى كل ذلك بعد الغمز واللسان وتقطيع الشعر.

... الآن المجلس الحربي العالي منعقد وتبدو على وجوه صاحباته إمارات الغضب الشديد ودقّ الجرس فدخلت. لأنني لا أخفي عليك الحارس الأمين يعني «البواب» ولا فخر - فقالت لي الرئيسة:

- أَدع لنا إبراهيم طوقان لأنه متهم بجريمتين؟ الأولى: إنه وضعنا في شعب بوان حيث كنا غريبات الأوجه والألسنة وأهمل وادي العقيق في الحجاز مهوى الصبايات ومثار الذكريات، والثانية: أنه لم يضرب مثلاً إلا بتهديم كفر كنا وإيابة رمانها وغزلائها.

انتهت الرئيسة من كلامها فنظرت إلى العيون وإذا بها تبرق وترعد فوقفت أمام الباب وأعضائي ترتجف وقلت بصوت متهدج:

إبراهيم طوقان!.. تفضل يا مسكين.. أعانك الله..

أبو سلمى



قصيدة أرسلها الشاعر «أبو سلمى» إلى صديقه الشاعر «إبراهيم طوقان» وهو على فراش المرض.

عشت أبا جعفر

-1-

حـال أبي جعفر
يجمع لآلامه
إذا به مـالا
في حبسه
جسراً لآلامه
يخطر في بـال

* * *

-2-

ننظم يا صاحبي
دمعاً وشعرأ
فيا عذارى الحمى
داوينني بالذي
ذوب فؤاديني
وهل نسعد ما بيننا
أيمن الهوى أيننا؟
يـضني تعطينا

* * *

-3-

يا قلب فات الصبي
قد ذبت بين الرضى
كزهرة في الربى
تموت بين الندى
فابك على الماضي
وبين إعراض
ساعة إغراض
حيناً وإعراض

* * *

-4-

عشت أبا جعفر
للحُبِّ والشعر

رَصَّعْتَ أَفْقَ الْهَوَىٰ وَالشَّعْرَ بِالشَّهْرِ
فَضَحَّتْ فَهْوَ مِنْ عَطَّرَ إِلَى عَطَّرَ
وَالشَّعْرَ لِلْحَبِّ كَمْ يَهْتَكَ مِنْ سَتَرِ



جريدة الدفاع

الأربعاء 20/6/1934

العدد 48 ص 8

وافتر إبراهيم

قصيدة من شاعر صديق اسمه أبو يحيى إلى الشاعر إبراهيم طوقان:

ليس افتتاني بالطيور تهب تشدو في البكور
شدوا يشعشع في نفوس ذوي الصبايات السرور
أو بالرياض يمس في جنباتها زهر الزهور
فتضوع رياها معطرة فتنشعشع الصدور
أو بالجدول وهي تجري مشية الرجل الوقور
ينساب ما بين الخائل ماؤها عذب الخريز
بأشد منه بألعي لودعي مستنير
إن خاض في بحر البيان ارتد بالندر النضير
أو جال في نظم القريض أتى بما يُعيسى جريز
أو قام يخطب في النوادي الحقل يملكك الشعور
أو راح يستدعي الصخور تفجرت منها النهور
لو أن ليّل الحادثات عدا بشر مستطير
وانتاب كل الناس في إدلهامه الأمر العسير
وغدوا حيارى ليس فيهم من يرى كيف المصير
وافتر إبراهيم بين الناس كالبدر المنير
لأنجابت الظلمات وانفتحت مغاليق الأمور

أننا لم أزل في النظم يا أستاذ ذا باع قصير
«أبو يحيى»

وحياة من رقة وسلام خلصت من شوائب الأكراد
طار فيها شعر التهاني مع البرق فيا طيب هذه الأخبار
غير أني سمعت من ألسن الواشين قولاً وهنّ غير قصار
أن برقية أتتكم حديثاً بجواب في غاية الاختصار
أصبح أبا الوليد وحق؟ زعمهم أن نعدّه خنفساري!!



جريدة الدفاع

عدد 24 صفحة 5

الأربعاء 5/23

حديث الشباب

إلى الشاعر الأستاذ إبراهيم طوقان

كاتب هذه الكلمة محب لقريضك، معجب به، وإعجابه يكون على أشده ساعة إذ
يجيء هذا القريض وطنياً، قوياً جياش الروح، مفراطاً في العنف والقوة والإبداع وقد كان
يقرأ لك «الساعات الثلاث» فكانه أمام وحي علوي، لا أمام أبيات من الشعر، فاض بها
خيال لسان بعيد الأفق والمرامي، لماذا إذن هذا الاتجاه يا إبراهيم؟؟ إن أكثر الناس إشفاقاً
منه لهم أولئك الذين عرفوا مبلغ الإبداع في قصيدتك، حتى ليكون هذا القصيد صوتاً
داوياً يستفز النائمين - وهم كثرياً أيها الشاعر - إلى اليقظة والعمل والجهاد.

قصيدة ترسلها الشاعرية الممتازة، الشاعرية الرحيمة بصاحبها، الرحيمة بوطنها
الرحيمة بأهلها، قصيدة من هذا الطراز تفعل أكثر ما تفعله ما تراه كل يوم من مقالات،
ورواح ومجيء وأخذ ورد، وقصيدة مثل هذه تستطيع قيثارك أن ترسلها فيحفظها كل
فتى عربي في هذه البلاد، يرتل أبياتها في ظلام الليل وفي شعاع القمر، في الغروب وفي
السحر، في المنزل وفي الحقل وراء المحراث، في السير وفي التزهة على مراعٍ الوطن الغالي.

إبراهيم: آن لنا أن نتخلص من عبء هذه الأغاني الرخيصة، أغاني الشفق والنسيم،
أغاني العبت والهوى، لماذا؟؟ .

لأن الأمة تسير إلى الفناء يا إبراهيم ليس إلا، فحريّ بالميت المسافر أن ينشد أنشودة استقبال الموت في قوة لا أن ينشد أنشودة الضعف في استقبال الحلم والخيال، والصور الخوادم، أرني أمة بين الأمم يهبط خلقها إلى درجة أن تسير عمياء ثم لا تعلم من ذلك إلا أنها تسير إلى «زفة» هذا تغافل أو هو الغفلة عينها لا ترموا الذين يناشدونكم الواجب وشعوركم العالي أيها الشعراء بأنه أجوف لا قلب له، قد يكون - إذ تصدع هذا القلب - من هول الزلازل التي عصفت بالوطن الحبيب - قد يكون إذا ذابت حشاشة هذا القلب بكاء على المآسي التي نشهدها كل يوم من قبل الإنكليز والصهيونيين - قد يكون إذ القلب في شغل عن ليلي والرباب بالوطن الذبيح المعذب.

سماعاً إبراهيم... شاعريتك هذه الفياضة ألا حَبَسْتَهَا على وصف الألم الذي يعانيه الحبيب الأكبر - الوطن، وأي شاعر أحنّ على الوطن من الذي حباه الوطن بالقوة الشعرية الممتازة؟؟.

أي شاعر أحنى على الحبيب الأكبر من الذي رتل «الساعات الثلاث» فأبكى وأوجع، وأغضب وأحقد، وقال للقتلة:
ساعات عاقبة الظالمين.

الوسط يا إبراهيم - يرجوك هذا الضعيف أن تغيره، وهو يرجو «قدري» أن ينصره في ذلك.
وسلام محب معجب.

اسم الكاتب (إبراهيم)

كلمة الوسط تعني هنا «البيئة» كما هو واضح.



جريدة الدفاع

4 آب 1933

العدد 322

صور إبراهيم طوقان

شاعر الأوطان والتين والرمان إبراهيم بن عبدالفتاح طوقان، بشاشة منتشرة في سماء فلسطين من كفر كنة إلى البلد الأمين:

هل كفر كنة مرجع لي ذكرها ما فاتني من عنفوان شبابي
 أم في صـبـاياها وفي رمانها ما بيعت المسدون من آرابي
 عذب النغمات ساحر الرنات تقسم بين هوى دفين ووطن حزين وإذا هاجته
 الذكرى تكلمت العاطفة وأصغت القلوب.

واحنيني إلى ديارك والرمـا ن دان يظل أهل الديار
 ثم تستبد الذكريات وما أكثرها فيتكلم الدمع والدمع أفصح لسان وإذا رأيت
 الدموع تترقق في حنايا السطور فاعلم أن القوة في الشعر والعاطفة بلغت حد الكمال في
 الشاعر.

يتلمس من مسارح الظباء في كل يوم هوى جديداً وفي كل «مشروع» هوى يتطلب
 لغة أهله فهو حجة اللسان الألماني في حلقة لا يملك فيها لسان غير لسان أتراب «مارلين
 ديتريش» وقاموس اللغة الإسبانية إذا تعرض لنفحات غيد إشبيلية.

أفدي بروحي غيد إشبيلية وإن أذقن القلب صاب العذاب
 ومرجع اللغة الفرنسية إذا خطرت في طريقه إحدى بنات «السين» واللغة
 الإنكليزية لسان مدرسي يسيره كما يريد الهيام والسلام.

ومن هذا المجموع تتألف شتى الأنغام كما يريد لها العباس بن الأحنف ولكنها أنغام
 عاطفة ضحضاحة أما الأنغام التي تنفث حيناً وتبعث أنيناً فتلك أوجدها الهوى الأول
 وأحبب بالهوى الأول وهو الشغف الجامح الذي مكّنه من ذؤابة شعر الوجد فأرسله
 مقطعات هي خلاصة حبه وذوب قلبه تلمع على صفحات الأفق في أسمى مكان ولم يبق
 له منه إلا «صندوق» الهوى المنزوي في غرفته كصندوق العجائب وإلا قوله: «كان يا ما
 كان».

هذه حياة عاطفية ذات ألوان عديدة لو وزعت على أشخاص لأخرجت منهم
 أصحاب مرح وفتنة وأولي شوق وأمل.

* * *

وهناك حياة عاطفية ثانية هي الوطنية الثائرة التي تلهب جوانح إبراهيم فتدوي
 الصيحة ويندلع اللهب:

لا تسل عن سلامته روحه فوق راحتـه
حملته جهنم طرفاً من رسالته
ويصمت «الفدائي» وصمته أبلغ من النطق وأفصح من الكلام:

صامتٌ لو تلكمها لفظ النار والدمما
قل لمن عاب صمته خلق الحزم أبكـمها

وترنح الشهداء على الأعواد في يوم الثلاثاء الحمراء فلا نجد شاعراً يطبع يوم
الخلود في سجل تاريخ فلسطين غير إبراهيم:

لما تعرض نجمك المنحوس وترنحت بعري الجبال رؤوس
ناح الأذان وأعول الناقوس فالليل أكر والنهار عبوس

فهذه الشاعرية القوية التي تنطق في شعر إبراهيم وتلك الديباجة المشرقة التي تزينة
كل ذلك جعله يخفت الأنوار من وهاجة وباهتة لشعراء وأدعياء ويتمتع بلقب شاعر
فلسطين.

والمرح الفاتن والخلق النبيل من مميزات الشاعر وإنك إذا اجتمعت إلى إبراهيم
وجدته قصيدة شادية مقاطيعها ضحكات عريضة وأوزانها ابتسامات حلوة فتتحقق المرح
الراقص رقصات الأحلام في ليالي الشباب، وإذا اتصلت به واشتدت العلاقة عرفت
حُسن الخلق وطيب النفس وهما خلق ونفس الشاعر كل الشاعر فتتعم بالإخلاص
والإخاء.

أما لطافة «النكتة» وعذوبة «الحديث» وخفة «الظل» فجميع هذه على هامش
الشخصية ذات التعاجيب شخصية شاعر فلسطين وشاعر «الزمان والتين»!

اسم كاتب المقال «عجيب»



إبراهيم طوقان

شاعر الحب والثورة

التاريخ.. تاريخ أي أمة سجل حافل.. يوثق وقائعها: حضارة وتراثاً.. وقائع
تضعها أسماء تظل خالدة ماثلة لأجيال وأجيال.. وعلى درب مسيرة الحضارة

الفلسطينية.. ثمة أعلام.. وأعلام خلّدها التاريخ كمشاعل تنير الدرب نحو المستقبل المأمول.. إنها أعلام لا تنسى رغم الرحيل..

الشاعر إبراهيم طوقان من أبرز الشعراء الذي التزموا بقضية وطنهم أمثال زملائه الشعراء عبدالرحيم محمود، وعبدالكريم الكرمي «أبو سلمى» وبرهان الدين العبوشي، وغيرهم ممن عاشوا في تلك الفترة من تاريخ النضال الفلسطيني.

وقد كتب عن شاعرنا مئات المقالات والدراسات المتفرقة التي تبحث في شعره وحياته موزعة على صفحات الصحف والمجلات.. بالإضافة إلى العديد من الكتب.. أهمها كتاب «أخي إبراهيم» بقلم شقيقته الشاعرة المعروفة فدوى طوقان.. وقد صدر هذا الكتاب عن سلسلة الثقافة العامة، التي كانت تصدرها المكتبة العصرية في يافا سنة 1946.

وقد تناولت فيه سيرة حياة شقيقها الشاعر إبراهيم الذي اختطفه الموت وهو في ريعان الشباب وقمة العطاء.. ونشر هذا الكتاب بعد وفاته بخمس سنوات، تخليداً لذكراه وأدبه.

ويعتبر هذا الكتاب من الدراسات القليلة النادرة التي تحدثت بتوسع عن حياته ومسيرته الشعرية، وسجلت أيضاً أدق التفاصيل عن أخباره وشخصيته.. وكذلك تحدثت عن طفولته وصباه وشبابه.. وعن عبقريته المبكرة، وارتياحه عالم الشعر ونجاحه فيه.. وعن الأشخاص الذين ساهموا في توجيهه، وصقل موهبته الشعرية.. إذ إنه من أهم المراجع التي لا غنى عنها لأي باحث أو كاتب حيث كتب بأسلوب أدبي مشوق، تجلت فيه عاطفة الإخوة، ورقة المشاعر.

وافتتحت الشاعرة الكتاب بقصيدة عنوانها «إبراهيم» هذا نصها:

أي لحون وعن سمع الزمن	بعثتها من نبضات الفؤاد
أودعتها الروح تناجي الوطن	فيها، فتتهز الربى والوهاد
ثم تراميت صريع الوهن	مخضب الجرح، سليب الضماد
وامتنع الشدة، كأن لم يكن	وجذوة القلب استحالت رماد

وتم تثبيت أهم ما جاء في هذا الكتاب، في الديوان الذي حمل اسم «ديوان إبراهيم طوقان» وخاصة الطبعة الصادرة سنة 1948، عن دار المسيرة ببيروت الذي أشرف على

طبعه شقيقه أحمد. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على كتاب «أخي إبراهيم» و«ديوان إبراهيم طوقان».



البلاغ

في مساء السبت 12 شعبان سنة 1354 هـ

9 نوفمبر سنة 1935

صفحة فنية وأدبية

الادب في الشرق العربي

1 - فلسطين

إبراهيم طوقان

من شعراء فلسطين المشهورين (إبراهيم طوقان) وهو من أبناء نابلس ومن كرام أسرها، وأكثر شعره في الغزل والوطنيات، وله شعر كثير في الهجاء والمجون، ولكنه ينظم هذا على سبيل المداعبة والتفكه ولا ينشره، وهذا الضرب من الشعر تتناقله الألسنة في المجالس، ويذيع بين الناس، كما يذيع الشعر في البادية - بالرواية ولا يحس له أحد المأ لأن المعروف أن الغرض منه هو الفكاهة ليس إلا.

وإلى القراء مثالين من شعر هذا الشاعر:

1 - صورتها المكبر

فزعنت للرسم فكبرته	برح بي الشوق فلما طغى
قلبي شكا البعد فعَلَلْتُه	وما شفي داء، ولكنما
جربتها حيناً وجربته	ولم أجد في الرسم أخلاقها
ولم يمانع حين قبلته	تظل وقد ناجيتها باسماً
جود بخيل ما تعودته	منتظري في غرفتي دهره -
وعدت للرسم فأكرته	عرفت للرسم إبداعه
فيها ومطل كم تذوقته	قد فاتته دل تمنيته
	لو جاءني الرسام بالمشتهى

2- في رثاء الكاظمي:

سل جنة الشعر ما ألوى بجنتها
ثم يقول:

أبا المكارم قم في الحفل مرتجلاً
واضرم النار إن القوم هامدة
وانفخ إباءك في أنافهم غضباً
تمكن الذل من قومي فلا عجب
ما أشرف الغدر لو أن الوغى نثرت
لكن دهتهم أساليب العداة وهم
ويقنعون بمبذول يلوحه
كأنهم لم يشيد مجد أولهم
يا رائداً كل أرض أهلها عرب
ومنشداً عندهم علماً ومعرفة
هل جئت منهم أناساً عيشهم رغد
أم أي راع بلا ذئب يحاوره

* * *

أبا المكارم أشرف من علاك وقل
وانظر إلينا وسرح في الحمى بصراً
تجد قوياً رعى وعد الدخيل ولم
ومر سبع وعشر في البلاد له
قد تنتهي هذه الدنيا وفي يده
حال أرى شرّها في الناس منتشرأ

* * *

هل في فلسطين بعد البؤس من دعة
كم حقق العزم والإعجال من أمل

* * *

حتى خلت من ظلال الحسن والطيب

مهذباتك لم تصقل بتهذيب
قلوبهم، ذل قلب غير مشبوب
فقد تحرك أصنام المحاريب
ألا يبالوا بتقريع وتأنيب
أشلاءهم بين مطعون ومضروب
ساهون لاهون عن تلك الأساليب
مستعمروهم بتعييد وتقريب
على السيوف وأطراف الأنابيب
يحتازها نضو تصعيد وتصويب
بحالهم بين إدلاج وتأويب
أم هل نزلت بقطر غير منكوب
إن لم تجد راعياً شراً من الذئب

* * *

أرى فلسطين أم دنيا الأعاجيب
عن الهدى لم يكن يوماً بمحجوب
يكن لنا منه إلا وعد عرقوب
وحكمه مزج ترهيب وترغيب
مصيرنا رهن تدريب وتجريب
وخيرها للمطايا والمحاسيب

* * *

أم للزمان ابتسام بعد تقطيب
وخاب قصد يامهال وتقليب

* * *

ويرى القارئ من هذين المثالين أن الشاعر يجري على عرق عربي صميم، وإن كان قد تعلم في الجامعة الأميركية في بيروت، ولكنه لا يقلد في أغراضه ومعانيه، وإنما يقول بوحى من شعوره الخاص. ويلاحظ أن القوم في فلسطين يعنون بتتبع الحركة الأدبية في الغرب، ولكن الخطر السياسي الذي يهددهم يحملهم على الحرص الشديد على صبتهم العربية، ويحميهم - في فاتحة نهضتهم الأدبية - من أن تجرفهم الثقافة الغربية وتنسيهم أصولهم.

إبراهيم المازني



«القبس»

الصفحة الأدبية

طوقان

طوقان شاعر موهوب رقيق الحس مشبوب العاطفة، خصب الأخيصة خير الصور، يمتاز أسلوبه بالصفاء والعق، فاللفظ حلو رشيق، والفكرة عميقة مختصرة، تكشف لك كلما رجعت إليها صورة جديدة، ويستهيوك اللفظ فتستعيده فيترك في نفسك من الأنغام الساحرة شبيه ما يتركه غناء البلبل إذا طاف بالورد.

وهو في نفسه قصة شعرية محزنة تشبه في حبها الخائب قصة الشاعر الفرنسي الخالد «موسه» فلقد أحب وهو يدرس في الجامعة الأميركية في بيروت فتاة فلسطينية كانت هناك وعلقها وعلقته وأخذ يستلهم من روحها أشعاره الشجية البارعة ويصوغ من جمالها عالمه المسحور، الموشى بما في ألف ليلة وليلة من صور وألوان. ثم عاد إلى نابلس بعد أن أحرز على الشهادة العالية في قسم الآداب، وعادت هي إلى بلدها فلم يمضِ قليل حتى زوّجت من قريب لها فأوجع الشاعر هذا النبأ وأشجاء أن يُستلب منه هذا الحلم الفاتن الذي نضره وزينه وخلع عليه أحلى الأمانى فتصدع قلبه وانجرح وتمشى إليه الألم يحز في نفسه حزاً وتفتحت شاعريته كما تتفتح أزهار الورد في حقول الربيع فتترع الأجواء عباقاً وعطراً. وأبت روحه الشاعرة إلا أن تمتد بألمها وتباهي بانكسارها تلقاء حب خائب وهدى غير موفق فعاش بالمنى واقتات بالذكرى، وغنى فسكب نفسه في أغانيه.

أول عهدى بفنون الهوى بيروت، أنعم بالهوى الأول
مددت، لما قلت قلبي ارتوى يدي، فردته عن المنهل

بيروت، لو شئت دفعت الهوى طوعاً، ولم أهجرك فالويل لي
أي رفيقي طوقان! إنك مثل الشاعر فوزي المعلوف الذي يقول فيه «فرنسيسكو
فيلا سباسا» كبير شعراء الإسبان في هذا الجيل: «إنه استطاع بفن عجيب أن يعتقل في
قنص أبياته الذهبي، الطائر العربي النادر، هو طائر ذو ريش من المخمل الناعم الأسحم
ومنقار من الصوان، وعينين من العقيق، وقد فقأ مقلتيه كما تفقأ مقلتا البلبل ليزداد شجوه
شجواً وترديده عذوبة».

أي رفيقي طوقان! غنّ وليبارك الله لك في ألحانك الشجية وأترك الألم ينقُ النفس
ويصفّ الروح ويأخذ بها إلى تعارج المثل العليا أما كان «موسه» يقول: «لن يجعلنا عظماء
غير الألم العظيم»...

وهذا شوقي الخالد يقول:

تفردت بالألم العبقري وانبغ ما في الحياة الأمل
فعش للحب وأسلم للهوى ألت القائل:

أنا ابن زيدون وتصبويه ولادة في دمها والإهـاب
ولن هذه الأنة ألت صاحبها:

يلذلي يا عين أن تسهدي وتشتري الصفو بطيب الكرى
لي رقدة طويلة في غدي لله ما أعمقها في الثرى
ألم تر طير الصبا في يدي أخشى من الغفلة أن ينفرا
طال جناحاه وقد يهتدي إلى أعالي دوحه مبكرا

هذا طوقان المحب، يعطيك ألد ما تنصت إليه الأذن، وأعذب ما ينطق به اللسان
وافتن ما يتحدث به القلب. فما الشعر عنده إلا ما قادك إلى غرقه المستحب، وسبحه المستطاب.

وهو من أصحاب الأدب الذاتي يسكب نفسه في أشعاره، ويفيض على صوره الجمال
والحياة، تراه في كل أثر من آثاره صورة حية ناطقة. يستطيع طوقان أن ينقل الناس في
سهولة ويسر إلى عالمه، والنقل صفة من صفات العبقري فهو وحده قادر أن ينقل الناس
إلى عالمه ويشاركهم في نوازه كلها حتى يشقوا بما يشقى به وينعموا بما ينعم.



وطوقان شاعر مصور، وصوره تتكلم فهي تشبه ربعية البحري تختال وتزهو حتى يخيل إليك أنها تريد أن تتكلم.

فإذا أردت أن تتحقق صدق ما أقول وتعلم كيف يستطيع الشاعر أن ينطق الحروف فاستمع إلى طوقان يصف الديك الحبشي وهو يُذبح ويأبى إلا أن يتعلق بالحياة فهو يفر من الموت ليقع في الموت قلت إن طوقان يمتاز بعمق الفكرة وبُعد النظرة وما أعمقه في قصيدته «الحبشي الذبيح».

برقت له مَسْنُونَةٌ تتلهبُ	أمضى من القدر المتاح وأغلبُ
حزت فلا حد الحديد مخضب	بدم ولا نحر الذبيح مخضبُ
وجرى يصيح مصفقاً حيناً فلا	بصر يزوغ ولا خطى تنكبُ
حتى غلت بي ربيبة فسألتهم	خان السلاح أم المنية تكذبُ
قالوا حلاوة روحه رقصت به	فأجبتهم ما كل رقص يطربُ
هيهات دونكه قضى فإذا به	صعق يشرق تارة ويُغربُ
وإذا به يزور مختلف الخطى	وزكية موتورة تتصببُ
يعدو فيجذب به العياء فيرتمي	ويكاد يظفر بالحياة فتهربُ
متدفق بدمائه متقلب	متعلق بدمائه متوثبُ
أعذابه يدعى حلاوة روحه	كم منطلق فيه الحقيقة تقلبُ
إن الحلاوة في فم متلمظ	شرهاً ليسرب ما الضحية تسكبُ
هي فرحة العيد التي قامت على	ألم الحياة، وكل عيد طيبُ

ومن أشعار طوقان الرائعة الفذة قصيدته اللاهبة الطافحة بالحماس «الثلاثاء الحمراء» وهي من شعر الإيوان، يصف فيها مصارع الأبطال الثلاثة في فلسطين وقد نفذ بهم حكم الإعدام في ثلاث ساعات متوالية، فصور الشاعر هذه الساعات الثلاث أصدق تصوير وقد قسم قصيدته البارة ثلاثة أقسام صور في القسم الأول اليوم الرهيب الذي صلب فيه أبطال فلسطين الثلاثة، وصور في القسم الثاني الساعات الثلاث تتكلم كل واحدة عن صاحبها، ثم صور في القسم الثالث الخاتمة.

ولست أقول في قصيدته «الثلاثاء الحمراء» إلا ما قاله فيها الشاعر الملهم بشارة الخوري: «إننا لنقرأ هذه القطع الذائبة للشاعر طوقان فتخيله قد استشهد ثلاث مرات

مع كل شهيد مرة، أفلا ترى هذه الأجزاء المتقطعة من نفسه، والخيالات السوداء التي تطوف في كل بيت من قصائده كما تطوف الأحلام السكرى برؤوس الذين قرئت على مسامعهم الأحكام بقتلهم».

وتستمعون الآن يا سادتي إلى طوقان وهو يصف الشهيد المجهول الذي يستشهد معه كثير من الأبرار:

ربما أدرج الـترا
لست تدري بطاها
لا تسأل أيـن جسمه
ثم يصور نفسه الذائبة الهائجة:

تلتقي في مزاجها
تجمع الهائج الخضم
وهي من عنصر الوفاء
ومن الحق جذوة

بالأعاصير والحمم
إلى الراسخ الأشم
ومن جوهر الكرم
لفحها حرر الأمم

أو يصف الفدائي الذي يكاد يشتعل دماً وناراً:

يرقب الساعة التي
بين جنبيه خافق
من رأى فحمة الدجى
حملته جهنم

بعدها هول ساعته
يتلظى بغايتيه
أضرمت من شرارته
طرفاً من رسالته

أجل! سترون يا سادتي كيف يقدر طوقان أن ينقل الناس إلى عالمه الذي صاغه خياله فإذا هو حقيقة ماثلة تموج فيه الحياة وليس مجرد ألفاظ براقية، فما أصدق «فيكتور هيجو» حيث يقول: «إن الكلمة كائن حي».

نجتمع الليلة يا سادتي لنكرم شاعرين لامعين استطاعا بآوتياه من عبقرية خير وأدب مبدع، أن يستوليا على مقدرات الأدب في فلسطين الحبيبة، وهما لا يزالان في موجة الشباب.

إننا لنكرم الليلة شاعرين ملهمين وُلدا للشعر وعاشا للشعر وقد ألفت بين قلبيهما محبة الأدب فما طوقان والكرمي إلا روح واحدة يتقاسمها جسدان.

ولست أقول فيها إلا ما قاله «المسور ابن عبد الملك» في «جميل بثينة» و «كثير عزة»: «ماضر من يروي شعر جميل وكثير ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان».

في 22 آب سنة 1943

أنور العطار

من المجمع الأدبي



وهذه قصيدة كتبها عرار بعنوان «سهاد»، وهي مهداة إلى شاعر فلسطين إبراهيم طوقان، وهي قصيدة يبث فيها عرار أحزانه وآلامه ولواعجه ويبث فيها تشاؤمه وقد نظمها سنة 1935.

«سهاد»

لقد بت أمس كما بت أنت	عثاري دثاري ويأسي وساذ
وفي القلب جرح لقد حرّمت	عليه الليالي مباح الضهاد
أنام ولكن ليصحو شقائي	وأصحو ولكن ليشفى الفؤاد
فهيّات مني سبات الأماني	وهيّهات مني أماني الرقاد
وإني سعيد بما قد لقيت	وإني شقي لأورى زنساد

* * *

لقد بت أمس كما بت أنت	جزوعاً خشوعاً مروع الفؤاد
كأن بنفسي كآبة رمس	بدالي أمس بعرض الجهاد
وما طموحي وأحلام روعي	بكفسي إلا رماد الرماد
وأنت عليم بما قد لقيت	وما سألاقي وما بي يُراد
أجل قد مللت تساقّي يؤساً	بحانة بأسي بكأس اضطهاد
فحسبي شقاء يلاشي جهادي	ويكبي جيتادي بكل طراد
أجل قد مللت بقاء مملاً	وعيشاً مذلاً بهذي البلاد
«ولولا صغار كزغب القطا»	ومأساة يُتم وثوب حداد
وحزني عليك جزوعاً وقد	نعتني إليك بنات المداد

لبعثُ الحياة وبأساءها بسوق المنايا بأدنى مزاذ
لقد بئتُ أمس كما بئتُ أنت عشاري دثاري ويأسي وساذ
وفي النفس ناراً إذا خلت أن قد عراها خمود تزيد اتقاذ
ونار بروحي لقد صيرت أماني قلبي كذراً الرماذ
ورب سموم لقد أذبلت زهوي فأضت كشوك القتاذ
فهيهات مني سبات المنى وهيهات مني أماني الرقاذ

ومما كتبه عرار بعد وفاة الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان ما أرسله إلى الشاعر أبي سلمى ومن رسالته: «... بعد ذهاب إبراهيم لم يبق غيرك من يروي صباباتي، أما إبراهيم فلا أجد في رثائه أبلغ مما قاله «شاعر النور»: الحوش بعدك أعتم، والنزل ماله هيبة!».

وجلس عرار إلى كأس من السلاف وأخذ يفكر بإخوان قضوا نحبهم وإبراهيم آخرهم فنظم متفجعاً:

أحقاً قد قضى نحبه وفارقنا ولم يأبـه ؟!
كانما عرفناه ولا سبقت لنا صحبه
وإن «عريب» تبكيه و«فدوى» دأبها ندبه



ففي رثاء الشاعر

إبراهيم طوقان من أحيائه وأصدقائه

رثاء إبراهيم

للصديق الشاعر جلال أمين زريق

«ألقيت في حفلة التأبين التي أقامتها كلية النجاح الوطنية في نابلس بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة إبراهيم».

طَوَيْتَ صَحَائِفَ هَـذِي الْحَيَاةِ وَنَجْمُكَ فِي مُسْتَهْلِ السُّرَى
وَسَطَّتْ دِيَارُكَ بَعْدَ التَّدَانِي قَوَاوِخِشْتَايَا أَلَيْفَ الصَّبَا
تَنَكَّرَ بَعْدَكَ ضَوْءُ النَّهَارِ وَحَالَتْ وَجْوهُ لِيَالِي الصِّفَا

وَحَزَّ الْأَسَى فِي نَفُوسِ النَّدَامَى وَحَقَّ لَهَا أَنْ تُعَانِيَ الْأَسَى

عَجِلْتَ عَلَيْنَا وَأَنْتِ الصَّبُورُ فَهَلْ ضِيقَتْ دَزَعاً بِحَمْلِ الْأَذَى
وَكُنْتَ تَغْصُ بِحُلُومِ الشَّرَابِ فَكَيْفَ اسْتَسَعَتْ مِذَاقَ الرَّدَى
سَيِّعَتْ إِلَى وَزْدِهِ مُسْرِعاً كَأَنَّكَ تَسْعَى لِنَيْلِ الْعَلَى
وَحَوْلَكَ بُرْدُ الشَّبَابِ الْقَشِيبِ تَرِفَ بِهِ حَالِيَاتُ الْمُنَى
فَوَاحِشِرْنَا لِلشَّبَابِ الْقَشِيبِ يُوسِّدُ بَعْدَ الْحِشَا فِي الثَّرَى
وَيَا لَكَ طَيْفاً حَبِيئاً تَوَارَى وَحَلِماً تَلَاشَى وَنَجْماً هَوَى

«أبا جعفر» والدني عابرات مَضَيَّتْ ولم يُغْنِ عَنْكَ الْبُكَاءُ
وَلَوْ كَانَ يُغْنِي عَنْكَ الْمُنَايَا عَتَيْنَا وَلَمْ نَقْتَصِدْ بِالْفِدَا
وَلَكِنْ يُعْزُّ عَلَيْنَا الْفِرَاقُ وَلَوْ كَانَ رَهْناً بِحُكْمِ الْقَضَا
فَقَدْ كُنْتَ فِينَا غِيَاثَ النَّفُوسِ وَرَاحَ الْجَلِيسِ وَأَنْسَ الْحُمَى

سَتَبْكِي عَلَيْكَ عِذَارِي الْقَوَافِي وَيَشْتَاكِ شِدُوكَ أَهْلُ الْهَوَى
وَتَبْكِي الْحَمَامُ مَعَ النَّائِحَاتِ فَتَشْجَى النَّفُوسُ لِرَجْعِ الصَّدَى
وَتَرْخِصُ فِيكَ الدَّمُوعُ الْغَوَالِي وَتَشْتَاكِ مِثْلِي مَعِينِ الْوَفَا
وَتُخْلِقُ يَحَاكِي هُبُوبِ النَّسِيمِ وَقَلْباً يَشْعُ كَقَطْرِ النَّدَى

سَلَامٌ عَلَيْكَ نَعِمْتَ مُقَاماً وَحَيَا تَرَابِكَ صُوبُ الْحَيَا
تَحْيَرُكَ اللَّهُ مَنْ بَيْنَنَا فَهَيَّئْ رَحَابَكَ لِلْمَلْتَقَى



الشاعر الذي قضى..

إلى روح إبراهيم طوقان

بقلم الأديب الأستاذ «البدوي المثلثم»

نشر فيما يلي الكلمة التي أرسلها الأستاذ «البدوي المثلثم» من شرق الأردن إلى لجنة
الاحتفال بأربعين المرحوم إبراهيم طوقان بنابلس:

كما تمر النسمة الغادية العاطرة! أو نغمة الغناء العذبة! وكما ينطلق لحن الموسيقى الجميل! هكذا انطلق شاعر فلسطين الملهم إبراهيم طوقان إلى جنة الخلد، ماخبطاً من أنفه عالمًا طائشاً جانبياً تفيض معاطسه باروداً وشروراً! هازجاً بالشعر لغة السماء! مردداً في عروجه إلى الملأ العلوي على مسمع كل عابر نشيد صنوه شاعر الخلود المرحوم «فوزي المعلوف» أمسية امتطى طيارة حملته فوق أجواء البرازيل مخاطباً جماعة الطير بقوله:

لا تخافي يا طير ما أنا إلا شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم متعباً ينشد الراحة في هداة السكون وسحره
فرعن أرضه فرارك عنها من أذى أهلها وتنكيل دهره

كان أول من نقل إلى مسمعي اسم الشاعر المعطار الذي نجتمع اليوم لإحياء أربعينه عدد من مجلة «التمدن» الأرجنتينية لمنشئها الخطيب اللبيب أسطفان وقد نشر في صدره قصيدة نظمها شاعرنا الفقيد في المستشفى عنوانها «ملائكة الرحمة» ضمنها عير امتنانه للممرضات اللواتي قمن على خدمته خلال مرضه وقد وشحها الأستاذ أسطفان بتوطئة رائعة قال فيها:

«والقصيدة في رأينا ألطف ما وصلت إليه قرائح الشعراء في هذا الباب فهي من السهل الممتنع في رقة معانيها ولطف قافيتها وسمو خيالها وجمال ما فيها من الوصف ولو كان كل ما ينظمه شعراؤنا في هذا الباب من هذا النوع لكان الشعر العربي في درجة عالية من القوة والفتوة».

قرأت كلمة العلامة العربي حبيب أسطفان فأيقنت أن العربي الألمعي أسطفانا لا يصرف مثل هذا القول جزافاً إلا لشاعر توسم فيه النجابة والنبوغ فتطلعت نفسي منذ ذلك اليوم إلى هذا الشاعر الموهوب ورحت من توي ألحظ روائعه بعين الاهتمام فكنت أزداد إعجاباً بما تتفتق عنه المخيلة الطوقانية الممرعة من نفثات مجنحة ما زالت أنفاسها مرفقة فوق خمائل بيروت وندوات أدبها المعطرة التي كانت شغوفة بما ينتج خيال هذا الشاعر المبدع من دعابات وطرائف كان من شأنها أن رفعت أسهماً! وأنزلت أسهماً، فأقبلت صحافة بيروت على نشر روائع «أبي جعفر» وراحت صحف المجموعة العربية تنقل عنها كل ما تحمله ريشة إبراهيم القديرة من أصباغ وصور حية.

من الناس - كما يقرر ذلك نقادة الأدب العربي الأستاذ ميخائيل نعيمة - من إذا جالستهم ساعة مللتهم وضرعت إلى ربك ألا يجمعك بهم ثانية ومنهم من تجالسهم دقيقة فتود لو تجالسهم دهرًا.

«والشاعر» كما يحلو لميخائيل نعيمة أن يعرفه في موضوع آخر:

نبي وفيلسوف ومصور وموسيقي وكاهن.

نبي - لأنه يرى بعينه الروحية ما لا يراه بشر! .

ومصور - لأنه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه في قوالب جميلة من صور الكلام.

وموسيقي - لأنه يسمع أصواتاً موزونة حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجة! والعالم عنده كله ليس سوى آلة موسيقية تنقر على أوتارها أصابع الجمال.

وكاهن - لأنه يخدم إلهاً هو الحقيقة والجمال ويظهر له هذا الإله في أزياء مختلفة لكنه يعرفه أينما رآه ويقدم له تسابيح حيثما أحست روحه بوجوده.

وإنك لو اجد هذه الخصائص شائعة بارزة في شعر فقيد الأديب العربي المرحوم إبراهيم طوقان الذي جاءت وفاته خسارة فادحة لدولة الشعر ولو رحت تلتمس هذه الخصائص في شعر إبراهيم لوجدتها شائعة في سائر منظومه ودونك الأبيات التالية التي تشير إلى براعة إبراهيم «المصور».

بحر بي الشوق فلما طغى
فما شفى داء ولكنهها
فلم أجد في الرسم أخلاقها
ونفس عنك بوارح هذه الحياة المستهترة في نظرك إلى هذه اللوحة الشعرية الرائعة ذات الطيوف والأظلال:

يا - فوز - ويلي منك يا قاسية
أراك في اليوم ثلاثاً ولا
والله لو تدرين ما قصتي
بل كنت لي عوناً على غربتي
مرضت أياماً ولم تطلعي
اسأل عنك الناس مستخبراً
حتى إذا أبللت يا منيتي
بشراك يا قلب فقد أصبحت
عذبتني ظمأً كفي ما يبه
أنال إلا النظرة الجافية
ما كنت عن حالي إذن راضية
وكنيت لي راحمة آسوية
ظللت فيها مهجتي دامية
ولهان أدعو لك بالعافية
خفف عني الله بلوائيه
تغدو إلى ملعبها ثانية

ودونك إبراهيم «الفيلسوف» في أبياته الرائعة:

يلذلي يا عين أن تسهدي لي رقدة طويلة في غد
 ألم تر طير الصبي في يدي طال جناحاه وقد يهتدي
 وتشترى الصفو بطيب الكرى لله ما أعمقها في الثرى!
 أخشى مع الغفلة أن ينفرا إلى أعالي دوحه مبكرا
 وأما إبراهيم «الكاهن» فتراه متملاً بمسوح العابد المتبتل في موشحه «نشيد الحجاز!» وقد استهله بقوله:

بلاد الحجاز إليك هفا فؤادي وهام بحب النبي
 ويا حبذا زمزم والصفاء ويا طيب ذاك الثرى الطيب
 والصورة التالية تطالعك بإبراهيم الموسيقي:

حسبت أن الشبابا ولى حمي دأ وغابا
 وما ظننت فؤادي ألا أهتدي وأنا بـ
 هيهات لم يرض قلبي من الهوى ما أصابا
 يـا نظرة لم أرد لها سـاقت إلى عذابا
 لم أدر أن الزوايا يـا قلب فيها خبايا..
 يا إخوان إبراهيم الملهوفين:

بربكم المتعالي القدير لا تقولوا أن «إبراهيم» قد مات! بل ثقوا أن الشاعر هو آية من آيات الألوهة حل في العالم فلم يسعه هذا العالم ولم تملأ فراغ نفسه النبيلة أجماد هذا الكون الزائل فطار إلى عالم سام حيث يرتل تناغيم الخلود التي طالما أسمعنا قوافيها العذبة على قيثارة شعره الحالم.

إن ذكرى هذا الشاعر الألمي الذي فقدناه لتظل حلقة فوق «نابلس».



فلسطين

الأحد 3/5/1942 ص2

عام مضى على وفاة شاعر فلسطين الكبير وببلها الفريد
 إبراهيم عبدالفتاح طوقان

بقلم: راضي عبدالهادي

أو تدري كيف كان؟؟ .

زنبقة من زنابق الوادي هبت عليها نسائم الفجر الندية، فتفتحت أكمامها، وعبق عيرها، فإذا بها تملأ القلوب والنفوس فتناً وسحراً.

بلبل من بلابل الروض ما ترك غصناً من أغصان الأراك إلا شدا عليه أو فنناً من أفنان الدوح إلا غرّد في ظله، حتى لقد كادت موسيقاه تطنغي على ما في الروض من جمال وما فيه من روعة.

ولكن الزنبقة الجميلة الحمراء قد ذوت ونضب فيها ماء الحياة، وحولت أوراقها اليانعة الخلابة إلى قطع يابسة من الهشيم تقع العين عليها فترتد موجعة كثيبة.

ولكن البلبل الصداح سقط صريعاً بين الأغصان وسقطت معه قيثارته، وتقطعت أوتارها، فإذا بالموسيقى الشجية تصمت إلى الأبد وإذا الروض الضاحك يغدو كئيماً، وإذا الزهر الباسم يتساقط أسى وحسرة،

ولكن.. للبلبل موسيقى أبدية تتأثر بها العواطف ذلك كل ما تركه الشاعر:
عطرٌ خالد. وموسيقى أبدية ونور أخاذ.

للذين أحبههم وأحبوه.

والذين فهمهم وفهموه.

والذين أخلصهم وده وأخلصوه.

فيا وطن الفقيّد الغالي... أعرفت مَنْ فقدت؟؟ .

ويا أيها الوطن العزيز... أعلمت من احتضنت؟؟ .

إنه الشاعر... إنه إبراهيم طوقان:

الذي كان يسعد لسعادتك، ويبتهج لابتهاجك ويأسى لأساك.

إنه الشاعر: الذي كان ينتزع قصيدة من عصارة كبده وذوب إحساسه ليصف أمسك ويتحدث عن غدك.

إنه الشاعر: الذي كان يسكب دموعه تأسية للبؤساء وإشفافاً على المعوزين والضعفاء.

إنه الشاعر: الذي لم يعرف للغرور معنى ولم يدرك للأنانية كنهاً فعاش لغيره ومات في سبيل غيره.

واليوم: ينطوي عام على وفاته، وحزننا عليه «عبقرياً»، وسيتجدد هذا الحزن، كلما قال الوطن... أين الشاعر؟؟ .

فلا يسمع جواباً لقوله الحزين.



صوت من القبر

إبراهيم طوقان

علي حيدر الركابي

شاعر فلسطين ينادي بني قومه

مهداة إلى ولديه (جعفر) و(عريب)

رحم الله الصديق العزيز «إبراهيم طوقان» وطيب ثراه فلقد كان شاعراً فلسطينياً من فحول شعراء العرب في هذا العصر ولا نبالغ إذا قلنا بأنه في برهة قصيرة استطاع أن يحتل مكان الصدارة ولا سيما في الشعر الوطني والشعر الوجداني وهو لو لم يتوفه الله في ربيع عمره عام 1941 لجاء زمان رأيناه فيه سيد شعراء العرب بلا منازع.

سجل «طوقان» في شعره سلسل مثير مختلف، الأحداث التي مرت بالعرب وبصورة خاصة ما مرّ بوطنه الأصغر فلسطين ولعل القراء يذكرون قصيدته الرائعة في رثاء المغفور له فيصل الكبير ومطلعها:

ما الذي أعددت من طيب القرى يا فلسطين لضيف معجل
الذي أشار فيه إلى مرور جثمانه الطاهر بحيفا.

ومما يدل على عظمة شعر «طوقان» وعمق تفكيره أن ما نظمته عن حوادث فلسطين منذ عام 1926 ما يزال يرتدي طابع الجدة ويشعر القارئ أنه إنما هدف إلى وصف الحالة الراهنة في تلك البقعة المعذبة من أرض الوطن العربي الأكبر. وهذا ما دعانا إلى انتقاء بعض المقطوعات من شعره الوطني لنعيد نشرها في الظرف الحاضر لعلها تنجح في إزالة الغشاوة عن بعض العيون وإذكاء النار في بعض النفوس.



من القلب

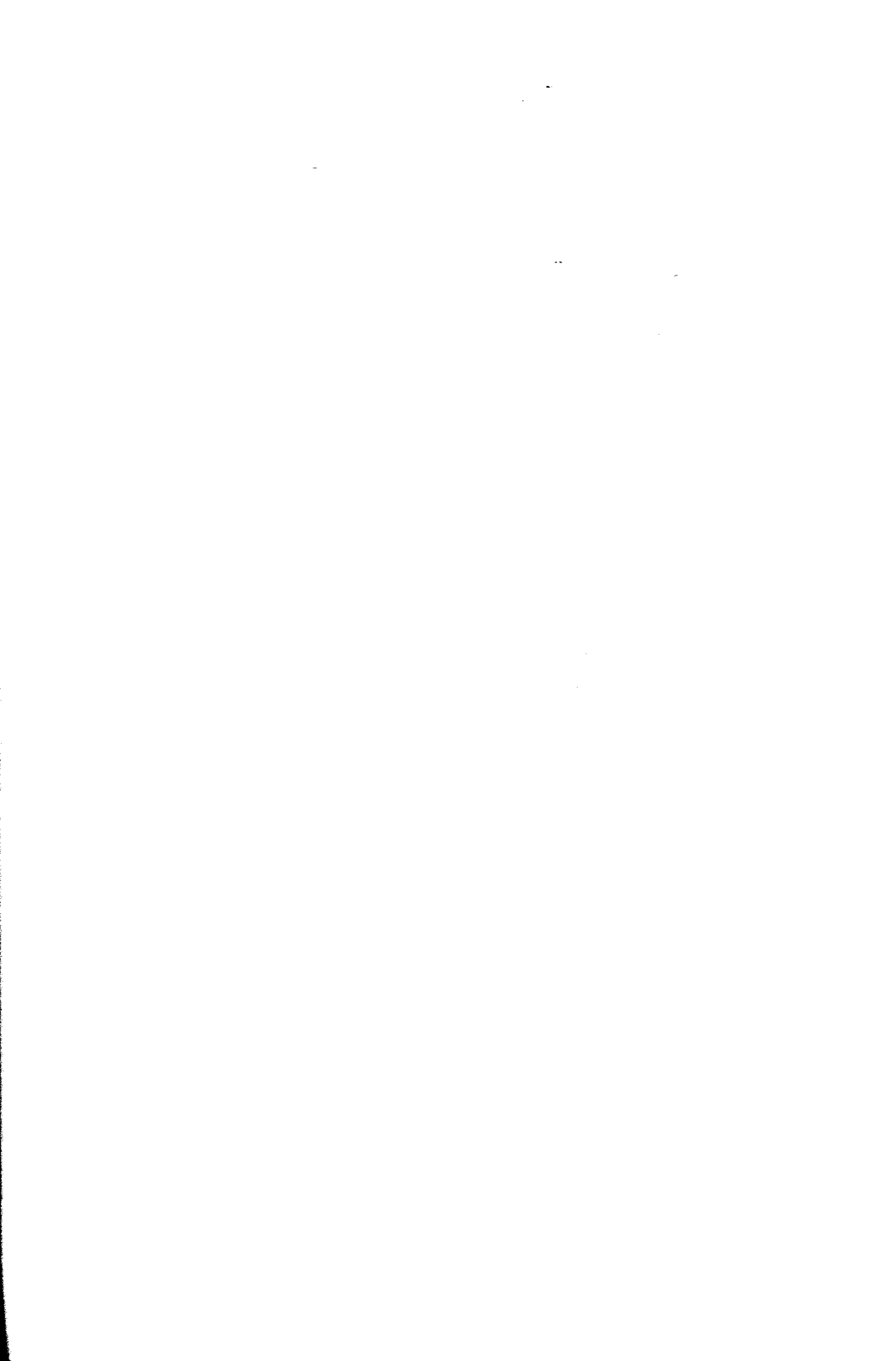
ذكرى إبراهيم

مضيت إبراهيم، ولم تمضٍ وغبت ولم تغب. مضيت بالجسم الناحل الضعيف وخلفت الروح العظيمة الكبيرة، غبت عن العين وأنت ساكن في كل قلب.

يقولون أن حفلات التأبين تخليد الذكرى وأنت خالد ولو تعمد الناس نسيانك. وهل يموت الشاعر الأديب بعد أن بثّ الأثير نفثاته وسطر الخلود بليغ آياته. خضت يا

إبراهيم بحور الشعر وغصت فيها مفتشاً عن اللآلئ المكنونة، وخرجت إلى الملاء تنشر عليهم من تلك اللآلئ ما أغنيت به أفئدتهم وأشبعته به رغباتهم وما أردت على ذلك أجراً وطبيعة الشاعر أن يكون كريماً، وهل هناك أكرم ممن يجود بنفسه على الآخرين وليس له من وراء ذلك إلا النشوة بلذة الكرم والعطاء.

كنت وفيّاً يا إبراهيم لأصحابك وعارفيك ولا أخاهم إلا كذلك بعد غيابك الطويل، وأول بادرة من ذلك هو الحفل الجامع الشامل الذي أقيم في بلدك نابلس أمس فلمسنا فيه الشعور بفداحة الخسارة وعظم المصيبة، وود كل من حضر لو أفصح عن مكنون صدره وعميق تأثره وما عسى ذلك أن ينفع إذا لم تجمع دررك وتنظم لآليك ثم تنشر على الملاء يتحلون بها ويزين الأدب فوائدها، وما ذلك على أصحابك بعزیز.



الفصل السادس

قصائد الديوان

قصائد وطنية وسياسية وقومية

الشهيد

قصيدة وطنية نظمها الشاعر في مقطعين في لون من التوشيح، وجعل الشهيد مثله الأعلى الذي يُحتذى، وقد تنقل بين أبيات القصيدة بإيقاع فني يشد القارئ ويطرب السامع، وقد نشرت في جريدة الدفاع بتاريخ 18/6/1934.

عَبَسَ الْخَطْبُ فَاَبْتَسَمَ	وَطَغَى الْهَوَى فَاَقْتَحَمَ
رَابَطَ الْجَاشِ وَالنَهَى	ثَابَتَ الْقَلْبِ وَالْقَدَمَ
لَمْ يُبَالِ الْأَذَى وَلَمْ	يُشْرَهُ طَارِئُ الْأَلَمِ
نَفْسُهُ طَوَّعَ هِمَّةٍ	وَجَمَّتْ دَوْنَهَا الْهَمَمُ
تَلْتَقِي فِي مَزَاجِهَا	بِالْأَعَاصِيرِ وَالْحُمَمِ
تَجْمَعُ الْهَائِجُ الْخُصَمَ	إِلَى الرَّاسِخِ الْأَشْمِ
وَهِيَ مِنْ عُنْصَرِ الْفِدَاءِ	وَمِنْ جَوْهَرِ الْكِرَمِ
وَمِنْ الْحَقِّ جَذْوَةٌ	لَفَحُهَا حَرَّرَ الْأُمَمَ

سَارَ فِي مَنَهِجِ الْعَلَى	يَطْرُقُ الْخُلْدَ مِنْ زَلَا
لَا يَبَالِي، مَكْبَلًا	نَالَهُ أَمْ مَجْجَدًا

فَهُوَ رَهْنٌ بِمَا عَزَمَ

رَبِّمَا غَالَهُ الرَّدَى	وَهُوَ بِالْأَسْجَنِ مُرْتَهَنٌ
لَمْ يُشَيِّعْ بِدَمْعَةٍ	مَنْ جِيْبٍ وَلَا سَكَنٍ
رَبِّمَا أَدْرَجَ السَّرَابَ	سَلِيلًا مِنَ الْكُفْرِ
لَسْتُ تَدْرِي بِطَاحُهَا	غِيثُهُ أَمْ الْقُنْنِ
لَا تَقْلُ أَيُّنَ جَسْمُهُ	وَأَسْمُهُ فِي فَمِ الزَّمَنِ

إنه كوكبُ الهدى لآح في غيبِ المحن
أرسل النورَ في العيون، فلما تعرفُ الوسن
ورمى النارَ في القلوب، فلما تعرفُ الضغن

أيُّ وجهه تهلَّلا يرِدُ الموتُ مُقْبِلا
صعدَ الروحُ مُرسلاً لحنه يُنشدُ الملا
أنس الله والوطن

الثلاثاء الحمراء

حاول اليهود في صيف 1929 الخروج على التقاليد الثابتة المتعلقة بصلاتهم في موقع «البراق». فهاج العرب لأنهم فطنوا إلى ما يضر اليهود من وراء هذه المحاولة من اعتداء على الأماكن الإسلامية المقدسة ونشبت في القدس والخليل ويافا وصفد اضطرابات دامية بين اليهود والعرب قتل فيها من اليهود عدد كبير في مدينتي الخليل وصفد. ثم ألقت السلطات البريطانية القبض على بعض الشبان واتهمتهم بقتل اليهود وحوكموا. وصدرت أحكام الإعدام على الشهداء الثلاثة وهم فؤاد حجازي من صفد، ومحمد جمجوم وعطا الزير من الخليل. رحمهم الله جميعاً.

وقد ألقى الشاعر قصيدته في حفلة كلية النجاح السنوية في نابلس 27 يونيو 1930 بعد عشرة أيام من إعدام الشهداء الثلاثة، وقد صوّرها في ثلاثة مواكب دراماتيكية كما هو واضح في القصيدة.

مقدمة

لَمَّا تَعَرَّضَ نَجْمُكَ المنحوسُ وترنَّحتِ بُعْرى الجبالِ رؤوسُ
ناح الأذانُ وأعوّل الناقوسُ فالليل أكردُ، والنَّهارُ عبّوسُ
طَفَقَتْ ثُورُ عواصفُ وعواطفُ
والموتُ حيناً طائفُ أو خفاطُ
والمِغْوَلُ الأبدِي يُمَعِنُ في الثرى ليردّهم في قلبها المتحجّر
يومٌ أطلّ على العصور الخالية ودعا: «أمرّ على الورى أمثاليّة؟»

لمحاكم التفتيش، تلك الباغية
وغرائبها
ونوائبها
فاسأل سواي وكم بها من منكر

* * *

فأجاب، والتاريخُ بعضُ شهوده:
من شاء كانوا مُلْكُهُ بنقوده
فتحرّرا
فسيما أرى...
نادى على الأحرار يا من يشتري!

* * *

مُترّج من نشوة الأوصاب
أنافي ربي (عالیه) ضاع شبابي
أبكى دما
لكننا...
فاذهب لعلّك أنت يوم المحشر

* * *

وتظّل ترمقه بعين حائرة
فأخفّها أمثال ظلم سائره
بلا رجاء
إلا الإباء
نفس عليه تمّت ولما تقهر

* * *

نذعوله ألا يكدر صفوه!

فأجابه يوم: «أجل أنا راوينة
ولقد شهدت عجائباً
لكن فيك مصائباً
لم ألق أشباهها لها في جورها

وإذا بيوم راسف بقيوده
«أنظر إلى بيض الرقيق وسوده
بشر يُباع ويُشترى
ومشى الزمان القهقري
فسمعت من منع الرقيق وبيعه

وإذا بيوم حالك الجلباب
فأجاب: «كلا، دون ما بك ما بي
وشهدت للسفاح ما
ويل له ما أظلم
لم ألق مثلك طالعا في روعة

(اليوم) تُنكره الليالي الغابرة
عجبا لأحكام القضاء الجائرة
وطن يسير إلى الفناء
والداء ليس له دواء
إن الإباء مناعة، إن تستمل

الكل يرجو أن يُكّر عفو⁽¹⁾

(1) الضمير يعود إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين وقد ألحت الهيئات السياسية العربية عليه ليصدر العفو فلم يفعل..

إِنْ كَانَ هَذَا عَظْفُهُ وَحُنُوءُهُ..
عَاشَتْ جَلَالَتُهُ وَعَاشَ سُمُوءُهُ!..
حَمَلَ الْبَرِيدُ مُفْصَلًا
مَا أَجْمَلًا
هَلَّا أَكْتَفَيْتَ تَوْشَلًا
وَتَسُوًّا
وَالْمَوْتُ فِي أَخْذِ الْكَلَامِ وَرَدَّهُ
فَخِذِ الْحَيَاةِ عَنِ الطَّرِيقِ الْأَقْصَرِ

* * *

ضَاقَ الْبَرِيدُ وَمَا تَغَيَّرَ حَالُ
وَالذَّلَّ بَيْنَ سَطُورِنَا أَشْكَالُ
خُسْرَانُنَا الْأَرْوَاحِ، وَالْأَمْوَالُ
وَكِرَامَةُ - يَا حَسْرَتَا - أَسْمَالُ
أَوْ تُبْصِرُونَ وَتَسْأَلُونَ
مَاذَا يَكُونُ؟!
إِنَّ الْخِدَاعَ لَهُ فَنُونُ
مِنْ لَلِ الْجَنُونِ
هِيَهَاتَ، فَالْنَفْسُ الذَّلِيلَةُ لَوْ غَدَتْ
مُخْلَوِّقَةٌ مِنْ أَعْيُنٍ لَمْ تُبْصِرِ!

* * *

أَتَى لَشَاكِ صَوْتُهُ أَنْ يُسْمَعَا
أَتَى لَبَاكِ دَمْعُ أَنْ يَنْفَعَا
صَخْرٌ أَحْسَّ رَجَاءً نَافِثَ صَدْعَا
وَأَتَى الرِّجَاءُ قُلُوبَهُمْ فَتَقَطَّعَا..
لَا تَعْجَبُوا، فَمِنْ الصَّخُورِ
نَبْعٌ يَفُورُ
وَلَهُمْ قُلُوبٌ كَالْقُبُورِ
بَلَا شِعُورِ
لَا تَلْتَمِسْ يَوْمًا رَجَاءً عِنْدَ مَنْ
جَرَّبَتْهُ فُوجَدَاتُهُ لَمْ يَشْعُرِ

الساعات الثلاثة

الساعة الأولى

أَنَا سَاعَةُ النَّفْسِ الْأَيَّامِ
الْفَضْلُ لِي بِالْأَسْبَقِيَّةِ
أَنَا بِكُرُ سَاعَاتِ ثَلَاثِ كُلِّهَا رَمَزُ الْحَمِيَّةِ
بُنِيَتْ الْقَضِيَّةُ إِنَّ لِي
أَثَرًا جَلِيلًا فِي الْقَضِيَّةِ
أَثَرُ السُّيُوفِ الْمَشْرِفِيَّةِ وَالرَّمَاكِحِ الزَّاعِيَّةِ
أَوْدَعْتُ فِي مُهَجِ الشَّيْبَةِ نَفْحَةَ الرُّوحِ الْوَفِيِّ
لَا بَدَمَ يَوْمٍ لَهُمْ
يَسْقِي الْعَدَى كَأْسَ الْمَنِيِّ
قَسَمًا بِرُوحِ (فُؤَادِ) تَصْعَدُ مِنْ جَوَانِحِهِ زَكَاةُ

تأتي السماء حفيّةً فتحلّ جنتها العليّة
مانال مرتبة الخلود بغير تضحية رضية
عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبّت ضحية

الساعة الثانية

أنا ساعة الرجل العتيد أنا ساعة البأس الشديد
أنا ساعة الموت المشرف كل ذي فعل مجيد
بطلي يُخطّمْ قيده رمزا لتحطيم القيود⁽¹⁾
زاحمت من قبلي لأشيقها إلى شرف الخلود
وقد خت في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد
هيهات يُخدع بالوعد، وأن يُحذر بالعهود
قسماً بروح (محمد): تلقى الردى حلو الورود
قسماً بأُمّك عند موتك وهي تهتف بالنشيد
وترى العزاء عن ابنها في صبيته الحسن البعيد
مانال من خدم البلاد أجل من أجر الشهيد

الساعة الثالثة

أنا ساعة الرجل الصبور أنا ساعة القلب الكبير
رمز الثبات إلى النهاية في الخطير من الأمور
بطلي اشد على لقاء الموت من ضمّ الصّخور
جدلان يرتقب الردى فاعجب لموت في سرور
يلقى الإله (مُحَمَّدُ الكَفَّين) في يوم النشور
صبر الشباب على المصاب وديعتي ملء الصدور
أنذرت أعداء البلاد بشري يوم مستطير

(1) نُقِّدَ حكم الإعدام بالأبطال الثلاث في ثلاث ساعات متوالية. فكان أولهم فؤاد حجازي وثانيهم محمد جمجوم وثالثهم عطا الزير. وكان المقرر رسمياً أن يكون الشهيد عطا ثانيهم ولكن جمجوما حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته!

قَسماً بِرُوحِكَ يَا (عطاء) وَجَنَّةَ الْمَلِكِ الْقَدِيرِ
وَصَغَارِكَ الْأَشْجَبَالَ تَبْكِي اللَّيْلُ بِالْأَدَمِ الْغَزِيرِ
مَا أَنْقَذَ الْوُطْنَ الْمَقْدَى غَيْرُ صَبَّارٍ جَسُورِ

الخاتمة

الأبطال الثلاثة

أَجْسَادُهُمْ فِي تَرْبَةِ الْأُوطَانِ أَرْوَاحُهُمْ فِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ
وَهَنَّاكَ لَا شَكْوَى مِنَ الطَّغْيَانِ وَهَنَّاكَ فَيُضُّ الْعَفْوُ وَالْغَفْرَانِ
لَا تَرْجُ عَفْوَاً مِنْ سِوَاهُ هُوَ الْإِلَهُ
وَهُوَ الَّذِي مَلَكَ يَدَاهُ كُلَّ جَاهٍ
جَبَرُوتُهُ فَوْقَ الَّذِينَ يَغُرُّهُمْ جَبَرُوتُهُمْ فِي بَرِّهِمْ وَالْأَبْحَرِ

* * *

الضدائي

عينت الحكومة المنتدبة يهودياً بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين. فأمعن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان (يطبخها). ولما ثقلت على العرب وطأته، كمن له أحد الشبان المتحمسين في مدخل دار الحكومة في القدس وأطلق النار عليه فجرحه.

وقد علق على القصيدة الشاعر بشارة الخوري 9/6/1930 بقوله بكلمات «متوثة تجيش بها النفوس الظمأى إلى حريتها».

لَا تَسْلُ عَنْ سَلَامَتِهِ رُوحَهُ فَوْقَ رَاحَتِهِ
بَدَلْتُهُ هُمُومُهُ كَفَنُاً مَنْ وَسَادَتِهِ
يَرْقُبُ السَّاعَةَ التِّي بَعْدَهَا هَوْلُ سَاعَتِهِ
شَاغِلٌ فَكَّرَ مَنْ يَرَاهُ بِإِطْرَاقِ هَامَتِهِ
بَيْنَ جَنِينِهِ خَافِقٌ يَتَلَطَّأُ بَغَايَتِهِ
مَنْ رَأَى فَحْمَةَ الدَّجَى أَضْرَمَتْ مِنْ شَرَارَتِهِ
حَمَلَتْهُ جَهَنَّمُ طَرَفَا مَنْ رَسَالَتِهِ

هو بالباب واقفُ والردى منه خائفُ
فاهدأي يا عواصفُ خجلاً من جراته

* * *

صامتٌ لو تكلّما لفظ النار والدمما
قل لمن عاب صمته خلّق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما
لا تلوموه، قد رأى منهج الحق مظما
وبلاداً أحبها ركنها قد تهما
وخصوماً، ببغيتهم ضجت الأرض والسما
مرّ حسين، فكاد يقتله اليأس، إنما..

هو بالباب واقفُ والردى منه خائفُ
فاهدأي يا عواصفُ خجلاً من جراته

* * *

الشيخ المظفر

وقف الشيخ عبدالقادر المظفر كالجبل الشامخ، وسجون الاحتلال والمستعمر لم تن عزيمته عن الاستمرار في الدفاع عن وطنه، فقام إبراهيم ينشد له ويجعله مثلاً للقائد الذي يدافع عن وطنه وأمته، فأنشد إبراهيم هذه القصيدة ونشرها في جريدة الدفاع بتاريخ 18/1/1935 لتشجيع الزعماء والاحتذاء حذوه.

أنظر لي فعل (المظفر)، إنه
أحى القلوب، ودونهنّ ودونه
عرضوا الكفالة والكرامة عنده
ورأى التحير في التخير سببة
لم يخل ميدان الجهاد بسجنه
ولكم خلا بوجود جيش زاخِر
نفع القضية غائباً لم يحضر!
غرف الحديد، وحاميات العسكر
عبثاً.. وهل عرّض يقاس بجوهر؟
فقدى كرامته (بسته أشهر)
فلقد رماه بقلبه المتسعر
يمشي إليه بخطوه المتعثر

إن (المظفر) من حديد جسمه فيما أرى، وجسومهم من سُكَّر!

* * *

الإيمان الوطني

أو جماعة (الसार)

نُشرت القصيدة في جريدة الدفاع بتاريخ 13/1/1935 وفي القصيدة استنهاض
للهم وسط السواد اللافت للأمة.

ليت لي من جماعة (الَسَّار) قوماً يتفانون في خلاص البلاد
أو كإيمانهم رسوخاً وعمقاً ثابت الأصل في قرار الفؤاد
مثل هذا الإيمان يَضمُنُ للأوطان عزّاً، ومثل هذا التفادي
لا كإيمان من ترى في فلسطين... قصير المدى، كليل الزناد
يتداعى إذا تسلَّطَ وعدُّ أو وعيد عليه عند العوادي
أو قطوب... تخيب منه المساعي، وابتسأ... تذب في المبادي
لا تلمني إن لم أجد من وميض لرجاء ما بين هذا السواد

* * *

حطين

نظمها إبراهيم سنة 1928 يوم عزم أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك على زيارة
فلسطين، وأخذ الأدباء يعدون العدة لإقامة مهرجان له. ولكن الزيارة لم تتم. وقد رمى
إبراهيم من وراء هذه القصيدة إلى إثارة أمير الشعراء لينظم شعراً في فلسطين وفي قضيتها:

أهلاً برب المهرجان أهلاً بنا بغزة البيان
ملك القلوب المستقل بعرشها، والوصولان
ومتوج حالته أشعة تاجه دون العيان
أهلاً بشوقي شاعر الفصحى ومعجزة البيان
يا فرقد الشعراء كم من فرقد لُعلاك ران
علماً الخلود منشران على سريرك يخفقان

جبريل ينفخ في فؤادك ما يفيض على اللسان
وأمد بالنفحات روحك حين طوف بالجنان
فلذا بأبكار الجنان ليديك أبكار المعاني
يا باكي الفحاء حين أبست ثقيماً على الهوان
أياماً كانت وردة بدم البواويل كالدهان
أرسلت عن (بردى) سلامك في لظى الحرب العوان
وذرفت «دمعاً لا يكفك ف» هيئت الغوطتان
اليست تمأققتة فيه تخايل جنتان
أبدأ رثاؤك فيهما عينان دمعاً تجريان
هذا وإن جناهما للصعب فاعجب وهو دان

عرج على حطين واخشع يشج قلبك ما شجاني
وانظر هنالِكَ هل ترى آثار (يوسف) في المكان
أيقظ (صلاح الدين) ربّ التّاج والسيف اليماني
ومثّر هاشغواء أيوية الخيلة الهجوان
بالعاديات لديه ضبحاً والأسنة في اللّبان
ترمي بهما وجهها وما غير العجاجة من دخان

في كل خطار على الأخطار صار جبار الجنان
حلقات أدرعه ثم قيود الموت في درك الطعان
وسيو فهم ماء الحميم على مضاربهم أن
والخيل طوع كياتها في النقع مخرّاة العنان
لا تشنّي أو تحرّر القصبات في يوم الزمان
حطين يومك ليس ينكر شاهديه الخافقان
تطايّر الأرواح فيه من السنان إلى السنان

وترى السَّهامَ مُقَوِّمَاتٍ فَوْقَ أَجْسَامِ حَوَانٍ
فإذا أديمُ الأرضَ أحمَرُّ من دم الإفـرنج قـانٍ
يُسْقَوْنَ من كأس الرّدى وملـيـكُهم ظمـآنُ عـانٍ
حتّى انجلى رَهْجُ الوغى والنَّضْرُ مَزْمُوقُ العـنانِ
ومشى صـلاحُ الـذّين تحت لوائـه في مـهـر جـانٍ
وعلا الأذانُ ورَجَعَت تكبـيرُهُ شَرَفُ الأذانِ

أَمْقَوْصُ الدّولاتِ مَنْ لي مِنْ صُروفِكَ بالأمانِ
دُكَّتْ صُروحُ ما بنى أمثالها في المـجـدِ بـانٍ
جَلَّ المِصابُ «أبا علي» فأبـكِ هاتـيكِ المـغـاني
ذهبَ الـذّين عهـدَتـهم لا يـصـبـرون عـلى الـهـوانِ
في مـصرَ يطمـعُ أشـعـبُ وهـنا تـبـادى أشـعـبان⁽¹⁾
وهـنا التـخـاذلُ في الـشـدائدِ والتّـشـاؤمُ والتّـثـوانِ
والنَّفْسُ يَقتُلُ عزمَها طـوُلُ التّعـلُّلِ بالأمانِ

خُذْها إِلَيْكَ وَأَنْتَ عَنْهَا يا أَمِيرَ الشُّعْر غـانٍ
حَسَناءَ فِيهَا لِلصَّبَا نَزَقُ عَلى خَفَرِ الحـسانِ
نَفَحَاتُها مِنْ «كَزْمَةٍ» تُعزى إلى الحـسـنِ بـنِ هـانٍ
هَيَّهاتَ تَبْلُغُ شَأْوَكَ الشُّعراءُ يَوْمَـاً أَوْ تُـداني

* * *

(2) فلسطين مهد الشهداء

كان بعض الناس في الأقطار العربية المجاورة يرون الثراء الزائف الذي تمتعت به قلة من السماسرة وباعة الأراضي العرب فتعمى قلوبهم عما وراء هذه البيوع من خطر سيحل بفلسطين.

(1) إشارة إلى الاستعمار والصهيونية في فلسطين.

(2) القصيدة فيها عتاب لأحد شوقي وتذكيره بأبيات قصيدة نكبة دمشق.

وقد خدع بعض الناس في هذه الأقطار بظاهرة الرخاء المزيفة ونشرت القصيدة في جريدة فلسطين بتاريخ 19/4/1934 تحت عنوان «فلسطين مهد الشهداء» وألقاها في حفلة افتتاح النادي الفلسطيني في بيروت.

إخواننا أهل الوفاء أهل المودة والولاء
من كل قطر بالعروبنة ذي ازدهار وازدهاء
أحبائنا لا تُخدعوا عنّا بظاهرة الرخاء...
ليست فلسطين الرخيئة غير مهدي للشقاء
عرضت لكم خلف الزجاج تميس في حلل البهاء
هيهات ذلك إن في بيع الثرى فقد الثراء
فيه الرحيل عن الربوع غداً إلى وادي الفناء! (1)
فالיום أمرح كاسياً وغداً سأبذ بالعراء
وأصغت صادقة الرجاء فأين كاذبة الرجاء
من ذا الوم سوى بني وطني على هذا البلاء

*

للحق سطر في صحتنا وللتضليل نهـر
قلوب صائفها يطـل عليك بهتان وهجر
للخاملين نباهة فيهما وللأغمار ذكـر
هذا يقال له الزعيم... كما يقال لذاك حـر..
وهناك سمسار البلاد فإنه الشهم الأغـر
فالمسح مثل القديح تضمنه لهم خضر وحمـر (2)
تلك الصحافة (كيمياء) لها بخلق الله سر..
تدع الكرامة وهي هزل والمرءة وهي سُخر
أين الصحفي الصريح تراه يعلن ما يُسر

(1) لقد تحققت تلك النبوءة (الرحيل عن الوطن).

(2) إشارة إلى ورق النقد الفلسطيني.

صَلْبٌ فَلَا قَرْبَى تَمِيلُ بِهِ، وَلَا مَالٌ يَغُرُّ

* * *

مُنْذُ احْتِلَالِ الْغَاصِيَيْنِ وَنَحْنُ نَبْحَثُ فِي السِّيَاسَةِ
شَأْنَ الضَّمِيرِ مَعَ السِّيَاسَةِ كَالرَّقِيقِ مَعَ النَّخَاسَةِ
مَرَرْتُ عَلَيْنَا سِتَّ عَشْرَةَ، كُنَّ مَجْلَبَةً التَّعَاسَةِ
فَلِإِلَى مَتَى يَا ابْنَ الْبِلَادِ وَأَنْتَ تُؤْخِذُ بِالْحِمَاسَةِ
وَإِلَى مَتَى (زَعَمَاءُ) قَوْمِكَ يَخْلُبُونَكَ بِالْكِياسَةِ
وَلَكُمُ أَخْطُنَا خَائِنًا مِنْهُمْ بِهَالَاتِ الْقَدَاسَةِ..
وَلَكُمُ أَضْعَافُ حَقُوقِنَا الرَّجُلِ الْمُوَكَّلِ بِالْحِرَاسَةِ!
وَاللَّهِ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا كُلُّ قَتْلٍ قَتْلِ الرِّئَاسَةِ
تَأْتِيهِ مِنْ يَبْعِ الْبِلَادِ وَمَا إِلَيْهِ مِنَ الْخِيسَةِ
وَإِذَا اتَّقَاكَ (فَبِالْجُرْأَتِ) وَالنَّجَاسَةُ لِلنَّجَاسَةِ⁽¹⁾

* * *

أَيُّهَا الْأَقْوِيَاءُ

نُشِرَتِ الْقَصِيدَةُ فِي جَرِيدَةِ الدِّفَاعِ بِتَارِيخِ 3 / 2 / 1935، وَقَدْ تَوَجَّهَ فِيهَا إِلَى حُكُومَةِ
الْإِنْتِدَابِ، وَقَدْ اسْتَوْحَى مَعَانِيَهُ مِنَ الْمِصْطَلَحَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَبِأَسْلُوبِ تَهْكِمِي.

قَدْ شَهِدْنَا لِعَهْدِكُمْ (بِالْعَدَالَةِ).. وَخَتَمْنَا لَجَنَدِكُمْ بِالْبِسَالَةِ
وَعَرَفْنَا بِكُمْ صَدِيقًا وَفِيًّا كَيْفَ نَنْسَى ائْتِدَابَهُ وَاحْتِلَالَكَ
وَوَجَلْنَا مِنْ (لُطْفِكُمْ) يَوْمَ قَلْتُمْ: وَعَدُّ بَلْفُورٍ نَافِذٌ لَا تَحَالَةَ
كُلِّ (أَفْضَالِكُمْ) عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، وَلَيْسَتْ فِي حَاجَةٍ لِدَلَالَةِ
وَلَسْتُ سَاءَ حَالُنَا فَكِفَانَا أَنْكُمْ عِنْدَنَا بِأَحْسَنِ حَالَةٍ
غَيْرَ أَنَّ الطَّرِيقَ طَالَتْ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ... فَمَا لَنَا وَالْإِطَالََةَ
أَجْلَاءً عَنِ الْبِلَادِ تَرِيدُونَ فَنَجْلُو، أَمْ تَحْقِنَا وَالْإِزَالََةَ؟!

(1) كثر في ذلك الحين تسليط الصحافة للنيل من كرامات الناس.

القدس

خاطب الشاعر زعماء بلاده بشعر لاذع مر، وهو بهذا يريد لهم أن يكونوا ثواراً، وخاطب القدس بوصفها مقر الزعامة والأحزاب وتظهر في القصيدة وطنيته الصادقة ونقاء سريرته، وقد نُشرت في جريدة الدفاع بتاريخ 10/5/1935، فأقبل الناس على قراءتها لما أحسوا فيها من تصوير صادق لواقعهم المؤلم، بسبب التطاحن الحزبي حينذاك.

دار الزعامة والأحزاب كان لنا	قضية فيك، ضيّعنا أمانها
هل تذكرين وقد جاءتك ناشئة	غنية دونها الأرواح تفديها
تودّ لو وجدت يوماً أختاً ثقة	لديك يوسّعها برّاً ويحميها
ما كان كفواً عفيف النفس كافلها	ولا أياً حمي الأنف راعيها
ولا أفادت سوى الأحقاد تضررها	فوق البلاد (زعامات) وتذكيها
ولم تبال بما تلقي لها حطباً	ولا بأي كرام الناس ترميها
قضية نبذوها بعدما قتلت	ما ضرّ لو فتحوا قبراً يوارها

* * *

اشتروا الأرض تشتريكم من الضيم

قال هذه القصيدة حين أنشئ صندوق الأمة سنة 1932 لإنقاذ أراضي فلسطين من البيع لليهود، وحقيقة الأمر أن إبراهيم لم يكن مقتنعاً بالقائمين على هذا المشروع، فنظم هذه القصيدة، وربما ندم على نظمها كما ورد في كتاباته، ونُشرت في جريدة فلسطين بإمضاء أبو جعفر.

حبّذا لو يصوم منّا زعيمٌ	مثل (عندي) عسى يُفيد صيامة
لا يصنم عن طعامه...	في فلسطين يموت الزعيم لولا طعامه...
ليصنم عن مبيع الأرض يحفظ	بقعة تستريح فيها عظامه
بارك الله في حريص على الأرض	غيور ينهي إليها اهتمامه
هم حماة البلاد من كل سوء	وهُم معقل الحمى ودعائم
نهجوا منهج القوي وصفوا	لجهاد منصوره أعلامه

*

إِنَّمَا عُذَّةُ الضَّعِيفِ (احتجاج) لَمْ يَجَاوِزْ حَدَّ السُّطُورِ احْتِدَامُهُ
كُلَّ يَوْمٍ حَزْبٌ وَحُلُمٌ فَحَدَّثَ عَنْ ضَعِيفٍ سَلَاخُهُ أَحْلَامُهُ
مَغْرَمٌ بِالْبِلَادِ صَبٌّ وَلَكِنْ بِسَوَى الْقَوْلِ لَا يَفِيضُ غَرَامُهُ
بَطْلٌ إِنْ عَلَا الْمَنَابِرَ، كَرَّازٌ، سَرِيعٌ عِنْدَ الْفَعَالِ انْهَزَامُهُ!!
آزَرُوا الْقَائِمِينَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ إِنَّ الْأَبْيَّ هَذَا مَقَامُهُ⁽¹⁾
آزَرُوهُمْ بِالْمَالِ فَالْأَرْضُ (صندوق) لِمَالِكُمْ، بِلِ قِوَامِهِ
اشْتَرَوْا الْأَرْضَ تَشْتَرِكُمْ مِنَ الضَّيْمِ وَآتِ مُسَوَّدَةُ أَيَامِهِ...

* * *

يا رجال البلاد .

اشتدت نقمة إبراهيم على تلك الزعامات فوصفهم بالدالّين وسامسة لبيع
الأرض ونعت أولئك الزعماء بأسوأ الصفات وأرذلها وقد واجههم بقوة وبطش
وبصراحة، متهمًا فقال:

لَا تَبَالِي بِأَلْفِ خَطْبٍ عَرَاهَا نَفْسُ حُرٍّ مَفْجُوعَةٍ بِحِمَاهَا
شَفَّهَا الْغَيْظُ وَالْأَسَى وَتَرَاهَا كَظَمْتَ غِيظَهَا، وَأَخْفَتِ أَسَاهَا
كَلِمَا أَوْشَكَتْ تَسِيلُ دُمُوعِي مَلِكَ الْيَأْسِ غَرَبَهَا فَنَنَاهَا
لَا تَلْمَنِي، فَكَمْ رَأَيْتُ دُمُوعًا كَاذِبَاتٍ ضَحَكَتْ مِّنْ بَكَاهَا
قَدْ سَقَى الْأَرْضَ بَاعُوهَا بِكَاءٍ لَعَنَتْهُمْ سَهْوُهَا وَرَبَاهَا
وطني مبتلى بَعْضِيَّةِ (دالّين) لَا يَتَّقُونَ فِيهِ اللَّهَ
فِي ثِيَابِ ثُرَيْكَ عِزًّا وَلَكِنْ حَشَوْهَا الدُّلَّ وَالرِّيَاءَ سَدَّاهَا
ووجوه صَفِيقَةٍ لَيْسَ تَنْدَى بَجَلُودٍ مَدْبُوعَةٍ تَغَشَّاهَا
وَصُدُورٍ كَأَنَّهُنَّ قَبُورٌ مَظْلَمَاتٍ قُلُوبُهُمْ مَوْتَاهَا
حُسِبُوا فِي الرِّجَالِ، هَلْ كَانَتْ الْأَنْعَامُ إِلَّا لِمِثْلِهِمْ أَشْبَاهَا..

(1) الإشارة إلى الذين قاموا بمشروع «صندوق الأمة» وكانت غايته إنقاذ الأراضي في فلسطين.

*

يا رجال البلاد يا قادة الأُمّة ماذا دهاكم ودهاها...؟
 هل لديكم سياسة غير هذا القول تحيي من النفوس قواها
 صكّت الألسن المسامع حتى لقيت من ضجيجكم ما كفاها
 عرف الناس والمنابر والأقلام أفضالكم فهاتوا سواها
 كلكم بارع بليغ - بحمد الله - طَبَّ بحالنا ودواها
 غير أن المريض يرقب منكم هذه الجرعة التي لا يراها
 كان أولى بكم لو أن مع القول فعلاً محمودة عُباها
 مثل القول لا يؤيّد الفعل، أزهير لا يفوح شذاها
 وهو كالذو حة العقيم: ظلال واخضار ولا يُرجى جناها

*

رحم الله مخلصاً لبلاد ساوموه الدنيا بها فأبأها
 لو أتوه بالتبر وزن ثراها لأبأه وقال أفدي ثراها
 أنفروا أيها النيام فهذا: يوم لا ينفع العيون كراها
 كُشِفَتْ منكم المقاتل وامتدّت إليها المتقفات قناها
 نبّوني عن القوي متى كان رحيماً، هيهات من عسرتاها
 لا يلين القوي حتى يلاقي مثله عزة وبطشاً وجاها
 لا سمّت أمة دهنها خطوب أزهقتها ولا يشور فتاها

* * *

شريعة الاستقلال

يخاطب الشاعر قومه، ويدعوهم إلى نبذ الخلافات والتمسك بكتاب الله حتى يتخلصوا من رجس الاستعمار، وشريعة الاستقلال لا ينشدها العربي إلا في رحاب الإسلام ونقاوته وتعبّر القصيدة عن نظرته الدينية، وقد نشر إبراهيم قصيدته هذه في جريدة الدفاع بتاريخ 16/6/1935. ويقول فيها:

يومٌ بداجية الزمان ضياءً وبهاؤه للخافقين بهاءً

يُزجي النسيم به هجيراً لافح
ويرفُ من شظف المعيشة لينها
وإذا الرشادُ من الضلالة والعمى
وإذا من الفوضى نظام معجز
وإذا الخيام قصور أملاك الورى
وعلى ربوع الصين كبر فيلقُ
تلك الخوارق إن طلبت أدلة
نزل الكتاب على النبي محمد
لو لم يكن وحي السماء ونوره
سَحَرَ القلوبَ فراح يقذفها على
هيهات ما نكصوا على أعقابهم
حريّة أيّ الكتاب وسوددُ

عجباً!! وتبسط ظلّه الصحراءُ
ويسيل من وهج السراب الماء
ومن الشقاق تآلف وإخاء
وقيادة وسيادة ودهاء
وإذا القفار دمشق والزوراء
وبأرض قسطنطين رفّ لواء
ثبت البراق بهن والإسراء
ما يصنع الخطباء والشعراء!!
لمحتة عارضةً له وذكاء
نار الجهاد أولئك البسلاء
حتى انجلت عنهم وهم شهداء
وعزيمة وكرامة وإباء

*

ناديت قومي لا أخصّص مسلماً
إن الكتاب شريعة استقلالكم
أبناء يعرب في الخطوب سواء
فتدبروه وأنتم الخلفاء...

* * *

غاياتي

نُشرت هذه القصيدة في جريدة الدفاع بتاريخ 1935/2/25 وفيها لا يتوانى عن
إبداء وجهة نظره السياسية، وأنه ماضٍ على سياسته رغم من يعترضون عليه، وأنه باقٍ
على عهده في خدمة وطنه دون الانتساب لحزب أو لرأي زعيم.

إن قلبي لـبلادي
لم أبغضه لشقيق
ليس مني لـو أراه
ولـساني كفـؤادي
لا لحزبٍ أو زعيم
أو صديقٍ لي حميم
مرة غيّر سليم
نيط منه بالصميم

وغلدي يُشبه يومي وحديثي كقديمي
لم أهلب غليظ كريم لا ولا كنيذ لثيم
غيايتي خدمة قومي بشقائي أو نعيمي

* * *

السماسرة

تصدى إبراهيم بكل قوته وجهده لسماسرة الأرض، وحمل عليهم وفضح أمرهم، ولعل أكثر ما كان يغيظه أن أولئك السماسرة كانوا يتظاهرون بأنهم يذودون عن الوطن، فقال هذه القصيدة ليزيل عنهم برقعهم الزائف ويعري مواقفهم، وقد نشرها في جريدة الدفاع بتاريخ 1935 / 2 / 1 وقد أشار في القصيدة إلى بعض الجرائد التي كانت تستتر على خياناتهم.

أمَّ سَماسرةُ البلاد فعصبَةٌ عارٌّ على أهل البلاد بقاؤها
إبليسُ أعلن صاغراً إفلاسه لما تحقَّق عنده إغراؤها
يتنعمون مُكرِّمين، كأنَّما لنعيمهم عمَّ البلاد شقاؤها
هم أهلُ نجدتها، وإن أنكرتهم وهمو، وأنفك راغم، زعماؤها!!
وحماؤها، وبهم يتم خراؤها وعلى يديهم بيعها وشراؤها
ومن العجائب إن كشفت قدورهم أنَّ الجرائد، بعضهنَّ، غطاؤها
كيف الخلاص إذا النفوس تراحت أطماؤها، وتدافعت أهواؤها

* * *

1000

ازدادت أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وكانت حكومة الانتداب تغطي هذه الهجرة بطرق غير مشروعة، فهال الشاعر رؤية الأعداد الكبيرة، فراح يصف هذا المشهد ويبيب بزعماء فلسطين وينبههم إلى هذه المشكلة الكبيرة وكان منهم الشيخ أمين الحسيني، وراغب باشا النشاشيبي، وقام بنشر القصيدة في جريدة الدفاع بتاريخ 1935 / 3 / 27.

أرى عدداً في الشؤم لا كئلاً وعشر، ولكن فاقه في المصائب
هو (الألف).. لم تعرف فلسطين ضربةً أشدَّ وأنكى منه يوماً لضاربٍ

يهاجر ألف.. ثم ألف مهرباً ويدخل ألف سائحاً، غير آيب..
وألف (جواز)، ثم ألف وسيلة لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر آلاف.. كأن عبابه وأواجه مشحونة في المراكب

*

بني وطني، هل يقظة بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب
فوالله ما أدري، ولليأس هبة أنادي (أميناً) أم أهيب (براغب)

* * *

يا قوم..!

اشتد الخصام بين الأحزاب بسبب الانتخابات البلدية في المدن الفلسطينية وراح المستعمر يوجب نار النزاعات، ليحول نظر الناس عن القضية الأساسية، فقام إبراهيم طوقان يحذر الناس وينبههم لما يجري فقال قصيدة «يا قوم» ونشرتها جريدة الدفاع بتاريخ 18/1/1935 وكان يوم الجمعة والناس في بيوتهم لشدة الانتباه إلى هذه القضية.

هَزَلْتُ قَضِيَّتَكُمْ فَلَاحِمْ هَنَّاكَ وَلَا دُمْ
حَتَّى الْعِظَامِ فَقَدْ تَعَرَّفَهَا الذَّنَابُ وَأَنْجَمُوا
بَلَيْتِ قَضِيَّتَكُمْ فَصَارَتْ هَيَّكَلًا يَتَهَدَّمُ
صَمَرْتُ إِلَى (بَلَدِيَّةٍ) فِيهَا الْعِدَا تَتَحَكَّمُ
أَوْضَاعُهَا مَجْهُولَةٌ وَمَصِيرُهَا لَا يُعْلَمُ
يَا قَوْمَ لَيْسَ عِدُّكُمْ مَثْنٍ يَلِينُ وَيَسْرَحُمُ
يَا قَوْمَ لَيْسَ أَمَامَكُمْ إِلَّا الْجَلَاءُ فَحُزُّوا..

* * *

أيتها الحكومة

نشرت الدفاع هذه القصيدة بتاريخ 25/4/1935، حيث اعتاد الفلسطينيون الاحتفال في شهر نيسان من كل عام بموسم النبي موسى، وكان الناس يحضرون إلى موقع الاحتفال بين القدس وأريحا من جميع أنحاء فلسطين، فكانت حكومة الانتداب

تحشد قوى أمنية خشية وقوع اصطدام بين الجموع العربية واليهود. لفت المشهد شاعرنا إبراهيم فخاطب المستعمر بهذه الأبيات:

علام احتراسك؟ لا أعلم.. وفيم احتشادك؟ لا أفهم
وهل في فلسطين ما ترهبين سوى أنه اجتمع الموسم:
جواد براكبه عاثر.. وأين له الفارس المغلّم؟
وسيف بحامله ساخر.. وأين له الكفّ والمغصم؟
وهذا بتهديده يدعي وذاك بتنديده يزعم..
معاذيل إلا من العنعنات مشاغيل عن كل ما يكرّم
مظاهر، ليس بها ما يُخيف ولكنها خاف من يظلم..

* * *

يا حسرتا..

خاطب إبراهيم طوقان المجتمع كافة في هذه القصيدة، وحرّضهم فيها على الثورة والإخلاص في ثورتهم حتى يتخلصوا من المستعمر، ويتخلصوا من هوانهم. والأبيات مقتبسة من معنى البيت:

من يمن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وقد نشرت الدفاع القصيدة بتاريخ 22/3/1935.

يا حسرتا، ماذا دهى أهل الحمى
أرأيت أيّ كرامة كانت لهم
سهّل الهوان على النفوس فلم يعد
همدت عزائمهم، فلو شبت لظى
الظالم الباغي يسوس أمورهم
يا من تعلّل بالسياسة.. ظنّها
ما لطفها؟ ما اللين ذاك؟ وكلهم

فالعيش ذلّ، والمصير بوار
واليوم كيف إلى الإهانة صاروا
للجرح من ألم.. وخفّ العار
لتثيرها فيهم، فليس تُثار
واللصّ والجاسوس والسمسار
لطفّت، ولأنّ عصيها الجبار
مستعمرون وكلّله استعمار

* * *

زيادة الطين..!

قال إبراهيم هذه القصيدة بمناسبة الطوفان الذي تعرضت له نابلس وضواحيها سنة 1935، وفي القصيدة يستذكر الزلزال الذي ضربت به المدينة عام 1927، وزيادة الهجرة اليهودية ووعده بلفور، وكأن لسان حاله يقول: اجتمعت زلازل عديدة على مدينة نابلس، مما زاد آلام الناس وشؤمهم. وقد نشرت جريدة الدفاع القصيدة بتاريخ 1935/2/10.

من كان ينكر نوحاً أو سفينته	فإن نوحاً بأمر الله قد عادا!!
حلّ الوبال «بعيال» فمال به	يا هيبه الله إبراقاً وإرعادا
في جارف كعجيج البحر طاغية	أماجئه تحمل الأسواق إمدادا
ولا تزال من الزلزال باقية	تذكأرها يوقد الأكبأد إيقادا
منذ احتللتهم وشؤم العيش يرهقنا	فقراً وجوراً وإنعاساً وإفساداً
بفضلكم قد طغى طوفان «هجرتهم»	وكان وعداً تلقيناه إيعاداً
واليوم، من شؤمكم، نبلى بكارثة	هذا هو الطين والماء الذي زاد..

* * *

مناهج

قال إبراهيم هذه القصيدة ليبين للشعب أن أمامه مستعمر بريطاني، وصهيونية عالمية، وهؤلاء وضعوا ثقلهم لتحقيق أهدافهم بتشريد الشعب وتهويد الوطن وقد نشرت جريدة الدفاع القصيدة بتاريخ 1935/3/3 وقد نبه إبراهيم الناس فيها بأن الطرفين يسيران بخطة ممنهجة لتحقيق هذا الهدف.

أما مأك أئها العربي يوم	تشيب لهوليه سود النواصي
وأنت، كما عهدتك، لا تبالي	بغير مظاهر العبث الرصاص
مصيرك بات يلتمسه الأذاني	وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رخب القصور غداً يباق	لساكنها ولا ضيق الخصاص
لنا خصمان: ذو حول وطول	وآخر ذو احتيال واقتناص

تواصوا بينهم فأتى وبالأ
وإذلاً لننا ذاك التواصي
مناهجُ للإبادة واضحاتُ
وبالحسنى تنفَّذُ والرصاصُ

* * *

إلى الأحرار

قرر الزعماء العرب في فلسطين الخروج بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع بمظاهرة سلمية تعلن في المدن الفلسطينية، الواحدة تلو الأخرى، فألقت الشرطة البريطانية القبض على بعض الزعماء العرب واعتبرتهم مسؤولين عن هذه المظاهرات وساقتهم إلى المحاكمة. ثم صدر عليهم الحكم بالسجن أو توقيع الكفالات. فوقعوا كلهم إلا المرحوم الشيخ عبدالقادر المظفر الذي فضّل السجن على توقيع الكفالة.

مما دفع طوقان الكشف عن بطولات الزعماء الزائفة، بمقطوعة ساخرة ويقارن بينهم وبين الشيخ المظفر الذي رفض التوقيع ودافع عن بلاده.

أحرارنا! قد كشفتم عن «بطولتكم»	غطاءها يوم توقيع الكفالات
أنتم رجال خطابات منمّقة	كما علمنا، وأبطال «احتجاجات»
وقد شبعتم ظهوراً في «مظاهرة»	«مشروعة!» وسكرتم بالهتافات
ولو أصيب بجرح بعضكم خطأ	فيها، إذا لرتعتم بالحفاوات
بل حكمة الله كانت في سلامتكم	لأنكم غير أهل للشهادات
أضحت فلسطين من غيظ تصيح بكم:	خلّوا الطريق فلستم من رجالاتي
ذاك السجين ⁽¹⁾ الذي أغلى كرامته	فداؤه كل طلاب الزعامات

* * *

فتية المغرب

نظم الشاعر هذا النشيد حين كان يُدرّس في كلية النجاح وقد قدم شباب من المغرب العربي للدراسة في الكلية، فرحب بهم بهذا النشيد المؤثر، وقد أنشده الطلاب بنغم شجيٍّ ساحر وكان المغرب حينذاك يرزح تحت الحكم الإسباني.

(1) الإشارة إلى المرحوم الشيخ عبدالقادر المظفر.

فَتِيَّةَ الْمَغْرِبِ هَيَّا لِلْجِهَادِ نَحْنُ أَبْطَالُ فَتَاهَا ابْنِ زِيَادِ
نَحْنُ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْدَلِيسِ وَلَهَا تُرْخِصُ غَالِي الْأَنْفُسِ

قِفْ عَلَى الشَّاطِئِ وَانْظُرْ هَلْ تَرَى يَوْمَ لَا طَارِقُ عَادَ الْقَهْقَرَى
كَبَّ النَّارِ وَأَثَارَ السَّفِينِ لَا، وَلَا أَبَاؤُنَا أَسَدُ الْعَرِينِ

يَوْمَ لَا عِزُّ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَا وَلَا هِمَّةُ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ
مُشَبَّهٌ عَزَمَ شَبَابِ الْمَغْرِبِ أَشْبَهَتْ هِمَّةَ جَيْشِ الْعَرَبِ

يَا فَتَى الْمَغْرِبِ سَلِّهَا مَنْ بَنَى فَأَعِزِّدْهَا لِدُؤِيهَا وَطَنَا
دَارَهَا الْحَمْرَاءَ تَسْمَعُ عَجَبَا تَحْسُدُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ الْعَرَبَا

نَحْنُ أَهْلُهَا وَإِنْ هَبَّتْ صَبَا جَنَّةُ الْفَرْدَوْسِ هَاتِيكَ الرُّبَى
مِنْ رُبَاهَا فَعَلِينَا أَوْ لَا كَيْفَ تَبْقَى لِسَوَانَا نُزُلَا

* * *

موطني

أَنْشَأَ الشَّاعِرُ نَشِيدَ مَوْطِنِي لِلشَّبَابِ وَالطَّلَابِ بَعَثًا لِلْأَمَلِ فِيهِمْ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ حِينَهَا مُعَلِّمًا.

مَوْطِنِي الْجَلَالَ وَالْجَمَالَ وَالسَّنَاءَ وَالْبَهَاءَ فِي رَبِّكَ
وَالْحَيَاةَ وَالنَّجَاةَ وَالْهِنَاءَ وَالرَّجَاءَ فِي هَوَاكَ

هَلْ أَرَاكَ

سَالِمًا مَنَعًا وَغَانِمًا مَكْرَمًا

هَلْ أَرَاكَ فِي عَمَلِكَ

تَبْلُغُ السَّمَاءَ

مَوْطِنِي

ذَنَّا الْمُؤْبَدَا وَعِشْنَا الْمُنْكَدَا
لَا نَرِيْكَ بِلْ نَعِيْدُ
مَحْدَنَا التَّلِيْدُ

موطني

بِإِغَايَةِ تَشْرِفُ وَإِيَاةُ تَرْفَرُ
بِهَـنَاكَ

قَاهِرًا عِدَاكَ

موطنی

* * *

وطنی أنت لی

نظم إبراهيم هذا النشيد وهو في كلية النجاح وقد أفرغ فيه حبه لوطنه بوطنية صادقة وعقيدة راسخة.

وطني أنت لي والخصم راغمٌ وطني أنت كل المنى
 وطني إنني إن تسلم سالمٌ وبك العزّي والهنا

يا شبابنا انهضوا آن أن نهضنا
ولنعلى الوطن فلنعم الوطن

وانهضوا وارفعوا عاليًا مجدكم خالداً سامياً

وطني مجده في الكون أوحداً
وطني حسنه في الكون مفرداً
وطني صافح الكوكباً
جنة سهله والربى

يا شبابنا انهضوا آن أن نهضوا

ولنعلى الوطن فلنعم الوطن

وانهضوا وارفعوا عاليًا مجدكم خالداً سامياً
وطني حيث لي محب ينطق
وطني حيث لي فؤاد يخفق
بلساني وما أشعر
وبه رايتني تنشر

يا شبابنا انهضوا آن أن نهضوا

ولنعلى الوطن فلنعم الوطن

وانهضوا وارفعوا عاليًا مجدكم خالداً سامياً



الشعر الاجتماعي

لن الربيع.. ٩

نشرت القصيدة في جريدة الدفاع بتاريخ 16/3/1935 وقد أراد الشاعر أن يريح نفسه من عناء السهاسة والزعماء فوصف أيام الربيع، ولكنه لا يث أن يذكر أن الفرح بالربيع وبأزهاره لمن له أرض وليست الفرح لمن يبيع أرضه.

أرأيت مملكة الربيع يعيد ذرونها الربيع
ويؤج الراعي بها ملكاً رعيتها القطيع
الذئب يرهبه ويلثم كفه الحمل الوديعة
آذار في رخب الفضاة سيفير دولته الرفيعة

هَاتِيكَ أَلْوَانُ تَشْعُ، وَتَلْكَ أَلْحَانُ تَشْعُ
لِمَنِ الرِّبِيْعُ وَطِيْبُهُ؟ وَهَوَاهُ، وَالزَّهْرُ الْبَدِيْعُ
فَرَحُ الرِّبِيْعِ لِمَنْ لَهُ أَرْضُ، وَلَيْسَ لِمَنْ يَبِيْعُ

* * *

نعمة..!

نشرت جريدة الدفاع هذه القصيدة بتاريخ 11/4/1935، وقد نظمها الشاعر حين تنهى لمسامعه ما قاله أهل بيروت عن الثراء الزائف بسبب بيع بعض العائلات أراضي لليهود بأسعار عالية، فقال إبراهيم يوضح حقيقة هذه المسألة، متحسراً على ما كان يجري آنذاك.

يقولون في بيروت: أنتم بنعمة
شقيقتنا مهلاً! متى كان نعمة
وباذل هذا المال يعلم أنه
على أنها أوطاننا.. ما كنوزهم؟
ولو كان قومي أهل بأسٍ ونخوة
ولكنهم قد آثروا السهل مركباً
وما حسرتي إلا على متعفف
تبيعونهم تُرباً، فيعطونكم تبراً
هلاك ألوف الناس في واحدٍ أثرى
يسلم باليمنى إلى يده اليسرى
وأموالهم؟ حتى تُساوى بها قذراً
إذن أصبحت للطامعين بها قبرا
تسيره الأهواء واجتنبوا الوعرا
يقوم «لوجه الله» بالنهضة الكبرى

* * *

الدم الخفيف

راجع الشاعر إبراهيم طوقان طبيباً، فرأى الطبيب أن الشاعر بحاجة إلى دم، فداعبه إبراهيم وأخبره بأن يكون الدم خفيفاً.

وطبيب رأى صحيفة وجهي
قال لا بد من دم، لك نعطيهِ
لك ما شئت يا طبيب ولكن
شاحباً لونها وعودي نحيفاً
نقياً ملء العروق عنيفاً
أعطني من دم يكون خفيفاً!

* * *

كَمْ قَلَّتْ: «أمراض البلاد»؛ وَأَنْتَ مِنْ أَمْرَاضِهَا
وَالشُّؤْمُ عَلَتْهَا: فَهَلْ فَتَشْتَ عَنْ أَعْرَاضِهَا
يَا مَنْ حَمَلْتَ الْفَأْسَ تَهْدِمُهَا عَلَى أَنْقَاضِهَا
أَعْدَفَهَا أَنْتَ الَّذِي يَسْعَى إِلَى إِنْهَاضِهَا
وَانْظُرْ بَعَيْنَيْكَ الذَّنَابَ تُعَبُّ فِي أَحْوَاضِهَا

وَطَنْ يُبَاعُ وَيُشْتَرَى وَتَصِيحُ: «فليحيى الوطن»؟!
لَوْ كُنْتَ تَبْغِي خَيْرَهُ لَبَذَلْتَ مِنْ دِمِكَ الثَّمَنَ
وَلَقُمْتَ تَضْمِيدُ جَرَحَهُ لَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْفِطَنِ

*

أَضْحَى التَّشَاؤُمُ فِي حَدِيثِكَ بِالْغَرِيزَةِ وَالسَّلِيلَةِ
مِثْلَ الْغَرَابِ، نَعَى السَّيَّارَ وَأَشْمَعَ الدُّنْيَا نَعِيقَهُ
تِلْكَ الْحَقِيقَةُ، وَالْمَرِيضُ الْقَلْبُ تَجْرُحُهُ الْحَقِيقَةُ
أَمَلٌ يَلُوحُ بِرَيْقِهِ فَاسْتَهْدِ يَا هَذَا بِرَيْقِهِ
مَا ضَاقَ عَيْنُكَ لَوْ سَعِيَ لَهُ، وَلَوْ لَمْ تَشْكُ ضَيْقَهُ

لَكِنْ تَوَهَّمْتَ السَّقَامَ، فَأَسْقَمَ الْوُحْمُ الْبَدَنَ
وظَنَنْتَ أَنَّكَ قَدْ وَهَنْتَ فَدَبَّ فِي الْعِظَمِ الْوُهْنُ
وَالْمَرءُ يُزْهِبُهُ الرَّدَى مَا دَامَ يَنْظُرُ لِلْكَفَنِ

*

أَلَلَّ ثُمَّ اللَّهُ مَا أَخْلَى التَّضَامُنَ وَالْوَفَاقَا!
بَوْرَكْتَ مُؤَمَّرَاتُ أَلْفَ لَا نِزَاعَ وَلَا شِشَقَا⁽¹⁾
كَمْ مِنْ فَوَادٍ رَاقٍ فِيهِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ رَاقَا
الْيَوْمَ يَشْرَبُ مِوْطِنِي كَأْسَ الْهَنْأِ لَكُمْ دِهَاقَا

(1) عُقد في تلك السنة مؤتمر «عربي عام» في القدس الشريف.

لَا تَعْبَأْ بِمَا بِمَشَاغِبِنَ تَسْرِوْنَ أَوَّجْهَهُمْ صَافِقَا

لَا بُدَّ مِنْ فِتْنَةٍ - أَجْلَكُكُمْ - تَلْذُهَا الْفِتْنُ
تَلْكَ النَّفْسُ مِنَ الطُّفُولَةِ أَرْضَعَتْ ذَاكَ اللَّبَنَ
نَشَأَتْ عَلَى حُبِّ الْحِصَامِ، وَبَاتَ يَزْعَاهَا الضَّغْنُ

لَا تَحْفِلُوا بِالْمَرْجَفِينَ، فَإِنْ مَطَّلَ بِهِمْ حَقِيرُ
حُبِّ الظَّهْرِ عَلَى ظَهْرِ النَّاسِ مَنْشَأَهُ الْغُرُورُ
مَا لَمْ يَكُنْ فَضْلٌ يَزِيدُكَ فَالظُّهُورُ هُوَ الْفَجْورُ
سِيرُوا بَعَيْنِ اللَّهِ؛ أَنْتُمْ ذَلِكَ الْأَمْلُ الْكَبِيرُ
سِيرُوا فَقَدْ صَفَتْ الصُّدُورُ؛ تَبَارَكْتَ تِلْكَ الصُّدُورُ

سِيرُوا فَسُتَيْتُكُمْ لَخَيْرِ بِلَادِكُمْ خَيْرُ السُّنَنِ
شُدُّوا الْمَوَدَّةَ وَالتَّوَالَّفَ وَالتَّفَاوُلَ فِي قَرْنٍ
لَا خَوْفَ إِنْ قَامَ الْبِنَاءُ عَلَى الْفَضِيلَةِ وَارْتَكَبَ

*

حَيِّ الشَّبَابِ وَقُلْ سَلَامًا إِنَّكُمْ أَمْلُ الْغَدِ
صَحَّحْتَ عِزَائِمَكُمْ عَلَى دَفْعِ الْأَنْهِيمِ الْمُعْتَدِي
وَاللَّهُ مَدَّ لَكُمْ يَدًا تَغْلُو عَلَى أَقْوَى يَدِ
وَطَنِي أَرْفُ لَكَ الشَّبَابَ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ النَّدِي
لَا بُدَّ مِنْ ثَمَرٍ لَهُ يَوْمًا وَإِنْ لَمْ يَعْقِدْ

رِجَائُهُ الْعِلْمُ الصَّحِيحُ، وَرَوْحُهُ الْخُلُقُ الْحَسَنُ
وَطَنِي، وَإِنَّ الْقَلْبَ يَبِىْ وَطَنِي بِحُبِّكَ مُرْتَهَنُ
لَا يَطْمَئِنُّ؛ فَإِنْ ظَفِرْتَ بِمَا يُرِيدُ لَكَ اطمأن

إلى بائعي البلاد

كان السماسرة همّاً ثقيلاً على إبراهيم طوقان، فقام ينشد قصائد لاهبة تمور بالغضب الشديد عليهم ويعرّيبهم ويذكرهم بمطامعهم، وأن هذا الذهب اللامع لا يكون إلا دماراً لأن العدو سوف يستولي على الأوطان إن استمر هذا الحال فقال:

باعوا البلادَ إلى أعدائهم طمعاً بالمال لكننا أوطائهم باعوا...
قد يُعذرون لو أنّ الجوعَ أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
وبُلَغَةُ العارِ عند الجوع تليظُها نفسٌ لها عن قبولِ العارِ ردّاعُ
تلك البلادُ إذا قلت: اسمُها «وطنٌ» لا يفهمون، ودون الفهم أطماع

*

أعداؤنا، منذ أن كانوا، «صيارفة» ونحن، منذ هبطنا الأرض، «زُرّاعُ»
لمْ تعكسوا آيةَ الخلاقِ، بل رجعت إلى اليهود بكم قربي وأطباع
يا بائعِ الأرض لم تحفل بعاقبة ولا تعلّمت أن الخصمَ خداعُ
لقد جنيت على الأحفاد، والهفي وهم عبيدٌ، وخُدّامٌ، وأتباعُ!
وغرّك الذّهبُ اللّماعُ تُحرّزُهُ إنّ السّرّابَ كما تدريهِه لُماعُ
فكّرْ بموتك في أرضٍ نشأت بها واترك لقبرك أرضاً طولها باعُ

* * *

وداع

نظم إبراهيم هذا النشيد بمناسبة سفر صديقه سعيد تقي الدين مهاجراً إلى جزائر الفلبين سنة 1926:

لا تقل لله لبنان الأشمّ
لا تقل أشتاقُ ألحان الخضمّ
عش كما أهواك مكفوفاً أصمّ

يا فؤادي واسلُ أيام الهوا

هل رأيت الروض أيام الخريف

ذابل الأزهار مسلوب الحفيف
متواري الحسن في الغيم الكثيف

يا فؤادي أين أيام الهوى!

هل رأيت الطير في الروض يدور
هائماً يبحث عن عهد السروز
مرغماً ينساق والريح تثور

يا فؤادي أين أيام الهوى!

لا تسلني يا فؤادي عن هناء
لك في الروض وفي الطير عزاء
إنما العمر نعيم وشقاء

يا فؤادي، وهنا ضلّ الهوى!

* * *

العمل

نظم الشاعر هذا النشيد يستنهض همم الشباب للعمل والاجتهاد:

مجدُ البلاد	بالشباب العاملين
والاجتهاد	للعلى نهج مبين
هَبّوا إذن	واجنوا الثمن
	مدى السنين
إن العمل	يحيي الأمل
سرُّ الوجود	فيه نَسودُ
	في العمل المين

مَالِكُ السَّوْلِ	قيمة بين الملا
ولا الخمسول	سُلِّمَ إلى العلا

خَيْرُ الشَّيْءِ	تَنْبِيءُ الْأَمَمِ	إِنْ أَلْهَمَ نَمَمٌ
يَحْيِي الْأَمَلَ	أَنْ نَعْمَ لَا	إِنْ الْعَمَلُ
فِيهِ نَسُودُ		سَرُّ الْوَجْدِ
	فِي الْعَمَلِ	
قُوَّةٌ لَا تُغْلَبُ		عَزَمُ الشَّبَابِ
أَيَّ هَوْلٍ يَرْكَبُ		وَلَا يَهَابُ
لِلْوَطَنِ	أَوْ يَجْتَنِي	لَا يَنْثَنِي
	مَا يَطْلُبُ	
يَحْيِي الْأَمَلَ		إِنْ الْعَمَلُ
فِيهِ نَسُودُ		سَرُّ الْوَجْدِ
	فِي الْعَمَلِ	

* * *

أشواق الحجاز

نظم إبراهيم طوقان هذا النشيد، وفيه لمحات دينية تعبر عن نفس كل عربي متفاني في سبيل عزة الأمة ورفعتها.

فؤادي وهام بحبّ النبي	بلاد الحجاز إليك هفا
ويطيب ذاك الثرى الطيب	ويا حبذا زمزم والصفاء
ملء الوادي، والأنجاد	ذكرى الهادي، والأجداد
حول الحرم، أبداً باد	أثر الهمم، منذ القدم
شموس الهدى	بلاد الكرام
مدى سرمد	عليك سلامي

*

هنيئاً لمن حضر المشهدا وطاف بكعبة ذاك الحرم

ومن قبل الحجر الأسود وظلله الركن لما استلم

*

بروحي ربوع النبي الأمين	وصحبُ النبي هداةً الملا
ومشرق نور الكتاب المبين	عماد الحياة وركن العلا
ذكرى الهادي والأجداد	ملء الوادي والأنجاد
أثر الهمم منذ القدم	حول الحرم أبداً باد
بلاذ الكرام	شموس الهدى
عليك سلامي	مدى سرمد

* * *

مصرع بلبل

حكاية رمزية تمثل الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب قادماً من البلدة الصغيرة أو القرية البسيطة.. هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهما وألوان عبثها، تجتذبه فيرتمي بين أحضانها ويلقي بقياده إليها فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب.

وقد استوحى طوقان القصيدة من إحدى رقصات (مرغيتا) الأندلسية ومن قصيدة «البلبل والوردة» للشاعر الإنكليزي «أوسكار وايلد».

قدّر ساقه فآواه روضاً لم يكن طار فيه قبلاً وغنى
فاستوى فوق أيكّة ورمى عينيه فيما هناك يُسرى ويُمنى
وإذا الروض بهجة الروح طيباً وظلالاً، وفتنة العين حسناً
وكان الغدير بين ضلالٍ وهدى كلما استوى أو تننى
تنحني فوقه كرائم ذاك الدوح منها الجنى، وكم يتجننى
مطمئن يسير تيهاً، فإن رام عناق الصخور صدت فجناً
هكذا يصبح الحبيب المعنى بعد حين وهو المحب المعنى

ومضى البلبل الغريب يطوف الروض حتى انزوى محياً النهار

راح يأوي إلى الغصون ولكن كيف يغفو مشرُّ الأفكار
 كان في الروض فوق ما يتمنى من فنون الأثمار والأزهار
 غير أن ليس فيه طير يغني أي روض يحلو بلا أطيَّار
 وسرَّت فيه رعدة حين لم يلق سوى دارسٍ من الأوكار
 وبقيانوا قفٍ رخيم الموت عليها، مخضَّب الأظفار
 أي خطبٍ أصابكم معشر الطير..؟ وماذا في الروض من أسرار؟

طلع الفجر باسمًا إثرَ ليلٍ دونه وحشةٌ كهوف المنيَّة
 تنزَّى أشباحه صاخباتٍ عارياتٍ، أكفُّها دموية
 ورُجومٌ تفري الغيوم وتهوي كل رجمٍ من الجحيم شظيَّة
 وخسوف تحدَّث البدر فيه بفم الحوت منذرًا برزيَّة
 ذاك ليل قضى على البلبَل المنكود لولا يدٌ تصدَّت عليَّه
 ملكةٌ عرشها المشرق، والتاج سناها، أعظَّم بها شريقه
 أنقذته فهبَّ يشدو شكوراً مرحاً، هاتفاً لها بالتحية:

مليكة النـيـراتِ إلهية المـشـرقين
 الناس في الغـابـراتِ إليك مـدّوا اليـدين
 وأحرقوا في الصـلاة نـضـارهم واللـجـين
 وقربوا الأعناق

زلفى تراقى

يا ليل إن الصباخ رمز حياة السورى
 أنفاسه في البطاخ وروحـه في النـذرى
 أما رأيت الأقاخ أفـاق بعـد الكـرى
 وضـوع الأفـاق

لما أفاق

هناك راعي الغنم جـذلان، حيُّ الفؤاد
يرتفع بين الأكمم يهيم في كل واد
والنأي صبَّ النغم وبثَّه في الوهاد
كزفرة الأشواق
غَبَّ الفراق

*

نسي الطيرُ همَّه حين غنى قلما يستقرَّ همُّ الطروب
ألف الروض مفرداً وتولَّى عنه في دوحه شعورُ الغريب
مستقلَّ في الملك، لا من شريك طامع يُتقى، ولا من رقيب
مطلق، يستقرُّ عند نمير تارة أو يقل فوق رطيب
وإذا «وردة» تفيضُ جمالاً تنهادي مع النسيم للعب
قد حمتها أشواكها مشرعات حولها دون عابث أو غصوب
تمنح العين حين تبدو وتخفي من ضروب الإغراء كل عجب

كلُّ قلبٍ له هواه... ولكن ليس يدري متى يجيء زمانه
وهو إمَّا في ظلِّ جفن كحيل كامن السحر، راقد أفعوانه
أو وراء ابتسامة حلوة الثغر، نقبي، مفلج أقحوانه مفلج أقحوانه
أو على الصدر يستوي فوق عرشين.. مكيناً مؤيداً سلطانه مكيناً مؤيداً سلطانه
فإذا كان لفحةً من جحيم الرجس.. أملى أحكامه شيطانه أملى أحكامه شيطانه
وإذا هبَّ نفحةً من نعيم الطهر.. قامت ركنه أركانه قامت ركنه أركانه
هوذا الحب فليكن حين يأتيك بريئاً من كل عيب مكانه من كل عيب مكانه

صارت الوردة الخليعة للبلبل همّاً ومأرباً يُشقيه
حسرتاً للغرير أصبح كرباً ما يلاقيه من دلالٍ وتيه
شفه السهد وأعتراه من الحب سقامٌ مبرِّحٌ يرضيه

من رآها وقد تحامل يهفو
من رأى روحه تسيل نشيداً
هي «حواء» ذلك الخلد فاحذر
لا تهب قلبك الكريم لثيماً
نحوها، كيف أعرضت تغريه
لاهباً، لوعةً الأسى تُذكيه
لا تكوننَّ أنت «آدم» فيه
تحت رجله عابثاً يلقيه

هل يرى في ظلال وردته الحمراء سرّاً بدا وكان خفيّاً
هل يرى للطيور فيها قلباً نبذتهنَّ يابساً وجنيّاً
هل يرى اليوم ما الذي جعل الروض كثيلاً من الطيور خليّاً
كم نذير بدا لعينه حتى
سامه حُبّه شقاء ولكن
والهوى يطمس العيون ويلقي
هكذا يسلك المحب طريق الخوف أمناً ومحسب الرشدة غيّاً
في قرار الأسماك منه دويّاً
قام شخص الردى هناك سويّاً
نعمة الحب أن يكون شقيّاً

من ترى علّم البخيلة حتى
لم يصدّق عينيه حتى أظلمت
سُمحت أن يقبل الطير فاهها
وأطالست في ختلته نجواها
زلزل الروض عند ذلك بالألحان.. فاسمع روايتي عن صداها:

* * *

نشيد البلب للوردة

أنشدي يا صبا	وارقصي يا غصون
واسقني ياندي	بين لحظ العيون
فيك يا وردتي	قد حلالي الجنون
أنا مني الهوى	أنت منك الفتون
أنشري ما طوث	من غرامي السنون
كان في أضلعي	فروثه الجفون
اقربي من فمي	فحديثي شجون..

*

ضَمَّهَا الطير مطبقاً بجناحيه، وهَمَّتْ بثغره شفتاها
 لم يُمتنع بنشوة الحب حتى أوردتها قلباً، إذا رفَّ يوماً
 أشرعت شوكة تلظى شباها خافقاً للهوى فذاك هواها
 عكسته وهاجئة وجنتهاها روعه طي شهقة معناها:
 نظير الطير نظرة أعقبتها ورده تبهر العيون ولكن
 كثرة الشم قد أضاعت شذاها

* * *

آل عبد الهادي

(بمناسبة افتتاح ناديهم في نابلس)

عهدَ الجدود سقاك صوبَ عهدِ ماضٍ تحصنت البلاد بظله
 من كيد متدب وصوله تعلقو منابر من متون جيا
 المشرفة في السوغى خطباؤه وشبا الأسنة فيه ألسنة إذا
 لم يخفَ جوهرها على الأجداد وطنية إن لم يكن عُرف اسمها
 فمَن الجبان يخطها بمداد وتخرجوا أن لا يمس حروفها
 كسدراء لم تنفض غبار جهاد حمراء أوردتها الدماء حفاظهم
 بدم الفرنجة عند جوف الوادي سائل بها (عزّون) كيف تحضبت
 همم إلى الهيجاء كالأطواد دعت الرجال ولم تكد حتى مشت
 كأس الحتوف تقول هل من صاد ثم التقوا تحت السيوف وبينهم
 ذي التاج والأعلام والأجناد كسروا من النسركبير جناحه
 ويصب لعنته على القواد تركوه يجمع في الشعاب فلولة
 متبجح فيهم يصيح: بلادي رجع الأباة الظافرون وليس من
 منّا لعسف فيه واستبداد⁽¹⁾ هل أهلك (فروخ) إلا نخوة

(1) فروخ: حاكم نابلس من قبل الأتراك وقد قتله صالح طوقان حين ضاق الناس بظلمه.

أضحى غداة الظلم أول فادي
في وجهه أقبح ظالم متباد
والموت في يده وراء زناد
متضرجين بحمرة الفرصاد

قد أشرقت بالعليّة الأبحاد
وذوي الحفاظ المر من أنداد
أهوائهم نبلاء في الأحقاد
وفواضل من آل عبد الهادي
ثقل على اللؤماء من حسادي
لما تجمع شمل هذا «النادي»
وتوطدت منكم بخير تلاد

لم يا دعاة السوء يطمس فضل من
ثارت «بصالح» نخوة قذفت به
ومضت به صُعداً إلى كرسية
ألقى به وبظلمه من حالي

هل عهد «إبراهيم» غير صحيفة
أهل الفعال الغر من أنجاده
كرمت نحيزتهم فهم نبلاء في
قالوا أتمدح؟ قلت أهل فضائل
أصفيتمكم ودي واعلم إنه
لم يبتهج قلبي كبهجته بكم
شمخت بطارف مجدكم أركانته

* * *

الشاعر المعلم

عارض طوقان بهذه القصيدة، قصيدة شوقي «العلم والتعليم» وجاءت القصيدة فكاهية تصور متاعب مهنة المعلم.

«قم للمعلم وفه التبجيلا»
من كان للنشء الصغار خليلا!
كاد المعلم أن يكون رسولا..
لقضى الحياة شقاوة وخمولا
مرآى «الدفاتر» بكرة وأصيلا
وجد العمى نحو العيون سبيلا
وأبيك، لم أك بالعيون بخيلا
مثلاً، واتخذ «الكتاب» دليلا
أو «الحديث» مفصلاً تفصيلا

«شوقي» يقول - وما درى بمصيبي -
أقعد، فديتك، هل يكون مبجلأ
ويكاد «يفلقني» الأمير بقوله:
لو جربَ التعليم «شوقي» ساعة
حَسَبَ المعلم غمّة وكأبة
مئة على مئة إذا هي صُلّحت
ولو أن في «التصليح» نفعاً يُرتجى
لكن أصلح غلطة نحوية
مستشهداً بالغر من آياته

وأغوصُ في الشعرِ القديمِ فأنتقي
وأكاد أبعثُ «سيبويه» من البلى
فأرى «حماراً» بعد ذلك كلِّهِ
لا تعجبوا إنْ صَحْتُ يوماً صيحةً
يا من يريدُ الانتحارَ وجدَّته
ما ليس ملتبساً ولا مبذولاً
وذويه من أهل القرون الأولى
رَفَعَ المضافَ إليه والمفعولاً!!
ووقعتُ ما بينَ «البنوك» قتيلاً
إنَّ المعلمَ لا يعيش طويلاً!

* * *

الحبشي الذبيح

هذه الديكة الحبشية أو الديكة الهندية - إذا شئت - التي يذبحونها على رنين
الأجراس وأفراح المعبدین لتكون «عروس المائدة» تعمل فيها المدى تقطيعاً وتشذيباً
لتمتلي بها البطون مروية بكؤوس الخمر من بيضاء وحمرًا...

كذلك هي الأمم المغلوب على أمرها كانت، وما برحت «عروس الموائد» شأن
«الحبشي الذبيح» أما ريشه فتحشى به الوسائد، وأما لحمه فتحشى به البطون. ونُشرت في
جريدة البرق 1931.

برَقَتْ لَهُ مَسْنُونَةٌ تَلَهَّبُ
حَزَّتْ فَلَا حَدَّ الْحَدِيدِ مَخْضَبُ
وَجَرَى يَصِيحُ مَصْفَقًا حِينًا فَلَا
حَتَّى عَلَتْ بِي رِيَّةٌ فَسَأَلْتُهُمْ
قَالُوا حَلَاوَةٌ رَوْحِهِ رَقِصَتْ بِهِ
هِيَهَاتَ، دُونَكُهُ قُضِيَ، فَإِذَا بِهِ
وَإِذَا بِهِ يَزُورُ مُخْتَلَفَ الْخَطَى
يَعْدُو فَيَجْذِبُهُ الْعِيَاءُ فِيرْتَمِي
مَتَدَفِقٌ بِدُمَائِهِ مَتَقَلِّبُ
أَعْذَابُهُ يُدْعَى حَلَاوَةٌ رَوْحِهِ؟
إِنَّ الْحَلَاوَةَ فِي فَمٍ مَتَلَمِّظٍ
هِيَ فَرَحَةُ الْعِيدِ الَّتِي قَامَتْ عَلَى

أَمْضَى مِنَ الْقَدَرِ الْمُتَّاحِ وَأَغْلَبُ
بِدَمٍ وَلَا نَحْرُ الذَّبِيحِ مَخْضَبُ
بَصْرٌ يَزُوعُ وَلَا خَطَى تَنْكَبُ
خَانَ السَّلَاحُ أُمُ الْمَنِيَّةِ تَكْذِبُ
فَأَجَبْتُهُمْ مَا كُلُّ رَقِصٍ يُطْرَبُ
صَعِقَ يَشْرِقُ تَارَةً وَيَغْرَبُ
وَزَكِيَّةٌ مَوْتُورَةٌ تَتَصَبَّبُ
وَيَكَادُ يَظْفَرُ بِالْحَيَاةِ فَتَهْرَبُ
مَتَعَلِّقٌ بِدُمَائِهِ مَتَوَثَّبُ
كَمْ مَنْطِقٍ فِيهِ الْحَقِيقَةُ تُقَلِّبُ
شَرَّهَا لِيَشْرَبَ مَا الضَّحِيَّةُ تَسْكُبُ
أَلَمْ الْحَيَاةِ، وَكُلُّ عِيدٍ طَيِّبُ

* * *

كانت هذه القصيدة أول قصيدة لفتت إلى شعره الأنظار في لبنان وقد نظمها أثناء مرضه ونشرها في جريدة المعرض، وقد أثارت هذه القصيدة الصحف فتناقلوها، وقد تركت القصيدة أثراً بعيداً في نفسه، واعتبرها الطلاب فتحاً جديداً لشاعر جديد من شعراء العربية.

بِيضُ الحِمْيَمِ حَسْبُهُنَّ أَنِي أَرَدُّ سَجْعَهُنَّ
رَمَزُ السَّلَامَةِ وَالْوَدَاعَةِ مِنْذِ الْخَلْقِ هُنَّ
فِي كُلِّ رَوْضٍ فَوْقَ دَانِيَةِ الْقُطُوفِ لَهُنَّ أَتْنُ
وَيَمْلَأْنَ وَالْأَغْصَانُ مَا خَطَرَ النَّسِيمِ بِرَوْضِهِنَّ
فَإِذَا صَاحَ الْهَجْرُ هَبَّ بَيْنَ نَحْوِ غَدِيرِ هُنَّ
يَهْبِطُنَ بَعْدَ الْحَوْمِ مِثْلَ الْوُحْيِ، لَا تَدْرِي بِهَنْضَةٍ
فَإِذَا وَقَعْنَ عَلَى الْغَدِيرِ تَرْتَبَّتْ أَسْرَاهُنَّ
صَفَّتَيْنِ طَوَّلَ الصَّفَّتَيْنِ تَعَرَّجَا بِوَقُوفِهِنَّ
كُلُّ تَقَبُّلٍ رَسَمَهَا فِي الْمَاءِ سَاعَةً شَرِبْنَهُنَّ
يَطْفَأْنَ حَرَّ جَسَدٍ سَوْمَهُنَّ بِغَمِّ سَهْنٍ صَدُورُهُنَّ
يَقْعُ الرِّشَّاشُ إِذَا انْتَفَضْنَ لَأَثَرُ لَوْسٍ هُنَّ
وَيَطْرُقُ بَعْدَ الْإِبْتِرَادِ إِلَى الْغُصُونِ مَهْوَدُهُنَّ
تُنْبِيئُكَ أَجْنَحَةٌ تَصَفِّقُ كَيْفَ كَانَ سِرُّهُنَّ
وَيُقَرُّ عَيْنُكَ عَبَثُهُنَّ، إِذَا جَاسَ ثَمَنٌ، بِرِيهِنَّ
وَتَخَالُفْنَ بِاللَّارُوسِ حِينَ يُقْبَلُ لِيْلُهُنَّ
أَخْفِيهِنَّ تَحْتَ الْجَنَاحِ وَنَمْنَمْنَ مَلَأَ جَفُونَهُنَّ
كَمْ هَجَنْتَنِي وَرَوَيْتُ عَنْهُنَّ الْهَدْيَ، فَدَيْتَهُنَّ!

المَحْسَنَاتُ إِلَى الْمَرِيضِ غَدُونٌ أَشْبَاهُ لَهْنَةٍ
الرَّوْضُ كَالْمَسْتَشْفِيَّاتِ، دَوَاؤُهُ إِيْنَاشُ هُنَّ

مَا الْكَهْرِبَاءُ وَطُبُّهَا بِأَجَلٍّ مِّنْ نَّظَرَاتِهَا
يُشْفِي الْعَلِيلَ عَنْ أَهْنٍ وَعَظْفَةٍ لَّطْفَةٍ
مُّرُّ الدَّوَاءِ بِفِيكَ حَلَوٌّ مِّنْ عَذَابَةِ نَّطْقِهَا
مَهْلًا، فَعَنْدِي فَتَّارُ بَيْنَ الْحَمَامِ وَبَيْنَهَا
فَلَرُبَّمَا انْقَطَعَ الْحَمَائِمُ فِي الدُّجَى عَنْ شِدْوِهَا
أَمَّا جَمِيلُ الْمُحَسِّنَاتِ فَفِي النَّهَارِ وَفِي الدُّجَى

* * *

أَنْتُمْ..!

بلغت بإبراهيم السخرية المريرة من الوجهاء والزعماء ذروتها فوصف مشاعره نحوهم في هذه القصيدة التي نشرت في جريدة الدفاع بتاريخ 10/3/1935، دون مجاملة فقال:

أَنْتُمْ «الْمُخْلِصُونَ» لِلْوَطَنِيَّةِ أَنْتُمْ الْحَامِلُونَ عِبَاءَ الْقَضِيَّةِ!
أَنْتُمْ الْعَامِلُونَ مِنْ غَيْرِ قَوْلٍ!! بَارَكَ اللَّهُ فِي الزَّنُودِ الْقَوِيَّةِ!
«وَبَيَانٌ» مِنْكُمْ يَعَادِلُ جِيشًا بِمَعْدَّاتِ زَحْفِهِ الْحَرِيَّةِ!
«وَاجْتِمَاعٌ» مِنْكُمْ يَرُدُّ عَلَيْنَا غَابِرَ الْمَجْدِ مِنْ فَتُوحِ أُمِّيَّةِ
وَحِلَاضُ السِّبْلَادِ صَارَ عَلَى الْبَابِ؛ وَجَاءَتْ أَعْيَادُهُ الْوَرْدِيَّةِ
مَا جَحَدْنَا «أَفْضَالَكُمْ»، غَيْرَ أَنَّا لَمْ تَزَلْ فِي نَفُوسِنَا أُمِّيَّةِ
فِي يَدَيْنَا بَقِيَّةٌ مِنْ بِلَادٍ.. فَاسْتَرِيحُوا كَيْلًا تَطِيرُ الْبَقِيَّةِ

* * *

دَعَاءٌ

هذا دعاء ورجاء من الشاعر لربه أن يرزقه غلاماً شاعراً، يقرض الشعر بلسان فصيح ظريف.

رَبِّ أَطْعِمْنِي غُلَاماً شَاعِراً لِدَوَاعِي الْحَسَنِ مِثْلِي مُذْعِناً
وَلَيْكُنْ مَجْنُونٌ لَيْلٍ وَلَيْكُنْ طَيِّبَ الْقَلْبِ ظَرِيفاً لِّسِنَا

ولس يكن مثل أبيه، إننا لم نوفر غادة في شعرنا

* * *



شعر الرثاء

رثاء نافع العبوشي

قال طوقان هذه الأبيات في رثاء العبوشي، وتحول إلى التذكير بقضية العرب وأحوال فلسطين وخاصة الشكوى من الساسرة. وقد صور طوقان ما كان عليه الرجل من وطنية صادقة، وحب خالص لبلاده جعل الثرى يجذب على رفاته ويضمها بين أضلاعه بعطف ورقة كأنها هو قلب وهي أضلاع.

لهفي على «نافع» لو كان ينفعه لهفي.. وهيهات ما في الموت نفاع
قد شيعوه إلى قبر يحفّ به من المهابة اتباع وأشياغ
حورثه أو طائنه في جوفها فغدا كأنها هو قلب وهي أضلاع
يا موطناً في ثراه غاب سادته لو كان ينجل من باعوك ما بعوا

* * *

كارثة نابلس

نظم الشاعر القصيدة في الكارثة التي أصيبت بها نابلس سنة 1927 فتهدمت أبنيتها، في حين كانت تقام حفلة زفاف لعائلة حكمت المصري يقول فيها:

أدموع النساء والأطفال تجرح القلب أم دموع الرجال
بلد كان آمناً مطمئناً فرماه القضاء بالزلزال
هزة، إثر هزة تركته طلاء دارساً من الأطلال
مادت الأرض ثم شبت وألقت ما على ظهرها من الأثقال
فتهاوّت ذات اليمين ديار لفظت أهلها، وذات الشمال
بعجاج ثثيره ترك الدنيا ظلاماً، وشمسها في الزوال
فإذا الدور وهي إمّا قبور تحتها أهلها، وإمّا خوال

وأرقّ النسيم لومرّ بالقائم منها لدكّه، فهو بال

لا تقف سائلاً بنابلس الشكلي فما عندها مجيبُ سؤالٍ
أرأيت الطيور تنفر ذعراً من خفافٍ عن سرحها وثقالٍ
هكذا نُفّرت عن الدور أهلٌ عمروها، إلى كهوف الجبال
أرسومٌ وكنّ قبل صروحاً كلُّ صرح عاتٍ على الدهر عالٍ
فالتحفنا السماء بعد سُتُورٍ وشفوفٍ مُذالّةٍ وحجالٍ
وليالي الأعراس يالهف قلبي عطّلتها تقلّباتُ الليالي
أضحك الدهر يا ابن ودي وأبكي يوم لم يخطر الأسى في بالٍ

ربّ وادٍ كأنّه النهرُ الأخضرُ يختال في برودِ الجبال
خطراتُ النسيم ذاتُ اعتلالٍ فيه والدّوح مائسٌ باختيارٍ
غَشِيَتْهُ الطيور مختلفاتٌ رائعات الألوان والأشكال
صادحات على أرائك في الأيـك يَصِلْنَ الغدوّ بالأصال
نغمات أرسلّنها ذات تسجيعٍ وكرّ في اللحن واسترسالٍ
يا طيور الوادي غليلٌ فؤادي كان يشفيه بردُ تلك الظلال
يا طيور الوادي رزايا بلادي مَزَجَتْ لي الغناء بالأعوال
كان واديك للسرور مآلاً فغدا بالثبور شرّ مآلٍ
كان «عيال» من صدى الأنس يهتزّ فماذا سمعت في عيـالٍ
كان «جرزيم» منزهاً والغواني في ظلال منه وماء زلالٍ
أدموع عيونـه؟ أصـابه زفـرات الأرمـال والأثـكال
يا يد الموت ما عهدتُ ألوفاً منك هوجاً تمتد للاغتيال
طغت الحرب خمسة ما دهتنا كنوانٍ مَرَّتْ بغير قتالٍ
ووجوه المنون شتّى، فبانـت كلّها عند هذه الأهوال
من وحيد لأّمه وأبيه جمعوه مفرّق الأوصال

ومكَبٌّ على بنينه بوجهٍ خلط الدمع بالثرى المنهالِ
وفتاةٍ لاذت بحقوئي أبيها جزعاً، وهو ضارع بابتهاـلِ
وحريـضٍ رأى ابنه يسلم الروح، قريباً منه بعيد المنالِ
ومريضٍ وعُودٍ، صرخ الموت، وكانوا يدعون بالإبلالِ
خُسِفَ البيتُ بالمريض، ومَن عاد، وبالمُخَصَّنات والأطفالِ
قد رأينا في لحظةٍ وسمعنا كيف تلهو المنون بالآجالِ
ههنا نسوة جيعا بلا مأوى، سترن الجسوم بالأسمالِ

ههنا أسرة تهاجر والغمُّ بدليل الأثاث فوق الرحالِ
ههنا مبتلىٌ بفقد ذويه ههنا معدم كثير العيالِ
ملاً الحزنُ كلَّ قلبٍ وأودت ريح يأسٍ بنضرة الآمالِ
دخلاء البلاد، إنَّ فلسطين لأرض كنوزها من نكالِ
تَبَرُّها صفرة الردى فخذوه عن بنيتها، وأذنوا بارتحالِ
ربُّ لطفاً! فقد أتاننا نذيرٌ بوباءٍ من بعد هذا الوبالِ
وجراذٍ، وكل آتٍ قريبٌ، أو بعد الأعمال من إحمالِ
ربُّ إن الكروب تترى علينا حسبنا كرب هجرة واحتلالِ

* * *

صاحب غمدان

رثاء العلامة المرحوم جبر ضومط
(أستاذ الآداب العربية في جامعة بيروت الأميركية)

«أغمدان» ما يُكيِّك يا كعبة الهدى وفيم الأسى يا هيكل الفضل والندى
عذرْتُكَ لو أصبحتَ وحدك مبتلىً أغمدان صبراً لست بالخطب أوحداً
لئن مات يا غمدان «جبرٌ» فشدَّ ما أعدُّ رجالاً للحياة وجنّداً
أتبكي على «جبرٍ» وحولك جنده؟ عزائك فيمن راح حولك واغتدى
ليانيك روحٌ ما يزال يمدُّهم وظلُّك ممدود على الدهر سزّداً

ويا مَنْ رأى أركانَكَ الشَّمَّ في الرّبي
حنوتَ على أمّ اللّغات فصُتَّتْها
وكان لها «جبر» أميناً وحامياً
وللّعلم في لبنان شيدت معاهد
وأقبح مما قد جَنَوهُ اعتذارهم
وقد زعموها تُنفِذُ المآلَ كثرةً
مصاييحُ إن هم أطفالُوها فإِنَّها
وما لَهفي إلّا على ساعةٍ بها
فكم من يدٍ بيضاءٍ للعرب عندهم
لئن خلّفوا لبنان يخبط في الدجى
طريقُ الرّدى مهما يَطلُ يلقه الرّدى
وموت الفتى تحني الثمانون ظهْرَهُ
حياتك يا إنسان شتّى ضروبها
وما قَهَرَ الموتُ القويّ سوى امرئٍ
يخلّف طيبَ الذكر، لا كالذي قضى
فلأبكى به قوماً، وأضحك أمةً
ولكنّ خيرَ الناسِ من كفَّ شرّه
«كجبر» و«عبدالله» طاب ثراهما
على خير ما نرجوه كان كلاهما
وهما هياماً في هوى «مضرية»
فكم نشرّا من ذلك الحسن ما انطوى
بلاغتها افتتحت «بجبر» وآثرت
إذا لغةٌ عزّت - ولو ضيم أهلها -
«لجبر» يدٌ عندي تآلّقت كالضحى
غشيتك في دارٍ ببيروت للندى

تَبَوّأَ من جناتِ لبنان مقعدا
وكنت لها الصّرح المنيع المرّدا
إذا ما بغى الباغي عليها أو اعتدى
فلم تبق أيدي الجهلٍ منهن معهدا
فقالوا: يضيّع المآلُ في رفعِها سُدى..
فهل تركوا مالا هناك فينفدا!
حبّاحبٌ شوّم كم أضلّت من اهتدى
صدقنا العدا، لا بارك الله في العدا
«ومن لك بالحرّ الذي يحفظ اليد»
فغمدان يا لبنان ما انفكّ فرقدا
قصيراً؛ وإن يَوعُزُّ يَجِدُهُ ممّهّدا
كموت الفتى في ميعَةِ العمر أمردا
تحيط بها شتى ضروب من الرّدى
يخلّف بين الناس ذكراً مُخلّدا
وخلّف وعداً في فلسطين أنكد
أبى الله إلّا أن تهيمَ تشردا
عن النَّاسِ أو أغنى الحياة وأسعدا
ولا زال فوّاح الشّدَى ريقَ الندى
جهاداً وإسعاداً وغيباً ومشهدا
كما انقطعاً دهرأ لها وتجرّدا
وكم آيةٍ في ذلك السّحر جدّدا
فصاحتها «البستان» ظلاً وموردا
فقد أوشك استقلالهم أن يُوطّدا
وقلّ لها شكراً رثائلك منشدا
وللأدب العالي فناء ومنتدى

وحفّ ذويك البشرُ من كل جانب
وأنست بي من فيض نورك لمحة
لقد كنت بي برّاً، فيا برّ والد
ويا حسرتاً أضحي بنعمك نائحاً
عجبتُ لها من همةٍ كان منتهى
فيالغتي تيهي «بجير» على اللّغى

* * *

ورد يفيض وهجرة تتدفق

رثاء المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني

يشير الشاعر إلى ما كان يتردد بين الناس من اختلاف على من سيخلف المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني في رئاسة اللجنة التنفيذية العربية وهي التي كانت توجه الحركة الوطنية في فلسطين. وليعرف القارئ أن المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني هو والد شهيد فلسطين المرحوم عبدالقادر الحسيني طيب الله ثراه.

وقد نُشرت في جريدة الدفاع بتاريخ 6/ 5/ 1934.

وجه القضية من جهادك مشرق
لله قلبك في الكهولة إنه
قلب وراء الشيب متقد الصبا
أقدمت حتى ظلّ يعجب واجماً
تلك الثمانون التي وفّيتها
لكن سبقت بها، فما لمقصّر
عمّرتها كالدوح ظاهر عوده
وعلى جهادك من وقارك رونق
ترك الشبية في حياء تطرق
كالجمر تحت رماده يتحرّق
جيش من الأيام حولك محقق
في نصفها عذراً لمن لا يلحق
سبب لمعذرة به يتعلق
صلب وما ينفك غضاً يورق

وطني أخاف عليك قوماً أصبحوا
لا تفتحوا باب الشقاق فإنه
والله لا يرجى الخلاص وأمركم
يتساءلون: من الزعيم الأليق؟
باب على سوء العواقب مغلق
فوضى، وشمل العاملين ممزق

أيبن الصفوف تَنَسَّقت فكأنها
أيبن القلوب تألَّفت فتدافعت
أيبن الأكف تصافحت وتساجلت
أما الزعامة فالحوادث أمها

هي حائط دون الهوان وخندق
تغشى اللهب وكل قلب فيلق
تَبْنِي وتصنع للخلاص وتنفق
تُعْطى على قدر الفداء وتُرزق

يا ابنَ البلاد، وأنت سيد أرضها
انظر لعيشك هل يسرك أنه
ماذا يردّ الظلم عنك، أحسرة
أم بثك الشكوى تظن بياتها
لا تلجأَنَّ إذا ظَلُمْتَ لمنطق

وسمائها، إني عليك لمشفق
ورْدٌ يغيض وهجرة تتدفق
أم زفرة، أم عَبرة تترقُّ
سحراً وحجَّتْها الضحى يتألق!
فهنالك أضيع ما يكون المنطق

أفضى الرئيس إلى ظلال نعيمه
آثاره ملء العيون، وروحه

وارتاح قلبٌ بالقضية يخفق
ملء الصدور وذكره لا يخلق

* * *

رثاء الشيخ سعيد الكرمي

هو المرحوم الشيخ سعيد الكرمي قاضي قضاة إمارة شرق الأردن ومن زعماء فلسطين، وقد حكم عليه السفاح جمال باشا بالإعدام بعد أن ثبت عليه العمل لمصلحة القضية العربية ثم خفض حكم الإعدام إلى السجن المؤبد وبقي رحمه الله مسجوناً في سجن دمشق حتى زوال الحكم العثماني عن البلاد. هذا وكان المرحوم الشيخ سعيد الكرمي من أدباء فلسطين المعروفين وكان راوية للشعر. وقد نُشرت القصيدة في جريدة الدفاع بتاريخ 1935/4/30.

أيها الموت، أيّ مجلس أنسي
أدب كالرياض في الحسن والطيب قريبٌ جناه للمستفيد
ووقارٍ عَظُمْتَ بعد سعيد
واتساعاً، نغشاه عذب الورود
وكأنني بعلمه البحر عمقاً
عنده، أن تكون رهن القيود
ونفوس الجلاس تأنف، إلّا
وقريب من حفظه وبعيد
بغزير من علمه ومفيد

وغريبٍ من أنسه وعجيبٍ وطريفٍ من ظرفه وتليد
جامع الفضل في الرواية والشعر إلى الأصمعيّ طبع الوليد
سلف صالح، بقية قومٍ بارك الله عهدهم في العهد
عرفوا الخير، أكرموا فاعليه جهلوا اللؤم جهلهم للجحود
وإذا ما تجرّدوا للعداء وقفوا بالعداء عند حدود..
ليت قومي تخلّقوا بكريم الخلق هذا، عند الخصام الشديد
ما أشدّ افتقارنا لسموّ الخلق في هذه الليالي السود
ما لكم بعضكم يمزق بعضاً أفرغتم من العدو اللدود؟
اذهبوا في البلاد طولاً وعرضاً وانظروا ما لخصمكم من جهود
والمسوا باليدين صرحاً منيعاً شاد أركانه بعزم وطيد
شاده فوق مجدكم، وبناه مشمخراً على رفات الجدود
كل هذا استفاده بين فوضى وشقاق، وذلة، وهجود
واشتغالٍ بالثرّعاتِ وحبّ الذات عن نافع عميم مجيد
شهد الله أن تلك حياة فُضِّلَتْ فوقها حياة العييد
أصبح الموت نعمةً يُخَسِّدُ الميّتُ عليها موسداً في الصعيد
وسعيد من نال مثل «سعيد» بعد دار الفناء دار الخلود
فهنيئاً لك النعيم مقيماً أنت فيه جارُ العزيز الحميد

* * *

رثاء أبي المكارم

عبد المحسن الكاظمي

نشرتها جريدة الدفاع بتاريخ 17 / 6 / 1935، وقد أُلقيت في حفلة تأبين المرنثي.

سَلْ جنة الشعر ما ألوى بدوحتها حتى خلت من ظلال الحسن والطيب
ومن تصدّى يرث السيلَ مزدحمًا لما تحدر من شَمّ الأهاضي
ومن أغار على تلك الخيام ضحىً يبيح تقويضها من بعد تطنيب
هي المنية ما تنفك سالبةً فيما تغادر حيّاً غير مسلوب

حقُّ العروبة أن تأسى لشاعرها
وترسل الزفرة الحرى مصدعة
من للقريض عريقاً في عروبتِه
ومَن لُعَرَ القوافي وهي مشرقة
«أبا المكارم» قم في الحفل مرتجلاً
وأضرم النار أن القوم هامة
وانفخ إباءك في آناهم غضباً
تمكن الدّل من قومي فلا عجب
ما أشرف العُدْر لو أن الوغى نثرت
لكن دهتهم أساليب العداة وهم
ويقنعون بمبذول يلوّحُه
كأنهم لم يُشَيّد مجدُّ أولهم
يا رائداً كل أرض أهلها عربٌ
ومنشداً عندهم علماً ومعرفةً
هل جئت منهم أناساً عيشهم رغدٌ
أم أيّ راعٍ بلا ذنبٍ يحاوره

تبوّأ الكاظمي الخلد منزلةً
«أبا المكارم» أشرف من علاك وقل
وانظر إلينا وسّرح في الحمى بصراً
تجد قوياً وفي وعد الدخيل ولم
ومرّ سبع وعشر في البلاد له
قد تنتهي هذه الدنيا وفي يده
حال أرى شرّها في الناس منتشرأ
هل في فلسطين بعد البؤس من دعة

وتذرف الدمع منهلاً بمسكوبٍ
ضلوع كل عميد القلب مكروبٍ
يأتي بسحرين من معنى وتركيبٍ
«كأوجه البدويات الرعايب»
مهذباتك لم تصقل بتهذيبٍ
قلوبهم، ذلّ قلبٌ غير مشبوبٍ
فقد تحرك أصداناً المحاريبِ
الأيالوا بتقريع وتأنيبٍ
أشلاءهم بين مطعون ومضروبٍ
ساهون لاهون عن تلك الأساليبِ
مستعمر وهم بتبعيد وتقريبٍ
على السيوف وأطراف الأنابيبِ
يجتازها نضو تصعيد وتصويبٍ
بحالهم بين إدلاج وتأويبٍ
أم هل نزلت بقطر غير منكوبٍ
إن لم تجد راعياً شراً من الذيبِ

يلقى من الله فيها خيرَ ترحيبٍ
أرى فلسطين أم دنيا الأعاجيبِ
عن الهدى لم يكن يوماً بمحجوبٍ
يكن لنا منه إلا وعد عرقوبٍ
وحكمه مزج ترهيب وتجريبٍ
مصيرنا رهن تدريب وتجريبٍ
وخيرها للمطاييا والمحاسيبِ
أم للزمان ابتسام بعد تقطيبِ

كم حقق العزم والإعجال من أملٍ وخاب قصد بامهالٍ وتقليبٍ

* * *

نسر الملوك

رثاء المغفور له صاحب الجلالة فيصل الأول ملك العراق

ألقيت في حالة الأربعين التي أقيمت في مدينة نابلس. وقد نُشرت القصيدة في جريدة فلسطين بتاريخ 1933/10/9.

شيعي الليل وقومي استقبلي	طلعة الشمس وراء الكرملي
واخشعي، يوشك أن يغشى الحمى	يا فلسطين سنئى من فيصل
يا لها من ديمة يرفعها	منكب الأفق لعين المجتلي
نشأت أمنأ وظلاً وهدي	كهدي النجم لفلك مقبل
مادنا حتى همى الدمع فهل	«إيلياء» الغيث فوق الجبل؟
ذلك الفلك الذي يحملة	مثله منذ جرى لم يحمل
لو تعدى لجأة البحر به	خاض في لجة دمع مسبل
وانطوى العاصف والموج له	فاكتسى البحر غصون الجدول
وإذا بالفلك يجري بينها	كمرور الطيف بين المقل
يكرم الرائد يدري أنه	يؤثر الراحة والقلب الخلي
راقداً ينعم في ضجعته	خلف الدنيا به في شغل
أيقظ اللوعة فيها والأسى	وغفائيهما لم يحفل
مطبقاً الأجفان عن جفن طغى	جامح الدمع وجفن مجفل
مطمئن القلب ما تزعجه	زفرات كالغضا المشتعل
ما الذي أعددت من طيب القرى	يا فلسطين لضيف معجل؟
لا أرى أرضاً نلاقيه بها	قد أضع الأرض بيع السفل
فاستري وجهك لا يلمخ على	صفحتيه الخزي فوق الخجل
أكرمي ضيفك إن أحبته	بأمانيه الكبار الحفل

لا تقومي حوليه معولته
واسأل الباغين ماذا هالهم
راعهم حياً وميتاً فاتقوا
ورأوا في كل قلب حوله
بطل قد عاد من ميدانه

فارس «الشقراء» يجلو باسمها
صاحب التاجين في موكبه
من رأى «نسر الملوك» المرتجى
وسواء في الأعاصير مضوا
كجنود الله طارت خيلهم
من رأى ناراً على عاصفة

هبط المعقل يخشى حدثاً
أشرت «أشور» حتى جاءها
كل لؤم وعقوي دونه
ثورة الغاضب للحق تُرى
ذلك السيف الذي جردّه
بالعين سهرت عن فيصل
رأت الغدر فآذاها، فهل
خُلِق في ابنك «غازي» لم يكن
لم يطق شبلك ضيماً سيدي،
قد يكون الحزم في العزم وقد
غضبة من رجل في أمّة

من هفا للمثل الأعلى يجذ

من جلال الملك ألا تُغوي
منه في أكفانه إن تسأل
همّة جبارة لم تُخذل
جذوة العزم ونور الأمل
ظافراً يا مرحباً بالبطل

غمرة ليلتها ما تنجلي
راية المجد المنيع الأطول
طار من عقبانه في جحفل
أم مضوا في نفحات الشّمال
يوم بدر في سماء القسطل
هكذا انقضى غضوباً من عل

ويمين الله حُرُز المعقل
أمرها بين الطبى والأسل
فعل «شمعون» لثيم «الموصل»
هذه، أم شغب من وكّل؟
فضحته عين هذا الصيقل
تحرس الملك له ما تأتلي
تحمل الضيم ولما تغفل
بغريب عن قريب المنهل
فاستمع للعذر قبل العذل
يكتب التوفيق للمستعجل
جعلته أمّة في رجل

في بني هاشم أعلى مثل

ما قضى مستشهداً منذ «علي»
فكميُّ الحرب صَنُو الأعزَلِ
ولساناً في جهاد المبطَلِ
فإذا أنتم بُدورُ الهيكَلِ
سؤددٍ محضٍ وتُبَلِ أمثَلِ
عزمه في الحقِّ عزُّمُ الرسلِ
بحمى الله وغازي يعتلي
ينشدُ الملكَ وطيداً يَبْدُلِ
فيه أو «متدب» مختلِ
دمهم حُرّاً أبيضاً يغتلي
دنس الأرضِ فقالوا اغتسلي
وإذا النخلُ كَرِيمُ المأكَلِ
حليّةُ التاريخ بعد العطلِ
دولُ الغدرِ وغدرَ الدُولِ

أيكم يا آل بيت المصطفى
لا أحاشي بينكم من أحدٍ
كلكم ينشأ قلباً وبدأً
فتح الخلدُ لكم هيكله
ضمَّ جبريل جناحيه على
وأطاف الملائكة على بمن
فوصلُ شَيْدٍ ملكاً لم يزل
وبشعبٍ بذل الروحَ ومن
ليس من «حام» لكيدٍ ينبري
أضرموا النارَ وصَبُّوا فوقها
صهروا الأغلالَ وانصاعوا إلى
وإذا دجلةُ عَذْبٌ وردُّها
وإذا بغدادُ مما ازدهرت
ووقاهها الله والعون به

* * *

تعزية البيت الهاشمي

إلى روح المغفور له الملك علي بن الحسين

هذه قصيدة تعزية إلى مقام آل البيت الهاشمي، نُشرت في جريدة الدفاع بتاريخ

1935/2/19.

تراثٌ وما تغفو المنايا عن الوثرِ
وراياته فيها على دول الغدرِ
وغالت «علياً» واللواعج في الصدرِ
وغارات أبطال تُردّ عن النصرِ
ولا أغمدت أسيافكم نوبُ الدهرِ
وأياهاكم ترفضُ مجفلةُ القطرِ

بنّي هاشم بين المنايا وبينكم
مضت «بأبي الأشبال» يستشهد الوغى
وما نكبتُ عن «شاكِر» بعد «فيصلٍ»
مقامات أقيالٍ تغيب شمسها
بنّي هاشم لا أخدتُ جمراتكم
بأوجهكم تنفضُ حالكة الدجى

ونيطئت «بعبدا الله» آمالُ أُمّةٍ وفي ظلّ «غازي» عَوْدُ أيامِها الغرّ

* * *

الملك حسين

نظم الشاعر هذه القصيدة، يرثي فيها الحسين بن علي شريف مكة.

رحمةُ الله عليه إنه غاله اليأسُ، وكان الأملُ لا
ويح قوم خذلوه بعدما أخذوا الميثاقَ ألاّ يَخْذُلُوا
شيمة الغدرِ بمن ينصرهم ذهبَت يا «ابن عليّ» مثلاً

آل بيتِ المصطفى لم تبرحوا تَرِدُونَ الموتَ في ظلّ العُلى
كادت الكأسُ التي في قبرصِ تُشْبِهُ الكأسَ التي في كربلا

* * *

رثاء أديب منصور

كان المرحوم أديب منصور من موظفي محطة الإذاعة في القدس وكان يعمل مع المرحوم إبراهيم. وفي أحد الأيام وضع مجرمون من الإرهابيين اليهود قبلة موقوتة في مكاتب الإذاعة فانفجرت القبلة مودية بحياة المرحوم أديب منصور. فرثاه إبراهيم بهذه القصيدة وألقاها في حفلة الأربعين التي أقيمت في جمعية الشبان المسيحية في القدس تخليداً لذكرى المرحوم أديب.

عرفتُ «أديباً» فأحبيته وسرعان ما غاب هذا الحبيب
ويا لهفّي، الآن كلمته وفي لحظة بات لا يستجيب
ويا حسرتي للردّي، مزّقتُ يده رداء الشباب القشيب
وكان نضيراً على منكيه فأصبح منه سلباً خضيب
دعاني البكاء فليته جزوعاً عليه بدمع صيب
ويزرتُ بموكبه خاشعاً أشيعه بين حفلي مهيب
تُفَيّضُ أكاليه طيهها ودون شمائله كلُّ طيب
وعدت عن القبر في العائدين أمامي نجيبٌ وخلفي نجيب

وفي كل نفسٍ له لوعة وفي كل قلبٍ عليه هيب
عرفت «أديباً» حميد الخصال وأحييت فيه الذكيّ اللبيب
وروحاً على القلب مثل النسيم هبُّ فينعش قلب الكئيب
وكان قريباً بآماله فأدعوا له الله ألاّ تخيب
وكان يراها بعين الأريب ولكنّ للدهر عين الرقيب
ويكلاهما بالنشاط العجيب وللدهر في الناس شأن عجيب
تناول ذاك الفؤاد الخصب فأصبح وهو الفؤاد الجديب
وحطّ لهم بنيان آماله بكفّي لثيم خوون رهيب

عزاء لكم، أيها الأقربون، جميلاً لنا فيه أوفى نصيب
لئن باعدت رحمٌ بيننا لقد كان فينا الحبيب القريب
بنا ما بكم من غليل الأسى بقلب ألحّ عليه الوجيب
ومرّ بنا يومه «الأربعون» يجدد لي ذكر يوم عصب
فقدت فتى كان في أسرتي ملاذ القريب وعون الغريب
أيّاً على الضيم، عفّ اليدين، نقى السريرة مما يريب
فذاك ابن عم، وهذا صديق وذاك «عفيف»، وهذا «أديب»

* * *

نشيد في رثاء غازي

نظم الشاعر هذا النشيد في رثاء الملك غازي في العراق، وقد لحن المرحوم يحيى اللبائدي النشيد وأذيع من محطة القدس.

راية روعها خطب عراها خفقت والهة فوق ذراها
والصبا مرّت بها نائحة جزعاً تنعي إلى الدنيا فتاها
يا رايتي تجملي وبعد غازي أملي واعتصمي بفيصل
أمنية المستقبل
كعهد غازي أشرفي على الحمى ورفرفي منيعة بفيصل
ريحانة المستقبل

ياسليل المرففات الباترات وابن رايات المعالي الخالدات
 نَمَ رضيَّ البسال وانعم إنمّا عهدنا عهدك عزّم وثبات
 نم بالهنّا فإننا وراء تحقيق المنى نبني بهنّ الوطنّا
 فيعتلي ويعتلي
 ولم نَزَلْ له الفدا حتى ينال الفرقدا مكرّمًا مَخْلَدًا
 مؤيّدًا بفيصل

* * *

نشيد بطل الريف

نظم إبراهيم طوقان هذا النشيد للأمير عبدالكريم الخطابي مفاخرًا بنضال البطل
 وبثورته للتحرر من الاستعمار.

في ثنايا العجاج والتحام السيوف
 بيننا الجوُّ داج والمنايا تطوف
 يتهادى نسيمٌ فيه أزكى سلام
 نحو «عبدالكريم» الأمير الهمام
 ريفُنّا غابُنّا نحن فيه الأسود ريفُنّا نحميّه
 كلنّا يعجبُ بفتى المغرب
 كلنّا يطربُ لانتصار الأبي
 أين جيش العدا إن دعا للجهاد
 أصبحوا أعْبُدًا بالسيوف الحداد
 ريفُنّا غابُنّا نحن فيه الأسود ريفُنّا نحميّه
 طالما استعبدوا وأذلّوا الرقاب
 أيها الأيّدُ جاء يوم الحساب
 فليذوقوا الزعاف بالظبي والأسل
 ولنُعَلِّ الهتاف للأمير البطّل
 ريفُنّا غابُنّا نحن فيه الأسود ريفُنّا نحميّه

* * *

مرايع الخلود

ألقيت في حفلة الذكرى الألفية للمتنبى وهي الحفلة التي أقامتها جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأميركية ببيروت في 31 أيار سنة 1935. وكان خطباء الحفلة الدكتور محمد حسين هيكل باشا، المرحوم معروف الرصافي، الأستاذ سامي الكيالي، الأستاذ شفيق جبري، الأستاذ فؤاد أفرام البستاني، الأستاذ أنيس الخوري المقدسي.

توطئة

لما انجلت من حُجُب الزَّمانِ مرابعُ الخلودِ والمغاني
ضاق على النفسِ الكيانُ الفاني وعالمٌ يغصُّ بالأشجانِ
ويفجعُ القلوبَ بالأمانِ

لأح لها من الخلودِ ما استترَ وامتلك السَّمعَ عليها والبصرُ
وامتزجت مع النسيمِ في السَّحرِ وارتفعت على أشعةِ القمرِ
شفافةٌ علويةٌ الألمانِ

ولم يطل بها المدى حتى دنا أبعدُ ما ترجوه من غرِّ المنى
هنا هياكلُ الخلودِ، وهنا كلُّ عظيمِ القدرِ وضَّاحِ السَّنى
فانطلقت مُرسلةً العنانِ

الخالدون

طافت على الملوكِ والقياصرة فانقلبَت تقوُّلُ وهي ساخرة
أضخمكم أسطورةً أو نادرة وإنما الخلودُ للعباقرة
جبابرة النفوسِ والأذهانِ

للأنبياء أرفعُ المقام يُحَفُّ بالجلال والإكرام
وعندهم روائعُ الإلهام فيها الهدى والنُّورُ للأنام
وغايةُ الكمالِ في الإيمانِ

والشهداء بعدهم في المرتبة أهلُ الفدى في الأممِ المعذَّبة

صَبَّ الشَّهِيدُ دَمَهُ وَقَرَّبَهُ يَقُولُ: إِنَّ الْمَهْجَ الْمَخْضِبَةَ
أَدْفَعُ لِلضَّيْمِ عَنِ الْأَوْطَانِ

وَاجْتَمَعَ السَّخَرُ إِلَى الْفَتَوَنِ بَيْنَ رُبَى الْخُلُودِ وَالْعِيُونِ
قَرَائِحُ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ تَشِعُّ بِالْعُلُومِ وَالْفَنُونِ
وَتَغْمُرُ الْعَالَمَ بِالْإِحْسَانِ

أَوْلَيْكَ الشَّمْسُ وَالْبُودُورُ دَائِمَةُ الْإِشْرَاقِ لَا تَغُورُ
أَفْلَاكُهَا، مَا كَرَّتَ الدَّهْوَرُ الْحُبُّ وَالْجَمَالُ وَالسَّرُورُ
وَالْخَيْرُ وَالْحِكْمَةُ فِي الْإِنْسَانِ

في حضرة النبي

أَصْغَيْتُ لِلنَّفْسِ تَقْوِيلَ: مَا لَيْتَ طَوَّفْتُ فِي الْخُلُودِ كُلَّ نَاحِيَةٍ
فَمَا وَجَدْتُ مِثْلَ تِلْكَ الرَّايَةِ مُشْرِفَةً عَلَى الْوُجُودِ عَالِيَةٍ
عَاتِيَةً وَطَيِّدَةً الْأَرْكَانِ

رَأَيْتُ ظِلًّا شَامِلًا ظَلِيلًا يَضُمُّ صَرْحًا مَائِلًا جَلِيلًا
فَارْتَدَّ طَرَفِي عَنْهُمَا كُلِّيلاً إِذَا طَلَبْتُ لَهَا تَمَثُّلًا
«فَالْحَدَّثُ الْحَمْرَاءُ» فِي «بَوَّانِ»

رَأَيْتُ بِيضًا يَعْتَنِقْنَ سُفْرًا هُنَّ النَّجُومُ يَأْتِلِقْنَ زُهْرًا
فِي يَدِ كُلِّ فَارِسٍ أَغْرًا يَلْتَمِسُ الْمَجْدَ الْأَثِيلَ قَسْرًا
وَالْمَجْدُ لَنْ يَكُونَ لِلْجَبَانِ

رَأَيْتُ غَيْدًا مِنْ أَعَارِبِ الْفَلَاحِ خُمَرَ الْجَلَايِبِ غَرَائِبِ الْحِلَالِ
خُلِقْنَ مِنْ حُسْنٍ وَفَتْنَةٍ فَلَا تَطْرِيَّةَ تَرَى وَلَا تَجْمُلًا
وَهَكَذَا فَلَتَكُنِ الْغَوَايِ

ذَاكَ الَّذِي وَقَفْنَ عَنْ جَنْبِهِ خِلْتُ مَلُوكَ الْأَرْضِ فِي بُرْدِيهِ
أَوِ الْأَنْبَاءِ تَحْتَ أَحْمَصِيهِ قِيلَ اسْجُدِي خَاشِعَةً لَدَيْهِ
«فَالْمُتَنَبِّي» سَيِّدُ الْمَكَانِ

إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَصْحَبُ الْكِتَابَا وَيَأْلَفُ الطَّعَّانَ وَالضُّرَابَا
وَيَهْجُرُ النَّدِيمَ وَالشُّرَابَا جِئْتَ أَعَزَّ خَالِدٍ جَنَابَا
وَفَزَتْ بِالْإِكْرَامِ وَالْأَمَانِ

نَكَسْتُ رَأْسِي وَدَنَوْتُ أَغْثُرُ فَأَيْنَ كَسْرَى هَيْبَةً وَقِصْرُ
بَيْنَ يَدَيْهِ أَسَدٌ غَضَنْفَرُ عَلَيْهِ مِنْ ضَرْبَةِ سَوْطٍ أَثَرُ
يُغْنِي «ابْنَ عَمَّارٍ» عَنِ الْبَيَانِ

كافور خالدا؟

وَمُضْحِكٌ مُشَقَّقُ الْكَعْبَيْنِ أَشْوَدُ، لِأَبِي، بِمَشْفَرَيْنِ
عَهْدُتُهُ يُشَدُّ بِالْأَذْنَيْنِ وَقَسَدْرُهُ يُرَدُّ بِالْفُلْسَيْنِ
يَوْمَ تَرُوجُ سِلْعَةُ الْخِضْيَانِ
كَانَ لِمَصْرَ سُبَّةٌ وَعَارَا يَوْمَ أَثَارَ الشَّاعِرِ الْجَبَّارَا
لَمْ أَدْرِ هَلْ كَانَ الْهَجَاءُ نَارَا أَمْ عَاصِفًا هَيَّجَ أَمْ تَيَّارَا
أَمْ شَقَّ ذَاكَ الصَّدْرُ عَنْ بَرْكَانِ

والحسد خالدا؟!

وَتَمَّ وَحْشٌ فَمُهُ دَامِي الزَّبْدِ فِي جِيدِهِ حَبْلٌ غَلِيظٌ مِنْ مَسَدٍ
قُلْتُ: أَلَا أَسْأَلُ مَا هَذَا لِحَسَدٍ؟ قَالَ: بَلَى؛ هَذَا غَرِيْمُنَا الْحَسَدُ..
مُرْتَبِكُ الْأَخْلَاطِ فِي شَيْطَانِ
رَأَيْتُهُ يُطْمِسُ عَيْنِيهِ الْعَمَى سَعِيرٌ قَلْبِهِ طَغَى عَلَيْهِمَا
قُلْتُ: وَهَذَا خَالِدٌ أَيْضًا؟ فَمَا أَعْجَبَ أَنْ يِقَى الْأَذَى وَيَسْلَمَا
وَيَنْعَمَ الشَّرُّ بِعَمْرِ ثَانٍ!!

تَبَسَّمَ الشَّاعِرُ، ثُمَّ رَدَّدَا فِي الْوَحْشِ نَظْرَةً كَأَنَّهُمَا الرَّدَى
قَالَ: لَنْ نَكْدَ عِشِي بِالْعَدَى حَتَّى دَعَوْتُ وَلَدِي «مُحْسَدَا»
فَإِنَّهُ خُلِّدَ فِي الْهَوَانِ

تَقَدَّمِي، يَا نَفْسُ، وَاسْأَلِينِي عَنْ أَثَرِ الْمِفْتَاحِ فِي جِبِينِي

بَدَّلْنِي بِكَيْدِهِ اللَّعِينِ ذُلُّ الْوِجَارِ مِنْ حِمَى الْعَرِينِ
 حِمَى الْمُلُوكِ مِنْ «بَنِي حَمْدَانَ»
 وَمَا ابْتَلَى الْحَسُودُ إِلَّا جَوْهَرًا يَتَمُّ نَوْرًا وَيَطْيِبُ غُنْصَرًا
 وَالْفَضْلُ لَا بَدْلَ لَهُ أَنْ يَظْهَرَ تُحَدِّثُ الْأَغْصُرُ عَنْهُ الْأَغْصَرَا
 وَلِلْحَسُودِ غَمْرَةُ النَّسْيَانِ

خاتمة

عُودِي إِلَى دُنْيَاكَ، دُنْيَا الْعَرَبِ بِجَذْوَةٍ تُضْرِمُ رُوحَ الْأَدَبِ
 وَتَغْمُرُ الشَّرْقَ بِهَذَا اللَّهَبِ قَدْ يَسْتَرِدُّ الْحَقُّ بَعْضَ الْكُتُبِ
 وَقَدْ يَكُونُ الْمَجْدُ فِي دِيْوَانِ

* * *

أُطْلِقِي ذَاكَ الْعِيَارَا

فِي ذِكْرِي وَهَاتِ الْمَلِكَ حَسِينَا

«... وَتَوَكَّلِ الشَّرِيفَ عَلَى اللَّهِ، وَنَهَضَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ 1334-2 حَزِيرَانَ سَنَةِ 1916 قَبْلَ الْفَجْرِ وَبِيَدِهِ بَنْدُقِيَّةٌ أَطْلَقَهَا طَلْقَةً وَاحِدَةً كَانَ لَدَوِيهَا صَدَى فِي جَدَةِ وَالطَّائِفِ وَالْمَدِينَةِ...»

وُنُشِرَتِ الْقَصِيدَةُ فِي جَرِيدَةِ الدِّفَاعِ بِتَارِيخِ 11/6/1934 وَهِيَ مَنْظُومَةٌ فِي تَمْجِيدِ الثَّوْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكُبْرَى.

- 1 -

أُطْلِقِي ذَاكَ الْعِيَارَا قَدْ ذَكَرْتُ ضَيْمًا وَأَصْطَبَارَا
 يُطْلِبُ الْعِزَّ ابْتِدَارَا يَدْرِكُ الْمَجْدَ اقْتِسَارَا
 أُطْلِقِي ذَاكَ الْعِيَارَا
 حَطَّمِي الْقَيْدَ الثَّقِيلَا وَارْكَبِي الْهَوْلَ السَّيْلَا
 عَاشِ يَا نَفْسُ ذَلِيلَا بِكَ مَنْ كَانَ بَخِيلَا
 أُطْلِقِي ذَاكَ الْعِيَارَا
 دَبِّرِي الْأَمْرَ نَهَارَا وَاطْلُبِي الْحَقَّ جَهَارَا

واهبط يهي الهيجاء دارا ذلّ ممن يُغفل ثارا
أطلقني ذاك العيـارا
يا لأعناق الرجال كيف مالت بالحبـال
هالك أشبالي ومالي وعتادي للقتـال
أطلقني ذاك العيـارا
أعققت تسري انتـشارا فكرة تحمّل نارا
تهبط القلب قرارا تلهب الصّدرا استعارا
أطلقني ذاك العيـارا
علقت ثمّ يدها بزناد فطـواه
أضرم البيـد سـنـاه ثم ردّدن صـدها
أطلقني ذاك العيـارا

-2-

انظري يوم أغارا أيّ أبطل الـال أنـارا
أيّ كاسات أدارا بين صرعى وسـكارى
أطلقني ذاك العيـارا
احشدي البيـد أسوداً واملأي الشـام حقـودا
ووعوداً وعهـوداً وبنوداً وبنـودا
أطلقني ذاك العيـارا
المنايـات تبارى والأملاني الكبـارا
طبّقني الأرض انتـصاراً واعتـزازاً وافتخـارا
أطلقني ذاك العيـارا
اغـدري غـدر القـويّ بالـحسـين بن عـليّ⁽¹⁾
لست بالخـلّ الوفيّ للحـليف العـربيّ

(1) الضمير يعود إلى بريطانيا العظمى.

فاملأني التاريخ عاراً

*

أَمْتِي، قَدْ ذُكِرَ اصْطِباراً فاطلبي العزَّ ابتداراً
وخذي المجد اقتساراً هاجني الماضي اذكّاراً
أطلقني ذاك العيـاراً

* * *



قصائد غزلية

مناجاة وردة

تناهى إلى سمع الشاعر خبر زفاف ماريّا، فوقف الشاعر يرثي لحبيته ما أصابها، وما جرّه عليها حسنّها فرماها في أحضان زوج لن تسعد معه. وقد نُشرت القصيدة في جريدة فلسطين بتاريخ 16/6/1933.

جنى عليك الحسنُ يا وردتي وطيبُ رِيّاكِ فذقتِ العذاب
لولا همّ ما لم تُقطّفي غَصَّةً بل لانطوى في الروض عنك الشباب
لولا همّ ما مرّ بكِ العاشقون
لا ينظرون

وربما أعرّض عنكِ الندى وجازكِ الطيرُ فما غرّدا
عُرفتِ بالفضلِ وكم فاضلٍ جنى عليه الفضلُ يا وردتي
روضتُكِ الغنّاء يا وردتي قد أنبتت من كل زوج بهيج
تنفّس الصُّبحُ بأزهارها عن ضاحكِ اللّون زكيّ الأريج
نسرّينها، ورنّدها، والأقحاح

كلّ مُباح

تَنَقَّلْ عنها نَسَمَاتُ الصَّبَا تحيةً لكلِّ قلبٍ صَبا
وطوّفَ الناسُ بأرجائها فوقفوا عندكِ يا وردتي

لله ما أصدقها حكمةً فإه بها «المجهول» في عهده
 «تشتاق أيار نفوس الورى وإنما الشوق إلى ورده»
 تعزية أودع فيها الضّرير

حُكَم البصير

ألم يكن في قومه كوكباً لآخ ليمحو نوره الغيبها
 فما لهم ألمهم فضله حتى لقد آذوه يا وردتي

تحكم الناس بمستضعف سر من الأسرار لا يدرك
 يا وردتي ورب سهل بدا طريقه يهلك من يسلك
 هل حسبا غصنك لآدنا

سهل الجنى؟

كلاً؛ بل النفس التي تضعف تصطنع البأس فلا تعرف
 والسر في بطش الورى خوفهم من هذه الأشواق يا وردتي

* * *

اغفري لي..

الى م...

أنشأ الشاعر قصيدته طالباً العفو منها بعد أن نعتها بالغدر ملتمساً منها العذر عما بدر منه، وربما كان هذا الاتهام صدى لياس الفراق القاسي الذي أطبق عليه فأفسد عليه تفكيره، فجاء ردّه في هذه القصيدة بعد أن عرف حقيقة المحبوبة وأثبت أنها ما زالت تنسم عبير ذلك الحب.

اغفري لي إذا اتهمتك بالغدر فقد كنت غائباً عن صوابي
 اغفري لي، لعل ما كان مني صرخة الهول عند مرأى عذابي
 وصدى اليأس رجّعته ضلوعي أو بكائي على أماني الشباب
 لم تكوني كما زعمت، ولكن هالني ما قرأته في الكتاب
 لعمري رأيت منك وفاء لم يكن فيه ذرة لارتيابي

اغفري لي ما قتلته في جنوني وتعالى أشرح إليك مصابي

رُبَّ صرَحٍ ممرَّدٍ من أمانٍ أظَلَّ النجوم تحت جناحه
قد نمت حوله الأزهيرُ شتَّى وسقاها الهوى علالة راحة
فنزله آمنين زماناً نجتني من وروده وأقاجه
لم تحرك منه العواصف ركناً ولكم خاب مثلها في كفاحه
ثم كانت يدٌ، سأسكت عنها هدّمته إلى سواء السراب
أين تلك السماء؟ هل كان ذاك الصرح فيها مشيداً من سحاب

اغفري لي فإن أشقى المحبين محبٌ حياته ذكريات
أينما كنت هيج القلب ذكرى صورتها آثارنا الباقيات
ما هنا؟ إنها رسوم دموع؛ وهنا؟ آه إنها قبيلات
وهنا؟ طائرٌ يُعيد حديثاً لم تغب عنه هذه الكلمات:
يا حياتي، لا تغضبي، وتعالى عانقيني وأقصري من عتابي
حسب قلبي عذابه، فاغفري لي يا حياتي فقد لقيت عقابي

* * *

اليهن

هذه قصيدة جمعها الشاعر في مقاطع، وحمل كل مقطع رمز لواحدة من غواصيه دون أن يصرح باسمها مع أنه يعرف أسماءهن.

إلى ذات المنديل

نزيمه ليس للمنديل فيما بيننا حاجة
وإن سرّك أن يلقى فأنوارك وهاجه
فيما من تأمر الحسن فيلقي دونها تاجه
لقد قطعت بالذلّ عرى قلبي وأوداجه

إلى م...

خَلَفْتُ قَلْبَ فَوْقَ سَفْحِ «الكرمل» حيرانَ يسألُ عنكَ أَهْلَ الْمَنْزِلِ
خَلَفْتَهُ يَهْفُو عَلَى غُرْفِ الْهَوَى فِي شَكْلِ طَيْرٍ بَيْنَهُمْ مَتَقُّلٍ
لَمْ يَعْلَمُوا مَا سِرَّهُ، فَإِذَا بَكَى حَسْبُوه يَضْحَكُ لِلرَّبِيعِ الْمَقْبَلِ

إلى ل...

أَيْنَ الرِّسَالَاتُ وَالشُّوقُ؟ فَالْجَوَابُ تَأَخَّرَ
كَمْ قَلْبِي: «شَوْقِي كَثِيرٌ» أَظُنُّ شَوْقِي أَكْثَرَ
أَسْأَلُ الْبَدْرَ حيرانَ عَنْكَ إِنَّهُ هُوَ أَسْفَرُ
ذَكَرْتُ وَجْهَكَ فِيهِ وَالشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يُذَكَّرُ
كُونِي بِوَدِّكَ كَالْبَدْرِ فَهُوَ يُخْفَى وَيُظْهَرُ

إلى م... أيضاً

إِلَى الْحَبِيبِ الَّذِي فَازَ غَيْرُنَا بِوَصَالِهِ
وَلَمْ نَفْزُ مِنْهُ إِلَّا بِصَدِّهِ وَدَلَالِهِ
وَمَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُ الصَّدُودَ طَيْفُ خَيَالِهِ
هَلَّا تَجَرَّبَ شَيْئاً مِنْ الْهَوَى وَاحْتِمَالِهِ
عَسَاكَ تَعْرِفُ مَا قَدْ عَرَفْتُ مِنْ أَهْوَالِهِ
عَسَاكَ تَسْهَدُ، أَفْديكَ، لَيْلَةً مِنْ طَوَالِهِ
لَكِنْ أَرَاكَ سَعِيداً خَلَّ الشَّقِيَّ بِحَالِهِ

إلى ذات العصابة الزرقاء

رُوحِي فِدَاءَ عَصَابَةِ زَرْقَاءَ لَأْتُ شُعُورَ مَلِيحَةِ حُسْنَاءِ
مَا زَيَّنْتُكَ وَإِنَّمَا زَيَّنْتُهَا بِجَوَارِهَا لَجِينِكَ الْوَضَاءِ
وَدُنُوهَا مِنْ مَقْلَةٍ مَكْحُولَةٍ فَتَانَةٍ، فَتَاكِيَةٍ، حُورَاءِ
إِنَّ الْجَمَالَ إِذَا تَجَمَّعَ شَمِلَهُ فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلُ لِلشُّعْرَاءِ

* * *

ذكرى

نظم الشاعر قصيدة ذكرى بمناسبة رسالة وصلته من صديق، فهاجت الذكريات
في نفسه فأنشأ يقول:

جئتَ تتلو عليَّ صفحة ماضي متنها الحبّ والأسى بين صحفي
صاح دُعها؛ وخذ سواها فإني قد تبيّنتُها لأول حرف
صاح دُعها؛ فقد دفنتُ أمانِيَّ ولهوي يا حسرتاه وقصفي
وخلتُ أضلعي فأمتسى خلياً غزلي في هوى الحسان ووصفي
وليالٍ ظفرتُ فيها من الدهر - على بخله - بنعمة عطف
ساهرٍ في ظلامها أقبس النورَ لقلبي بلشم خدّ وكفّ
فم كلما شكّا ألم الوجد تعلّقْتُه بقطفٍ ورشف
وجفونٍ ما بين قتلٍ بعنفٍ أنا منها وبين قتلٍ بلطفٍ
صاح يكفي! فقد تولّيتُ ليالٍ شيعتها المنى برُبّك يكفي

* * *

الغرام الأول

أراد الشاعر أن يحیی ما یهیج فی صدره لیرجع أيامه ویصور ما أودعه فی ذاكرة أيامه وسنینہ فیتذكر ما کان فی بیروت لینقله إلى جبل الكرمل فأنشأ یقول بعنوان الغرام الأول:

عهد غرامي الأول هیهات ما ترجع لي
أنتَ ومهجتي معاً أنت وحلّو الأمل
وليلة زاهرة سامة بالقبّل
ومجعة أحلامها صحت فلم تأوّل
على ذراع خضيل عند فؤاد ثمّل
أنت وما أودعته في يد ماضي مسيل
أنت وما أضعته بين شُعاب الكرمل

هیهات ما ترجع لي

* * *

الحبيب الذاهل

على لسان (م...)

نظم إبراهيم قصيدته هذه عن طريق المنولوج وتابع في أسلوبه الحوار بينه وبين محبوبته وتخيل أنها تعشق العتمة وهو بهذا التخيل يكشف عن سواثر في نفسيته، لأن في العتمة ستر للعاشقين عن عيون الرقباء.

قم حبيبي وأطفئ المصباحا قد أباح الهوى لنا ما أباحا
 حبّذا الاعتناق إن كانت الظلمة ستراً من دونه ووشاحا
 تحبس العين عن ملذّة مرآة ولكن تسرّح الأرواحا
 قم حبيبي وأطفئ المصباحا

رقد الكون غير تلك العيون في السماوات ساهرات الجفون
 لا تحفها؛ فلن تبوح بسرّ وسواها يُثير سوء الظنون
 وأراها أحنى وأوفى من الأهل، وكم بين أهلنا من حوّن
 لا تحفها؛ وانظر لها باسمات مبديات لنا وجوهاً وضاحا
 قم حبيبي وأطفئ المصباحا

كم سهرنا من قبل ليلاً طويلاً فشكا الصمت فيه منّا العويلا
 وبغى البين أشهراً لا يبالي ما نقاسيه صبوةً ونحو لا
 فالتقينا؛ إن اللقاء قصيرٌ فانتهزه وخلّ عنك الذهولا
 ولنودّع تلك الهموم اللواتي يتوَقَّن في السدجى أشباحا
 قم حبيبي وأطفئ المصباحا

هل نسيت الأسفار والأخطارا يا حبيبي وكيف جئنا فرارا
 غفلةُ الناس مرةً نعمةُ الحبّ، وباليتهاتكون مرارا
 ويلك اسمع قلبَ الزمان فقد دقّ ثلاثاً لا تُستردّ قصارا
 ليرِوَعَنَّكَ الصباحُ إذا لاح قريباً، فلا تقلّ كيف لاحا
 قم حبيبي وأطفئ المصباحا

* * *

عند شبّاكي

يصور الشاعر في هذه القصيدة وقوفه الطويل عند شبّاك غرفته التي كان يسكنها وهو في الجامعة الأميركية ببيروت منتظراً طلعة الحبيبة، والقصيدة من بواكير قصائده الغزلية والتي كشفت حبه لـ (ماريا صفوري)، وكان ذلك سنة 1926.

بُكَوْرِي عِنْدَ شَبَاكِي لَأَنْشِقَ طَيْبَ رِيَاكِ
وَلَا سَلَوَى سَوَى نَجْوَى أَسْرُهَا لِمَغْنَاكِ
أُسْرَحُ نَحْوَهُ طَرَفِيَاً أُمْنِيَّهَ بِمَرَاكِ
وَطَرَفِيَاً فِي قَرَارِ «الذَّارِ» مَوْعِدَاً بَلْقِيَاكِ
تَمَرُّ عَلَيَّ سَاعَاتٌ أَشْيَعُهَا بِذِكْرَاكِ
وَأَخْشَى أَنْ يَسْرِفَ الْجَفْنَ نُجُومُنِي حَيَاكِ

*

طَلَعَتِ، فَمَا لِقَلْبِي شَاءَ يَفْضَحُنِي فَسَمَّاكِ!
صَبَاحَ النُّورِ! مَنْ دَنَفَ تَنْهَّدَ، ثُمَّ حَيَّاكِ..
سَلَامَ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ، أَنْتِ نَعِيمُ دُنْيَاكِ
مَرَرْتِ، وَقِيلَ مَرَّ النَّاسُ؛ هَلْ أَبْصَرْتُ إِلَّاكِ؟

*

وَدَاعَا يَا مَعْدَنِي وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاكِ
وَدَاعَ سَوِيعةً تَمْضِي عَلَى جَمْرِ وَأَلْقَاكِ
وَأَنْسَى لَيْلَةً سَلَفَتْ وَطَرَفِي سَاهُرَ بَاكِ
وَمَضَجَعَ أَضْلَعُ مُنِيَّتِ بَنِيْرَانِ وَأَشْوَاكِ

*

شَكَرْتُ اللَّهَ أَنَّ «الذَّارَ» تَجْمَعُنِي وَإِيَّاكِ
وَتُلْقِيَنِ السُّؤَالَ عَلَيَّ فِي أَمْرِ تَعْدَاكِ..
وَحِينَ أُجِيبُ تَمْنَحُنِي ابْتِسَامَ الشُّكْرِ عَيْنَاكِ

*

هَجَرْتُ «الذَّارَ» أَضْرَبُ فِي فَضَاءِ اللَّهِ لَوْلَاكِ
وَلَوْلَا رَحْمَةُ الْعَيْنَيْنِ قَلْبَاً بَاتَ يَهْوَاكِ
وَعُطِفَ مَنْ لَدُنْكَ عَلَيَّ أَسَى فِي النَّفْسِ فَتَاكِ
إِذْ لَرَأَيْتُنِي يَوْمِيَاً صَرِيحَاً تَحْتَ شَبَاكِي

في المكتبة

نظم إبراهيم طوقان هذه اللوحة الفنية الجميلة بالمحبة ماريما عندما كانت تجلس في مكتبة الجامعة ووصف فيها جلستها وأنفاسها وغمغمتها بالكلمات التي كانت تقرأها.

وغريرة في المكتبة بهماهما منتقبة
أبصرتها عند الصباح الغصن تشبه كوكبة
جلست لتقرأ أو لتكتب ما المعلوم رتبة
فدنوت أنسرت الخطى حتى جلست بمقرئة
وحبست، حتى لا أرى، أنفاسي المتلهية
ونهيست قلبي عن خفوق فاضح، فتجنبه

*

راقبتهما، فشهدت أن الله أجزل في الهبة
حمل الثرى منها على نور اليدين وقلبة
وسقاءه في الفردوس مختوم الرحيق وركبة
فإذا بهما ملكك تنزل للقلوب المتعبه
يا ليت حظ كتابها لضلوعي المتعذب
حضنته تقرأ ما حوى وحنث عليه وما انتبه
فإذا انتهى وجهه ونال ذكاؤه ما استوعبه
سمحت لأنمليها الجميل بريقها كني تغلبه

*

وسمعت وهي تُغمغم الكلمات نجوى مطربة
ورأيت في الفهم بدعة خلاصة مستغربة..
إحدى الثنايا النيرات بدت، وليس لها شبه
مثلومة من طرفها لا تحسبها مثلبة..
هي، لو علمت، من المحاسن عند أرفع مرتبة
هي مضدر «السينات» تكسبها صدى ما أعذبه

*

وَأَمَّا وَقَلْبٍ قَد رَأَتْ فِي السَّاجِدِينَ تَقَلُّبُهُ
صَلَّى لَجَبَّ الْجَمَالِ، وَلَا يَزَالُ مُعَذِّبُهُ
خَفَقَانُهُ متواصلٌ وَاللَّيْلُ يَنْشُرُ غَيْبَهُ
مَتَعَمَّ ذُبُّ بَنَاهِ حَتَّى يَزُورَ الْمَكْتَبَهُ..
وَأَمَّا وَعَيْنُكَ وَالْقُوى السُّحْرِيَّةَ الْمُتَحَجِّبَهُ
مَا زُفْتُ أَكْثَرَ مِنْ حَدِيثٍ، طِيبُ ثَغْرِكَ طَيِّبُهُ
وَأرومُ سِنِّكَ ضاحكاً حَتَّى يَلُوحَ وَأَزْفُهُ

* * *

معين الجمال

نظم إبراهيم هذه القصيدة، يعبر فيها عن حنينه إلى حبه الأول بعد أن ادعى هجره، وقد اعترف في القصيدة ببقاء هذا الحب بين ضلوعه بصراحة فقال:

أَسْعِدْنِي بِزُورَةٍ أَوْ عِدْنِي طَالَ عَهْدِي بِلُوعَتِي وَحَنِينِي
أَدَّعِي الْهَجَرَ كَاذِباً وَغَرَامِي فِي قَرَارٍ مِنَ الْفَوَادِ مَكِينِ
غِيْضَ دَمْعِي وَكَانَ رِيّاً لِرُوحِي مِنْ غَلِيلِ الْأَسَى فَمَنْ يَرُونِي
يَا مَعِينَ الْجَمَالَ أَذْبَلَتْ قَلْبِي أَنْعَشِينِي بِنَهْلَةٍ أَنْعَشِينِي
يَا مَعِينَ الْجَمَالَ، قَطْرَةَ مَاءٍ أَوْ أَفِيضِي ابْتِسَامَةً تُحْيِينِي

ضَجَعْتِي فِي الرِّيَاضِ بَيْنَ الرِّيحِ قَرِيباً مِنْ مَاءٍ عَيْنٍ مَعِينِ
فَتَنَاولْتُ أَقْحَوَاناً نَدِيّاً وَنَدَاهُ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ
وَنَزَعْتُ الْأَوْرَاقَ عَنْهَا تِبَاعاً أَتَحَرَّى شَكِّي بِهَا وَيَقِينِي
فَإِذَا وَافَقْتُ مُنَايَ تَفَاءَلْتُ، وَإِلَّا كَذَبْتُ فِيهَا ظَنُونِي
ذَاكَ لهُوَ فِيهِ الْعِزَاءُ لِنَفْسِي فَاضْحَكِي مِنْ تَعَلُّلِي وَجُنُونِي

طُفْتُ بَيْنَ الْأَزْهَارِ، وَالنَّشْرُ مِنْ نَشْرِكَ فِيهَا وَدَقَّةُ التَّكْوِينِ
قَطَرَاتِ النَّدَى عَلَيْهَا دَمُوعِي أَنْتِ أَذْرَى مِنِّْي بِمَا يُكِينِي

أنتقي طاقةً وذوقك يهدين إلى الرائعاتِ في التَّلويين
يا حياةَ القلوبِ وبلي عليها ذَبَلْتُ من بقائها في يميني
فخذها عسى تُردُّ إليها الروحُ، إني أخاف مرأى المنونِ

ما أشدَّ الهوى، وما أطولَ الليلُ، وما أبعدَ الكرى عن جفوني
رُبَّ ذكرى - وما هجعتُ - استحالت لخيالِ سَرَى فأذكى شجوني
ضَمَّنِي، ثمَّ ردَّني وتلاشى في الدِّياجي كما تلاشى أنيني
راعني أمرُهُ فنبَّهْتُ مَنْ حَوَّلِي دُغْرًا بصرخةٍ في السُّكونِ
سألوني فلم أجِبْ، بل تناوَمْتُ، فناموا وللأسى خلفوني
مرحباً بالحياةِ عادَ صداها وانجلي الليلُ عن صباحِ مُبينِ
سُفراءُ الصِّباحِ نورٌ وطيرٌ تتغنَّى في مائساتِ الغصونِ
ونسيمٌ يُداعِبُ الدَّفْوَحَ، والبحرُ شجِيَّ الغناءِ عَذْبُ المجونِ
وجلالُ الوديانِ ملءُ الحنايا وجمالُ الجبالِ ملءُ العيونِ
في اخضرارٍ كأنه أملي فيك، وثلجٌ نقاؤه كالجبينِ

إنَّما هذه الطبيعةُ أنسي ومُعيني إن لم أجذ من مُعينِ
أَتَقَرَّى جمالَ ذاتِكَ في ما أبدَعْتَهُ يَمِينُهَا من فنونِ
في الغديرِ الصَّافي، وأنشودةَ الطيرِ، وطيبَ الوردِ والياسمينِ
غيرَ أني ما ازدَدْتُ إلاَّ حنيناً أسعديني بزُورَةٍ أو عِدَني

* * *

حملتني نحو الحمى أشجاني

أنشد إبراهيم طوقان هذا الموشح حين كان في بيروت، بينما كانت محبوبته ماريّا في فلسطين، وفي القصيدة ذكريات محبة إلى نفس الشاعر تنطوي على مرح وعبث، وقد نشرها بشارة الخوري في مجلة البرق سنة 1928

نَبَّهْتَنِي صَوَادُخُ الْأَطْيَارِ

تَتَغَنَّى عَلَى ذُرَى الْأَشْجَارِ
وَتَجَلَّلْتُ مَلِكَةَ الْأَنْوَارِ
فَوْقَ عَرْشِ الصَّبَاحِ تَرُشِفُ طَلَاءً مِنْ تُغُورِ الْأَقْصَاحِ عَلَا وَهَلَا
فَتَمَنَيْتُ لَوْ شَقِيقَةُ رُوحِي بَاكَرْتَنِي إِلَى جَنَى الْأَزْهَارِ

*

أَنَا فِي رَوْضَةٍ أَبَاخْتُ جَنَاهَا
كُلَّ ذِي صَبُوءٍ كَثِيبٍ أَتَاهَا
هَاهُنَا وَرْدَةٌ يَفُوحُ شَذَاهَا
هَاهُنَا نَرْجِسٌ يُجَيِّ الْأَقْصَا وَالِدَوَالِي تُعَانِقُ التُّفَاحَا
بَادِرِي نَسْتَبِقُ مَعَا وَارِفَ الظَّلِّ وَنَقْضِي النَّهَارَ بَعْدَ النَّهَارِ

*

صَحِكَ الرُّوْضُ حِينَ فَاضَتْ عُيُونُهُ
وَتَرَامَى فَوْقَ الثَّرَى يَاسَمِينُهُ
هَامَ صَفْصَافُهُ فَنَاخَتْ عُصُونُهُ
فَسَوَاءُ هَيَأُتُهُ وَهَيَأَمِي غَيْرَ أَنِّي أَبْكِي عَلَى أَيَّامِي
فَجَعَلْتَنِي بِكَ النَّوَى حِينَ شَبَّتْ لَوْعَةً فِي الضُّلُوعِ ذَاتُ أَوَارِ

*

مَرَّ عَامٌ أَخْفَى عَنِ النَّاسِ مَا بِي
مِنْ حَنِينٍ مُبَرِّحٍ وَعَذَابٍ
وَلَقَدْ يَسْأَلُونَ فِيمَ اكْتَنَبَا بِي
وَيَجْهَرُونَ بِصُرُونِ دَمُوعِي ثُمَّ لَا يُدْرِكُونَ مَا بَضْلُوعِ
وَلَقَدْ يَكْتُمُ الْمَحَبُّ هَوَاهُ فَتَبُوحُ الدُّمُوعُ بِالْأَسْرَارِ

*

ذَاكَرْتُ أَنْتَ عَهْدَنَا يَا غَدِيرُ
يَوْمَ كُنَّا وَالْعَيْشُ غَضُّ نَضِيرُ

وعلى ضفتيك كنا نسيرُ
فرويتَ الحديثَ عنا شُجوناً وأخذنا عليك الأثحونا
فأعذلي ذاك الحديثَ فلاني أذهلتني النوى عن التذكارِ

*

ذاكرُ أنت والأزاهيرُ تندي
كم نَظَمْنَا مِنْهُنَّ لَجِيدَ عَقْدَا
فلإذا هبت الصَّبَا فاح نَدَا
وانقضى اللّهُوْ مُؤْذِناً بالفراقِ فَذَوِ الْعَقْدُ مِنْ طَوِيلِ الْعِنَاقِ
لم يزل خيطُهُ يلوحُ وجسمي يَتَوَارَى سُفْماً عَنِ الْأَبْصَارِ

*

يا ابنة الأيكِ غَرْدِي أَوْ فَنُوحِي
فعسى يَلَامُ الْهَدِيلُ جُروحِي
نَقَدَ الصَّبْرُ عَنْ شَقِيقَةِ رُوحِي
فاحملي هذه الرّسالة عني واسجعي إن أتيتها فوق غُضَنِ
فهني عند الأصيل تصغي إلى الطير عساها تروح بالأخبارِ

*

حملتني نحو الحمى أشجاني
فتهيئتُ من جلال المكانِ
وإذا فوق مقلتي يبدانِ
فتلمستُ نضرةً ونعيماً وتعرفتُ ما لثمتُ قديماً
قلتُ يا مرجباً، وقبّلتُ كفّاً أنزلتني ضيفاً بأكرم دارِ
حطّراتُ النسيم في واديتك
صَبَّحْتَنِي بِقَبْلَةٍ مِنْ فَيْكِ
ثمَّ عَادَتْ بِقَبْلَةٍ تَشْفِيكِ
فسلاماً يا وادي الرّمانِ فُزْتُ بِالرُّوحِ مِنْكَ وَالرَّيْحَانِ

واحنيني إلى ديارك والرَّمانُ دان يُظِلُّ أهلَ الدِّيارِ

* * *

حيرة

وقد رآها مستقلة نائمة

نظم الشاعر قصيدته عندما رأى محبوبته مستقلة نائمة، وقد صور أحاسيسه تصويراً دراماتيكياً فيه صراع عنيف لما كان يدور في نفسه، والقصيدة تنم عن تطور الغزل عند إبراهيم طوقان.

ما كنتُ أرغبُ أن أسمى قاسياً
والشوقُ يدفعني إلى إيقاظها
وكانها شَعَرَ الرقادُ بنعمة
ويلٌ لقلبي كيف لم يفتك به
وتنهَّدتُ مما تكِنُ ضلوعها
حَسْبِي جوى أَنِّي نظرتُ لشعرها
وأغارُ منه إذا اطمأنَّ بها الكرى

أرنبو بلهفة عاشقٍ لم يبقَ من
فيصدني أدبي فأبعدُ هيلةً
فالنفسُ بين تهبُّ ممَّا ترى
ولعلَّ أشواقِي بَلَّغَنَ بي المدى

صبر لذي، وقد حنوت عليها
وأودُّ لو أجثو على قدميها
وتلهَّب، فاخترتُ في أمرها
فوقعتُ لا أصحو على شفيتها

* * *

في دير قديس

داعب الخيال إبراهيم طوقان، فعاش ينعم من خلال هذا الطيف بلقاء الحبيب بعيداً عن الناس والمراقبين، فتحدث عن ليلة هائلة قريبة من نفسه وقلبه فقال:

لم ألقَ بين ليالي التي سَلَقْتُ
كَلِيلَةَ بَتْها في دِيرِ قَدَيْسِ

بين الحسان ولا حور الفردائسِ

ما عرُش بلقيس في إبان دولتها ولا سليمان مزفوفاً لبلقيس
يوماً بأعظم منّا في السرير وقد دام العناق إلى قرع النواقيس

* * *

خطرة في الهوى

تذكر الشاعر قساوة أهل وادي الرمان على حبيبته، فدعا عليه بعد ذكر بعض أوصاف المحبوبة، وفي القصيدة مقطع يعاتب الشاعر فيه شقيقه أحمد، عندما قدم إبراهيم إلى القاهرة للمعالجة وذلك في شهر آب سنة 1929.

أعيدي إلى المضنى وإن بُعد المدى بلهنيّة العيش الذي كان أرغدا
تبارك هذا الوجه ما أَوْضَحَ السّنى وما أطيّبَ المفترّ والمتورّدا
فقدتكِ فقدان الصّبا وهل امرؤ تولى صباه اليوم يرجعه غدا
فقدتكِ لكنني فقدتُ ثلاثة سواك: فؤادي، والأمانيّ، والهدي
وأبقيت لي غيرَ القنوط ثلاثة: هواك، وسقمي، والحنين المؤبّدا

أيا «وادي الرمان»! لا طيّبت وادياً إذا هي لم تنعم بظلك سرمداً
ويا «وادي الرمان»! لا ساغ طعمه إذا أنا لم أمدد لذاك الجنى يدا
ويا «وادي الرمان»! واهأ!! وعندهم حرامٌ على المحزون أن ينتهّدا
كأنّي لم أنزل ديارك مرة ولم ألقَ في أهليك حباً ولا ندى
ولم تَسقني كأس المدام حبيبةً وردتُ ثناياها مع الكأسِ موردا
ولم تُوح لي شعراً ولا قمتُ منشداً ولم يَرَوْ شعري عندليكَ منشداً

أخي وحبيبي كنتُ أرجوك مسعداً يسامحك الرّحمن لم تَكْ مسعداً
ألم ترني في مصر أطلب شافياً وراعتك إشفائي على هوة الرّدى
ألم ترني في مضجعي متقلّباً أقلّبُ في الأفلاك طرفاً مُسَهّداً
ومن عجبٍ أنا شبيهان في الهوى بمن أنت تهوى، هل أطفّت تجلّداً؟!

* * *

فرحتي

ظل الشاعر يمني نفسه بقاء الحبيبة، وكان عندما يرى الزهور وهو في لبنان كان يراها ويرسل الأزهار إلى المحبوبة بكلمات قصائده فتبقى هذه القصائد محفوظة وتبقى الورود فيها ندية، ورغم انقطاع المحبوبين فقد ظل الشاعر يتطلع على أمل اللقاء الذي ينعم به فقال هذه الأبيات:

فرحتي يوم أراها جئتني نازهاها

جئت الحسن لديها طيها وفن عليها

وردوها في وجنتيها ثم من مقلتيها

هي ريحانة قلبي

ليتها كانت بقربي

فرحتي يوم أراها جئتني نازهاها

ونعيمي في شفقائي

كان لي في الحب عهد رب ما ضل لا يُرد

فالتقي خد وخد والتقى دمع وشمع

جف، يا أيام، دمع

ضاق بالآلام ذرع

فرحتي يوم أراها جئتني نازهاها

ونعيمي في شفقائي

بلبل فوق الغصون ساحر جثم الفنون

يا أخوا الصوت الحنون لست تدري ما شجون

تسلى، تسلى

وتراني، أنقلى

فرحتي يوم أراها جئتني نازهاها

ونعيمي في شفقائي

سمع البلبُلُ شـجـوي باكيأاً أَيَّامَ هَـجـوي
فهفها البلبـل نحوي هاتفها: أصغ لـشـدوي

قـلـتُ يا بـلـبـل دغـني

عُذْ إلى الـدَّوحِ وغـنْ

فرحتـي يـوم أراها جئتـي نار هواها

ونعيمـي في شـقائي

نُـخـ معي فالنوخُ أُولى بَعْدَ مَنْ أهوى وأحلى

طَرِبَ القـلـبُ ومـلأ أيُّها البلبـلُ هـلأ

بـجـناحـيـك انقلبـتـا

وبـمـن أهوى رجعتـا

فرحتـي يـوم أراها جئتـي نار هواها

ونعيمـي في شـقائي

الهوى أبلى شـبابي جـاءني من كلِّ بابٍ

مـن صـدودٍ لعتابٍ مـن عذابٍ لعذابٍ

كـلُّ هـذا لا يـطـاقُ

ثـمَّ لا يـحـلـو الفـراقُ

فرحتـي يـوم أراها جئتـي نار هواها

ونعيمـي في شـقائي

عيـشـنا ركـضَ بـركـضٍ بعـضـنا في إثـر بعـضٍ

والصُّبا يـومٍ ويمـضي لـيـتـه يمـضي ويـرـضي

يا فـؤادي ما بـكـائي؟

أـتـرى يُجـدي نـدائي

فرحتـي يـوم أراها جئتـي نار هواها

يَا حَبَّذَا لُقِيَا عَلَى مَوْعِدٍ وَحَبَّذَا أَخْذُ يَدِي فِي يَدٍ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ هَامَتْ وَهَامَ!

مَاذَا أَصَابَ الرُّوْضَ حَتَّى دَوَّى وَالهَفَا؛ وَالْغَضْنَ حَتَّى التَّوَّى
وَأَيُّ بُرْدٍ لِلرَّبِيعِ انْطَوَّى
الرُّوْضُ يُمَلِي يَا سَعَادُ الْعِزِّ فِي زَهْرِ مِثْلِ الْأَمَانِي انْتَشَرَ
يَا رَوْضَةَ الْحَسَنِ حَذَارَ الْهَوَى:

هَوَاكِ جَبَّازَ عَلَى الْقَلْبِ جَبَّازَ
أَمَانًا!! أَمَانًا!!
مَنْ زَفَرَةَ اللَّيْلَ وَغَمَّ اللَّهُمَّ هَوَاكِ
أَمَانًا!

* * *

أعجب الهوى

أعجب الشاعر بكل غانية رآها، وفي هذه القصيدة يخاطب فتاة لا يعرف اسمها،
تعلقها قلبه عندما رآها صدفة في الطريق، فراح يصف هذه اللحظات فقال:

تعلقها قلبي ولم أذر ما اسمها وفي عينها ما بي وما سمعت باسمي
وما كان إلا في الطريق لقاءنا ولحظ - كباقي الناس - يزمي ولا يُصمي
أما عجب - والأرض ملأى بمثلها - هيامي بها دون الحسان على رغمي؟
وما بالها لم تحمل الوجْدَ والهوى لغيري، له رُوحِي ولم يعدْهُ جسمي
أراها فلم أملك تهالك واهن بجنبِي مسلوب الجراءة والعزم
فيخطف لوني فرط ما أنا واجد بها وبما يُلقِي هواها على وهي
يُحِيلُ لي أَنِّي دَنَوْتُ فَأَعْرَضَتْ فَأَصْرَفُ وَجْهِي مُثَقِّلَ الصَّدْرِ بِالْغَمِّ
ظَنَنْتُ بها سوءاً ولم تجن بعد ما يُظَنُّ به، ما أشبه الظَّنَّ بِالْأَثَمِ
ويعربُ عن سِرِّ الضُّلُوعِ شحوبها إذا ما تلاقينا، فبُشِّسَ إِذْنُ رَغْمِي

وأَقْسِمُ لَوْ حَدَّثْتُهَا وَتَكَشَّفْتُ
هَوَى أَلْفَتْ شَتَّى الْقُلُوبِ يَمِينُهُ
سَرَايُنَا مَا شَدَّ عَنْ هَمِّهَا هَمِّي
وَكَمْ قَطَعَتْ يُسْرَاهُ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ
فَأَيُّ عَجِيبٍ فِي هَوَى الْعُنْيِ وَالصَّمِّ
إِذَا كَانَ فِي دُنْيَا الْهَوَى مِثْلَهَا أَرَى

* * *

اشربي

نظم إبراهيم هذه القصيدة، بينما كان يجلس مع فتاته «مرغريتا» في مقهى النجار في بيروت بعد أن انتهت من رقصتها.

اشربي أَنْتِ وَحَسْبِي
اشربي أَنْتِ وَحَسْبِي
اشربي أَنْتِ وَحَسْبِي
اشربي أَنْتِ وَمَالِي
نَشْوَةٌ مِنْ مَقْلَتِيكَ
نَظْرَةٌ فِي وَجْتِيكَ
نَهْلَةٌ مِنْ شِفْتِيكَ
وَحَيَاتِي فِي يَدِيكَ

نَقَلَ الْكَأْسُ حَدِيثًا
أَنَّه لَوْلَا شَذَاهَا
لَمْ يَكُنْ يُسَكِّرُ لَوْلَا
اشربي أَنْتِ، وَحَدَّثْ
عَنْ ثَنَائِكَ الْعَذَابِ
لَمْ يَكُنْ لَذَّ وَطْأَبِ
أَنَّهُ مَسَّ الرُّضَابِ
أَنْتَ عَنْهَا يَا شَرَابَ

أَنْشُدْنِي، أَطْرِينَنِي
أَرْسَلِي اللَّحْنَ شَجِيًّا
هُوَ يَا رُوحِي لِرُوحِي
إِنْ أَنْفَاسُكَ فِيهِ
بِهَوَى الْأَنْسِ دَلْسِ
كَالَصَّبَا فِي الْغَلَسِ
كَالْنَدَى لِلنَّجْسِ
لِحَيَاةِ الْأَنْفَسِ

* * *

عاش كلانا بالمنى

أنشأ الشاعر قصيدته هذه ثم بعث بها إلى صديقه الشاعر عبدالكريم الكرمي (أبو سلمى).

كان هـزاراً طرباً
 فابتسم الحبيب له
 ثم رمى به بالتي
 بات يهيم نائحاً
 حُكِّمَ به الحب قضي
 حسبك أن ترضى به
 دعك من الماضي فلو
 وجدت وصل ساعة
 صبح الذي جرّبه
 الحب يقتاد الفتى
 يسمو به حتى إذا
 رمى به من حالق
 عاش كلانا بالمني
 تلك رفاةً بليت
 نصوصها ابتسامة
 نشقى به حتى تحين
 بالحسن مفتناً
 فأحسن الظننا
 تبذلّ اللحننا
 وطالمنا غنى
 ما أظلم القاضي
 فإني راضٍ
 عدت إلى الماضي
 ودهر إعراض
 عند «أبي سلمى»
 وقلبه أعمى
 بوأه النجما
 يحطمه حطماً
 نرسلها شعراً
 تبعثها الذكرى
 أو دمعة تُذرى
 الراحلة الكبرى!

* * *

ذكرى عشية زهراء

نظم الشاعر هذه القصيدة يدحض فيها ما تناقله الناس على لسان إبراهيم وردّ أبي الخطاب عليه، وقد نشرت جريدة فلسطين القصيدة، مرفوعة إلى الأستاذ أبي خليل الخطاب بتاريخ 26/4/1933.

هل «كفر كنة» مُرجع لي ذكرها
 أم في صباياها وفي رمانها
 لو تنفع الذكرى ذكرت عشية
 فيهن أسرة القلوب بحسنا
 ما فاتني من عنفوان شبابي!
 ما بيعت المدفون من أرابي..
 زهراء بين كواعب أتراب
 ودلاها وحديثها الخلاب

روحٌ أخفُّ من النَّسيمِ وخاطرٌ
غرَّ ثناياها وأشهد أنَّها
نُلقي أحاجيَ بيننا فتشترنا
ونردُّ الألمانَ، بينَ شجيرةٍ
ولقد نُعرِّضُ باللقاءِ لموعِدِ
قمنا وقد سقط النَّدى وتراحفتُ
تُخفي محيَّا البدر ثمَّ تُبينه
وجفَّت مضاجعُها الجنوبُ وملؤها
بتنا على صَفوٍ وخوفٍ تفرِّقُ
«نيسانُ» هان عليَّ حكمك بالنَّوى
يا ليتَ من فجعَتْ فؤادي بالمنى

كالبرقِ مقرونٌ بحسنِ جوابٍ..
مزوجةٌ رَشَفَاتُها بِشرايِ
للضحكِ خاطئةٌ وذاتُ صوابٍ
تُمرِّي مدامعنا، وبينَ عذابٍ
فيها، ونُسلِكُها طريقَ عتابٍ
سُجفُ الغمامِ ثقيلةُ الأهدابِ
عبثَ المليحةِ دوننا بنقابٍ..
خفقانُ مضطَّرمِ الهوى وثابٍ
للعاشقين مُهَيَّئِ الأسبابِ
لما تحطَّمتِ المنى في «آبٍ...»
لم تُبقِ لي ذكرى تُطيلُ عذابي

ملاحظة: هذه أبيات خمسة من هذه القصيدة غير مثبتة في الديوان وهي مرتبة في بداية القصيدة.

احبس يراعك يا أبا الخطاب
تلك القصيدة لم أقل أبياتها
هذا أبو سلمى ولا والله ما
هيهات أن يخفي عليَّ وكله
ويل له ما انفك يوقظ راقداً
قد حلَّ بي ما لم يقع بحسابي
لكنها المزوَّر نصاب
نكأ الجروح سواه من أصحابي
قلب بلا باب ولا باب
ويشير أشواقِي إلى أحبابي

* * *

غادة إشيلية

إلى فنانة إسبانية تعرف إليها في بيروت

هام الشاعر بهذه الصبية الصغيرة «مرغريتا» فنظم طائفة من غزلياته في هذه الراقصة معترفاً بحبه لها، ولكن انجذابه إلى هذه الفتاة لم يكن بدافع من جمالها وخفة روحها فحسب، وإنما كان إحساساً بما في مزاجها من الدم العربي، وما كان يجد في ثيابها ورقصاتها من الفن العربي الأصيل، وود الشاعر في القصيدة أن يسعفه الحظ لزيارة الأندلس.

أفدي بروحي غيدَ إشيلية وإن أذقنَ القلبَ صابَ العذاب

*

عَلِقْتُ مِنْهُمْ بِتَرْبِ النَّهَارِ
فِي مِثْلِهَا يَخْلَعُ مِثْلِي الْعِذَارُ
أَشْرَبُ مِنْ فِيهَا وَكَأْسُ الْعُقَارِ
لَهَّقِي عَلَيْهَا يَوْمَ شَطِّ الْمَزَارِ
وَدَعْتُهَا، وَمَهَجَتِي مُشْفِيَةٌ
وَوَدَّعْتُ بِالنَّظَرَةِ الْمُغْرِيَّةِ

*

يَا أَغْضَرَ الْأَنْدَلَسِ الْخَالِيَاثَ
أَهْكَذَا كَانَتْ هُنَاكَ الْحَيَاةُ
أَهْكَذَا الْفَتْنَةُ فِي الْغَانِيَاثَ
لَكِنَّ مَضَى عَهْدُ ذَوِينَا وَفَاثَ
فَدَذَمْتِي بَعْدَهُمْ مَوْفِيَّةَ
أَنَا «ابْنُ زَيْدُونَ» وَتَصْبُولِيَّةَ

أُرِدُّ مَاضِيَهُمْ بِيَذْلِ الشَّبَابِ
«وَلَادَةٌ» فِي دِمِهَا وَالْإِهَابِ..

أَوَّلُ عَهْدِي بِفَنُونِ الْهَوَى..
وَقِيلَ هَلْ يَزُشِدُ قَلْبُ غَوَى
مَدَدْتُ - لِمَا قَلْتُ قَلْبِي ارْتَوَى -
بِيَرُوثُ، لَوْ شِئْتُ دَفَعْتُ النُّوَى
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مُنَى مَوَدِّيَّةَ
لَعَلَّ فِي أَخْتِكَ يَا سَوْرِيَّةَ

بِيَرُوثُ؛ أَتَعِمُّ بِالْهَوَى الْأَوَّلِ..
وَالرَّشْدُ غَيٌّ فِي الصَّبَا الْمَقْبَلِ
يَدِي، فَرَدَّتْهُ عَنِ الْمَنْهَلِ
طَوْعَاءَ، وَلَمْ أَهْجُرْكَ، فَالْوَيْلُ لِي
بِاسْقَةِ خَضْرَاءَ، لُذْنُ رَطَابِ
حَسَنَ عَزَاءٍ عَنِ جَلِيلِ الْمَصَابِ

*

يَلَذُّ لِي يَا عَيْنُ أَنْ تَسْهَدِي
لِي رَقْدَةً طَوِيلَةً فِي غَدِ
وَتَشْتَرِي الصَّفْوَ بِطَيْبِ الْكَرَى
لَهُ مَا أَعَمَّقَهَا فِي الثَّرَى

ألم تَرَيَ طَيْرَ الصُّبَا فِي يَدِي طَالَ جَنَاحَاهُ وَقَدْ يَهْتَدِي
أرى الثلاثين سَتَعْدُو بَيْنَهُ وَبَعْدَ عَشْرِ يَلْتَوِي عَوْدِيَهُ
لا بَدَلْ لِي إِنْ عِشْتُ أَنْ أَعْطِفَا وَأَجْتَلِي أَشْبَاحَ عَهْدِ الصَّفَا
هَنَّاكَ لَا أَمْلِكُ أَنْ أَذْرِفَا عَسَاكَ يَا دَمْعَ حُبٍّ وَفَى
يَوْمئِذٍ أَلْقِي عَلَى عَوْدِيَهُ أَفَلَدِي بِرُوحِي غَيْدَ أَشْبِيلِيهِ
لَحْنُ الْهَوَى أَمْرُجُهُ بِالْعَتَابِ وَإِنْ أَذْقَنَ الْقَلْبَ صَابَ الْعَذَابِ

* * *

رمان كفر كنا

زار إبراهيم طوقان يوماً الناصرة، وفي حي من أحيائها سمع غلاماً ينادي كفر كنا يا رمان، ناصري يا رمان، فتذكر حبه الأول، وأحس بنغمات معطرة من أنفاس من هام بها، فأنشأ يقول:

جَزْتُ بِالْحَيِّ فِي الْعَشِيِّ فَهَبْتُ قَلْتُ: مِنْهَا، وَدَزْتُ أَنْظُرُ حَوْلِي
وَإِذَا طَيْسَبٌ جَنِيٍّ مِنَ الرَّمَمِ وَافَقْتُ نَظْرِي نَدَاءَ غَلَامٍ:
قَلْتُ أَسْرَعُ بِهِ فَدَى لَكَ مَالِي يَا رَسُولَ الْحَبِيبِ مَنْ حَيْثُ لَمْ تَد
نَفْحَةُ أَنْعَشْتُ فَوَادِي الْمُعْنَى نَظَرَاتِ الْمَلْهُوفِ يُسْرَى وَيُمنَى
لَنْ مِثْلَ التُّهُودِ لَوْ هِيَ تُجْنَى «نَاصِرِي يَا رِمَانُ!» مِنْ «كَفَرِ كَنَّا»
وَتَرَنَّمْ بِذِكْرِهِ وَتَغَنَّنْ رَلَقَدْ جِئْتَنِي بِمَا أَتَمَّنَّنِي

* * *

(1) ولكن توفاه الله قبل أن يتم الأربعين فقد قضى نحبه وهو في السادسة والثلاثين من عمره.

صورتها المكبرة

قدم الشاعر صورة لصديقه الفنان مصطفى فروخ لحسنائه مرغيتها ليكبرها له بالألوان، واستطاع الفنان أن يكبرها، لكن شاعرنا استطاع بعواطفه تصوير الحركة والحيوية لحسنائه.

بَرَّحَ بي الشوقُ فلما طغى	فِرْعَتُ للرَّسْمِ فكَبَّرْتُه
وما شفى داءً، ولكنَّها	قلبي شكا البُعدَ فَعَلَّلْتُه
ولم أجد في الرَّسْمِ أخلاقَها	جَرَّبْتُها حيناً وجَرَّبْتُه
منتظري في غرفتي دهره	جودُ بخيلٍ ما تَعَوَّدْتُه
ظلَّ وقد ناجيتُه باسماً	ولم يمانع حين قبَلْتُه
عَرَفْتُ للرَّسْمِ إبداعه	وعَدْتُ للرَّسْمِ فأنكَرْتُه
قد فاتته دَلٌّ تعرَّفْتُه	فيها، ومَطْلٌ كم تدوَّقْتُه
لو جاءني الرسامُ بالمشتهى	كفرتُ بالله وأشركْتُه

* * *

طير الصبا

يتذكر الشاعر حبيبته وقد رحلت ويتمنى عودتها ثم يستنجد بها قاله «أبو سلمى»
فيواسي نفسه بقوله:

طير الصَّبا ولَّى	وكان لي جـاز
قلتُ له: «هلاً	تعود للـدَّاز؟»
فقال لي: «كـلاً...	كـلاً! «وطـاز..
أظنُّه مـلاً	منِّي الجـواز

خلفني أبكي	عهد الهوى
خلعتُ من ملكي	عرشي هوى
عاش على الفتك	قلب غوى
واليوم في ضـنك	واهبي القوى

قال «أبو سلمى» زيارن أنس راى:
«صباك قد همتا..» خل الت صباى..
فهاج لى غمما أقتل ممباى
قلت: «نعم خمتا» وشاب أجبباى..

* * *

الى ذات السوار

أحب الشاعر عدة فتيات ذكر أسماء بعضهن وكنى عن بعضهن وذات السوار
واحدة منهن، عرف اسمها لكنه لم يصرح به وقال فيها:

هينى لا اسميك ولا أظهر حىك
وتلقى بيننا الحجب فأحيا لا ألقىك
هبي ما شئت؛ إن القلب ما انفك يناجيك
ويرتاح إلى النجوى وفى النجوى يحىك
ويطفى الليل والشوق فى دعوك ويكيك
ويستأنس بالصبح كما يرويه عن فىك

* * *

الى الممرضة الروسية

فتن الشاعر بمرضة روسية حسناء اسمها كاترين، كانت تحقنه بإبر تساعد على
إزالة القرحة، فسحرتة بعينها الزرقاوين وفتنته بأهدابها الطويلة فنظم هذه القصيدة
ونشرها في جريدة فلسطين اليافاوية.

يا حلوة العينين يا قاسية سرعان ما أصبحت لى ناسية
أما أنا فلست أنسى يداً ناعمة تجود بالعافية
لئن شفى الطب ضنى عارضاً فمهجتي أنت لها شافية
وإبرة الآسى على نفعها أعمل منها نظرة ساجية
تبعثها عيناك في أضلعي فياضاً بعطفها، آسية

تَلَامَ قَلْباً نَكَاتَ جَرَحَهُ فَعَادَ يَهُوَى مَرَّةً ثَانِيَةً
وَتَطْفَأُ النَّارَ الَّتِي حُرِّكَتْ فَأَرْجَعْتُهَا زَفَرَةً حَامِيَةً
قِيَصَرَةَ الْحَسَنِ أَلَا اشْتَكِي إِلَيْكَ مِنْ جُورِكَ يَا طَاغِيَةً
هَلْ كَانَ نَسْيَانِكَ لِي هَفْوَةٌ أَمْ خَطَاةُ أَشْرَاكُهَا خَافِيَةً
سَيِّدَتِي، ذَنْبُكَ مَهْمَا يَكُن تَغْفِرُهُ أَعْذَارُكَ الْوَاهِيَةً..

* * *

ناشدتك الإسلام

هذه القصيدة لإحدى غواديه واسمها فوز، التي يرجح صديقه الدكتور عمر فروح أن تكون إحدى المصطفات التي التقى بها إبراهيم في بحدون في صيف عام 1935 ففازت بنصيبها من غزل إبراهيم وشدوه الوجداني.

يَا «فَوْزُ» وَنِلِي مِنْكَ يَا قَاسِيَةً عَذَّبْتَنِي ظُلْماً، كَفَى مَا بِيَةٍ
أَرَاكَ فِي الْيَوْمِ ثَلَاثاً وَلَا أَنْأَلَ إِلَّا النَّظْرَةَ الْخَافِيَةَ
وَاللَّهُ لَوْ تَدْرِينِ مَا قَصَصْتِي مَا كُنْتُ عَنْ حَالِي إِذْ نَ رَاضِيَةً
بَلْ كُنْتُ لِي عَوْناً عَلَى غَرْبَتِي وَكُنْتُ لِي رَاحِمَةً آسِيَةً
مَرْضُضَتِ أَيَّاماً وَلَمْ تَطْلُعِي ظَلَلْتُ فِيهَا مَهْجَتِي دَامِيَةً
اسْأَلْ عَنْكَ النَّاسَ مُسْتَخْبِراً وَلَهُنَّ أَدْعَوُ لَكَ بِالْعَافِيَةِ
حَتَّى إِذَا أَبْلَلْتُ يَا مَنِيَّتِي خَفَّفَ عَنِّي اللَّهُ بُلُوَائِيَةً
بَشْرَاكَ يَا قَلْبِي فَقَدْ أَصْبَحْتُ تَغْدُو إِلَى مَلْعَبِهَا ثَانِيَةً
مَلِيكَةً مَا بَيْنَ أَتْرَابِهَا يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَ الْحَاشِيَةِ
يَا وَرْدَةً تَرْسُلُ أَنْوَارَهَا فَيَضَا عَلَى الْكُونِ مِنَ الرَّابِيَةِ
يَا رَبَّةَ الْمُنْدِيلِ مِنْ تَحْتِهِ تَبْعَةً حَسَنٍ نَرَّةً صَافِيَةً
نَاشِدْتُكَ الْإِسْلَامَ لَا تَقْتُلِي أَخَاكَ فِي دِينِكَ يَا قَاسِيَةً

* * *

بعد عام

إليها...

بعد أن منى الشاعر نفسه بقاء ماريّا، لكن الأمل بدأ يتلاشى تدريجياً وترك أثراً ندباً نازفة، خاصة عندما أحس بأن حبيبته قد نسيت حبه، فراح يقتل حبه انتقاماً وأرسل هذه القصيدة صرخة صارخ فيها حبيبته.

هــو الـكُ أَصـبـحَ نَـسـيًّا	كـلـو عـتـي مَنـو سـيًّا
قـد كـانَ شُـغـلاً لـقـلـبـي	فـصـار قـلـبـي خـلـيًّا
كـأنَّ حـلـو الأـمـانـي	و الـو صـلـي لـم تـكُ شـيًّا
مـسـحُتْ أَثـارَ حُـبِّ	كـانـت عـلـى شـفـتـيًّا
فـيـا جـفـوونَ اسـتـقـرّـي	عـاد الرّـقـادُ شـهـيًّا
و أرـقـص عـلـى حـبِّ لـيـلا	كـيـلا يـا فـؤـادُ مـلـيًّا

* * *

يوم الثلاثاء

التقى الشاعر في الطريق بمجموعة من الفتيات، فلفت نظره منظرهن وجماهن، فعاوده الشوق وثار شجونه فأنشأ يقول:

حـسـبْتُ أنَّ الـشـبـابـا	و لـي حـيـدًا و غـابـا
و ما ظننـتُ فـؤـادـي	إلاَّ أهـتـدـى و أنـابـا
هـيـهـاتَ لـم يُـرـضِ قـلـبـي	مـن الـهـوى مـا أصـابـا
يـا نـظـرَةً لـم أرـدْ هـا	سـاقت إلـيَّ عـذـابـا
لـم أدـر أن الزـوايـا	يـا قـلـب فـيـهـا خـبـايـا..
رـدـدت مـاضـي عـهـودـي	عـلـيَّ، فـاحـمـل هـوايـا

حـسـبْتُ أنَّ دـمـو عـي	جـفَّتْ و أقـسـوت رـبـو عـي
و خـلـتُ نـارَ فـؤـادـي	خـبـتُ و راءَ ضـلـو عـي
فـأين و جـدي و سـهـدي	و صـبـوتـي و و لـو عـي!؟

شهدت فيه العجايبا
روافلاً «بالملايين»
ففي الزوايا خبايا..

خلف الحجاب صباح
بخلن هبت رياح
شعر، وهذا وشاح..
على القلوب انصبابا
وكم له من سجايا
بين الزوايا خبايا..

وكان يوم الثلاثاء
اليوم يوم الصبايا
لئن أئرن شجونى

لاحت وجوه ملاح
لكن بخلن ولما
هذا نقاب، وهذا
فانصب نور وطيب
كم للجمال مزايا
لولاك ياريح كانت

* * *

بلا عنوان..١

لم تستقر جفون الشاعر، ولم يعد الرقاد إلى عينيه، وواصل زفراته الحارة حسرة على
ماريا ثم تراجع عن نعت الحبيبة بأنها غادرة، فأراد الاعتذار لها فقال:

لم تزل تهجرني منذ سنين ليتني أنعم يوماً برضاك

كنت في روض أنيق فإذا
إنهما طارا يكونان معاً
ليتنا يا هاجري مثلهما
لم تزل تهجرني منذ سنين
بحبيين من الطير هناك
ومعاً لفهما دوح الأراك
في تعاطينا الهوى، لكن أراك
ليتني أنعم يوماً برضاك

ههنا نرجسة قبلها
منحته طيها يشفي به
ليتنا يا هاجري مثلها
لم تزل تهجرني منذ سنين
عاشق هام بها يدعى نسيم
كل ذي قلب من الهجر سقيم
في تساقينا الهوى، لكن أراك
ليتني أنعم يوماً برضاك

في ظلام اللَّيْلِ لاحت نجمةٌ
يا حبيب الروح هاإنهما
ليتنا يا هاجري مثلها
لم تزل تهجرني منذ سنين

وهفا نجم إليها مُطْرِقا
في عتاب وانقضى، فاعتنقا
في تشاكينا الهوى، لكن أراك
ليتني أنعم يوماً برضاك

شمل الكونَ الرضى حتى غدا
يا مَلُولَ القلب ما في الكونِ مِنْ
فمتى يا هاجري منك الرضى؟
لم تزل تهجرني منذ سنين

وهو طيب وجمال وصفا
عاشقين اثنين إلاَّ اتلفا
ومتى يصفو الهوى؟ لكن أراك
ليتني أنعم يوماً برضاك

* * *

1. إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الرابع، المطابع التعاونية، الأردن، 1975.
2. أكرم زعيتر، القضية الفلسطينية، دار المعارف بمصر، 1955.
3. البدوي المثلث (يعقوب العودات)، الغواني في شعر إبراهيم طوقان، دار الريحاني، بيروت، 1957.
4. البدوي المثلث، إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، المكتبة الأهلية، بيروت، 1964.
5. البدوي المثلث، الوطن في شعر إبراهيم طوقان، مصور.
6. المتوكل طه، الكنوز، دار الشروق، عمان، 1999.
7. جميل بركات، فلسطين والشعر، الطبعة الأولى، 1989.
8. ديوان إبراهيم طوقان، دار المسيرة، بيروت، 1984.
9. زكي المحاسني، إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب، دار الفكر العربي، 1955.
10. زياد صالح الزعبي، عشبات وادي اليابس، دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1982.
11. د. عمر فروخ، شاعران معاصران، المكتبة الأهلية، بيروت، 1954.
12. كافل السوافيري، الأدب العربي المعاصر في فلسطين، دار المعارف، 1960.
13. فايز علي الغول وعبدالرحمن الكيالي، القريب في تاريخ الأدب، مكتبة الاستقلال، عمان، 1959.
14. فدوى طوقان، أخي إبراهيم، القدس، 1975.
15. فوزي عطوي، أحمد شوقي أمير الشعراء، دار صعب، بيروت، الطبعة الثانية، 1973.
16. الدكتور محمد زكي العشراوي، قضايا النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979.
17. محمد عبد المنعم خفاجي، أسرار البلاغة، الجزء الأول، مكتبة القاهرة، 1976.
18. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964.
19. د. محمد محمود الصياد ورفاقه، المجتمع العربي والقضية الفلسطينية، دار النهضة العربية، بيروت، 1973.
20. ناصر الدين الأسد، الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، 1957.
21. د. وليد جرار، شاعران من جبل النار، الشرق الأوسط للطباعة، عمان، 1958.
22. د. يحيى جبر، الساحر والجسد، الدار الوطنية، الطبعة الثانية، 1994.
23. يوسف عطا الطريفي، العصر الأموي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2007.

فلسطين

5	مقدمة بقلم المهندس جعفر إبراهيم طوقان
7	مقدمة بقلم يوسف الطريفي
9	هذا الديوان بقلم أحمد طوقان
11	أخي إبراهيم بقلم فدوى طوقان
33	تمهيد: الحياة السياسية في فلسطين
39	الفصل الأول: حياة إبراهيم طوقان
41	مولده وبيئته
45	مراحل الدراسة
49	مصادر ثقافة إبراهيم طوقان
59	حياته العملية
60	إبراهيم المعلم
62	إبراهيم المذيع والصحفي
68	رد الفعل على الحديث الإذاعي
71	مرضه ووفاته
75	الفصل الثاني: شعر إبراهيم طوقان
77	بداياته الشعرية
79	شعر إبراهيم طوقان السياسي والقومي
92	شعره الوطني
104	شعره الاجتماعي
114	الشعر الوجداني

136	الدعابة والفكاهة والسخرية
139	نقائض ومعارضات
147	نظرة إبراهيم طوقان للشعر
150	الصورة الشعرية عند إبراهيم طوقان
155	الموسيقى في شعره

159	الفصل الثالث: قصائد ورسائل
161	قصائد لم تُنشر في الديوان
161	نشيد الربيع
163	القدس
165	ثقلاء الثقلين صقعاء الخافقين
169	في وديان رام الله
171	في الليل
171	إعلان الشعراء
173	سيزيا أبا الغيث
175	تعليقات وملاحظات لإبراهيم
178	رسائل إبراهيم
192	ملاحظات حول رسائل الشاعر إبراهيم طوقان

195	الفصل الرابع: أحاديث إذاعية
197	حديث أخلاقي
200	فوز وعباس
204	ذكرى المولد النبوي
206	الطبيب الشاعر
211	مناظرة بين شاعر ونائر
220	أبو العلاء المعري
221	أبو العلاء في بغداد - الحالة في بغداد وسوريا
222	عزلته: هل كان فيلسوفاً؟
222	وفاته وأثاره

222	شعره: مقابلة بين اللزوميات وسقط الزند
223	مبدأه
225	الفرق بين التفاؤل والتشاؤم
226	حديث إذاعي
232	مراجعة كتاب عبقر
237	ديوان ابن الساعاتي
243	الفصل الخامس: مختارات من مقالات إبراهيم طوقان
245	الصحافة المثلى
247	من كنوز الأدب القديم
248	غذاء ان
250	خواطر مريض
250	كلمة سياسية
251	في المستشفى
251	لذة النهوض المبكر
252	من خلال الشباك
252	جناية عصر الغازولين
253	حقائق مجهولة في حياة المتنبي
256	مستشرق
258	في سوق الكتب
259	في زوايا الأغاني
261	في زوايا الأغاني
261	في حلقة الدرس
262	شاعران كبيران
263	موطن عبدة
264	عند المهلبى
264	ديك الجن الحمصي ومأساته
270	نهج البلاغة
272	رأي بين الآراء ودلو بين الدلاء

274	تعليق لأبي سلمى على الدولة النسانية
276	عشت أبا جعفر
277	وافتر إبراهيم
278	حديث الشباب
279	صور إبراهيم طوقان
281	إبراهيم طوقان: شاعر الحب والثورة
283	الأدب في الشرق العربي
289	سهاد
290	في رثاء الشاعر إبراهيم طوقان من أحبائه وأصدقائه
290	رثاء إبراهيم
291	الشاعر الذي قضى
294	عام مضى على وفاة شاعر فلسطين الكبير وبلبلها الغريد
296	صوت من القبر
296	من القلب

299	الفصل السادس: قصائد الديوان
301	قصائد وطنية وسياسية وقومية
301	الشهيد
302	الثلاثاء الحمراء
306	الفدائي
307	الشيخ المظفر
308	الإيمان الوطني أو جماعة (السا)
308	حطين
310	فلسطين مهد الشهداء
312	أيها الأقوياء
313	القدس
313	اشترى الأرض تشتريكم من الضيم
314	يا رجال البلاد
315	شريعة الاستقلال

316 غايتي
317 السماسرة
317 1000
318 يا قوم
318 أيتها الحكومة
319 يا حسرتا
320 زيادة الطين
320 مناهج
321 إلى الأحرار
321 فتية المغرب
322 موطني
323 وطني أنت لي
324 الشعر الاجتماعي
324 لمن الربيع..؟
325 نعمة
325 الدم الخفيف
326 نعمة العافية
326 تفاؤل وأمل
329 إلى بائعي البلاد
329 وداع
330 العمل
331 أشواق الحجاز
332 مصرع بلبل
335 نشيد البلبل للوردة
336 آل عبدهادي
337 الشاعر المعلم
338 الحبشي الذبيح
339 ملائكة الرحمة
340 أنتم

340	دعاء
341	شعر الرثاء
341	رثاء نافع العبوشي
341	كارثة نابلس
343	صاحب غمدان
345	ورد يفيض وهجرة تتدفق
346	رثاء الشيخ سعيد الكرمي
347	رثاء أبي المكارم
349	نسر الملوك
351	تعزية البيت الهاشمي
352	الملك حسين
352	رثاء أديب منصور
353	نشيد في رثاء غازي
354	نشيد بطل الريف
355	مرايع الخلود
358	أطلقني ذاك العيارا
360	قصائد غزلية
360	مناجاة وردة
361	اغفري لي
362	إليه
363	ذكرى
364	الغرام الأول
364	الحبيب الذاهل
365	عند شباكي
367	في المكتبة
368	معين الجمال
369	حملتني نحو الحمى أشجاني
372	حيرة
372	في دير قديس

397	373	خطرة في الهوى
374	374	فرحتي
376	376	هواك جبار
377	377	أعجب الهوى
378	378	أشربي
378	378	عاش كلانا بالمنى
379	379	ذكرى عشية زهراء
380	380	غادة إشبيلية
382	382	رمان كفر كنا
383	383	صورتها المكبرة
383	383	طير الصبا
384	384	إلى ذات السوار
384	384	إلى الممرضة الروسية
385	385	ناشدتك الإسلام
386	386	بعد عام
386	386	يوم الثلاثاء
387	387	بلا عنوان
389	389	المصادر والمراجع
391	391	الفهرس

ولد الشاعر ابراهيم طوقان في مدينة نابلس، ودرس فيها دراسته الأولى أثناء الحرب الكونية الأولى. ثم التحق بمدرسة المطران في القدس، حيث التقى بالاستاذ نخلة زريق، ثم انتقل إلى الجامعة الأميركية ببيروت، فتعرف على عدد من الأدباء والشعراء. وبقي فيها حتى نال شهادته الجامعية منها.

حلم ابراهيم بالصحافة، لكنه عمل بالتدريس، كما عمل مديراً للقسم العربي في الإذاعة اللاسلكية بالقدس، وقد قدم من خلالها أعمالاً أدبية كثيرة وأحاديث إذاعية رائعة، كان منها وفاء السمؤال.

تمتع ابراهيم بشاعرية فذة، انتشر شذاها في الوطن العربي بأكمله، لكن القدر استعجله، ولو أمهل هذه الشاعرية، لجادت لنا بالكثير الممتع والمعجب.

فاضت شاعريته بالوجدانيات، وأنشد قصائد شغلت شباب زمانه، وتميزت قصائده بالوطنيات المليئة بالعواطف وصدق الأحاسيس، كما جادت شاعريته بغزلياته الرقيقة ومراثيه المؤثرة بابتكار المعاني واختيار الأوزان والقوافي، دون أن يبكي أو يشكي.

شارك الشاعر في محطات كثيرة، وكان منها مشاركته المستشرق الدكتور لويس نيكل في نشر كتاب "الزهرة". كما كان مجدداً في موضوعاته وقصائده وأناشيده التي ردها الشعب وكان متابِعاً جيداً للأحداث، ويكفيك "الثلاثاء الحمراء". وقد حافظ في شعره على عمود الشعر القديم إلى جانب تجديده مع إشراقة الديباجة وإحكام النسيج دون تكلف أو إغراق أو تعقيد، وقد أحب الفكرة البسيطة التي تخرجها العاطفة الصادقة.



الأهلية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
بجانب مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ♦ منشوراتنا في العام ٢٠٠٧ م

e-mail: alahlia@nets.jo